السِّيرَة

واقِعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ!

السِّيرَة

واقِعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ!

أدهم شرقاوي

« قِس بن سَاعِدة»

دار كلمات للنشر والتوزيع

البريد الإلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalemat.com

ردمك: 978-9921-809-95-4

السِّيرَة

واقِعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ!

أدهم شرقاوي

«قِس بن سَاعِدة»

2026

kalemat

الإهداء!

إلى المرأةِ التي أَحَبَّتِ النَّبِيَّ ﷺ كما لَم يُحِبَّهُ أَحَدٌ، على كَثْرَةِ مُحِبِّيه!

إلى التي آمَنَتْ بهِ حينَ كَفَرَ بهِ النَّاس!

وصدَّقَتْه حينَ كَذَّبَهُ النَّاس!

وأعطَتْهُ حينَ حَرَمَهُ النَّاس!

إلى التي كانَتْ حَبيبَتَهُ وصَديقَتَه، وجهتَهُ الآمِنةَ!

إلى التي كانتْ كَتفَهُ، وعُكّازَهُ، وجَيشَهُ حينَ عَزَّ الجُنود!

إلى المرأةِ الَّتي لَم يَملأْ مَكانَها في قَلبِهِ أَحَد،

فَبَقِيَتْ بعدَ مَوتِها كما كانَتْ في حياتِها: تلكَ الفَريدةُ التي لا تَتَكرَّر.

إلى أُمِّي خَديجةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ، رَضِيَ اللّهُ عَنْها، أُهْدِي هذا الكتابَ!

نِيابَةً عن الأُمَّةِ، عِرفانًا بفضلِها، واعترافًا بِمكانَتِها!

المقدّمة:

الحمدُ للّهِ الذي بنِعمتِهِ تَتِمُّ الصَّالحاتُ، أحمَدُه سبحانهُ حمدًا يليقُ بجلالِهِ وكمالِهِ، وأستعينُه على طاعَتِهِ، وأستغفره من الزَّللِ والخطايا، وأشهدُ أن لا إلهَ إلّا اللّه وحدَهُ لا شريكَ لهُ؛ شهادةً تُنيرُ لنا الدَّربَ وتثبّتُ لنا القَدَم. وأشهدُ أنّ سيّدَنا محمّدًا عبدُهُ ورسولُهُ؛ أرسلهُ اللّهُ رحمةً للعالمين، فبلغَّ الرِّسالة وأدَّى الأمانة، ونصحَ الأمّةَ، وجاهدَ في اللّهِ حقَّ جهادِهِ حتى أتاهُ اليقينُ، فصلّى اللّهُ عليهِ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ عددَ ما تعاقبَ الليلُ والنّهارُ.

هذا كتابٌ عنوانُه: السِّيرةُ، واقعٌ يُعاشُ لا تاريخٌ يُقرَأُ!

قصدتُ فيهِ أن أقرّبَ السِّيرةَ من حياتِنا قُربَ النَّفَسِ من الجسدِ، فإنَّ سيرةَ النبيِّ ﷺ ليست ماضياً نتفرّجُ عليه؛ بل مستقبلًا نَعبُرُ إليه، ومنهجًا يصلُحُ لكلِّ عصرٍ ومَصرٍ وحال. وهو عملٌ لا يلغِي جهدَ من سبقَ ولا يدّعِي الإحاطةَ بما سيأتي؛ بل هو حلقةٌ في سلسلةِ الخَيّرِ الممتدّةِ منذُ كُتبتِ السِّيرةُ أوّلَ مرّةٍ في الصُّدورِ قبل السُّطورِ، وهو تمهيدٌ لِمَن سيكتبُ بعدي، ودعوةٌ لتتواصلَ الرِّحلةُ دون توقّف.

وقفتُ في صفحاتهِ عند محطاتِ حياتِهِ ﷺ منذُ لحظةِ الفجرِ الأوّلِ لِمولدِهِ المباركَ، حيثُ انقشعتْ أولى غيومِ الجاهليّةِ، وحتى لحظةِ انتقالِهِ إلى الرفيقِ الأعلى، حينَ بكت السَّماءُ والأرضُ

لفقدهِ. رافقتُ سيرتَهُ في مكّةَ طفلًا، ثم صادقًا أمينًا، ثم نبيًّا مُبلّغًا، وفي المدينةِ قائدًا وحاكمًا ومعلّمًا ومربّيًا.

وسِرتُ معهُ ﷺ في دعوتِه، حيث بَذَلَ الرُّوحَ قبلَ الجسدِ، وفي جهادِهِ حيثُ كانَ السّبيلُ محفوفًا بالمكارهِ، وفي صبرِهِ على الأذى حتّى ضاقتْ به الطُّرُقُ إلّا طريقَ اللّهِ، وفي هجرتِهِ الَّتي خَطَّتْ على رمالِ التّاريخِ بدايةَ أمّةٍ. كما عَرجتُ على غزواتِهِ ومواقفِهِ مع أوليائِهِ وأعدائِهِ، وعلى عدالتِهِ ورحمتِهِ وحكمتِهِ وتعاملِهِ مع النّاسِ كافّةً؛ فكانَ ﷺ قرآنًا يمشي على الأرضِ.

وفي كلِّ موقفٍ من مواقفِ حياتِهِ، اجتهدتُ أن أستنبطَ دروساً، وأن أستخلصَ عِبَراً، لأنَّ غايةَ هذا الكتابِ أن يربطَ القارئَ بالواقعِ أكثرَ مما يشغَلُهُ بتفاصيلِ الماضي، وأن يجعلَ السِّيرةَ منهجَ حياةٍ نحياهُ ونُجاهِدُ به أنفسَنا، لا مجرّد صفحاتٍ نطويها ثم نُهمِلُها.

وأدينُ بالشكرِ لِكلِّ مَن استفدتُ من علمِهِ وفهمِهِ وجهدِهِ، ممّن أفادني ولم يتّسع هذا الكتابُ لِذِكرِ أسمائِهِم، فالعلمُ ميراثُ الأنبياءِ، ولا يبلغُ أحدٌ فيه شيئًا إلّا بفضلِ اللّهِ ثم بميراثِ مَن سبقوه.

وأسألُ اللّهَ العظيمَ أن يجعلَ هذا العملَ خالصًا لوجهِهِ الكريم، وأن ينفعَ بهِ كاتِبَهُ وقارئَهُ، فما كان فيه من صوابٍ فمن فضلِ اللّهِ

وتوفيقِهِ، وما كان من خطأٍ أو تقصيرٍ فمن نفسي وضعفي، واللهُ غفورٌ رحيمٌ.

واللّه أسألُ أن يجعلَ لنا في سيرةِ نبيِّنا ﷺ زادًا لا يَنْقُصُ، وأن يجمعَنا بهِ عندَ الحوضِ، وتحتَ لِوائِهِ، وفي ظلِّ رحمةِ ربِّ العالمينَ.

والحمدُ للّهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسّلامُ على خاتمِ أنبيائه وسيِّدِ خلقِهِ محمّدٍ، وعلى آلهِ وصحبِهِ أجمعينَ!

البشريَّة قبل البعثة الشَّريفة!
كوكبٌ مثيرٌ للشَّفقة!

إنَّ أفظعَ مأساةٍ قرأتُ عنها يوماً هي تاريخُ هذه البشريَّةِ على ظهرِ هذا الكوكبِ!

ليلٌ دامسٌ طويلٌ كليلِ القُطبِ الشَّماليِّ الذي يستمرُّ أشهُراً، ثمَّ تأتي عليه الشَّمسُ بضعةَ أيَّام، ثمَّ ما يلبثُ أن يعودَ سيرتَه الأولى، أيَّامُ الشَّمسِ هذه هي فتراتُ النُّبوَّةِ التي كانت تُعيدُ وضعَ أقدامِ النَّاسِ على الطَّريقِ المؤدِّيةِ إلى الله، بعد أن ابتعدوا كثيراً!

أو كسِكِّيرٍ مخمورٍ على الدَّوام، لا يَصحو إلَّا قليلاً، لحظاتُ الصَّحوِ هذه كانت وقتَ الرِّسالاتِ السَّماويَّةِ التي كانت تُعيدُ ضبطَ الإنسانِ، بعد أن فَقَدَ بوصْلتَهُ، وتاهتْ خُطاهُ!

مئةٌ وأربعةٌ وعشرونَ ألفَ نبيٍّ أرسلهمُ الله تعالى، هذا العددُ المَهولُ يُريكَ مدى رحمةِ اللهِ بالنَّاسِ، ويُريكَ أيضاً مدى ظلمِ النَّاسِ لأنفُسِهم!

مئةٌ وأربعةٌ وعشرونَ ألفَ مرَّةٍ تاهتِ الخُطى فاحتاجتْ إلى تصحيحٍ!

فإن قيل: أَلَمْ تَقُمْ للبشريَّةِ حضاراتٌ؟!

أَلَمْ تكن هناك إمبراطوريَّاتٌ، ودُوَلٌ، ومُدُنٌ، وحكوماتٌ؟!

ألم تكن هناك مُخترعاتٌ، وصناعاتٌ، وزراعةٌ، وتجارةٌ؟!

ألم تكن هناك معارفٌ، وآدابٌ، وفلسفاتٌ، وأشعارٌ؟!

فالجوابُ: بلى، قد كان كلُّ هذا!

ولكنَّ السُّؤالَ الذي يطرحُ نفسه: كيف كان الإنسانُ؟ وكيف كانت علاقتُهُ مع اللّهِ؟!

بأيِّ ثمنٍ قامتْ هذه الإمبراطوريَّاتُ؟ وبأيِّ قانونٍ حكمتْ، وأيُّ لواءٍ حملتْ؟!

فيمَ استُخدِمتِ المُخترعاتُ؟ ولأيِّ غرضٍ كانت الصِّناعاتُ؟!

مِن أيِّ قِيَمٍ انبثقتِ المعارفُ والآدابُ؟ وأيُّ قيمٍ حملتْها الفلسفاتُ والأشعارُ؟!

الأهراماتُ يا لها من صُروحٍ عظيمةٍ، بناها مئاتُ آلافِ العبيدِ تحتَ جَلْدِ السِّياطِ!

وقد وُجِدَ فيها حِكَمٌ، وأشعارٌ، وتجاربُ مكتوبةٌ بخطٍّ أنيقٍ على ورقِ البرديِّ، في عهدِ فراعنةٍ كان الواحدُ منهم يتزوَّجُ أختَهُ، حفاظاً على نقاوةِ الدَّم الملكيِّ المقدَّسِ!

نصفُ إنسانٍ، ونصفُ إلهٍ، هكذا كان الفرعونُ يرى نفسَهُ، وهكذا كان يراهُ النَّاسُ!

واحدٌ من هؤلاءِ الفراعنةِ، رأى ذاتَ ليلةٍ في منامِهِ ناراً تجتاحُ قصرَهُ، فأوَّلها المعبِّرون بغلام يولدُ في بني إسرائيلَ يكونُ زوالُ ملكِهِ على يديه! فقام بذبحِ كلِّ مولودٍ ذكرٍ يُولدُ فيهم، على مدى عشرينَ عاماً كان ذبحُ الأطفالِ جارياً على قدم وساق، ثمَّ جاءه قومُهُ يستشفعونَهُ برحمتِهِ وعدلِهِ. ثمَّةَ معضلةٌ اقتصاديَّةٌ: من أين يحصلونَ على الأيدي العاملةِ إذا استمرَّ بذبحِ هؤلاء العبيدِ، الذين

لـم يكونـوا كذلـك، ولكنَّهـم اسـتعبدوهم بعـد أن عـادوا إلـى شـركِهم الـذي توقَّفـوا عنـه زمـنَ يوسـفَ عليه السلام!

لـم يتـردَّد فرعـونُ فـي إظهـارِ رحمتِـهِ وعدلِـهِ! قـال لهـم: اذبحـوا أطفـالَ بنـي إسـرائيلَ عامـاً، وذَرُوهُـم عامـاً!

هذه صفحةٌ واحدةٌ مِن كتابٍ كبيرٍ يسمُّونَهُ حضارةَ الفراعنةِ!

فـي بـلادِ مـا بيـن النَّهريـن قامـتْ ممالـكُ تُوصَـفُ بأنَّهـا كانـت عظيمـةً، حكَمَهـا ملوكٌ أشـدَّاءُ، وكان فيهـا قوانيـنُ وشـرائعُ، ويُقـالُ إنَّ أوَّلَ حـرفٍ خُـطَّ فـي تاريـخِ البشـريَّةِ كان هنـاك، خطُّـوه بالمسـاميرِ علـى ألـواحِ الطِّيـنِ!

مشهدٌ مهيبٌ، أليس كذلك؟!

بلى، ولكنَّه قِشرةٌ جميلةٌ لِحَبَّةِ فاكهةٍ يأكلُها العفنُ من الدَّاخلِ!

جاء إبراهيـمُ عليه السلام إلـى النُّمـرود، أحـدِ ملـوكِ تلـك البـلادِ، يدعـوهُ إلـى اللّهِ تعالـى، وجعـل يُعـدِّدُ عليـه صفـاتِ الخالـقِ القديـرِ، الواحـدِ الأحـدِ، الجديـرِ وحـدَهُ بالعبوديَّـةِ، وأنَّـهُ الـذي يُحيـي ويميـتُ!

أخـذتِ النَّمـرودَ العـزَّةُ بالإثـم، كان النَّـاسُ يعبدونَـهُ، فـأراد أن يُظهرَ قدراتِـه، أخبـرَ إبراهيـمَ عليه السلام أنَّـهُ أيضـاً يُحيـي ويُميـتُ، فأحضـر سـجينَيْنِ محكومَيْـنِ بالإعـدام: قتَـلَ واحـداً، وعفـا عـن الآخـرِ، وقـال لإبراهيـمَ عليه السلام: أنـا أيضـاً أحيـي وأميـتُ!

يا لِضحالةِ الفكرِ، ومرضِ المنطقِ!

فأخبـرهُ إبراهيـمُ عليه السلام أنَّ اللّه يأتـي بالشَّـمسِ مِـن المشـرقِ فَـأْتِ بهـا مِـن المغـربِ إن كنـتَ صادقـاً! فَبُهِـتَ الـذي كَفَـرَ!

فـلا النُّمـرود تراجـعَ، ولا النَّـاسُ عزفـوا عـن توليفـةِ الشِّـركِ العجيبـةِ التـي كانـوا عليهـا، عبـادةُ النُّمـرود ومعـهُ الأصنـامُ، كانـوا مشـركين فـي شـركِهم، لا هـم عبـدوا النُّمـرود وحـده، ولا هـم عبـدوا الأصنـامَ وحدهـا!

والـذي أرسـلَهُ اللّٰه تعالـى إليهـم ليهديَهـم سـواءَ السَّـبيلِ، ألقَـوْهُ فـي النَّـارِ!

أيَصِـحُّ بعـد هـذا أن نقـولَ: انُظُـروا إلـى المُلـكِ الـذي أقامـوهُ، والحـرفِ الـذي كتبُـوهُ؟!

أم أنَّـه لا يصـحُّ مـع هـذا كلِّـهِ إلَّا الأسـى علـى الـذي كان عليـه النَّـاسُ؟

فـي رُومـا المدينـةِ الدَّولـةِ، وإن شـئتَ فَقُـل: واحـدةٌ مِـن أعظـمِ الإمبراطوريَّـاتِ فـي تاريـخِ البشـريَّةِ!

تماثيـلُ منحوتـةٌ بإتقـانٍ، وطُـرُقٌ مرصوفـةٌ ببهـاءٍ، وأبنيـةٌ مُشـيَّدةٌ بأناقـةٍ، ورخـامٌ سـاحرٌ أنَّـى ولَّيـتَ وجهَـكَ!

فلاسـفةٌ وسِـجالاتٌ فكريَّـةٌ، أشـعارٌ وموسـيقى، وأباطـرةٌ وسَّـعُوا حدودَهـم حتَّـى غـدت أكبـرَ مِـن قدرتِهـم علـى بلـوغِ آخرِهـا!

وكان هناك أيضاً برلمانٌ، ومجلسُ شعبٍ منتخبٌ!

كلُّ شـيءٍ مـن الخـارجِ كان أنيقـاً، ولكنَّـكَ إذا غُصـتَ فـي أعماقِهـا، بـدت لـك كُتفَّاحـةٍ شـهيَّةٍ نخـرتِ الـدودةُ أحشـاءَهـا فـلا تصلـحُ إلَّا للفُرجـةِ!

حضارةٌ مِن رُخام لامعٍ قامتْ على أشلاءِ المُضطهدين، وزينةٌ برَّاقةٌ ظاهرُها المجدُ وباطنُها القسوةُ والعارُ!

بريقٌ زائفٌ يُخفي وراءَهُ ليلًا مِن الاستبدادِ الطويلِ، وصرحٌ مُشيَّدٌ لكنَّه قائمٌ على الدِّماءِ والدُّموعِ!

كان المُجتمعُ الرُّومانيُّ صرحاً للظُّلمِ الصَّارخِ، تُساقُ فيه الأرواحُ كما تُساقُ الأنعامُ إلى حدِّ السِّكينِ! وتُزهقُ فيه النُّفوسُ على مذابحِ الشُّهرةِ والدِّماءِ!

هناك في ساحاتِ المُجالدةِ، حيث الجميعُ يهتفُ كالرَّعدِ، يُلقى بالعبيدِ والأسرى في صراعٍ لا رحمةَ فيه، صراعٌ بين إنسانٍ أعزلَ ووحشٍ كاسرٍ، أو بين جسدَيْنِ بشريَّيْنِ يتناحرانِ حتَّى يسيلَ الدَّمُ أنهاراً، فَتتصاعدُ صيحاتُ الفرحِ مِن أفواهٍ اعتادتْ التلذُّذَ بمشهدِ الموتِ!

لقد غدا الإنسانُ عندهم ألعوبةً لِلَهوٍ عابرٍ، ولقمةً سائغةً لمخالبِ السِّباعِ، لا قيمةَ لكرامتِه، ولا اعتبارَ لإنسانيَّتِهِ!

وفي ظلِّ هذا الطغيانِ الأرضيِّ، كانتِ السَّماءُ عندهم محجوبةً بالأصنامِ والأوثانِ، يعبدونَ حجارةً صاغوها بأيديهم، فيُقرِّبون لها القرابينَ الحيَّةَ، إلى آلهةٍ لا تُجيبُ دعاءً ولا تدفعُ بلاءً!

فاجتمع عليهم ظلامانِ: ظلامُ الاستعبادِ في الأرضِ، وظلامُ الضلالِ في الإيمانِ، فلا عدلَ يردعُ الجبابرةَ، ولا نورَ يهدي الحَيارى!

أمَّا بلادُ فارسٍ فلم تكن بِدعاً بين البلادِ القديمةِ، كانت على شاكلتِها في جوهرِها، وإن تمايَزتْ عنها في الشَّكلِ تمايزاً لا يُسمِنُ ولا يُغني من جوع!

تسلَّطَ الأكاسرةُ على النَّاسِ تسلُّطَ السَّيفِ على الرِّقابِ، وجعلوا النَّاسَ درجاتٍ، منهم السَّادةُ الذين يملكونَ مصائرَ الخلقِ، ومنهم العبيدُ الذين قَتلُ الآلافِ منهم كقتلِ الواحدِ!

وفي ظلِّ هذا الظُّلم، أُهينَت إنسانيَّةُ الإنسانِ، فاستُعبِدت المرأةُ حتَّى غدتْ متاعاً يُورَّثُ، وزُوِّجت بغيرِ إرادتِها كما تُزوَّجُ البهائمُ لأجلِ النَّسلِ، وبِيع العبيدُ في الأسواقِ كالسِّلعِ، وأُلقيَ بالضُّعفاءِ في خدمةِ الثَّرواتِ والأهواءِ!

أمَّا دينُهم فقد كان عبادةً للنَّارِ! عقيدةٌ انعقدتْ على لهبٍ لا يُنيرُ طريقاً ولا يهدي قلباً!

أشعلوا النِّيرانَ في المعابدِ، وسجدوا لها سجودَ الخاشعينَ، وطافوا حولها طوافَ المُخلِصينَ!

تلك باختصارٍ كانت بلادُ فارسٍ: قصورٌ عاليةٌ تلمعُ بالذَّهبِ، لكنَّ جدرانَها مُشيَّدةٌ على جراحِ المظلومينَ! حضارةٌ ظاهرُها البذخُ والعَظمةُ، وباطنُها سوادٌ مِن الطغيانِ والضلالِ!

فإن كانت هذه هي حالُ أعظمِ الممالكِ والإمبراطوريَّاتِ في تاريخِ البشريَّةِ، فكيف كان حالُ غيرِهم؟!

وإن كانت هذه البلادُ التي أثرتْ تاريخَ البشريَّةِ بعلومِها وفنونِها وفلسفتِها وتشريعاتِها، فكيف كانت تلك الأممُ التي عاشت على هامشِ الحضارةِ!

مأساةُ تاريخِ البشرِ على هذه الأرضِ، يُلخِّصُهُ لك حديثُ النَّبيِّ ﷺ في صحيح مسلم: «إنَّ اللّه نظرَ إلى أهلِ الأرضِ فمَقَتَهُم، عربَهُم وعَجَمَهُم، إلَّا بقايا مِن أهلِ الكتابِ»!

أمَّا عن العربِ في الجاهليَّةِ، فيا لَبُؤسِ العربِ!

كانتِ الجاهليَّةُ بحراً متلاطماً من الظُّلمِ والضلالِ، تغرقُ فيه القلوبُ كما تغرقُ السَّفينةُ في بحرٍ هائجٍ!

حياتُهم موحِشةٌ كصحرائِهِم، لا ظلَّ فيها لعدلٍ، ولا ماءَ فيها لرحمةٍ، القويُّ يفتكُ بالضَّعيفِ، والغنيُّ يزدري الفقيرَ، والنَّاسُ مقاماتٌ، والعبدُ يُباعُ كالمتاعِ، ويُورَّثُ كما تُورَّثُ الإبلُ!

عبدوا الأصنامَ، وحَنَوا لها الرؤوسَ، وقدَّموا لها القرابينَ، بل إنَّ بعضهم كان يصنعُها مِن تمرٍ، يعبدُها ثمَّ إذا جاع أكلها!

أمَّا المرأةُ فقد كانت أشدَّ الخلقِ بؤساً، تُورثُ كما يورثُ المالُ، وتُهانُ كما يُهانُ العبيدُ، بل كان بعضُهم يَئِدُها وهي طفلةٌ، فتُدفنُ في التُّرابِ خشيةَ العارِ، وما العارُ إلَّا الغزوُ الذي جرَّهُ بعضُهم على بعضٍ!

وكانت العصبيَّةُ الجاهليَّةُ ناراً تأكلُ القلوبَ، فالثأرُ عندهم دمٌ لا ينطفئُ، تُزهقُ لأجلِهِ الأرواحُ جيلاً بعد جيلٍ، ولربَّما بدأ الثأرُ على سباقِ نوقٍ، فأشعلَ حرباً دارتْ رحاها أربعينَ عاماً، فطحنتِ الأخضرَ واليابسَ!

نعم، كان في القومِ بعضُ أخلاقٍ حسنةٍ، هي بقيةُ الفطرةِ، والجذوةُ الأخيرةُ المشتعلةُ من قبسِ النبوَّاتِ، ولكنَّ المحصِّلةَ أنَّها كانت جاهلةً عمياءَ!

وما أشبهَ اليومَ بالبارحةِ، وما هذه ببعيدة عن تلك!

فـي العالـمِ اليـومَ دُوَلٌ وحضـاراتٌ، تقـدُّمٌ علمـيٌّ ومُخترعـاتٌ، صعـدتِ البشـريَّةُ ظهـرَ القمـرِ، ولكـن فـي الأرضِ مـا زالـتِ الدِّمـاءُ تُسفكُ، والأرواحُ تُزهقُ، والحـروبُ مشـتعلةٌ لأجلِ النَّفطِ والنُّفوذِ، ولا يهمُّ ما هـو الثَّمـنُ، أو مَـن هـو الثَّمـنُ!

نحـن نعيـشُ اليـومَ صـورةً طبـق الأصـلِ عمَّـا عاشـه النَّـاسُ فـي ظلِّ الممالكِ والإمبراطوريَّاتِ، ثمَّةَ بهرجٌ برَّاقٌ لا أحدَ يُنكرُه، ولكنَّ العفنَ في الدَّاخلِ!

حيـن كانـتْ تَتُوهُ خطـواتُ البشـرِ كانـت النُّبـوَّةُ تُعيدُهـا إلـى رشـدِها، أمَّـا الآن فقـد خُتِمـتِ الرِّسـالاتُ برسـالةٍ كفيلـةٍ أن تُصلـحَ خُطـى البشـرِ كلَّمـا طاشـتْ، ولأنَّـه لا يمكـنُ انتظـارُ رسـولٍ جديـدٍ، فمـن البديهـيِّ أن نتفرَّسَ فـي الرِّسـالةِ، وأن نُلـزمَ بها النَّـاسَ، إلـزامَ المُشـفِقِ عليهم، الـذي يريدُ الخيـرَ لهـم، لا إلـزامَ الـذي جاء ليسـتعليَ عليهـم بالحـقِّ الـذي عنـده!

إنَّ سـيرةَ النَّبـيِّ ﷺ ليسـت حـوادثَ ميتـةً، ولا تاريخـاً جامـداً، إنَّهـا أسـلوبُ حيـاةٍ، ودسـتورُ أُمَّـةٍ، وقانـونُ عمـلٍ، نحتـاجُ أن نقرأهـا بعيـونِ هـذا العصـرِ، ونُنَزِّلَهـا علـى الأحـداثِ والمواقـفِ، فاللهـمَّ بِـكَ أصُـولُ، وبِـكَ أجـولُ، وبِـكَ أُحـاولُ!

قبلَ أنْ تبدأَ الحكايةُ!
من الميلادِ إلى البعثة

نبيٌّ بعد نبيٍّ كانوا يُبشِّرون بمجيئه، وبتعاقب النُّبوَّات تعاقبتِ البِشارات، وبمرور السَّنوات الطِّوال أخذت الهُوَّة بين البشارة وتحقُّقِها تضيق، كلَّما تقدَّمنا في الزَّمن صِرنا أقرب، إلى أن حطَّتِ النُّبوَّةُ رِحالها عند عيسى ابن مريم عليه السلام، كان الحلقة ما قبل الأخيرة في سلسلة المرسلين، هذه الصَّفوة المصطفاة التي أنارتْ ظُلمات القلوب بإذن ربِّها لقرونٍ طوالٍ، آن أن يكون لها ختام، القافلة التي بدأت سيرها ببعثة آدم عليه السلام، صارت الآن قاب قوسين أو أدنى من بلوغ وجهتها الأخيرة، لهذا لم تعد البشارة فضفاضة كما كانت من قبل، ولا حظَّ للكِناية بعد الآن!

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾!

هكذا يُذكر الاسم صريحاً، ما عاد في الزَّمن متَّسع، هذا زمان نبيٍّ قَد أزِفَ، هَكذا قال قسُّ بن ساعدة للعرب يوم خطب بهم في سوق عكاظ، كان النَّبيُّ ﷺ شاهداً يومها، ولم يكن قد تجاوز الثَّانية عشرة من عمره، ولم يخطر على باله ولو للحظة أنَّه سيكون الحكاية كلَّها!

كان من الممكن أن أبدأ في السِّيرة الشَّريفة من لحظة نزول الوحي، هذا أنَّ أعمار الرِّجال الحقيقيَّة لا تبدأ من لحظة الميلاد، وإنَّما من اللَّحظة التي يبدؤون فيها بترك بصمتهم على هذا الكوكب! غير أنَّ أربعين عاماً طوالاً، هي الفاصلة بين ميلاد الشَّخص وميلاد الرِّسالة، كانت زاخرةً بالأحداث المتعلِّقة بما سيأتي!

ثمَّة مواقف في سيرة النَّبيِّ ﷺ قبل البعثة الشَّريفة لا يمكن ولا بأيِّ حالٍ من الأحوال القفزُ عنها!

نعم بدأ الوحيُ بلحظة، ولكنَّ هذه اللحظة كان لها ما قبلها، كان يُعَدُّ بإتقانٍ ليصيرَ هذا العظيم الذي كان، كان يُهيَّأ بطريقة مذهلة، لا يقدر عليها إلَّا ربٌّ عليمٌ، ليُغيِّر هذا الكوكب إلى الأبد!

أ. الميلاد: السَّطرُ الأوَّلُ من الحكاية!

يمرُّ الزَّمان بالمكان على تقدير أراده اللّٰه تعالى، فتولد الأحداث العِظام التي لا تعود الدُّنيا بعدها كما كانت قبلها!

أمَّا المكان: شِعْبُ أبي طالب في مكَّة.

وأمَّا الزَّمان: يومُ الإثنين، التَّاسع من شهر ربيع الأول، عام الفيل!

عامُ الفيلِ صفحةٌ فريدةٌ في دفترِ التَّاريخ؛ عامٌ تلاقى فيه كبرياءُ الطغيانِ مع قداسةِ المكانِ، فكان أنِ انتصرتْ قداسةُ البيتِ على صَلَفِ القوَّةِ!

خرجَ أبرهةُ الحَبَشيُّ من اليمنِ يحملُ مشروعًا مُتغطرِّسًا: أن يُحوِّلَ وِجهةَ القلوبِ عن مكَّةَ إلى كنيسةٍ بناها في صنعاءَ، فجهَّزَ جيشًا جرّارًا يتقدَّمُه فيلٌ عظيمٌ، ومضى حتّى بلغَ مشارفَ مكّةَ. هنا تتجلّى لحظةُ الإيمانِ الكبرى؛ فلم يكنْ في يدِ العربِ يومَها سيفٌ يصدُّ الجيوشَ، لكنْ كان في قلوبِهم يقينٌ بأنَّ للكعبةِ ربًّا يحميها. قال عبدُ المُطَّلبِ لأبرهةَ كلماتٍ صارتْ مثلًا في التَّاريخِ: «إنَّ للبيتِ ربًّا سيحميهِ»، ثم انصرفَ مُطمئنًّا وأسلمَ الأمرَ لصاحبِ البيتِ.

وعند حدودِ الحرمِ وقفتِ القوَّةُ العمياءُ عاجزةً؛ أَبَى الفيلُ أن يتقدَّم نحو الكعبةِ، فإذا وُجِّه بعيدًا عنها مشى، وإذا وُجِّه إليها بركَ في الأرضِ! ثم كانتِ الضربةُ السَّماويَّةُ التي خَلَّدها القرآنُ: إرسالُ طيرٍ أبابيلَ تحملُ حِجارَةً صغيرةً تُهلكُ بها الجيشَ، فينهارُ مشروعُ الاستكبارِ عند أبوابِ مكّةَ، ويَبقى البيتُ آمنًا كما أرادَ اللّه.

كان عامُ الفيلِ إعلانًا صارخًا أنَّ للأماكنِ المُقدَّسةِ حُرمةً يحرسُها القَدَرُ، وأنَّ القوَّةَ ليستْ في عددِ الجنودِ ولا ضخامةِ الفيلِ، بل في الحقِّ الذي يصمدُ حين تسقطُ كلُّ مظاهرِ القوَّةِ. هكذا زالَ أبرهةُ خائبًا، وبقيتْ مكّةُ شامخةً، تُمهِّدُ لِميلادٍ عظيمٍ سيغيِّرُ وجهَ التَّاريخِ كُلَّه.

يومُ الإثنين، التَّاسع من شهر ربيع الأول، عام الفيل!

هكذا تقول أرجحُ الرِّوايات، على اتفاقٍ بينها على المكان، واختلافٍ على الزَّمان!

ولكن كُلُّ هذا لا يهمّ، إنَّ تتبُّعَ الحدث أهمُّ بكثيرٍ من تتبُّعِ تاريخ حدوثه! والعبرة كثيراً ما تكون في الواقعة، ونادراً ما تكون في التَّوقيت!

سيِّدُ النَّاس ﷺ حلَّ ضيفاً على كوكبٍ قُدِّر له أن يعيد تشكيله! هذا هو الحدث، أمَّا ما تبقَّى فهوامش لا تستحقُّ أن يُخاض فيها السِّجالات، وتنتفخُ لأجلها الأوداج، والعاقل من يشغله لُبُّ الثَّمرةِ عن قشرتها!

قبل هذه اللَّحظة التي بدأت فيها الحكاية بأشهر، خرج عبد الله بن عبد المطَّلب في رحلةِ الصَّيف تاجراً إلى الشَّام، تاركاً خلفه زوجته آمنة بنت وهبٍ في أشهر حملها الأولى، وفي طريق عودته من الشَّام مرِض ومات!

اقتضت حكمة الله تعالى أن يولد يتيماً، ذلك الطِّفل الذي سيكون على عاتِقَيْه غداً، تربية آباء هذا الكوكب وأمهاته!

وفي مَكَّة كانت آمنة بنت وهب تعدُّ الأيام لتستقبلَ عزاءً ينمو في أحشائها، علَّها تتسلَّى به عن فقدِ زوج وحبيبٍ!

لا شيءَ خارقٌ كما ترى! أحداثٌ عاديَّةٌ حدثتْ من قَبل، ومن بعد، وما زالت تحدُث، وستبقى تحدث، وهنا تكمن المعجزة!

لا يُقلِّل من مقام النَبيِّ ﷺ أن يولد ولادةً طبيعيَّةً لم تصحبها كراماتٍ ومعجزات!

روى البيهقيُّ أنَّ إرهاصاتٍ بالبِعثة وقعت يوم ميلاد النَّبيِّ ﷺ:

فسقطتْ أربع عشرة شُرفة من إيوان كسرى، وخمدت النَّار التي يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضتْ!

ولستُ من أصحاب تقديم العقل على الرِّواية، فما صحَّ يقيناً تلقَّيناه بالقَبول والتَّسليم، ولكن ما كان فيه كلامٌ عند أصل الصَّنعة فيُعمل فيه العقل!

سيرة النَّبيِّ ﷺ دعوةٌ إلى تحرير العقل من القوالب الجاهزة، والأحكام المسبقة، وهل كانت البِعثة كلُّها إلَّا لهدمِ السَّائد الظالم من الجاهلية والعادات والتَّقاليد؟!

نعم سقط إيوان كسرى ولكن بيد جحافل الفاتحين الذين رَبَّاهم النَّبيُّ ﷺ، وهو يُعلِّمنا أنَّ تغيير العالم يحتاج إلى عملٍ وسعيٍ!

وانطفأتْ نارُ المجوسِ بعد ألف عامٍ من إيقادها، ولكن بدماء شهداء المسلمين في القادسيَّة، الذين حملوا لواء الجهاد الذي عقده النَّبيُّ ﷺ يوم بدر، وهو يُعلِّمُنا سُنَّة التَّدافع، وأن البلاد تفتح بالدِّماء لا بالكرامات!

إنّ أجمل ما في هذا الدِّين هو واقعيَّته، وقابليته للتَّطبيق في حياة النَّاس العمليَّة، وقدرته على رفعهم فوق مصافي الأمم إن هم التزموا هديه! فلا تقتلوا أجمل ما في هذا الدِّين!

ب. عند حليمة في ديارِ بني سَعد!

كان من عادة أهل الحَضَر من العربِ، أن يدفعوا بأولادهم إلى المُرضعات الآتِياتِ من البادية، حتَّى يشبُّوا صِحَاح الأجسام، فصاح الألسنة! وهذه من أجمل عادات العرب في الجاهليَّة، يشتدُّ أحدهم على قلبه، ويغالبُ الحنينَ لابنه وهو لم يشبع منه بعد، لا لشيءٍ غير أن هذا في مصلحته، كانوا يُربُّون أولادهم للدُّنيا لا لأنفسهم!

عرفَ العربُ باكراً كيف يضعون شيئاً من عقولهم على قلوبهم لتشتدَّ!

وقَلَّما فرَّطَ أحدٌ من أهل الحَضَرِ بهذه العادة، ومن فرَّط ما لبثَ أن نَدِمُ!

كان عبد الملك بن مروان يقول: أضرّ بالوليدِ حُبُّنا له!

فمن شدَّةِ تعلُّقِه به، لم يرسله إلى البادية، ولم يستودعه عند مرضعات العرب في الصَّحراء، فنشأ الوليد لا فصاحة له، وكان كثير اللَّحنِ!

أنجِبُوا للدُّنيا لا لأنفسكم، وأَحِبُّوا ولا تتملَّكُوا!

وكان من عادة المُرضِعَات أن يتخيَّرنَ الرُّضَّع، فيبْحَثْنَ عن أبناء الأثرياء طمعاً بالمَكْرُمات! وقد عزفت مُرضعات بني سعدٍ جميعُهُنَّ عن النَّبيِّ ﷺ، ما ترجوه مرضعةٌ من يتيمٍ لا أب له ليُكرمها!

وقد عثرتْ كُلُّ مرضعةٍ على غايتِها إلَّا حليمة، فقرَّرتْ أن تأخذَ النَّبيَّ ﷺ كيلا ترجع خاوية اليدين، لتكتشف لاحقاً أنَّها كانت الأكثر ثراءً به، حلَّت البركة في بيت حليمة يومَ حلَّ عندها!

ولنستمع إلى قصَّة حليمة من حليمة نفسها، لا أحد أبلغ من المرء في رواية حكايته!

تقولُ حليمة كما في سيرة ابن هشام: قدِمنا مكَّةَ نلتمسُ الرُّضعاء، فما منَّا من امرأةٍ إلَّا وعُرِض عليها رسول اللّٰه ﷺ، فتأباه إذا قيل لها: إنَّه يتيمٌ!

وذلك أنَّا كُنَّا نرجو المعروف من أبي الصَّبِيِّ، فَكُنَّا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنعَ أمُّه وجدُّه؟!

فَكُنَّا نَكرهُهُ لذلك، فما بقيت امرأةٌ قدِمتْ معي إلَّا أخذت رضيعاً غيري، فلمَّا أجمعنا الانطلاق قلتُ لزوجي: واللّٰهِ إنِّي لأكره أن أرجعَ من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، واللّٰهِ لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه.

فقال: لا عليكِ أن تفعلي، عسى اللّٰه أن يجعلَ لنا فيه بركةً!

فذهبتُ إليه، فأخذتُه، وما حملَنِي على أخذه إلَّا أنِّي لم أجد غيره!

فلمَّا أخذتُه رجعتُ به إلى رِحلي، فلمَّا وضعتُه في حِجري أقبلَ عليه ثدْيَايَ بما شاء من لبن، فشرِبَ حتَّى روِيَ، وشربَ معه أخوه حتَّى روِيَ، ثمَّ ناما، وما كُنَّا ننامُ معه قبل ذلك.

وقام زوجي إلى ناقتنا تلك، فإذا هي حافلٌ، فحلبَ منها ما شربَ وشربتُ معه حتَّى انتهينا رِيّاً وشبعاً، فبِتْنا بخير ليلة!

فقال لي زوجي حين أصبحنا: تعلَمي واللّه يا حليمة، لقد أخذتِ نَسمةً مباركة!

فقلتُ: واللّه إنِّي لأرجو ذلك.

ثمَّ خرجنا، وركبتُ أنا أَتَانِي، وحملتُه عليها معي، فواللّهِ لقطعتُ بالرَّكبِ ما لا يقدرُ عليه شيءٌ من حميرهم، حتَّى إنَّ صواحبي ليقُلنَ لي: يا ابنة أبي ذُؤيب، ويحكِ! اربعي علينا، أليستْ هذه أَتانُكِ التي خرجتِ عليها؟

فأقولُ لهُنّ: بلى واللّهِ، إنَّها لهيَ هيَ!

فيقُلنَ: واللّهِ إنَّ لها شأناً!

ثُمَّ قدمنا منازلنا في بلاد بني سعدٍ وما أعلم أرضاً من أرضِ اللّهِ أجدبَ منها! فكانت غنمي تروحُ عليَّ حين قدِمنا به معنا شباعاً لُبَناً، فنحلِبُ ونشربُ، وما يحلبُ إنسانٌ قطرةَ لبنٍ، ولا يجدها في ضرعٍ، حتَّى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذُؤيب، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبضُّ بقطرة لبن!

فلم نَزَل نتعرَّف من اللّه الزيادة والخير حتَّى مضتْ سَنَتاه، وفَصَلْتُه، وكان يشبُّ شباباً لا يُشبه الغلمان، فقدمنا به على أُمِّه ونحن أحرص على مُكثه فينا، لِما كنَّا نرى من بركته، فَكَلَّمنا أمَّه، وقلتُ لها: لو تركتِ ابني عندي حتَّى يغلظ، فإنِّي أخشى عليه وباءَ مَكَّة!

فلم نَزَلْ بها حتَّى ردَّتْهُ معنا!

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ لا تاريخ، قِفْ هُنيهةً مع حادثة النَّبيِّ ﷺ في ديار بني سعد:

1. فإن لم يعرفِ النَّاسُ قدرك، أو يُنزلوكَ منزلتكَ فلا تبتئس، ها هو النَّبيُّ ﷺ قد زهدت به المرضعات، كلُّ واحدةٍ منهنَّ تريدُ غير يتيم، النَّاسُ تنظرُ دوماً إلى الأمور بمعايير الدُّنيا!

2. عجيبٌ جداً قول حليمة: بِتْنا بخير ليلة! قَومٌ أهلُ جاهلية، ومع هذا يستشعرون النِّعم، وما أصابهم منها غير أن جرى ثديَاها فأرضعت ولداها فناما، وحلبت شاتها فشربتْ وشبعتْ هي وزوجها!

أليس حريّاً بنا نحن أهل الإسلام أن نكون أكثر استشعاراً لنعم اللّٰه تعالى علينا؟!

نحن واللّٰهِ لا ينقصنا المزيد من النِّعم، وإنمَّا المزيد من شكر النِّعم التي بين أيدينا، ولكن للأسف إنَّ مصائبَنا أننا نشيحُ النَّظر عمَّا نملك وننظرُ إلى ما لا نملك فلا نعود نرى النِّعمة نعمة!

3. عجيبٌ أيضاً قول زوج حليمة لها، لقد أخذتِ نَسمةً مباركة!

العارفون باللّٰهِ لا يسألونه المزيد من الرِّزق، فقد فرغَ من قسمته، وكتب مقداره، وهو آتٍ بلا زيادة ولا نقصان! ولكنَّهم يسألونه البركة فيما رزقهم، فإنَّ البركة إذا وُضعت في شيءٍ كفى ووفى ولو كان قليلاً، وإذا نُزِعت من شيءٍ ما كفى ولا وفى ولا أشبع ولو كان كثيراً!

4. نبيٌّ مبارك، حيثما حلَّ حلَّت البركة! جرى ثديا حليمة باللَّبن لأجله، وحلَّ النَّشاط بالأتان لأنَّه ركبها وهو في حجر حليمة، وامتلأت ضروع شِياه حليمة حين أقام في بيتها!

وكلَّما كان العبد قريباً من النَّبيِّ ﷺ اتِّباعاً وامتثالاً وعبادةً كلَّما حلَّ فيه من البركة بمقدار قربه!

5. قدمنا به على أمِّه ونحن أحرص على مكثه فينا!

أخذته أوَّل مرَّة فقط كي لا ترجع صفر اليدين، وها هي بعد عامين لا تُطيق فراقه! عجيبٌ عالم القلوب والأرواح، واللّٰهِ عجيب. في هذه الدُّنيا يلتقي الغريبُ بالغريبِ ثمَّ ما يلبث أن يصبح أحدها للآخر عالماً ووطناً، فاللهُمّ ارزقنا رِفقة الصَّالحين، وحُبّ الصَّالحين، وزواج الصَّالحين!

6. فلم نزل بها حتَّى ردَّته معنا!

مرَّة أخرى تُثبتُ آمنة بنت وهبٍ كيف أنَّ العربَ كان يُربُّون أولادهم للحياة لا لأنفسهم! على شوقها له، وقد كانت تعدُّ اللَّيالي طوال عامين حتَّى يصير في حِجرها، ولكنَّها قبِلت فراقه بعد أن خوَّفتها حليمة عليه من وباء مكَّة!

على المرء أن يُرخي يده قليلاً، إمساك الأولاد بقوَّة كإمساك العصافير قد يخنقها!

والحماية الزائدة قلَّما تنتج جيلاً قادراً على التَّغيير، هذه الحياة مُعترك، فأعدُّوهم للحياة!

وفي ديار بني سعدٍ، وقعت حادثةٌ عجيبة، كانت سبباً في إعادة حليمة النَّبيَّ ﷺ إلى أمِّه إعادةً نهائيَّة، لم يحدث بعدها لقاء إلى أن جاءته في المدينة معلنةً إسلامها، ويا لروعة الأقدار!

روى مسلمٌ في صحيحه، من حديث أنس بن مالك: أنَّ رسول اللّه ﷺ أتاه جبريل وهو يلعبُ مع الغلمان، فأخذه وصرعه، وشقّ عن قلبه، واستخرجَ القلبَ، فاستخرج منه علقةً، وقال: هذا حظُّ الشَّيطان منك!

ثمَّ غسله في طِستٍ من ذهبٍ بماء زمزم، ثمَّ لأَمَه، ثمَّ أعاده في مكانه!

وجاء الغِلمان يَسعَون إلى أمِّه، وقالوا: إنَّ مُحمَّداً قد قُتِلَ! فاستقبلوه وهو منتقعُ اللَّون!

قال أنس: وقد كنتُ أرى أثرَ ذلكَ المَخِيط في صدره!

قَلبٌ خالصٌ للّهِ لا حظَّ للشَّيطان فيه! هذه هي المعادلة الجديدة، ثمَّة رحلة نُورانيَّة كاملة كانت تُصنع على عين اللّهِ، ثمَّة طفلٌ يُهيَّأ جِسمانيّاً وروحانيّاً ليستلم قيادة البشريَّة، ويخرجها من ظلمات الجهل والشِّرك، إلى نور الإسلام والفِطرة!

في قلبِ كلِّ واحدٍ منَّا حظٌّ للشَّيطان، علَقَةٌ صغيرةٌ في ثنايا القلب، جاثمةٌ ولا خَلاص منها أَبداً، مِبضَع جبريل عليه السلام لم يعمل إلَّا مَّرةً واحدة!

أمَّا القرآن الذي نزل به جبريل عليه السلام على النَّبيِّ ﷺ فبَاقٍ حتَّى يرِثَ اللّه تعالى الأرض وما عليها!

وكلَّما زاد الإنسان في الطاعة، واقترب من نورِ الوحي، كلَّما خفَّ أثرُ هذه العَلَقة عليه، وضاقت مداخل الشَّيطان إليه، ولكنَّها باقية!

وكلَّما غرق الإنسان في وحلِ الشَّهوات، وابتعد عن نور الوحي، كلَّما قوِيَتْ هذه المُضغة، واستشاط أثرها، وتوسَّعت مداخل الشَّيطان إليه!

ولستُ أرجمُ بالغيب، ولا أتقوَّل على اللّهِ ودينه من عندي، وإنَّما من يتأمَّل حادثة شقِّ الصَّدر، ويقرأ أشباهها فيما صحَّ من الحديث النَّبويِّ الشَّريف، يعرف!

روى مسلمٌ في صحيحه، من حديث حُذيفة بن اليمان، قال: سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقولُ: تُعرضُ الفِتن على القلوب كالحصير عوداً، عوداً، فأيُّ قلبٍ أُشرِبها نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداء، وأيُّ قلبٍ أنكَرها، نُكِتَ فيه نُكتةً بيضاء، حتَّى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصَّفا، فلا تضرُّه فِتنة ما دامت السَّماوات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكُوز مجخياً لا يعرفُ معروفاً، ولا يُنكرُ مُنكراً إلَّا ما أُشرب من هواه!

وروى أبو داود والتِّرمذيُّ، من حديث أبي هُريرة، أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئةً نُكِتَتْ في قلبه نُكتة سوداء، فإذا هو نزعَ واستغفر وتابَ سُقِلَ قَلبُه، وإن عاد زِيدَ فيها حتَّى تعلوَ قلبَه، وهو الرَّان الذي ذَكرَ اللّه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾!

فتأمل هذا وذاك، تجِد المَعنَيَان يخرجان من مِشكاةٍ واحدة!

فاللهمَّ يا مُعَلِّم آدم عَلِّمنا، ويا مُفهِّم سليمان فهِّمنا!

ت. من حبيب إلى حبيب: موتٌ وكَفالة!

بعد حادثة شقٍّ الصَّدر، خشِيَتْ عليه حليمة، فقررتْ أن تُعيده إلى أُمِّه، وهكذا كان!

عاد النَّبيُّ ﷺ إلى حضن آمنة بنت وهب! أمٌّ حنونٌ صبّت عليه الحُبَّ صبّاً، كان كلَّ ما تبقَّى لها من الدُّنيا، فعوَّضته غياب الأب، وآنستْهُ من غُربةِ اليُتمِ، وإن قيل لك: إنَّ الدُّنيا أمٌّ فصدِّق!

هو الذي لم يعِش مع أمِّه أكثر من ستِّ سنوات، أكثر من نصفها مُسْترضَعاً في ديارِ بني سعد عند حليمة، كان قد شارف على السِّتِّين حين وقف على قبرٍ، وبكى!

فقيل له: ما يُبكيكَ يا رسول اللّٰه؟

فقال: هذا قبر آمنة بنت وهب، استأذنْتُ ربِّي أن أستغفر لها، فأبى عليَّ! واستأذنته أن أزور قبرها، فأذِن لي، وأدركتْنِي رِقَّتها فبكيت!

ما زال يذكرُ حنانها بعد خمسين سنةً على موتها، إنَّ ما يُعطى من القلب، يبقى في القلب إلى الأبد!

وحين بلغَ النَّبيُّ ﷺ السَّادسة من عمره، رأتْ آمنة بنت وهبٍ أن تصحبه لزيارةِ قبر أبيه، وأخواله من بني النَّجار في المدينة المنوَّرة.

فخرجتْ ومعها ابنها، وخادمتها أمُّ أيمن، ومكثتْ هناك شهراً، ثمَّ قفلتْ راجعة، وفي الطَّريق اشتدَّ عليها المرض، فماتت، ودُفِنتْ بالأبواء بين مكَّة والمدينة!

وهكذا اجتمعَ على النَّبيِّ ﷺ يُتْمَين، يُتْمٌ من جهة أبٍ لم يره أبداً، ويُتمٌ من جهة أمِّه، كان حظُّه من رفقتها سنواتٌ قليلة، وها هو اليوم في السَّادسة من عمره، بلا أبٍ ولا أمٍّ، واللّٰه خيرٌ حافظاً!

ومن الأخطاء الشَّائعة التي قرأتها في أكثر من كتاب:

قول بعض المعاصرين الذين كتبوا في السِّيرة، أنَّ النَّبيَّ ﷺ زار رِفقةَ أمِّه أخواله من بني النَّجار أهل أُمِّه آمنة بنت وهب! وهذا خلطٌ عجيب! آمنة بنت وهبٍ من بني زهرة، وهم من قريش، ولا خلافَ في هذا عند أحد! ولكنَّ المعاصرين حين نقلوا قول الأوائل: نزل على أخواله! ظنُّوا أنَّهم أخواله لأمِّه! والحقيقة أنَّهم أخواله لأبيه! لأنَّ هاشماً والد عبد المطلب نزل في المدينة في أحد أسفاره، فتزوَّج سلمى بنت عمرو، وكانت من بني النَّجار، ثمَّ حملها معه إلى مكَّة!

عجيبٌ وفاء آمنة بنت وهبٍ، واللّٰه عجيب، إنَّها تحرص على صِلة الحيِّ والميِّت، وتزرع في ابنها خُلق صِلة الرَّحم، تصحبه لزيارة أبيه في قبره، وأخواله في بيوتهم! فتأمَّل حالها وهي في الجاهليَّة، وتأمَّل حالنا اليوم، واللّٰه المستعان!

إنَّ ما كان يراه عبد المطَّلب من حُنُوِّ آمنة بنت وهبٍ على حفيده، هوَّنَ عليه ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ من اليُتْم، أمَّا وقد ماتت آمنة، فإنَّ الجرح القديم قد انفتح مجدَّداً، فرقَّ عبد المطلب على النَّبيِّ ﷺ رِقَّةً لم يُرَ منه مثلها على ولدٍ أو حفيد!

أنزله في كفالته، ورعاهُ بأهدابِ عينَيْه!

يقول ابن هشام في السِّيرة: كان يُوضَع لعبد المطَّلب فراشٌ في ظلِّ الكعبة، فكان بنوهُ يجلسون حول فِراشِه ذلك حتَّى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحدٌ من بَنِيه إجلالاً له، فكان النَّبيُّ ﷺ يأتي وهو غلامٌ حتَّى يجلس عليه، فيأخذه أعمامُه ليُؤخِّروه عنه.

فيقول عبد المطَّلب إذا رأى فهم ذلك: دعوا ابني هذا فواللّه إنَّ له شأناً!

فسبحان هذا الرَّبِّ الرَّحيم، إذا أخذ قلباً من طريق النَّبيِّ ﷺ وَهَبه غيره، لم يكن موسى عليه السلام وحده الذي صُنِعَ على عين اللّه!

طالت الحياة بعبد المُطَّلب، فعاش مئةً وعشرين سنة، ولمَّا استشعر دُنُوَّ الأجل، أوصى أبا طالبٍ أن يكفل النَّبيَّ ﷺ من بعده، وحين ناهز النَّبيُّ ﷺ الثّامنة من عمره، تُوفِيَّ عبد المُطَّلب، فانتقل إلى كفالة عمِّه أبي طالب!

وحفظ أبو طالبٍ الأمانة، وأحسن الكفالة، فكان سنداً وظهيراً للنَّبيِّ ﷺ أربعين عاماً، رعاهُ في صباه، وصاحبه في شبابه، ونافح عنه حين نزل عليه الوحي.

واحتمل معه حِصار الشِّعب، ولكن سبحان من يهدي من يشاء!

ث. بُشرياتُ النُّبوَّة: عند بحيرا الرَّاهب!

على عادة قريشٍ في رحلة الشِّتاء والصَّيف، خرج أبو طالبٍ في تجارةٍ له إلى الشَّام، واصطحب معه النَّبيَّ ﷺ وهو يومذاك ابن اثني عشرة سنة، فلمَّا بلغت القافلة مدينة بُصرى من الشَّام، وهي حوران اليوم، كان بتلك الأنحاء راهبٌ يُقال له بحيرا، خرج إليهم كأنَّه يطلب فيهم شيئاً، وكان من قبل لا يحفل بهم، ولا يخرجُ إليهم!

فعـرف النَّبـيَّ ﷺ بصفتـه، وقـال وهـو آخـذ بيـده: هـذا سـيِّد العالميـن، هـذا يبعثـه اللّه رحمـةً للعالميـن!

فقال له أبو طالبٍ: وما علمكَ بهذا؟

فقـال: إنَّكـم حيـن أشـرفتُم مـن العقبـة لـم يبـق شـجرٌ ولا حجـرٌ إلَّا خَرَّ سـاجداً، ولا تَسـجدُ إلَّا لنبيٍّ، وإنِّـي أعرفـه بخاتـم النُّبـوَّة فـي أسـفل غضـروف كتفـه مثـل التُّفاحـة، وإنَّـا نجـده فـي كُتبنـا!

ثمَّ سأل بحيرا أبا طالبٍ: ما هذا الغلام منك؟

فقال: ابني!

فقال بحيرا: ما ينبغي أن يكون أبوه حيّاً!

فقال: هو ابن أخي، مات أبوه وأمُّه حُبلى به!

فقال بحيرا: صدقتَ، ارجعْ به إلى بلدك، واحذرْ عليه يهود!

والقصَّـة علـى شـهرتها، ووُرُودِهـا فـي كلِّ كتـب السِّـيرة تقريبـاً، إلَّا أنَّ لأهـل الصَّنعـة الحديثيَّـة فيهـا كلام، وهـي إن صحَّـت أو لـم تصِـحّ، فـلا تضيـفُ شـيئاً ولا تُنقـص شـيئاً، إنَّـه مـن قبـل بشـرى عيسـى عليه السلام!

ولكـنَّ المتأمِّـل بمـا سـيأتي يجـد أنَّـه كلَّمـا اقتربنـا مـن زمـن الوحْـيِ اتَّضحـتْ الكرامات!

ج. في معترك الحياة!

كان أبـو طالـبٍ قليـلَ المـال كثيـرَ العِيـال، وليـس مـن شـأن الرِّجـال أن يكونـوا عالـة، فانبـرى النَّبـيُّ ﷺ يعمـلُ برعـيِ الأغنـام ليعيـل نفسـه، ويسـاعد عمَّـه، ودأب الأنبيـاء عليهـم السَّـلام أن يأكلـوا مـن عمـل أيديهـم، وقـد كان زكريّـا عليه السلام نجّـاراً!

روى البخاريٌّ من حديث أبي هريرة، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال يوماً لأصحابه: ما بعثَ اللّٰه نبيّاً إلَّا رعى الغنم! فقال أصحابه: وأنتَ؟ فقال: نعم، كنتُ أرعاها على قراريط لأهل مَكَّةَ!

ولستُ أدري الحكمة من عمل جميع الأنبياء برعيِ الغنم، وقرأتُ أشياء كثيرة فلم تُقنعني، وأَغربُ ما قرأتُ فيها: رعوا الغنم ليتعلَّموا رعيَ الأمم!

وهذا قولٌ فيه من السَّجع أكثر ممَّا فيه من الحكمة! وشتَّان بين المُعتَركين، معترك المرعى ومعترك المجتمع! والأنبياء أوَّلاً وآخراً فوق مصافي البشر، ويتعلَّمون بالوحي في لحظةٍ ما لا يتعلَّمه غيرهم بالتَّجربة بسنوات!

ولست أنكر أهميَّة التَّجربة على شخصيَّة الإنسان، والأنبياء بشرٌ نِهاية المطاف، ولكن النُّبوَّة بالأصل معجزة في ذاتها، فلا يجري عليها بالضَّرورة ما يجري على ما هو خاضعٌ لنواميس اللّٰه وسُنَنِه في الكون!

لتصنعَ سفينةً لا تغرق عليكَ أن تتعلَّمَ هذا، ولكنَّ نوحاً عليه السلام لم يحتج إلى ورشةٍ ولا مدرسة، كان مُؤيَّداً بالوحي: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾!

هذه التَّجربة للنَّبيِّ ﷺ في معترك الحياة الاقتصاديَّة للنَّاس تجربة تركت أثرها في شخصيَّته، ولكنَّه ما رعى الغنم ليتعلمَ رعيَ النَّاس! لقد أقام الدُّنيا بالوحي!

فلا نقلِّل من قيمة التَّجربة، ولكن لا نراها الصَّانع للشخصيَّة في حقِّ الأنبياء، هم لا يُقَاسون بغيرهم، ولا يُقاس عليهم غيرهم!

ولكن لا بأس أن يُقال: إنَّ التَّجربة تُسهم نوعاً ما في تكوين الشَّخصيَّة، وتتضافر مع الوحي، فتتعدَّدُ المصادر، ولكنَّ الوحي وحده يكفي، فقد علَّمَ الأنبياءُ النَّاسَ ممَّا جاءهم من الوحي، أضعافاً مضاعفةً ممَّا اكتسبوه بالتَّجربة!

لم يخضِ النَّبيُّ ﷺ في شبابه معترك الحياة الاقتصاديَّة والعمل فقط، وإنَّما خاضَ معترك السِّياسة والحرب أيضاً! حربُ الفِجَار وحِلفُ الفضول!

وهاتان التَّجربتان على أهميتهما لشخصٍ قُدِّرَ له لاحقاً أن يُحارب، ويعقد الأحلاف، يُقارع القبائل والإمبراطوريات، إلَّا أنَّ ما قيل فيما قبلهما يُقال فيهما: إنَّ الأمر كلُّه قائمٌ على الوحي والعِصمة!

فأمَّا حربُ الفِجَار فكانت بين قريشٍ وحليفتها كنانة، ضد قيس عيلان الذين انتهكوا قدسيَّة الأشهر الحُرم! فقد كانت العرب في الجاهلية تُقدِّس الأشهر الحُرم، وتضعُ فيها الحربَ فيما بينها، ولو ظفرَ الرَّجلُ بقاتل أبيه في الأشهر الحُرم فإنَّه لا يقتله! على هذا تعاهد العرب، وعلى هذا عاشوا، فلمَّا أخلَّت قيس عيلان بهذا دارت رحى الحرب! استمرت هذه الحرب أربع سنوات، بدأتْ وعُمر النَّبيِّ ﷺ فيها خمسة عشرة سنة، وانتهت وهو في التَّاسعة عشرة!

وقيلَ أنَّه باشر الحرب بنفسه، وقيل إنَّه لم يباشرها وإنَّما كان يُناول أعمامه النَّبل، وهذا ما أميلُ إليه، وما يعنينا أنَّها كانت تجربة هامَّة، ولا بأس أن يُقال إنَّ فيها تهيئة، مع التَّأكيد أوَّلاً وآخراً أنَّه الوحي!

وأمَّا حِلف الفضول، فيُريك بجلاءٍ أنَّ الجاهليَّة لم تكن جاهلية في كلِّ تفاصيلها، فالقوم على جاهليَّتهم كان فيهم أخلاقٌ ونخوةٌ ومكارم! ولقد شهِد لهم النَّبيُّ ﷺ بهذا حين قال: «إنَّما بُعِثتُ لأُتَمِّم مكارم الأخلاق»!

أي أنَّه قد كان فيهم ما يُبنى عليه، والكثير من مكارم الأخلاق التي جاء بها الإسلام لم تكن بعيدة ولا غريبة عن المنظومة الأخلاقية للعرب في الجاهليَّة، وإنْ لم تَخْلُ جاهليَّتُهم من طَوام!

يقولُ النَّبيُّ ﷺ: لقد شهدتُ مع عُمومتي حلفاً في دار عبد اللّه بن جدعان، ما أُحِبُّ أنَّ لي به حُمْرُ النَّعم، ولو أُدْعَى به في الإسلام لأجبتُ!

وأمَّا قصَّةُ حلف الفضول، فقد جاء رجلٌ من قبيلة زبيدٍ من اليمن إلى مكَّة ببضاعةٍ يريد أن يبيعها، فاشتراها منه العاص بن وائل، ولم يدفع له ما اتَّفقا عليه من مال! فاشتكاه الرَّجل إلى سادة قريشٍ، فلم يُعينوه لمكانةِ العاص بن وائل.

فوقف الرَّجل على جبل أبي قُبيس وأنشد شعراً قال فيه مظلمته!

فكان أوَّل من سمع هذه الشَّكوى هو الزُّبير بن عبد المطَّلب عمُّ النَّبيِّ ﷺ فقال: ما لهذا من مترك!

فجمع النَّاس في بيت عبد اللّه بن جدعان، وعقدوا حِلفَ الفضول، وتعاهدوا ألَّا يتركوا مظلوماً في مكَّة حتَّى يُعيدوا إليه حقَّه، وقاموا إلى العاص بن وائل وأجبروه أن يعيد إلى الرَّجل حقَّه، وهكذا كان.

وأمَّا الآن، فإن كان الوحيُ الذي عليه قوام الأمر كلِّه قد انقطعَ، فإنَّ ما جاء به الوحي ما زال بين أيدينا، وعنصر التَّفوُّق الأهم التَّجربة والإعداد والتَّعلم بالاسترشاد بنورِ الوحي!

ح. ثمَّ جاءتْ خديجة!

يظلُّ الرَّجلُ يخرجُ إلى الدُّنيا بدرعه وسيفه، ولا يهتَزُّ لمصائب الدُّنيا وضرباتها، حتَّى يظنُ أنَّه صخرٌ لا قلب له، حتَّى يلقاها، هي دون سواها، فيُلقِي أسلحته ويخلع درعه، فترى جراحه، هي فقط من يأتمنها على جراحه!

هذه المقولة الجميلة للرَّافعي تُلخِّصُ الحكاية كلَّها!

خديجة في حياة النَّبيِّ ﷺ لم تكن مجرَّد زوجة، كانت عوض اللّه له عن كلِّ ما لاقى قبلها، وكهفاً وملجأً عمَّا سيلاقي بعد ذلك!

عوَّضته حنان الأمِّ التي فقدها صغيراً، وكانت كُلَّ دُنياه!

يَحْدثُ أن يُتبلى أصحاب الرِّسالات في بيوتهم، كما حدث مع نوحٍ ولوطٍ عليهما السَّلام، وكم تصبح المهمَّة شاقَّة حين لا تكون الجبهة الدَّاخلية آمنة! ومع امرأة كخديجة، كانت تُحيلُ العلقَم شهداً، والصعب يسيراً، كان النَّبيُ ﷺ يشعر أنَّ ظهره محميٌّ جداً!

أمَّا كيف التقيا، فيقول ابن اسحاق:

كانت خديجة بنت خويلد امرأةً تاجرةً ذات شرفٍ ومال، تستأجر الرِّجال في مالها، وتُضاربهم إيَّاهُ بشيءٍ تجعله لهم، فلمَّا بلغها عن النَّبيِّ ﷺ ما بلغها من صدقِ حديثه، وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه، وعرضت عليه أن يخرجَ في مالٍ لها إلى الشَّام تاجراً، وتُعطيه أفضل ما تُعطي غيره من التُّجار، مع غلامٍ لها يُقال له ميسرة، فقبِلَ رسولُ اللّه ﷺ ذلك، وخرجَ تاجراً في مالها ومعه ميسرة حتَّى قدِمَ الشَّام!

ولمَّا رجع إلى مكَّة، ورأتْ خديجة في مالها الأمانةَ والبركة ما لم ترَ من قبل، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه من حُسن أخلاقه، وصدق حديثه، وعظيم أمانته، ورجاحة عقله، قررتْ أن تعرضَ عليه الزَّواج!

فحدَّثتْ بهذا صديقتها نفيسة بنت مُنية، وطلبتْ منها أن تذهب إلى النَّبيِّ ﷺ وتُفاتحه في الأمر.

فقبِلَ النَّبيُّ ﷺ ذلك، وكلَّم أعمامه، فذهبوا إلى عمِّ خديجة، وخطبوها منه، لأنَّ أباها كان قد قُتِلَ في حرب الفِجَار. ووقف أبو طالبٍ يخطبُ في حفل الزَّواج قائلاً: إنَّ محمَّداً لا يُوزن به فتىً من قريش إلَّا رجحَ به شرفاً ونُبلاً، وفضلاً وعقلاً، وإن كان

في المال قلا فإنَّما المالُ ظلٌّ زائلٌ وعاريةٌ مُسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك.

كانت خديجة قد تزوَّجت قبل النَّبيِّ ﷺ مرَّتين، ومع هذا لشرفها ومالها وحسنها كانت مطمعاً للخُطَّاب من رجال قريش، فسبحان من يسوقُ العباد إلى أجمل أقدارهم سَوْقاً، وها هي تُلقي برَحْلِ قلبها عند أعظم رجلٍ في تاريخِ البشريَّة!

أحبَّها النَّبيُّ ﷺ كما لم يُحِبَّ امرأة قطُّ، وظلَّ يذكرها حتَّى آخر يوم من حياته، ولا تزال مقولته بعد أن تزوَّج إحدى عشر امرأةً بعدَ وفاتها، إذ لم يتزوَّج معها امرأةً قطُّ: واللّه ما أبدلني اللّه خيراً من خديجة!

كان عمرها أربعين سنة، وكان عمره خمسةً وعشرين، كان عندها من القلب ما يكفي لتنزل إليه، وكان عنده من العقل ما يكفي ليصعد إليها، فعاشا سعيدين!

مهمٌ أن تملك أسباب الحياة، ولكنَّ الأهم أن تعرف كيف تعيش، وحين تعثر على الشَّخص المناسب لا تُضيِّعه بالتَّدقيق في التَّفاصيل! الفروقات يمكن تذويبها، يمكن لاثنين أن يُصبِحا واحداً، الحياة تجارب، البعض تشيبُ رؤوسهم ويبقون أطفالاً، والبعضُ شبابٌ نضجتْ عقولكم على نار التَّجارب!

كانت غنيَّة جداً، ولكنَّها كانت تُشعِره أنَّه أغلى ما تملك!

وكان فقيراً جداً، ولكنَّه كان يُشعرها أن مالها أقلّ ما تملك!

اِعقدْ زواجاً ولا تعقِدْ صفقة! إيَّاك أن تتزوَّج المرأة لمالها فقط، تعيسٌ من يتزوَّج خزنة، يمكنك أن تخدعها بعض الوقت، ولكنَّك لن تستطيع أن تخدعها كلَّ الوقت!

ومتى ما اكتشفت أنَّك أردتها سيِّدتك، فستعامِلُك على أنَّكَ عبدها!

أنجبتْ له كلَّ أولاده إلَّا إبراهيم فهو من مارية.

ولدتْ له القاسم أوَّلاً وبه كان يكنَّى، ثمَّ زينب، فرُقيَّة، فأمَّ كلثوم، ففاطمة، فعبد اللّٰه!

ومات أولاده الذُّكور في صغرهم، أمَّا بناته فأدركنَ الإسلام جميعهنَّ، فأسلمنَ، وهاجرنَ!

ماتت بناتُه في حياته ﷺ، إلَّا فاطمة، بقيت بعده ستَّة أشهرٍ، ثمَّ لحقت به!

فالسَّلامُ على قلبه كم فقدَ وتألَّم، والسَّلام على قلبه كم صبر واحتسب!

خ- بناء الكعبة:

الكعبة المُشرَّفة في مكَّة هي أوَّل بيتٍ للّٰهِ بُنِيَ في الأرض، بَنَتْها الملائكة، ولم يجعل اللّٰه تعالى لها عِصمةً ضدَّ سُنن الكون وحوادث الزَّمن، ولو شاء لفعلَ، سبحانه لا يُعجِزه شيءٌ!

بَنَت الملائكةُ الكعبة، ثمَّ أتَتْ عليها الحوادث، كالسَّيلِ والرِّيح، فهدمتها، ولم يبقَ منها إلَّا حجارة أساسِها التي غطَّاها رمل مكَّة، فلمَّا أمر اللّٰه تعالى إبراهيم عليه السلام أن يعيد بناءها من جديد، أرشده إلى مكان أساساتها، وعلَّمه ارتفاعها وأبعادها، فأعاد بناءها على الشَّكل الذي بَنَتْه الملائكة، وهذا مصداقُ قول ربِّنا تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾!

وقبل البِعثة الشَّريفة بخمس سنوات أصابَ مكَّة سيلٌ عظيم، انحدر إلى البيت الحرام، وأوشكت الكعبةُ على الانهيار، فاضطَّرتْ قريش إلى هدمها وإعادة بنائِها من جديد! وكانوا يُعظِّمونها تعظيماً شديداً، فهابوا هدمها، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزوميّ، فلمَّا رأى النَّاسُ أنَّه لم يُصبه شيء، قاموا إليه فساعدوه!

واتَّفقت قريش فيما بينها على ألا تُدخل في بنائها إلَّا طيِّباً، فلا يدخلون فيها مهرَ بغيٍّ، ولا بيع رِباً، ولا مَظلمة أحدٍ من النَّاس!

وتوزَّعتْ قريش فيما بينها عمليَّة بِنائها، فكان لكلِّ فخذٍ منها جزءٌ تبنيه وحدها، لمَّا بلغ البناء موضع الحجر الأسود، اختلفوا فيما بينهم اختلافاً عظيماً، حتَّى كادوا أن يقتتلوا، كلٌّ منهم يريد أن يستأثر بشرف وضع الحجر الأسود في مكانه!

عندها اقتَرح عليهم أبو أميَّة بن المُغيرة المخزوميُّ أن يُحكِّموا بينهم أوَّل داخلٍ عليهم من باب الصَّفا، فرضيَ جميعهم بذلك!

وَكَرَّمَ اللَّهُ تعالى نبيَّه إذ كان هو أوَّل من دخل عليهم من باب الصَّفا، فحدَّثوه بما اختلفوا فيه، وطلبوا حكمه: وهنا بدتْ فطنة النُّبوَّة التي تتحضَّرُ لقيادة البشريَّة، فطلب منهم أن يُحضروا ثوباً، فلمَّا أحضروه، وضعه على الأرض، ووضع الحجر الأسود في وسطه، ثمَّ طلب من سادة قريش أن يحملوه معاً، ففعلوا، ولمَّا وصلوا إلى مكان الحجر الأسود، أخذه النَّبيُّ ﷺ بيده الشَّريفة، ووضعه مكانه، ورضيَ بذلك الجميع، وكانت هذه كرامة من الله لنبيِّه ﷺ!

والجدير بالذِّكر أنَّ الكعبَة المُشرَّفة الآن ليست على الشَّكل الذي بنته الملائكة أوَّل مرَّة، وأعاد إبراهيم عليه السلام بناءه، بل إنَّ قريشاً قصُرَتْ بها النَّفقة فلم تُدخل حِجر إسماعيل عليه السلام في الكعبة وهو منها، ولذلك كان لها بابان لا باباً واحداً كما بنتها قريش!

سألتْ عائشةُ النَّبيّ ﷺ عن حِجر إسماعيل عليه السلام أهوَ من الكعبة؟

فقال: نعم، هو من الكعبة.

فقالتْ: فما لهم لم يُدخِلوه في البيت؟

فقال: إنَّ قَومَكِ قد قصُرتْ بهم النَّفقة.

فقالتْ: فما شأن بابه مرتفعاً؟

فقال: فعلَ ذلك قومُكِ ليدخلوا من شاؤُوا، ويمنعوا من شاؤوا!

ثمَّ قال: يا عائشة، لولا أنَّ قَومَكِ حديثُو عهدٍ بجاهلية، فأخافُ أن تُنكر قلوبهم، لأمرتُ بالبيت فهُدمَ، فأدخلتُ فيه ما أُخرجَ منه، وألزقته بالأرض، وجعلتُ له باباً شرقيّاً، وباباً غربيّاً، فبلغتُ به أساس إبراهيم.

ثمّ لمَّا استلمَ عبد اللّه بن الزُّبير زمام الحكم في الحجاز، حدَّثته عائشة بما كان بينها وبين النَّبيِّ ﷺ بشأن الكعبة. قال: زال المانع الذي كان على عهد رسول اللّه ﷺ. فهدم الكعبة، وأعاد بناءها كما كانتْ على عهد إبراهيم عليه السلام.

فلمّا قتلَ الحجَّاجُ ابنَ الزُّبير، هدمَ الكعبة بأمر عبد الملك وأعاد بناءها كما كانت زمن قريش!

ولمَّا ولِيَ الرَّشيد الخلافة، أرسلَ إلى الإمام مالك يستنصحه ويستشيره، فقال: إنِّي أُريدُ أن أعيد البيت على بناية ابن الزُّبير، تنفيذاً لرغبة النَّبيِّ ﷺ.

فقال له الإمام مالك: لا تفعل يا أمير المؤمنين، إنِّي أخشى أن تُصبحَ الكعبة ألعوبة الملوك، لا يشاء أحدٌ إلَّا نقضَها وبناها فتذهب هيبتُها من صدور النَّاس!

فأخذ الرَّشيد بكلام الإمام مالك، وما زالت الكعبة على حالها منذ ذلك العهد.

وما استطردتُ بالحديث عن بناء الكعبة من عهد النَّبيِّ ﷺ قبل بعثته، وزمن نبوَّته، وبعد وفاته، إلَّا للحديث عن قاعدةٍ عظيمة من قواعد هذا الدِّين ألا وهي: دَرْءُ المفاسد مقدَّمٌ على جلب المصالح!

فإنَّ كلَّ مصلحةٍ يَترتَّبُ على قيامها مفاسدُ عظيمةٌ فإنَّها تُترك!

بناءُ الكعبة على الهيئة التي كانت عليها زمن إبراهيم عليه السلام مصلحةٌ لا شكَّ، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ تركَ هذه المصلحة، لأنَّه خشِيَ من وقوع مفسدة، فإنَّ قريشاً كانت جديدةَ عهدٍ بالإسلام، وهي تُعظِّم الكعبة، وفعله قد يترتَّبُ عليه مفسدة كردَّتها مثلاً، أو دخول الشَّرِ في نفوسها، أو إساءة الظَّنِّ بالنَّبيِّ ﷺ بأنَّه يريد مجداً شخصياً!

وبهذا الفَهم أفتى الإمام مالك للرَّشيد، مُقرِّراً باباً عظيماً آخر من أبواب هذه الدِّين وأصوله، ألا وهو: بابُ سدِّ الذَّرائع!

يعلمُ الإمام مالك أنَّ الرَّشيد استشاره في أمرٍ لا حُرمة فيه، ولكنَّه أراد أن يُقفل هذا الباب، فلا يكون ذريعةً، كلَّما جاء ملكٌ قام إلى الكعبة فهدمها فتذهبَ مهابةُ البيت من صدور المسلمين!

تُعلِّمنا هذه الشَّريعة الغرَّاء النَّظر في العواقب، وأنَّ العاقل لا يفعل فقط، وإنَّما ينظر إلى صدى فعله، وما يَترتَّبُ عليه. لهذا كانت السِّيرة واقعاً لا تاريخاً!

ثمَّ بدأت الحِكاية: نُزُول الوحي!

كان هـذا الكوكـب غارقـاً فـي الضَّلالـة مـن أعلـى رأسـه حتَّـى أخمـص قدميـه، اليهـودُ حرَّفـوا التَّـوراة، والنَّصـارى زعمـوا أنَّ للّٰه ولـداً، والعـربُ مـلأوا بيت اللّٰه الحـرام بالأصنـام وعبدوهـا مـن دونـه، فـإن كان هـذا هـو حـالُ الذيـن نزلـتْ فيهـم الرِّسـالاتُ فعـن غيرهـم حـدِّث ولا حـرج!

وبينمـا هـذه البشـريَّة كذلـك، نظـر اللّٰه تعالـى إليهـا نظـرةَ عطـفٍ، فتحنَّـنَ عليهـا علـى عادتـه، وَتَكـرَّم كمـا هـو دومـاً، وتمنَّـنَ كمَـا هـو دأبـه! عمَّـا قليـلٍ ينـزل مـن غـارٍ مظلـمٍ فـي مكَّـة رجـلٌ يحمـل النُّـور ليضـيءَ هـذا الكوكـب!

كان قـد بلـغَ مـن العمـر أربعيـن سـنة، اتَّقـدَ عقلـه بمـا يكفـي ليفهـم الوحـي ويُفهمـه للنَّـاس، ونضجـتْ عاطفتـه ولانـتْ ليفيـضَ حُبّـاً ورحمـة! ومـن قبـل هـذا بكثيـرٍ غُسِـل قلبـه فـي ديـار حليمـة، وصـار الآن كلُّ شـيءٍ مهيّئـاً لتبـدأ الرِّسـالة التـي كُتِـبَ لهـا أن تُغيِّـر ملامـح هـذا الكوكـب إلـى الأبـد!

وكتهيئـةٍ لهـذا الرَّجـل العظيـم الـذي كان يُعَـدُّ علـى مهـلٍ لهـذه الرِّسـالة، فإنَّـه أوَّل مـا بُـدِئ بـه مـن الوحـي الرؤيـا الصَّالحـة فـي المنـام، فـكان لا يـرى رؤيـا إلَّا وجـاءت بعـد ذلـك كفلـقِ الصُّبـح!

ثـمَّ حبَّـبَ إليـه ربُّـه الخلـوة، فـكان يخلـو بنفسـه فـي غـار حِـراء، يَتحنَّـثُ فيـه الليالـي ذوات العـدد، ثـمَّ يرجـع إلـى خديجـة، المـرأة التـي ستكون فيمـا بعـد جبهتـه الداخليـة، وأقـوى جنـوده،

وفي وحشة الحياة يحتاج الرَّجلُ إلى قلب امرأة!

وفي إحدى خلواته في الغار، نزلَ عليه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأوَّل قبسات النَّور!

وقال له: اِقرأْ!

فقال: ما أنا بقَارئ!

فأعاد عليه: اِقرأْ!

فأعاد قوله: ما أنا بقارئ!

فقال في الثالثة: اِقرأ!

فقال: ما أقرأُ؟

فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

ونزل النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غار حراءٍ وهو يرتجِفُ من هول الوحي! كان بإمكانه أن يذهب بقدميه إلى أبي طالب، عمّه الذي اعتادَ أن يحوطه ويرعاه! أو إلى أبي بكرٍ، صديقه الوفيِّ، وموضع سرِّه!

ولكنَّه ذهب بقلبه إلى خديجة، ثمَّة مواقف في هذه الدُّنيا لا يحتاج فيها المرء أكثر من حضن!

وصلَ إليها وهو يقول: زمِّلونِي، زمِّلوني!

فغطَّته، وضمَّته، وهدَّأت من روعه! ولمَّا ذهب عنه الرَّوع، حدَّثها بما كان، ثمَّ قال لها: لقد خشيتُ على نفسي!

فقالتْ له: كلَّا، واللّٰه ما يخزيكَ اللّٰهُ أبداً، إنَّك تصلُ الرَّحم، وتحمِلُ الكَلَّ، وتُعين على نوائب الحقِّ!

ثُمَّ ذهبتْ به إلى ابن عمِّها ورقة بن نوفل، وكان شيخاً كبيراً قد أصابه العمى، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، وكتب الإنجيل بالعبرانية.

فقالت له: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟

فحَدَّثه النَّبيُّ ﷺ بما حدث معه في الغار.

فقال له ورقة: هذا النَّاموسُ الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً، ليتني أكون حياً إذ يُخرجكَ قَومُكَ!

فيسأله النَّبيُّ ﷺ بدهشة: أوَمُخرِجيَّ هُم؟!

فقال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قَطُّ بمثل ما جئتَ به إلَّا عوديَ، وإن يُدركني يومُك أنصركَ نصراً عزيزاً!

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ لا تاريخ لا بُدَّ من وقفات!

1. مكَّة على عراقتها التَّاريخيَّة والدِّينيَّة عند العرب، وقدسيَّتِها عند ربِّهم، إلَّا أنَّها بلا تاريخ ثقافيٍّ يُذكَر، فليس للقوم فلسفات وفلاسفة كما كان لسقراط وأفلاطون عند الرُّومان!

وليس للقوم تشريعات، وقوانين مكتوبة، كما في بلاد فارس!

وليس للقوم مذاهب فكرية كما كان في الصِّين على يد كونفوشيوس وبوذا!

كانت جزيرة العرب بِكراً من أيِّ نشاطٍ ثقافيٍّ وفكريٍّ! اللهمَّ أنَّه كان للقوم قصائدهم وأشعارهم، وهي لا تعدو كونها تأمُّلات بشريَّة، وتجارب حياتيَّة، وفخر، وهجاء، وغزل، وأحاديث خمرٍ وصيد، فهي أنشطة حياتيَّة يوميَّة أكثر منها فكريَّة، على ما كان في شعرهم من عذوبة لا تُنكر!

في هذه البيئة، خرجت الرِّسالة نقيَّة، لا يمكن لأحدٍ أن يدَّعي أنَّها امتداد لما كان قبلها، أو استنساخ لما سبق، وإذا أُضيف إلى هذا كلِّه أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان أُميّاً لا يقرأ، ولا يكتب، ولا يقرض الشِّعر، فهنا تَكتمل المعجزة!

كما أنَّ خلوَّ أذهان العرب من الفلسفات، والتَّعقيدات الفكريَّة، جعلهم أسرع استجابة للوحي، فقد وقعَ فيهم على صفحةٍ بيضاء، وملأ خُلُوّاً في أرواحهم وعقولهم، تماماً كما هو اليوم:

نلاحظ أنَّ أصحاب المذاهب الفلسفيَّة، والنَّظريات الغربية الرأسماليَّة والشُّيوعيَّة، أقل استجابة لنورِ الوحي من غيرهم، إذ أغلبهم يرون في الإسلام تهديداً. ومعول هدمٍ للأصنام الفكريَّة في عقولهم، ومن يهتدي في الغرب فلأنَّ اللّه شرح صدره ليرى ما في الحضارة الغربيّة من تفاهة وخواء، ومعاكسة للفطرة!

2. على بعض الأشياء أن تتأخَّر لتأتي أجمل، إنَّ اللّه سبحانه يختار من الأوقات أنفعها لا أسرعها! كلُّ دعوةٍ دعوتَ اللّه بها وتأخرتّ، فهذا ليس أوانها، ثِق بحكمة اللّه، وَردِّد بقلبٍ ممتلئٍ باليقين: لقد استجاب، ولكنَّه يُهيِئ الأسباب!

وَكلُّ همٍّ نزلَ بك فهذا أوانه، وهل يُصْقَلُ النَّاسُ إلَّا تحت وطأة الأيام؟!

وحدَها النَّار تُخرِجُ خبَثَ الحديد وتصقله، ولولا وهج التَّنور لبقيَ الخبز عجيناً!

كان على النَّبيِّ ﷺ أن ينتظر أربعين سنةً ليصبِح العظيم الذي عرفناه، ثمَّة مسؤوليات لا بُدَّ لها أن يبلغ العقل أوجَّه، والعاطفة أن تتَّزِن لتنقادَ لا لتقود!

3. هيِّء النَّاس وأعدَّهم للمهمَّة التي تريدها منهم، من أردته أن يقوم بعمل ناجح درِّبه، البنت أعدَّها للزَّواج وعلِّمها كيف تُدار البيوت، والولد علِّمه طباع النِّساء وأرشده، معارك الحياةِ لا تُخاض بغير عُدَّةٍ وعتادٍ!

صحيحٌ أنَّ الخِبرة لا تأتي إلَّا بالتَّجارب ولكنَّ امتلاك مفاتيح النَّجاح أمرٌ حاسم في تحقيقه! النُّبوَّة شيءٌ فوق مستوى البشر وعملٌ يحتاج قلباً وروحاً وعقلاً من نوعٍ آخر والرُّؤى التي كان يراها النَّبيُّ ﷺ ثمَّ تأتي كفلقِ الصُّبح ما هي إلَّا تهيئةٌ لاستقبال الوحي، وتحبيب الخلوة إلى قلبِ النَّبيِّ ﷺ وما هو إلَّا صقلٌ للرُّوح والقلب والعقل!

4. الزَّواجُ الناجحُ هو الذي فيه من الصَّداقةِ مقدار ما فيه من الحبِّ؛ أن تأنسَ ويُؤنسَ بك، تطمئِنَّ وتُطَمئِنَ، تَجبُرَ وتُجبرَ، أن تهونَ الدُّنيا كلُّها عندك ولا يهونُ حبيبُك، وأن يُباعَ الكونُ كلُّه ويُشترى خاطرُ خليلِك! أن تكونَ آمنًا ومانحًا للأمان، أن يتَّكِئَ كلاكما على صاحبِه، وهو لا يخشى السُّقوط. فإن لم يتحقَّق هذا المفهوم، فعن أيِّ مودةٍ ورحمةٍ نتحدَّث؟!

ألم تسألْ نفسك مرةً، ولو من باب الفضول: لماذا ذهب النَّبيُّ ﷺ إلى خديجة بعدما نزل عليه الوحي؟ لماذا اختارها هي بالذَّات دونًا عن أقاربه وأصدقائه؟

والجواب: لأنَّ خديجةَ كانت كلَّ هؤلاء بالنِّسبة له؛ كانت مأمونةً، عاقلةً، قويَّةً، حنونة. لهذا عَرَف أنَّه لن يحتويه من أهل الأرض غيرُها.

وهو -بالمقابل- كان قد شغفَها حبًّا بقلبه وأخلاقه، وإذا ضاقتِ الأرضُ بالإنسان، اتّسعَ له حِضْنُ حبيبه!

5. صنائعُ المعروفِ تَقِي مصارعَ السُّوء، هذه قاعدةٌ يعرفها النَّاسُ بالتَّجربة، لا تحتاج إلى دينٍ لتُدرَك، وإن كان الدِّينُ قد أرساها. لم تكن خديجةُ تعرف من الإسلام شيئًا حين أتاها النَّبيُّ ﷺ يرتجف، وعندما قال لها: لقد خشيتُ على نفسي، قالت له: كلَّا واللّه، ما يُخزيك اللّه أبداً!

وجعلت تُعدِّد عليه فضائلَه ومعروفَه مع النَّاس، حتَّى وهم في جاهلية، كانوا يعرفون أن زارعَ الخيرِ يحصده، ومُوقِدَ نارِ الشَّرِّ حتمًا سيكتوي بها!

فأكثِرُوا من صنائع المعروف، فلا أحدَ أوفى من اللّه تعالى!

من جَبر جُبِرَ، ومن أعانَ أُعين، ومن خَذَل خُذِل، من ظَلم ابتُلِيَ بمن هو أظلم منه!

6. تقول العرب: سَلْ من كان به خبيرًا! لا تطلبِ النَّصيحةَ إلَّا من حكيم، ولا تسألْ قضاءَ حوائجِك إلَّا عند أهلها!

الأهوجُ يزيد المشكلاتِ تعقيدًا، ومن لا خِبرةَ له يُفتي بغير بصيرة!

الذي قتل مِئةَ نفسٍ ذهب أوَّل الأمر إلى عابدٍ يسأله: هل له من توبة؟ فأخبره أن لا توبةَ له، فقتله وأتمَّ به المئة. ولمَّا ذهب إلى عالمٍ أرشده إلى الصَّواب!

وعـن دونِ قريشٍ كلِّهـا، ذهبـت خديجـةُ بالنَّبـيِّ ﷺ إلـى ورقـةَ بـن نوفـل؛ لـم تذهـب بـه إلـى أبـي طالـب، رغـم عِلمهـا بمـدى حبِّـه لـه، ولا إلـى أبـي بكـر، علـى يقينِهـا أنَّـه صديقُـه الأميـن.

المسـألةُ وحـيٌ، وخبـرُ سـماءٍ، وملائكـة. وهـذا هـو ميـدانُ ورقـةَ بـن نوفـل ومجالُـه الـذي عُـرف بـه.

فاشربوا من مَنبعِ النَّهر، ودَعوا عنكم القنوات!

7. لـم يكـن ورقـةُ بـن نوفـل ليعلـمَ الغيـب، ولكنَّـه كان يعلـمُ سـنَّةَ اللّه فـي الكـون!

كان يعـرف أنَّ الحـقَّ والباطـلَ فـي صـراعٍ حتَّـى قيـام السَّـاعة؛ تتغيَّـر الميادين، ويتبـادلُ المحاربـون الأدوار، أمَّـا الحـربُ فهـي ذاتُهـا. كان يعـرف أن صـدرَ قريشٍ سـيضيقُ علـى هـذه الدَّعـوة، وأنَّ باطلَهـا سيستشـرسُ فـي صـراعِ الحـقِّ الـذي جـاء بـه.

فيـا أهـلَ الثغـور، ويـا أيُّهـا العاملـون لهـذا الدِّيـن علـى اختـلافِ مجالاتِهـم، ضعـوا هـذه الحقيقـةَ نُصبَ أعينِكم: لـن تسـلموا مـن أهـلِ الباطـل! إنَّهـم لا يُعادونكـم لأشـخاصِكم، وإنَّمـا يعادونكـم لرسـالتِكم التـي تحملونهـا. ومـن لـم يجـدْ فـي ميـدانِ الحـقِّ لـه كارِهًـا، فليُراجِـعْ نفسَـه؛ فإنَّـه إن رضـيَ عنـك الباطـلُ، فلسـتَ حامـلَ حـقٍّ.

هـذا ديـنٌ وصـل إلينـا بالأشـلاءِ تناثرت، وبالدِّماءِ نفـرت، وبالأموالِ أُنفقـت، ولـن تُحافظـوا عليـه إلَّا بهـذه الأشـياء، وإنَّ سـلعةَ اللّه غاليـة، وإنَّ اللّه اشـترى!

ذهبَ رَوْعُ الوحيِ عن النَّبيِّ ﷺ بتثبيتِ اللّٰه له أوّلًا، ثمَّ باحتواءِ خديجةَ له، وبعد ذلك ببشرى ورقةَ بن نوفل له بأنَّه سيكون نبيَّ هذه الأمَّة، وأنَّ ما جاءه لم يكن أضغاثًا ولا حديثَ نفسٍ ولا تهيُّؤاتٍ يراها، إنَّما هو الوحيُ الصَّادقُ الذي كان ينزل على الأنبياءِ من قبل.

ولكنَّ هذا الوحيَ قد انقطع فترةً لا يعلم مقدارَها إلَّا اللّٰه، والذي تستريح إليه نفسي من أقوالِ كُتَّاب السِّيرة أنَّها لم تزد على أربعين يومًا، كان النَّبيُّ ﷺ فيها يتُوق تَوقًا شديدًا لقبسٍ جديدٍ من الوحي؛ هذا الوحيُ الذي بدأ باقرأ، ما هي الخطوةُ التَّالية فيه؟ وما الذي يترتَّب عليه؟

حالُ النَّبيِّ ﷺ في فترةِ انقطاعِ الوحي تُريك بجلاءٍ أنَّ الفِكرةَ قد تملَّكَته تمامًا، فصار هو الذي يبحث عن الوحي وينتظره على جمرِ الشَّوق ليبدأ الرِّحلة، وهكذا أصحابُ الرِّسالات ورجال الدَّعوةِ الصَّادقة، يبحثون عن أماكنِهم في الصُّفوف، ولا ينتظرون في بيوتهم أن تَسنَح لهم الفرصة ليعملوا لدين اللّٰه؛ إنَّهم يعلمون جيِّدًا أنَّ الفرصة لا تطرق الأبواب، وإنَّما يكتشفها المرء وهو في طريق سيره إلى اللّٰه تعالى! فخُذوا أماكنَكم بين الصُّفوف، وسابقوا إلى اللّٰه تعالى في الميادين، ولا يهمُّ حجمُ الثَّغر الذي أنتم فيه؛ المهمُّ ألا يُؤتى الإسلامُ من قِبَلِكم! ليس المهمُّ أن تُسند إليكم أدوارُ البطولة؛ كلُّ إنسانٍ في صفِّ الحقِّ بطل، ولو كان واقفاً في آخرِ الصَّف، وأن يكون المرءُ ذليلًا في الحقِّ، خيرٌ له من أن يكون رأسًا في الباطل.

ثـمَّ ذهـبَ ظمـأُ الانتظـار، وابتلَّـتْ عـروقُ اللَّهفـة، وجـاءه الوحـيُ مـرةً أخـرى.

ولنسْـمَعِ الحكايـةَ مـن صاحبهـا، والموقـفَ ممَّـن عاشـه، يقـول النَّبـيُّ ﷺ:

«بينمـا أنـا أمشِـي إذ سـمعتُ صوتًـا، فنظـرتُ عـن يمينـي فلـم أرَ شـيئًا، ونظـرتُ عـن شِـمالي فلـم أرَ شـيئًا، ونظـرتُ أمامـي فلـم أرَ شيئًا، ونظـرتُ خلفي فلم أرَ شيئًا، ثمَّ نُوديتُ، فرفعتُ بصـري إلـى السَّـماء، فـإذا الملَـكُ الـذي جاءنـي فـي حـراء جالـسٌ علـى كرسـيٍّ بيـن السـماء والأرض، فرعبتُ منـه حتَّـى هويتُ إلـى الأرض، فرجعتُ حتَّـى أتيـتُ خديجـة، فقلـت: زمِّلُونـي زمِّلُونـي، دثِّرونـي دثِّرونـي».

ثـم نـزل قـولُ الله تعالـى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الْمُدَّثِّـرُ قُـمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّـكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَـكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْـزَ فَاهْجُـرْ وَلَا تَمْـنُنْ تَسْـتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْـبِرْ﴾.

بالعلَق بـدأتِ النُّبـوَّة، وبالمُدَّثِر بـدأتِ الرِّسـالة؛ أوامـرُ في ظاهرها يسيرة، وفـي باطنهـا سـتقلبُ الدُّنيـا على عقب.

ولكـن مـا قبـل هـذا لا بـدَّ مـن جهـدٍ لا يعقبـه راحـة، ومـن عمـلٍ ليـس فيـه إجـازة. هـذا شـيءٌ وعـاه النَّبـيُّ ﷺ جيّـدًا، فوهـبَ كُلَّـه للرِّسـالة، وواصـل اللَّيـل بالنَّهـار يدعـو دون كلَلٍ، ويعـرض رسـالة ربِّـه دون ملـل، إلـى درجـةٍ كانـت خديجـةُ تُشـفِق عليـه وتطلـب منـه أن يسـتريحَ قليـلًا، فيقـول لهـا: مضـى عهـدُ النَّـومِ يـا خديجـة!

قام بالمدَّثِّر قيامًا لم يقمْهُ من العالمين أحد، وما قعد من تلك اللَّحظة حتَّى كانت لحظةَ: بل الرَّفيق الأعلى!

وقبل أن نمشيَ مع النَّبيِّ ﷺ في طريق دعوته، ونقفَ على أهمِّ محطَّات سيرته، ونستخلص منها ما يجب أن نعيشَه واقعًا لا أن نقرأه كتاريخٍ، لا بدَّ من وقفةٍ مع الوحي في المرَّتين اللَّتين نزلَ فيهما الوحي على النَّبيِّ ﷺ!

لقد عاد إلى خديجة في المرَّة الأولى يرتجفُ ويقول: زمِّلوني، زمِّلوني، وفي المرَّة الثَّانية تملَّكه الرُّعبُ حتَّى سقطَ على الأرض، ثمَّ عاد إلى خديجة يرتجف ويقول: دثِّروني، دثِّروني.

بأبي هو وأمِّي، كم كان وقعُ الوحي عليه شديدًا، وكم عانى ليكون لنا دين!

ومن نَافلَةِ القولِ أن يُقال إنَّ الوحيَ والأوامرَ الربَّانيَّة لم تكن تَنزِلُ على قلبِ النَّبيِّ ﷺ بصورةٍ واحدة، ولَمَّا اختلفتْ صُوَرُ الوحي اختلفتْ بالضرورةِ تأثيراتُها عليه ﷺ.

وكلُّ ما كان يأتيه من وحيٍ يمكن حصرُه في ستِّ هيئاتٍ:

1. الرُّؤيا الصَّادقة، وهي أوّلُ ما بُدِئَ به النَّبيُّ ﷺ من الوحي، ورُؤيا الأنبياء وحي، وما أُوحيَ إلى إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه إلَّا برؤيا رآها في منامه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾!

2. وحيٌ يُلقيه جبريلُ عليه السلام في قلبِ النَّبيِّ ﷺ فيطبعُ فيه دون أن يراه أو يكلِّمه، كقولِ النَّبيِّ ﷺ:

«إنَّ روحَ القُدُس نفَثَ في روعي أنَّ نفسًا لن تموتَ حتَّى تستكملَ أجلَها وتستوعِبَ رزقَها، فاتّقوا اللّه وأجمِلوا في الطَّلب، ولا يَحمِلَنَّ

أحدَكم استبطاءُ الرِّزقِ أن يطلبَه بمعصيةِ اللّه، إنَّ اللّه لا يُنال ما عنده إلَّا بطاعته».

3. وحيٌ يتمثَّل فيه جبريلُ عليه السلام للنَّبيِّ ﷺ رجلًا، وقد يراه الصحابةُ في هذه الهيئة البشريَّة، وهم لا يعلمون أنَّه جبريل عليه السلام، كحديثِ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه: يا محمَّد أخبرني عن الإسلام. وفي نهاية الحديث سألهم النَّبيُّ ﷺ: أتدرون من السائل؟ فقالوا: اللّه ورسوله أعلم. فقال: هذا جبريل عليه السلام أتاكُم يعلِّمكم دينكم.

4. وحيٌ يأتيه مثل صلصلة الجرس، وكان أشدَّ أنواع الوحي على النَّبيِّ ﷺ، حتَّى أنَّه كان يتفصَّدُ عرقًا في اليوم الشَّديد البرد، وإذا ما أتاه وهو على ناقته بركَت به، فلم تستطع المسير. ولقد جاءه هذا الوحي مرَّة، وفخذُه ﷺ على فخِذ زيد بن ثابت رضي الله عنه، فثقلتْ عليه حتَّى كادت أن ترضَّها.

5. وحيٌ يرى فيه النَّبيُّ ﷺ جبريل عليه السلام على صورته التي خلقه اللّه عليها، له ستُّمائة جناح، ولقد رآه مرتين على هذه الحالة، أولى سنوات نبُوَّته.

6. وحيٌ أوحاه اللّه تعالى بلا واسطة جبريل عليه السلام، وهذا كان ليلة المعراج إلى السَّماء، حيث فُرضت الصَّلاة.

7. وغالى بعضهم بمرتبةٍ سابعة، وهي تكليم اللّه تعالى لنبيِّه ﷺ من غير حجاب، وهذا مما لا يصحُّ ولا يثبت، وإن قال به بعض أهل العلم، واللّه أعلم.

الدعوةُ السِّرِّيَّةُ: الإسلامُ ينبُتُ على مَهَل!

كانت مكَّةُ تَغُطُّ في سُباتٍ عميقٍ من الوثنيَّة؛ آلهةُ العربِ بين جنباتها يُطافُ بها، وتُقدَّمُ لها النُّذور، ويُستعانُ بها لقضاءِ الحاجات. وقريشٌ في نشوةِ سُكرِها بمكانتها المقدَّسة عند العرب، ولو جَهَرَ النبيُّ ﷺ يومئذٍ بالدَّعوة لثارُوا عليه كالثَّورِ الهائج قبل أن يجدَ من يؤمنُ به ويذُبُّ عنه. فاقتضتِ الحكمةُ أن تمضيَ الدَّعوةُ في صمتٍ واعٍ حتَّى تُعِدَّ رجالَها الذين يثبتون عند المِحَن، ولا تُزعزِعُهم العذابات، ولا تثنيهم السِّياطُ إذا نزلت على ظهورهم!

وإنِّي أرى أن أسلوبَ الدَّعوةِ السِّرِّيَّةِ باديَ الأمر لم يكن اختيارًا من النَّبيِّ ﷺ، وإنَّما كان وحيًا من الله إليه؛ فليس أحدٌ أشجعَ من النَّبيِّ ﷺ على المواجهة، ولا أحد أكثرَ منه تسليمًا لأمر الله، ولا أحد انْعَقَد في قلبه أنَّ قدرَ الله ماضٍ، وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليصيبَه، وأنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئَه؛ كما انْعَقَد في قلبِ النَّبيِّ ﷺ!

لهذا فإنَّ الدَّعوةَ السِّرِّيَّة لم تكن اختيارًا للسَّلامةِ الشَّخصيَّة، وإنَّما اتِّباعًا لنهج ربانيّ، وما أراده ربُّنا تعالى هو أن ينبتَ الإسلامُ على مهلٍ؛ حتَّى إذا حانت اللَّحظةُ التي يُجهرُ فيها بهذا الدين كان نبتةً عصيَّةً على الاقتلاع!

وكم أتى على المسلمين أزمانٌ كانت ظروفُهم فيها أشبهَ بظرفِ النَّبيِّ ﷺ أولَ الأمر، فكانت سيرتُه ﷺ منهجَ حياةٍ لا قصةً تُروى!

وعلى سبيل المثال لا الحصر: عندما انتشرت محاكمُ التَّفتيش في الأندلس بعد أن غربت شمسُ الإسلام عن تلك البلاد، احتفظ كثيرون بدينهم، وقاموا بعباداتهم سرًّا بعيدًا عن سياطِ الجلَّادين وأقفاصِ الاعتقال. ولمَّا مضى ذلك الوقتُ القاتم، وتمّ تشريعُ قانون الحريَّاتِ الدِّينيَّة هناك، ذُهل القومُ بأعدادِ المسلمين الذين كانوا يُخفون إسلامَهم، وها هم قد جَهَروا بدينهم بعد قرونٍ من الكتمان كانوا يتوارثون هذا الدِّينَ من جيلٍ إلى جيلٍ؛ يُصلُّون خِفيةً ويَصومون خِفيةً، ويُخبِّئون مصاحفَهم في أماكنَ آمنةٍ بعيدًا عن أعينِ القوم!

سيرة النَّبيِّ ﷺ دينٌ، وما جعلَ اللهُ في هذا الدينِ من حَرَج!

في الاتّحادِ السوفيتي ظَلَمَتِ الشيوعيّةُ كلَّ الناسِ وكلَّ الأديان، ولكنَّ المسلمين نالوا القِسطَ الأكبرَ من هذا الطغيان.

أسعد طه له مقالةٌ رائعةٌ بعنوان: «هل شممتَ رائحةَ النَّبيِّ؟» تُلخِّصُ لك المشهدَ كلَّه.

في العاصمةِ الداغستانيَّة مَحَجٍّ قَلعة كانوا يحفظون القرآنَ بشكلٍ لا يُمكنُ تصوُّره؛ كانوا يذهبون إلى الجبال، ويختبئون في الكهوف، يجلسون فيها ولا يخرجون إلَّا بعد أن يحفظوا قَدْرًا من آياتِ اللّه، في انقطاعٍ تامٍّ عن العالم وعن أعينِ الشُّرطة.

أمّا طعامُهم وشرابُهم فكان يَتسلَّلُ إليهم به ذوُوهم، يُعطونهم الزادَ ويَرحلون هربًا.

فـي أوزبكسـتان كان المعلِّمـون يتعمَّـدون إعطـاءَ التلاميـذ فـي نهـارِ رمضـان بعـضَ الأطعمـةِ المجَّانيـة ليكتشـفوا مَـن يصـومُ منهـم، ومَـن لا يصـومُ، والعقوبـةُ تقـع علـى التِّلميـذِ وأهلـه! بـل وكان المعلِّمـون يقومـون بـدورِ المُخبريـن، فيُحقِّقـون مـع التلاميـذ لِيُفشـوا أسـرارَ عائلاتهـم، ليعلمـوا مَـن منهـم مـا زال علـى الإسـلام.

أمُّ أحـدِ التَّلاميـذِ علَّمتـه كيـف يُصلِّـي بحاجِبَيـه إذا حـان وقـتُ الصـلاة.

عجـوزٌ تَتَرِيَّـةٌ فـي جنـوبِ أوكرانيـا، حَكَـت كيـف سَـلَبَتْها قـواتُ «سـتالين» كلَّ شـيءٍ حيـن هجَّرتهـا مـن بلدهـا فـي القِـرم إلـى سـيبيريا، الأرض والبيـت والمـال، ولكنَّهـا كانـت سـعيدةً للغايـة لأنَّهـا احتفظـت طـوال تلـك السـنينِ بمصحفِهـا!

ولكنْ مـا إن سـقطت الشُّـيوعيَّةُ حتَّـى خـرج الإسـلامُ كأنَّـه لـم يُـوأد مـن قبـل، وحيـن كانـت الشُّـيوعية تهـدم مسـاجدَهم، اكتشـف العالـمُ كلُّـه، أنَّ المسـاجدَ كانـت فـي صُـدورِ المسـلمين هنـاك!

دعـوةٌ سـرِّيَّةٌ مارسـها المسـلمون؛ مرحلـةٌ مكيَّـةٌ أولـى أتَـتْ مـرَّةً ومـا زالـت وسـتبقى تتكـرَّر، وهـذا دليـلٌ حـيٌّ علـى أهميَّـةِ دراسـةِ السِّـيرة؛ سـيرة حياتيّـة لا سـيرة تأريخيَّـة.

وفـي دارِ الأرقـمِ بـن أبـي الأرقـم كان التاريـخُ يُكتـبُ هَمْسـاً؛ هنـاك جلـس النَّبـيُّ ﷺ بيـن نَفَـرٍ مـن الصَّفـوَة، يُعلِّمهـم القـرآنَ آيـةً، آيـة، يَسْـكُبُ فـي أرواحهـم يقينـاً لا يَتَزَلْـزَل، ويَغْـرِسُ فيهـم بـذورَ النُّـور لتَنبـتَ فيمـا بعـد راسـخةً، وتَغـدو شـجرةً وارفـةً تُظَلِّـلُ البشـريَّةَ كلَّهـا.

لـم تكـنِ الدَّعـوةُ السِّـرِّيّةُ ضَعفًـا، بـل كانـت حكمـةً ربَّانيَّـةً تَحفَـظُ النُّـورَ فـي غِمـدِه إلـى أن يَحيـنَ وقـتُ الجهـرِ بالدَّعـوة، وتَبنـي القلـوبَ علـى مَهـلٍ، كمـا تُبنـى الجبـالُ بالصَّبـرِ والعَـزْم!

لقـد كانـت تلـك المرحلـةُ مدرسـةَ الإيمـانِ الأولـى؛ فيهـا صُقِلَـتِ النُّفـوسُ، وتطهَّـرتِ القلـوبُ مـن شـوائبِ الجاهليَّـة، وتعلَّـم المؤمنـون معنـى الصَّبـرِ والكِتمـان، وكيـف يكـون الصِّـدقُ مـع اللّه فـي الخفـاء قبـل العَلَـن! كلُّ لحظـةٍ مـن لحظـاتِ تلـك الدَّعـوة كانـت لَبِنـةً فـي صَـرْحٍ شـامخٍ سـيظهر بعـد حيـنٍ فـي هيئـةِ جيـلٍ يحمـلُ الهدايـةَ للبشـريَّة!

طـوالَ مـدّةِ الدَّعـوةِ المكيَّـةِ التـي اسـتمرّت ثلاثـة عشـر عامًـا، ثلاثـةٌ هـي عمـرُ الدَّعـوةِ السِّـرِّيَّة، وعشـرةٌ هـي عمـرُ الدَّعـوةِ الجَهريَّـة، لـم تكتشـفْ قريـشٌ أمـرَ اجتمـاعِ المسـلمين فـي دارِ الأرقـمِ بـنِ أبـي الأرقـم طـوالَ هـذه السِّـنين؛ لـم تُحقِّـقْ قريـشٌ خَرْقـاً أمنيّـاً، ولـم تقـعْ مـن المسـلمين زلَّـةٌ تُظهِـرُ أمـرَ الـدَّار، فبقـيَ مهـد الدَّعـوة الأولـى طـيَّ الكتمـان!

فـي قريـةٍ صغيـرةٍ بيوتُهـا متلاصقـةٌ، والـكلُّ يعـرفُ الـكلَّ، يجتمـع فـي دارٍ صغيـرةٍ جَمْـعٌ مـن الرِّجـالِ، سـادةٌ وعبيـدٌ وبيـنَ بيـنَ ولا يُكتشَـفُ أمرُهـم، لَعَمْـري هـذا واللّهِ أمـرٌ يدعـو إلـى العَجَـب، ويُريـك أهميَّـةَ أن يُخفِـيَ المسـلمون دعوتَهـم جيـدًا فـي لحظـاتِ الاضطهـاد، ويُريـك أهميَّـةَ أن يُحافِـظَ المـرءُ فـي كلِّ شـؤون حياتِـه علـى مـا لا

ضرورةَ لكشفِه للنَّاس؛ فالإنسانُ نهايةَ المطافِ سيّدٌ لما يُخفيه، وعبدٌ لما يُظهِرُه!

ونحن نُشيرُ إلى عظمةِ الدَّعوةِ التي وجدت تُربتَها الخصبةَ في دارِ الأرقمِ بنِ أبي الأرقم، فلا بُدَّ أن نشيرَ إلى فِطْنَةِ النَّبيِّ ﷺ في اختيارِ تلك الدَّار دونًا عن دورِ مكَّةَ كلِّها:

1. كانت دارُ الأرقمِ تقعُ عند سفحِ جبلِ الصَّفا في مكانٍ لا يَلفِتُ الأنظار، بعيدًا عن ضوضاءِ الأسواقِ ومجالسِ قريش، ممَّا جعلها مأمَنًا للدَّعوة، ومكانًا صالحًا لِلقاءِ المؤمنين سِرًّا دون أن تُكتشَف.

2. كان الأرقمُ بن أبي الأرقم شابّاً صغيراً في السابعةِ عشرةَ من عمره، ولم يكن معروفًا بمُعارضةِ قريش أو مشاركتِها في خصوماتٍ، فلم يخطرْ ببالهم أن تكونَ دارُه مركزًا لتجمُّعِ المؤمنين، فكان هذا عاملًا في حفظِ السِّرِّ وكتمانِ الأمر.

3. لم يكن الأرقمُ بن أبي الأرقم مشهورًا بإسلامه، فلم تتم مُراقبة بيتِه من قِبَلِ قريش؛ فالنبيُّ ﷺ والصحابةُ من الرعيلِ الأوَّل، الذين بدأ ينتشرُ خبرُ إسلامِهم كأبي بكرٍ ﷺ، لا تصلحُ بيوتُهم لهذا الأمر!

4. الأرقمُ بن أبي الأرقم من بني مخزوم، وبنو مخزوم هم الفرعُ من قريش الذي بينه وبين بني هاشم سباقٌ محمومٌ نحو سيادةِ قريش، فيستحيلُ أن يخطرَ على بالِ أحدٍ أن يجتمعَ النَّبيُّ ﷺ الهاشميُّ في عُقرِ دارِ عدوِّه.

هـذا درسٌ بليـغٌ بـاقٍ أبـدَ الدَّهـرِ، اختيـارُ ميـدانِ الدَّعـوةِ مـن أهـمِّ أسـبابِ نجاحِها، واختيـارُ البيئـةِ المناسـبةِ مـن أهـمِّ أسـبابِ قَطْفِ مـا تمَّ زرعُـه، فضَـعْ نفسـك دومـاً فـي البيئـةِ التـي تُقـدِّرك، أو التـي تـرى أنَّ جُهـدَك فيهـا لـن يذهـبَ هبـاءً.

صحيـحٌ أنَّنـا مأمـورون بالسَّـعي ولسـنا مسـؤولين عـن النَّتائـج، ولكـن مـن حُسـنِ السَّـعيِ حُسـنُ اختيـارِ الميـدان!

لـم تتجـلَّ فِطنـةُ النَّبـيِّ ﷺ باختيـارِ البيـتِ الحاضـنِ للدَّعـوةِ فقـط، وإنَّمـا كانـت فِطنتُـه فـي اختيـارِ المَدعوِّيـن إلـى ذلـك البيـت أكثـرَ عجبـاً؛ فإنَّمـا الدِّيـارُ بأهلِهـا، والإعجـازُ فـي اختيـارِ القلـوبِ والأبـدان أعظـمُ منـه فـي اختيـارِ الجـدران.

ولـم يكـن مُسـتغرَباً أن يبـدأَ النَّبـيُّ ﷺ بالدائـرةِ القريبـةِ منـه؛ هـؤلاء الذيـن عايشـوه وعايشَـهم، وخَبِـروه وخَبِرَهُـم، عـرف معادنَهـم وعرفـوا معدنَـه، فكانـت أولـى النَّـاسِ إسـلاماً أمُّنـا خديجـةُ رضـي اللّٰه عنهـا.

هـذه المـرأةُ العظيمـةُ التـي مـا تـردّدت قيـدَ أُنملـةٍ عـن الإيمـانِ بالدِّيـن الـذي جـاء بـه زوجُهـا، وبإسـلامِها صـارتِ الدِّيـارُ آمنـةً، ظهـرُهﷺ مَحْمـيٌّ، وعقـلٌ راجـحٌ يَسـتعينُ بـه، وحضـنٌ حنـونٌ يـأوي إليـه. خديجـةُ رضـي اللّٰه عنهـا لا يُشـبهُها أحـدٌ ولا تُشـبهُ أحـدًا؛ بإسـلامها شـاطرَتْه الإسـلام، فحملـتْ معـه نصفَـه، وحملَ هـو نصفَـه، ثـم بـدأ الإسـلامُ يتـوزَّعُ علـى النَّـاس!

خديجـةُ رضـي اللهُ عنهـا درسٌ بليـغٌ مفـادُه: إنَّ البيـتَ هـو كلُّ شـيء؛ كلُّ الخـرابِ فـي الخـارجِ لا يضـرُّ مـا دامـت السَّـكينةُ تُظلِّـلُ البيـتَ مـن الدَّاخـل.

فأحسِنوا الاختيـار؛ ولسـتُ أُبالـغُ إذ أقـول: إنَّ ثلاثـةَ أربـاع سـعادةِ الإنسـانِ أو شـقائه مرتبطـةٌ برفيـقِ عمـره، ومـا تبقَّـى رُبـعٌ يسـيرٌ مهمـا كان شـاقّاً يمكـن التَّعامـلُ معـه، والالتفـاف عليـه!

ومـن الدائـرةِ القريبـةِ للنَّبـيِّ ﷺ مـولاهُ زيـدُ بـن حارثـةَ ﷺ، وابـنُ عمِّـه علـيُّ بـن أبـي طالـبٍ ﷺ، الـذي كان يومئـذٍ صبيّـاً يعيـش فـي كفالتِـه، وقـد أسـلما منـذ اللَّحظـةِ الأولـى التـي عـرض فيهـا النَّبـيُّ ﷺ عليهمـا الإسـلام.

وبإسـلامِ بناتِـه الأربـع أحكـمَ النَّبـيُّ ﷺ إغـلاقَ دائرتـه الصَّغيـرة مـن حولـه.

لا شـكَّ أنَّ خديجـةَ رضـي اللهُ عنهـا كانـت أوّلَ هـذه الأُمَّة إسـلامًا، أمَّـا البقيَّـةُ التـي ذُكِـرَت مـن الدائـرةِ الضَّيِّقـةِ للنَّبـيِّ ﷺ فـلا يمكـنُ الجـزمُ أبـدًا بترتيـبِ دخولِهم فـي الإسـلام؛ مـا يمكـنُ الجـزمُ بـه أنَّهـم الرّعيـلُ الأوَّل، وأنَّهـم أسـلموا تباعًـا فـي أيَّـام الإسـلامِ الأولـى، ولا يُعلَـمُ يقينـاً أَسَـبَقَ أحـدٌ منهـم أبـا بكـرٍ فـي الإسـلام، أم هـو الـذي سـبقهم؛ ولكـن مـا يُعلَـمُ يقينـاً أن إسـلامَ النَّـاسِ جميعًـا كان فـي كفَّـة، وإسـلامَ أبـي بكـرٍ ﷺ فـي كفَّـة.

كان أبـو بكـرٍ ﷺ صديـقَ النَّبــيِّ ﷺ قبـل البعثـة، وكان موضـعَ سِـرِّه ورفيـقَ دَربـه، وحيـن رآه ﷺ عـرضَ عليـه الإسـلامَ فلـم يتـردَّد لحظـة، وبقـي النَّبـيُّ ﷺ يذكُرُهـا لـه حتَّـى آخـرِ عمـرِه، فيقـول: «مـا عرضـتُ الإسـلامَ علـى أحـدٍ إلَّا كانـت لـه كَبْـوَة، غيـرَ أبـي بكـرٍ، فإنَّـه لـم يتلَعْثَـم».

ولسـتُ أُبالِـغ إذ أقـول إنَّ النَّبـيَّ ﷺ اسـتندَ علـى كتفيـن فـي دعوتِه: علـى كتفِ خديجـة، وعلـى كتفِ أبـي بكـر! كانـا جُنديَّيْـه الأكثـرَ ثباتًـا، خديجـةُ تَحرُسـه مـن الدَّاخلِ وتَحمِلُ معـه، وأبـو بكـرٍ يَحرُسـه خـارجَ البيـتِ ويَحمِـلُ معـه.

كان أبـو بكـرٍ يتحـرَّك داعيًـا إلـى الإسـلامِ كأنَّمـا الإسـلامُ قـد أُنـزِل عليـه؛ لـم تكـن الدعـوةُ عنـده مجـرَّدَ تَكاليـف مـن النَّبـيِّ ﷺ، وإنَّمـا انبـرى ليحمِـلَ الإسـلامَ حَمْـلَ الصَّادقيـن الثَّابتيـن، مـن اللَّحظـةِ التـي أسـلمَ فيهـا إلـى اللَّحظـةِ التـي غـادَرَ فيهـا الدُّنيـا، فجـزاهُ اللهُ عنَّـا وعـن الإسـلامِ خيـرَ مـا جـزى رفيـقَ نبـيٍّ علـى صُحبَتِـه!

إنَّ الأسـماءَ التـي أتـى بهـا أبـو بكـرٍ الصِّدِّيـق للإسـلامِ تُزَلْـزِلُ الجبـال؛ أسـلمَ علـى يَدَيْـه: عثمـانُ بـن عفَّـان، والزُّبيـرُ بـن العـوَّام، وسـعدُ بـن أبـي وقَّـاص، وطلحـةُ بـن عُبيـدِ اللهِ، وعبـدُ الرَّحمـنِ بـن عـوف.

هـؤلاءِ الخمسـةُ مـن العشـرةِ المُبَشَّـرين بالجنَّـة! تخيَّـل أنَّ نصـفَ العشـرةِ أتـى بهـم أبـو بكـرٍ الصِّدِّيـق إلـى الإسـلام، فكانـوا فـي صَحيفتِـه.

ولو تفرَّسْنا عميقًا في هؤلاءِ الخمسةِ لتبيَّنَتْ لنا الاستراتيجيَّةُ التي عملَ بها النَّبيُّ ﷺ وصاحِبُه!

إنَّ هذه الأسماءَ محفورةٌ في أذهانِنا على أنَّها عمالقةُ الإسلام، وهم كذلك حقًّا، ولكنَّ الذي لا يمكن لنا أن نتخيَّلَه لعظمة هذه الأسماء، أنَّهم جميعًا كانوا في رَيْعانِ الشَّباب!

الزُّبيرُ بن العوَّام كان في الخامسةِ عشرة، وطلحةُ بن عُبيدِ الله في السَّادسةِ عشرة، وسعدُ بن أبي وقَّاص في السَّابعةِ عشرة، وعثمانُ بن عفَّان في الثَّامنةِ والعشرين، وعبدُ الرحمنِ بن عوف في الثَّلاثين.

لم يكنِ التَّركيزُ على فئةِ الشَّبابِ عَبَثًا أبدًا، وإنَّما كان استهدافًا واعيًا مقصوداً لأسباب:

1. الشَّبابُ لم يَطُلْ عليهم الأمدُ في الاستمرارِ على تقاليد معيَّنة، ولم يعتادوا على عبادةِ الأصنامِ لسنواتٍ طويلة، ولم يتمسَّكوا بالدِّفاعِ عنها. عقولُهم متحرِّرة، والجاهليَّةُ ليستْ متجذِّرةً فيهم تَجذُّرَ أولئك الطَّاعنين في السِّنِّ الذين عكفوا على الشِّركِ عقوداً من الزمن.

2. الشَّبابُ ليس بينهم وبين الجاهليَّةِ وِحدةُ مصيرٍ أو انتفاعٌ من واقعِ الحال، بحيثُ يكون تركُهم لما هم عليه خسارة فادحة لمكانتهم الاجتماعيَّة أو السِّياسيَّة، فهؤلاء لا يقفون ضدَّ الإسلام لأنَّه إسلام، إنَّهم يقفون ضدَّه لأنَّه ضِدُّهم!

الوليدُ بن المُغِيرة، وأبو جهل، وعُتْبةُ بن ربيعة، وأبو سُفيان هم «الدَّولةُ العميقة» للمجتمعِ القُرَشِيِّ، والجاهليَّةُ يصعبُ مقاومةُ جذورها.

أمَّـا الشـباب فكانـوا أحـرارًا مـن رِبْقـةِ كلِّ هـذه الاعتبـاراتِ السِّياسـيَّةِ والاجتماعيَّـة التـي كانـت تُكَبِّـلُ سـادةَ قريـش.

3. الشَّـبابُ بصفـةٍ عامَّـة مولعـون بالتَّجديد، ولهـذا تجدُ اليوم أنَّ أتبـاعَ الموضـة، واللَّاهثيـن خلـف «الترنـدات» فـي غالبيتهـم العظمـى مـن الشَّـباب. إنَّهـم فئـةٌ منفتحـةٌ علـى التَّغييـرِ واتبـاعِ الجديـد، سـلباً كان أم إيجابـاً. ولهـذا لـم يكـن مسـتغربًا أن تكـون فئـةُ الشَّـبابِ هـي الميـدانَ الـذي أولاه الإسـلامُ عنايتَـه الكبـرى، فجـاء بهـم مـن الضَّـلالِ إلـى الهـدى.

4. إنَّ اللّه تعالـى أعطـى الشَّـبابَ حماسـةً عاليـةً ونشـاطاً فائضـاً؛ فـلا يعترفـون بالصَّعـب، ولا يَلِينـون أمـام المسـتحيل، وحملُ الإسـلام صعـبٌ وشـاقٌّ، يحتـاج إلـى عزيمـةِ الشَّـباب. وليـس معنـى هـذا أنَّ الشُّـيوخَ ليـس لهـم مـكانٌ فـي حمـلِ دعـوةِ الإسـلام، ولكـنَّ فرصـةَ إيمـانِ الشَّـباب وحركتِهـم بعـد الإيمـان وثباتِهـم علـى مـا يَلْقَـوْن أكبـرُ مـن فرصـةِ الشُّـيوخ، ومـن المُؤكَّـد أيضًـا أنَّ الدعـوةَ تحتـاج إلـى حكمـةِ الشُّـيوخ إلـى جانـبِ حماسـةِ الشَّـباب.

سَـلْ أيَّ مديـرٍ جديـدٍ لمدرسـةٍ أو مؤسَّسـةٍ: مـن هـي الفئـةُ التـي اسـتجابت للجديد، ومـن هـي الفئـةُ التـي حاولـت أن تُعرقِـلَ التَّغييـر؟ تجدُ أن الجـوابَ واحـدٌ لا يتغيَّـر: يتقبَّـلُ الشَّـبابُ التَّغييـرَ لأنَّهـم أقـلُّ التِصاقًـا بالنِّظـامِ القديـم، أمَّـا الجيـلُ القديـم، فـإنَّ المؤسَّسـةَ تعيـشُ فيـه أكثـرَ ممَّـا يعيـشُ فيهـا!

الغريبُ أنَّه طوالَ ثلاثِ سنواتٍ، هي عُمر الدَّعوة السِّرِّيَّة، لم تتعرَّضْ قريشٌ للمسلمين بأيِّ أذىً، رغم أنَّ أخبارَ الدَّعوةِ الجديدة كانت تطرُقُ مَسامِعَها بين يومٍ وآخر. والسَّببُ برأيي، أنَّها لم تكن المرَّةَ الأولى التي تظهرُ فيها دعوةٌ في قريش؛ فقد ظهر فيهم من قبلُ أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلْت، وزيدُ بن عمرو بنِ نُفَيْل، وقِسُّ بن ساعدة، وكانوا حُنَفاءَ على دينِ إبراهيمَ عليه السلام، وكانوا يَعيبون على قريشٍ دينَهم ويتحدَّثون بالتَّوحيد، ولكنَّ دعوةَ كلِّ هؤلاء كانت فرديَّة، ثمَّ ما لَبِثَتْ أن اندثرتْ بموت أصحابِها، فكانت قريشٌ تَقِيسُ على ما سبق!

أيضًا كان وَرَقَةُ بن نَوْفَل قد تَنَصَّر، ومضى كما مضى أصحابُه الأحناف دون أن تَكْتَرِثَ قريشٌ لأمرِهم.

لهذا كانت تَحْسَبُ أن دعوةَ الإسلام ما هي إلَّا كسابقاتِها، سيأتي عليها الزَّمنُ وتندثر، فلم يكن من داعٍ لأيِّ نوعٍ من أنواعِ المواجهة.

كان قانونُ قريشٍ واضحَ المعالم، طِبْقَ الأصلِ من قانونِ الرُّومان: «ما لِقَيْصَر، لِقَيْصَر، وما للهِ لله»!

كانت راضيةً أن تحكمَ وتَتَسَيَّدَ وتُقَرِّرَ وتحظى بالمكانةِ الاجتماعيَّة والسِّياسيَّةِ والدِّينيَّة بين العرب، ثمَّ لا يهمُّها أن يخرجَ صوتٌ خافتٌ من هنا أو هناك. أمَّا أن يأتيَ دينٌ جديدٌ يَهُزُّ قواعدَ الجاهليَّة، ويُحَرِّكُ أساساتِها وثوابتَها، ويتدخَّلُ في

كلِّ شـؤونِ الحيـاة، ويُنَظِّـمُ ويُشَـرِّع، بـل ويطـرحُ نفسَـه بديـلاً عـن كلِّ هـذه المنظومـةِ السَّـائدة، والأخطـرُ أنَّ فيـه تهديـداً شـخصيّاً لمكانـةِ السَّـادةِ والدَّولـةِ العميقـةِ لقريـش، فهـذا مـا لا يمكـن لقريـش أن تَسْـكُتَ عنـه بـأيِّ حـالٍ مـن الأحـوال، وفـي اللَّحظـةِ التـي عَـرَضَ فيهـا الإسـلامُ نفسَـه علـى المجتمـعِ عَرْضًـا لا مُوارَبَـةَ فيـه، دخلَـتِ الأمـورُ مرحلـةً جديـدة، ويمكـنُ تسـميتُها مرحلـة كَسْـرِ العَظْـم، والعـضِّ علـى الأصابـع، أيُّ الدَّعوتيـن يَصْمـدُ أكثـر، وأيُّ الطَّـرَفَيْـن يَصـرُخُ أوَّلاً!

الدَّعوة الجهريَّة: الإسلامُ في مواجهةِ الجاهليَّة!

اِنقضى عهدُ الهَمْسِ في دارِ الأَرْقَم، وآنَ أوانُ الجَهْرِ بالحقِّ في بَطحاءِ مَكَّة، حيثُ وقفَ النَّبيُّ ﷺ مُعلِنًا رِسالته على رؤوسِ الأشهاد، يَقرَعُ قلوبَ قُريشٍ، ويرفعُ لواءَ النورِ في وجهِ الظُّلْمة، ويُضيءُ شَمْعَةَ التوحيدِ في ليلِ الشِّرْكِ البهيم.

ما كان الجهرُ بالحقِّ في مكَّة صوتاً يُقال، بل زلزلةً تُبدِّلُ موازينَ الأرض!

كانت كلمةُ التَّوحيدِ كالسَّيفِ تَقطَعُ أَغلالَ العِباد، وتَشُقُّ طريقَ الحريَّةِ في نُفوسٍ استُعبِدتْ للأصنامِ وللحجارة.

منذ أنِ ارتفعَ ذلك الصَّوتُ الهادرُ عند جبلِ الصَّفا، والعالَمُ كلُّه يتبدَّل. لقد كانت الدَّعوةُ الجَهريَّةُ امتحاناً للإيمانِ وتمييزاً للصُّفوف؛ فهُناك من انكشفتْ سَريرتُه فاستكبرَ وكذَّب، وهناك من أشرقَ قلبُه فآمنَ وصدَّق.

سَمِعَها المستضعفون فوجدوا فيها عزَّهم، وسمعَها الجبابرةُ فارتجفَ لها سلطانُهم، وسمعَها أصحابُ الفِطرةِ السَّليمة الذين لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاء، فوجدوا فيها امتلاءً لِخَواءِ أرواحِهم الذي أحدثتْه الجاهليَّة!

وكما أنَّ الدَّعوةَ السِّرِّيَّة لم تكنِ اجتهادًا من النَّبيِّ ﷺ، بل وحياً مِن الله تعالى، كذلك الدَّعوةُ الجهريَّةُ؛ كانتْ بالوحي! لقد

نـزل أمـرُ اللّه تعالـى لنَّبيِّـه ﷺ: ﴿وَأَنــذِرْ عَشِــيرَتَكَ الأَقْرَبِــينَ﴾، فدعـا بنـي هاشـم، فحضـروا، وكان قـد تَناهـى إلـى سـمعِ أبـي لَهَـبٍ بعـضُ مـا تَناهـى إلـى سـمعِ قريـشٍ أنَّ النَّبـيَّ ﷺ يدعـو سِـرّاً إلـى ديـنٍ جديـد! وقبـلَ أن يتكلّـمَ النَّبـيُّ ﷺ عاجَلـه أبـو لهـب، فقـال لـه: هـؤلاءِ هـم عُمومتُـك وبنـو عمِّـك، فتكَلَّمْ ودَعِ الصُّبـاة، واعلـمْ أنَّـه ليـس لقومِـكَ بالعـربِ قاطبـةً طاقـة، وأنَّـا أحـقُّ مَـن أخـذَك، فحَسْـبُكَ بنـو أبيـك، وإن أقمـتَ علـى مـا أنـتَ عليـه، فهـو أيسـرُ عليهـم مـن أن تثِـبَ بـك بُطـونُ قريـشٍ، وتَمدُّهُـم العـرب، فمـا رأيـتُ أحـداً جـاء علـى بنـي أبيـه بشـرٍّ ممَّـا جئـتَ بـه، فَسَـكَتَ النَّبـيُّ ﷺ ولـم يتكلَّـمْ فـي ذلـك المجلـس.

ثـم دعاهُـم مـرَّةً ثانيـة، وقـال: الحمـدُ للّه، أحمَـدُه وأسـتعينُه، وأؤمِـنُ بـه وأتـوكلُ عليـه، وأشـهدُ أنْ لا إلـهَ إلا اللّهُ وحـدَه لا شـريكَ لـه، إنَّ الرائـدَ لا يَكـذِبُ أهلَـه، وواللّـهِ الـذي لا إلـهَ إلا هـو، إنِّـي رسـولُ اللّهِ إليكـم خاصّـةً وإلـى النَّـاسِ عامَّـة، واللّهِ لَتَموتُـنَّ كمـا تَنامـون، ولَتُبعَثُـنَّ كمـا تَسـتَيقِظون، ولَتُحاسَـبُنَّ كمـا تَعمَلـون، وإنَّهـا الجنَّـةُ أبـدًا أو النَّـارُ أبـدًا!

فقـال أبـو طالـب: مـا أَحـبَّ إلينـا معاونتَـك، وأقْبَلَنـا لنصيحتِـك، وأشـدَّ تصديقَنـا لحديثِـك، وهـؤلاءِ بنـو أبيـك مجتمعـون، وإنَّمـا أنـا أحدُهـم غيـرَ أنِّـي أسـرَعُهم لمـا تُحِـبُّ، فامـضِ بمـا أُمِـرتَ بـه، فواللّـهِ لا أزالُ أحوطُـك وأمنعُـك، غيـرَ أنَّ نفسـي لا تُطاوعُنـي فِـراقَ ديـنِ عبـدِ المطلـب.

فقـال أبـو لهـب: هـذه واللّٰهِ السَّـوْأة! خُـذوا علـى يديـه قبـل أن يأخـذَ غيركـم!

فقال أبو طالب: واللّٰهِ لَنَمنَعَنَّهُ ما بقينا!

يَتّضِحُ أنَّ بني هاشم كانوا على ثلاثة تيَّارات:

التيَّـارُ الأول: مـن آمـنَ واتَّبـعَ النَّبـيَّ ﷺ، كعلـيِّ بـن أبـي طالـب، وعُبيـدة بـن الحـارث، وسـائر مـن آمـن لاحقًـا، وهـؤلاءِ جمعـوا الإيمـانَ مـع النُّصـرة.

التيَّـارُ الثَّانـي: مـن لـم يُؤمِـنْ بالنَّبـيِّ ﷺ، لكنَّـه تعهَّـد بحمايتـه والدِّفـاعِ عنـه، علـى عـادةِ العـربِ فـي الجاهليَّـة بحميَّتهـا وعصبيَّتهـا للرَّحـم والـدَّم، ورأسُ هـذا التيَّـار أبـو طالـب، وسـائرُ بنـي هاشـم الذين لـم يكونـوا مـن التيَّـار الأول.

التيَّـارُ الثَّالـث: مـن لـم يؤمـن بالنَّبـيِّ ﷺ ونَصَـبَ لـه العـداء منـذ اللَّحظـةِ الأولـى، وكان هـذا التيَّـار متمثِّـلاً فـي بيـتِ أبـي لهـبٍ كلِّـه، أبـو لهـبٍ، وزوجتـه أمُّ جميـل حَمَّالـةَ الحطـب، وولـداه اللـذانِ اسـتجابا لأبيهمـا، فقامـا بتطليـقِ ابنتَـي النَّبـيِّ ﷺ: رُقيَّـةَ وأمَّ كُلثـوم.

وَهَذا حالُ أحدِنا دومًا مع أقاربه ومعَ النَّاس!

صِنـفٌ يَـرى الخيـرَ الـذي فيـك، فيكـونُ معـك عَضُـداً ونصيـراً، وصِنـفٌ لا يتبنَّـى الخيـرَ الـذي تدعـو إليـه، ولكنَّـه يأبَـى أن تُظلَـم، وصِنـفٌ يُناصِبُـك العـداء!

وفي حياةِ كلِّ واحدٍ منَّا هذه الأصنافُ الثَّلاثة.

وبعدما بلَّغَ النَّبيُّ ﷺ رسالة ربِّه إلى عشيرتِه، حانَ الآن دورُ قريشٍ قاطبةً، فصَعدَ على الصَّفا، وجعل يُنادي: يا بني فِهر! يا بني عَدِيٍّ! يا بني مَخزوم!، حتَّى نادَى على بطونِ قريشٍ كلِّها، فاجتمعوا عليه، وجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسلُ عنه رسولاً لِينظر ما الخبر.

فجاء أبو لهبٍ وقريش، فقال النَّبيُّ ﷺ: أرأيتم لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تُغِيرَ عليكم، أكنتم مُصدِّقيَّ؟

فقالوا: ما جرَّبْنا عليك كذباً.

فقال: فإنِّي نذيرٌ لكم بينَ يدي عذابٍ شديد!

فقال أبو لهب: تبًّا لك سائرَ يومِكَ، ألهذا جمعتَنا؟!

فَنزل قولُ اللهِ تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾!

ثم قال النَّبيُّ ﷺ: يا معشرَ قريش، اشتروا أنفسَكم، لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبدِ المطَّلب، لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا صَفِيَّة عمَّةَ رسولِ الله لا أُغنِي عنكِ من الله شيئاً، يا فاطمة بنتَ رسولِ الله، سَليني ما شئتِ من مالي، لا أُغنِي عنكِ من الله شيئاً!

ولمّا صَدَعَ النَّبيُّ ﷺ بما أُمِرَ، اضطَربتْ مكَّة اضطرابَ الرِّيحِ العاصف، وارتجَّت أركانُ الجاهليَّة ارتجاجَ الشَّجرةِ حين تُصيبُها الصَّواعق.

هناك انقلبتْ قريشٌ على عاداتِها، وتغيَّرت وُجوهُ سادتها، إذ علمَتْ أن ما دعا إليه النَّبيُّ ﷺ ليس قولَ شاعرٍ ولا هذيانَ كاهن؛ إنَّها دعوةٌ تقلبُ مكَّةَ رأساً على عَقِب.

اِنفجـرتْ مكَّـةُ بمشـاعرِ الغضـب، وهاجـتْ بالغَرابـة، وماجـتْ بالاسـتنكار حيـن سـمعتْ صوتـاً يَجهـرُ بتضليـلِ المشـركين وعبـادةِ الأصنـام، كأنَّـه صاعقـةٌ قصفـتِ السَّـحابةَ فرَعَـدَتْ وبَرقـتْ، وزلـزلَـتِ الجوَّ الهـادئ، وقامـتْ قريشٌ تَسـتعِدُّ للقضـاءِ علـى هـذهِ الثَّـورةِ التـي اندلعـتْ بَغتـةً، وتَخشَـى أن تأتـيَ علـى تقاليـدِها وموروثاتِـها ومكانتِـها، بـل أن تأتـيَ علـى هـذه المنظومـةِ الجاهليَّـةِ بأسـرِها.

قامـتْ لأنَّـها عَرَفَـتْ أنَّ معنـى الإيمـانِ يَنفـي الألوهيَّـة عمَّـا سـوى اللّه، وأنَّ معنـى الإيمـانِ بالرِّسـالةِ وباليـومِ الآخـر هـو الانقيـادُ التـامُّ والتَّفويضُ المطلق، بحيثُ لا يَبقَـى لهـم خيـارٌ فـي أنفسِـهم وأموالِهـم فضـلًا عـن غيرِهـم.

ومعنـى ذلـك كلِّـه: انتفـاءُ سـيادتِهم وكِبريائِهـم علـى العـرب، تلـك السِّـيادةُ التـي كانـت بالصِّبغـة الدِّينيَّـة، وقـد جـاء الإسـلامُ ليهـدمَ هـذا كلَّـه!

والحقيقـةُ أنَّ هـذه هـي مشـكلةُ الجاهليـاتِ فـي كلِّ العصـور! إنَّـها ليسـت ضـدَّ الحـقِّ لأنَّـه حقٌّ، بـل لأنَّ هـذا الحـقَّ يمـدُّ يـدَه ويهـزُّ أركانَ باطِلِهم.

إنَّـه الشُّـعورُ بالتَّهديـد، وفقـدانِ المـكان، وانهيـارِ المنظومـةِ التـي يَعتاشـونَ منهـا!

إنَّـه الشُّـعورُ بفقـدانِ الامتيـازات، وسـحبِ البِسـاطِ مـن تحـتِ أرجلهـم!

إنَّ أخطرَ ما في الحقِّ بالنِّسبةِ إلى الباطل أنَّه لا يُنادي بالتَّعايشِ مع الباطل، وإنَّما بالقضاءِ عليه!

وانظرْ حولَك اليوم، تجدْ أنَّ الباطلَ مُتسامِحٌ مع الباطلِ الذي لا يُشبِهُه، لأنَّه لا يجدُ فيه تهديدًا، أمَّا حين يتعلّقُ الأمرُ بالإسلام، فلا هَوادةَ ولا قِيَمَ ولا مبادئ!

إنَّهم مع حريَّة المرأة في أنْ تَتعرَّى، وضِدّ حريَّتها في أنْ تتحجَّب!

إنَّهم مع حريَّة مقاومةِ المحتلِّ، ما دامتْ هذه المقاومةُ ليس لها رايةٌ تُهدِّدُ باطلَهم، أمَّا حين تُرفَعُ راية الجهاد، تتحوَّلُ عندهم المقاومةُ إلى إرهاب، ومن فعلٍ نبيلٍ يستحقُّ الإشادة، إلى فعلٍ خطيرٍ يستحقُّ التَّجريم!

ومنذ فجرِ الدَّعوةِ الأولى إلى غروبِ شمسِ هذا الكوكب، لن تجدَ شيئًا يجمعُ كلَّ أهلِ الباطل إلَّا شعورُهم بالتَّهديدِ من أهلِ الحقِّ!

تفهّمُوا هذه النُّقطةَ جيدًا، دينُكم ليس فكرةً نظريَّةً ليدخلَ في دائرةِ حريَّةِ الرَّأي والمعتقد،

دينُكم فكرةٌ عمليَّة، وتطبيقٌ يوميٌّ، ومنهجُ حياة، وهنا مكمنُ جمالِه وخطورته في آنٍ معًا!

والحقُّ يُقال إنَّ قريشًا تدرَّجتْ في مواجهتِها لدعوةِ الإسلام تدرُّجًا لافِتًا للنَّظر، فهي لم تلجأ إلى استخدامِ القوَّة المفرطة منذ اللَّحظةِ الأولى، وإنَّما سبقَت مرحلةُ الاضطهاد التي أذاقتْ فيها

المسلمين الويل، مرحلةٌ من المقاومةِ النَّاعمة والثَّورةِ المُضادَّة، وأخذت هذه المقاومةُ النَّاعمة تتخلَّى شيئًا فشيئًا عن اتِّزانها كلَّما ظهرَ لهم أنَّها لا تُجدي نفعًا في صرف المسلمين عن دينهم، وفي صرف النَّاس عن النَّبيِّ ﷺ!

هذا التَّدرُّج في المجابهة يجبُ الوقوفُ عنده، لا للإشادةِ بحكمةِ قريش، فأيُّ حكمةٍ في مجابهة الحقِّ بغضِّ النَّظر عن وسيلةِ مجابهته؟! ولكن لأنَّ الثَّورةَ المضادَّة التي قامت بها قريش ما زالت تتكرّر في كلِّ عصرٍ يشهد صراعًا بين الحقِّ والباطل! وما يعيشه المسلمون اليوم في ظلِّ الهجمة الشَّرسة على دينهم، سبق وأن عاشه المسلمون الأوائل بحذافيره في مكَّة!

1. المساومة:

جاء مُشركو قريشٍ إلى أبي طالبٍ يشكون إليه النَّبيَّ ﷺ، وقالوا: إنَّا واللّهِ لا نصبرُ على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتَّى تَكُفَّه عنَّا أو ننازله وإيَّاك!

ثمَّ خفَّفوا حدَّة الخطاب، فقالوا: قُلْ له إن أراد مُلكًا ملَّكناه علينا، وإن أراد مالًا جعلناه أكثرنا مالًا، وإن أراد نساءً زوَّجناه ما شاء، وإن أراد السِّيادة أعطيناه مفاتيحَ الكعبة، ويكفُّ عنَّا هذا الذي جاء به!

فقال النَّبيُّ ﷺ لعمِّه: واللّهِ يا عم، لو وضعوا الشَّمسَ في يميني، والقمرَ في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه حتَّى يُظهره اللّه أو أَهلِكَ دونه!

إنَّها سياسةُ العصا والجزرةُ التي تتكرّر في كلِّ عصر، عرضٌ في ظاهره المنح وفي باطنه التَّهديد، خُذْ من دُنيانا ما شئتَ، وأعطنا من دينك ما نشاء!

وما أكثر ما رأيناه من هذا في أيَّامنا، والثَّابتُ من ثبَّته اللّه!

وعندما فشلتْ قريش في المساومة على الدِّين بالدُّنيا، انتقلتْ إلى المساومة على الدِّين بالدِّين!

فقد جاءَ رهطٌ من قريشٍ إلى النَّبيِّ ﷺ، وقالوا له: يا مُحمَّد، هَلُمَّ، فاتَّبِعْ ديننا، ونتَّبع دينَك، تعبُدُ آلهتَنا سنةً، ونعبدُ إلهَك سنة، فإن كان الذي جِئتَ به خيرًا ممَّا بأيدينا شَركنَاك فيه وأخذنا بحظِّنا منه، وإن كان الذي لدينا خيرًا مما في يَدِك، شركتَنا في أمرِنا، وأخذتَ بحظِّك!

فقال لهم النَّبيُّ ﷺ: معاذ اللّهِ أن أشركَ به غيره!

فأنزلَ اللّه تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾!

وغَدَا رسولُ اللّه ﷺ إلى المسجد الحرام، وفيه الملأُ من قريشٍ، فتلى عليهم السُّورة، فأيِسوا منه عند ذلك.

عندما يفشل الباطلُ في إسكات الحقِّ إسكاتًا مُطبقًا، فإنَّه يسعى إلى إفساد منهجه، فإن ثبَّتَ اللّه أهلَ الحقِّ، استعر أهلُ الباطل في عداوتهم، وإن أجابوا صاروا إلى دعوةٍ رخوةٍ مشوَّهة، لا فيها دنيا الباطل، ولا فيها آخرة الحقِّ، ففاتَتْهُم الدَّاران، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللّه!

2. صَدُّ النَّاسِ عن الاستماع إلى دعوة الحَقِّ:

بذلتْ قريشٌ جهدَها لصدِّ النَّاس عن الاستماع إلى النَّبيِّ ﷺ، فقد رأت أن كلامَه يجذب القلوب، وأنَّ صوته إذا نفذَ إلى السَّمع، لم يخرج إلَّا وترك فيه أثرًا، فراحت تفتعل الحِيَل لتغلق الأسماع عن صوتِ التَّوحيد!

وقد بلغ بهم المكر أن وضعوا الحُرَّاس على الطُّرقات المؤدِّية إلى مكَّة، فإذا أقبل وفدُ حجيجٍ أو تُجَّارٍ، قالوا له: إيَّاكَ ورجلًا في المسجد يدَّعي النُّبوَّة، فإنَّه يسحر العقول ويُفرِّق بين المرءِ وأهله!

ومن سُفْهِ وسائلهم أنَّهم أمروا رجالهم أن يتَّبعوا النَّبيَّ ﷺ في المواسم، فإذا قام يحدِّثُ النَّاس بآيات ربِّه صاحوا خلفَه، وأحدثوا شغبًا وجلبةً، مصداق قول ربِّنا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾!

وما أشبهَ اليومَ بالأمس، واقعٌ مكرَّرٌ، وخطواتٌ متشابهة، فانظرْ لمن تُفتح القنوات، ولمن تُعطى منابرُ الإعلام، ومن يُغلق فمه، ويُحرَم فرصة أن يُنافح عن دينه.

يكفي أن يخرج سفيهٌ ليُشكِّكَ بصحيح البخاريِّ، أو يفتري ويَدَّعي أن الإسلامَ ظلمَ المرأة، أو انتشرَ بالسَّيفِ لا بالحقِّ الكامن فيه، حتَّى تُفتح له القنوات، ويُستضافُ على أنَّه المُفكِّرُ الإسلاميّ، وإذا ما أردتَ أن تردَّ على هذه التُّرهات، فإنَّ هذه القنوات لا تُعطيك الفرصة، ولو من بابِ قرع الرَّأي بالرَّأي، ومجابهة الحُجَّة بحُجَّة.

3. محاولةُ تشويهِ سمعة النَّبيِّ ﷺ:

قررت قريشٌ أن تشنَّ حربًا إعلاميَّةً لتشويهِ سمعةِ النَّبيِّ ﷺ، فاجتمعَ كبراؤها في دارِ النَّدوة، فقال لهم الوليدُ بن المغيرة: يا معشرَ قريش، إنَّه قد حضرَ الموسم، وإنَّ وفودَ العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم، فلا تختلفوا فيه، فيكذِّبُ بعضُكم بعضاً!

فقالوا له: يا أبا عبد شمس، قُلْ وأقِمْ لنا رأيًا نقولُ به!

فقال: بل أنتم قولوا فأسمع.

فقالوا: هو كاهن!

فقال: ما هو بكاهنٍ، لقد رأيتُ الكُهَّان فما هو بزمزمةِ الكاهن وسجعه!

فقالوا: هو مجنون!

فقال: ما هو بمجنونٍ، لقد رأينا الجنون وعرفناه.

فقالوا: هو شاعر!

فقال: ما هو بشاعرٍ، قد عرفنا الشِّعر برجزه وقريضه، ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشِّعر!

فقالوا: هو ساحر!

فقال: ما هو بساحرٍ، لقد رأينا السُّحَارَ وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده.

فقالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟

فقال: والله، إنَّ لقوله لحلاوة، وإنَّ أصله لعَذِقٌ، وإن فرعه لجناه! وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلَّا عُرِفَ أنَّه باطل، وإنَّ

أقـرب القـول أن تقولـوا: جـاء بقـولٍ هـو سِـحْر، يفـرِّقُ بيـن المـرءِ وأبيـه، وبيـن الأخ وأخيـه، وبيـن المـرء وزوجِـه، وبيـن المـرء وعشـيرتِه.

أرأيتَ ظلماً وافتـراءً أكبـر مـن هـذا، جَمَعُـوا كيدهـم، وأَتَـوْا صَفّـاً، يَخِيطُـونَ تهمـةً زُورًا وبُهتانـاً، لِيُلبِسـوهَا لِمـن كان عندهـم بِالأمـسِ الصَّـادقِ الأميـن!

وعلـى الرَّغـم مـن أنَّهـم أجمعـوا أمرَهـم علـى أن يقولـوا سَـاحر، إلَّا أنَّ التُّهَـم الأخـرى فلتَـتْ إلـى سـفهائهم، فقالـوا عـن النَّبـيِّ ﷺ: شـاعرٌ، ومجنـونٌ، وكاهـنٌ!

يعلـمُ الباطـل يقينًـا أنَّ تشـويهَ الدَّاعيـة هـو تشـويهٌ للدَّعـوة، ولـكَ أن تـرى اليـوم مـا نعيشـه مـن حـربٍ شـعواء علـى الدُّعـاة؛ يريـدون إسـقاطَ القـدوات، ليسـهل عليهـم تصديـرُ التَّافهيـن للنَّـاس!

الصِّـراع بيـن الحـقِّ والباطـل هـو ذاتـه فـي كلِّ عصـر، نفـس الأسـلحة والأسـاليب، المتحاربـون فقـط مـن يتبادلـون الأدوار.

4. محاولةُ تشويه الدَّعوة:

لمَّـا ضاقـتْ قريـشٌ بالحيلـة، وتقطَّعـتْ بهـم سـبلُ المكـرِ أمـام سطوع براهيـن النَّبـيِّ ﷺ، استشـعرت الهزيمـةَ فـي عُقـرِ فصاحتهـا، فعمـدتْ إلـى اليهـود لتسـتنجِدَ بخبرتهـم، لعلَّهـا تجـد عندهـم مـا تُطفـئ بـه نـورَ الوحـي، أو تزلـزل بـه يقيـنَ النَّـاس بدعـوة الحـقِّ.

فجـاء وفدُهـم إلـى يهودِ المدينـة يقـول: قـد خـرج فينـا رجلٌ يزعـم النُّبـوة، وقـد فـرَّق دينَنـا وأفسـد آلهتَنـا، فأنتـم أهـلُ العلـم بمـا فـي

الكتب، فصِفوا لنا أمره، وأشيروا علينا بما نختبر به صدقَه.

فقال أحبارُهم، في مكرٍ على عادتهم: سلوه عن فتيةٍ آمنوا بربهم فغابوا في الزَّمان، وعن رجلٍ بلغ المشرقَ والمغرب، وعن حقيقةِ الرُّوح، فإن أجابكم كما في كُتبِنا فهو نبيٌّ حقٌّ، وإلَّا فقد تقوَّل من عند نفسه!

فرجعتْ قريشٌ تحمل ظنَّها بالنَّصر، وسألت النَّبيَّ ﷺ تلك الأسئلة، فجاءه الوحيُ بآياتٍ تهزُّ القلوب، وتفيضُ بحديث أصحاب الكهف في دقَّةٍ يعجز عنها البشر، وتسرد قصةَ ذي القرنين كأنَّها تُرى رأي العين، أمَّا الرُّوحُ فمِن أمر ربِّي!

ولكن هيهات للباطل أن يستكين، ويخشع لما نزل من الحقِّ، إنَّه الكِبر!

وعندما باءتْ المحاولة لتشويه الدِّين بتكذيبه بالاستعانة باليهود، أعملوا عقولهم التي غلَّفتها الأباطيل، ومضوا في غيِّهم، تارةً يدَّعون أن الإسلام صنيعة مُؤامرة عليهم، قام بها النَّبيُّ ﷺ بمساعدة من جهات خارجيَّة، فقالوا: ﴿إِنْ هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾!

وتارةً يدَّعون أن هذا القرآن ما هو إلَّا صياغةٌ من النَّبيِّ ﷺ، ضمَّنه ما سمعه من أساطير الأمم السَّابقة وأخبارهم!

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

مع أنَّهم يعلمون يقينًا أنَّ النَّبيَّ ﷺ أُمِيٌّ، لا يكتب ولا يقرأ، وأنَّه لم يغادر مكَّة إلَّا نادرًا، ولم يكن مرةً بمفرده؛ فلم يلتقِ بكاهنٍ ولا راهبٍ، ويسمع منه، ويأخذ عنه، ولكنَّه الكِبر!

إنَّها الهجمةُ المسعورة ذاتها التي نراها اليوم: زيفٌ وباطلٌ وتُرَّهات، أملَتْها عليهم أنفسهم وشياطينهم، فرَمَوا بها الإسلام، تارةً تهمة في الإرهاب، وتارةً في التَّحجُّر والتَّخلف، وتارةً بظلم المرأة، وتارةً بعدم القدرة على قيادة المجتمع، وتارةً بعدم مناسبته لهذا العصر!

ويقولون لك: اُنْظُر إلى بلاد المسلمين وحالها؟

يُحمِّلون الإسلام نتائجَ فشلِ طغيانهم وأنظمتهم الوضعيَّة الفاسدة في الإعلام والاقتصاد والتَّربية، والنَّظرة إلى الإنسان!

يُحاسبون الإسلامَ على نتائجِ الحُكْمِ وهو لم يحكم!

تخيَّلْ أن يقوم مشعوذٌ بإجراء عمليةٍ جراحيَّةٍ لمريض ساذج جاءه، فتفشل العمليَّة ويموت المريض، ثمَّ يكون هنا حملةٌ مسعورةٌ تحمِّلُ الأطباء نتيجة فشل العمليَّة، وهم لم يشتركوا فيها، وهذا هو الحال اليوم!

5. سياسةُ الإلهاء:

إذا لم تستطعْ إسكات الحقِّ، أشْغِل النَّاسَ عنه بالباطل!

هذا أحد أبرز قوانين الجاهليَّة في كلِّ العصور، مارسته الجاهليَّاتُ من قَبل قريش، ومارسته قريش، وما زال ساريًا في النَّاس.

وَقَفَ النَّضِرُ بن الحارث خطيبًا في قريش، وقال: يا معشرَ قريش، واللّٰه ما نزل بكم أمرٌ ما أوتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمَّدٌ فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صِدْغَيه الشَّيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتُم: ساحرٌ! لا واللّٰه ما هو بساحر، وقلتُم: كاهنٌ! لا واللّٰه ما هو بكاهن، وقلتُم: شاعرٌ! لا واللّٰه ما هو بشاعر، وقلتُم: مجنونٌ! واللّٰه ما هو بمجنون!

يا معشرَ قريش، انظروا في شأنِكم، فإنَّه واللّٰه قد وقع بكم أمرٌ عظيم!

ثمَّ ارتحل النَّضِرُ بن الحارث إلى الحيرة في العراق، وأخذ يتعلَّم أحاديثَ ملوك الفُرس، وأساطير وحكايات بلاد ما بين النَّهرين، على ما فيها من مغامراتٍ وإثارةٍ وإباحيَّةٍ وحروبٍ وهزلٍ وجدٍّ، حتَّى يُوافق كلَّ ذَوق. ثمَّ عاد إلى مكَّة، يُحدِّث النَّاس ويقول: ما محمَّدٌ بأحسنِ حديثًا منِّي. وكان يتعمَّد أن يتتبع النَّبي ﷺ، فيحدِّث في المجالس التي يحدِّث بها! وزاد في غيِّهِ أن اشترى راقصاتٍ ومُغنِّياتٍ يُرافِقنَه، إمعانًا في سياسة الإلهاء.

ولكَ أن ترى اليوم، كم يُصَبُّ على هذه الأمَّة من سيول الإلهاء!

حوَّلوا كرةَ القدم من رياضةٍ إلى تعصُّب، والمسلسلاتُ يُصدرونها في رمضان، ويستعدُّون طوالَ العام لينازعوا المسلمين شهرهم الفضيل!

الهابطون تُفتح لهم القنوات، والراقصات والمغنيَّات صُدِّرْنَ لنا على أنَّهنَّ نُخبُ المجتمع!

قضايا البطالة والفساد تمرُّ عليها الصَّحافة مُرورَ الكرام، هذا إذا مرَّت، وخلاف فَنَّانين تُفرد لهم الصَّفحات، وطلاقُ فنانةٍ تصبح قضيَّةً وطنيَّة، وكلَّما وقعتْ في البلادِ مصيبةٌ، سَرَّبوا لتافهٍ لهم فضيحة. هي سياسةُ الإلهاء التي تأخذُ في كلِّ عصرٍ وجهاً!

6. المُحارَبةُ برغيفِ الخُبز:

ما من جاهليّةٍ قامتْ في هذه الأرض إلَّا وحاولتْ تَركيعَ النَّاسِ باللُّقمة!

كان الصَّحابيُّ الجليل خَبَّابُ بن الأَرَتِّ ﵁ يعملُ حدّادًا في مكَّة، وقد قصده العاصُ بن وائلٍ في عملٍ له، فلمَّا انتهى خبابٌ من عمله، ذهب إلى العاص بن وائلٍ يطلب أجرته، فقال له العاص: لا أُعطيكَ حتى تكفُرَ بمحمَّد!

ولعلّك تسأل: ما علاقةُ خلافِ الأفكار والمعتقدات بأداء الحقوق؟

فأجيبك: إن كنتَ تظنُّ أنَّ تصرُّف العاص بن وائلٍ تصرُّفٌ فرديٌّ، فأنت واهم!

العاص عقليّةٌ ومِنهاجٌ أكثر منه شخص! وأنت واهمٌ إن كنتَ تظنُّ أنَّ الجاهليَّة قد انتهت، وأنَّه لم يعُد أحدٌ يبتزُّ أحدًا في حقِّه ووظيفته لأجل خلافٍ في الرأي، كلُّ ما في الأمر أنَّ الجاهليَّة خلعت عمامةَ العرب عند قريش، ولبست ربطةَ عنقِ الفرنجة، ولكنَّ العقليَّة واحدة، والمواقف تتكرَّر!

إنَّ الجاهليَّة لا ترحم أهلها، حتى ترحم عدوَّها!

وعلى سبيل المثال: الأستاذةُ الجامعيَّة البريطانيَّة الشَّهيرة «كاثلين ستوك» لها موقفٌ معارضٌ «للتحوَّل الجنسيِّ»، وترى أنَّ الرَّجل يستحيلُ أن يصبح امرأة، وأنّ المرأة يستحيلُ أن تصبح رجلًا، كما أنَّه ليس من العدل أن يشارك المتحوّلون من الرِّجال إلى نساء في المسابقات الرياضيَّة النسائيَّة لأن بُنيتهم أقوى وأجسامهم أصلب.

أَجبَرتِ الجامعةُ كاثلين على الاستقالة بعد حملةٍ شعواء في وسائل الإعلام، اِتُّهِمَت الجامعةُ فيها بأنَّها ترعى «رُهابَ التَّحوُّلِ الجنسيِّ» بشكلٍ مؤسَّساتيٍّ.

إنَّها قضيَّةُ العاصِ بنِ وائلٍ مع خَبّابِ بنِ الأَرَتِّ بصورتها الحديثة: آمِن بما أُمليه عليك، تحصل على وظيفةٍ وراتب، خالفني أُحارِبكَ في لقمةِ عيشِك!

لقد تعاطفتَ مع كاثلين بلا شك، وهذا من فطرتك السَّليمة ودماغكَ الموجود في مكانه الصحيح! والآن خُذِ الوجهَ الآخر للصورة: الأستاذة كاثلين امرأةٌ شاذَّةٌ جنسيّاً، وتعيش مع صديقتِها في بيتٍ واحد، وتدافع باستماتةٍ عن حقوقِ الشَّواذ، ورغم هذا لم يُقبَل منها أن تخالفهم في بعض جنونهم.

الأمر ببساطة: حتَّى تكفرَ بمحمَّد ﷺ!

فإذا كان هذا حال الجاهليَّة مع الجاهليَّة، فكيف هو حالها مع الإسلام؟!

فاحتسِبوا واصبروا، فإن موعدنا ليس الدُّنيا، وإنَّما موعدنا عند الحوض.

7. الحربُ النَّفسيَّة:

الإنسانُ ليس جسدًا، الإنسانُ قلبٌ وروح، وأنت حين تعبثُ بقلبه وروحه فإنَّك تعبثُ بكيانه كلِّه!

وعَتْ قريش هذه الحقيقة، فخَاضت حربًا نفسيَّةً شعواء على المسلمين. كانت حربًا لا هوادة فيها، والأليم فيها أنَّها جاءت من أقرب النَّاس.

جُنَّ جنونُ خُناس بنت مالك حين علمت أن ولدها المدلل، مصعبُ بن عمير، قد أسلم!

كانت واحدةً من أثرى النِّساءِ في مكَّة، تبالغ في دلال ابنها الأثير على قلبها، تحضرُ له العطر من بلد، والثِّياب من بلد، وتنتقي له أطيبَ طعامٍ وألذَّ شراب، فلمَّا آمن مصعب، نزعت عنه كلَّ هذا التَّرف، وطردته من البيت، وهو ابن النَّعيم الذي لا جلادة له على شَظفِ العيش، حتَّى تقشَّر جلده كما يتقشَّر جلد الحيَّة، ونَحُل جسمه، وكان الصَّحابة يبكون لحاله إذا رأَوه، ولكنَّه صبر وثبَت.

وحين أسلم سعد بن أبي وقاص، لم تترك أمُّه ترهيبًا ولا ترغيبًا إلَّا مارسته عليه لتصدَّهُ عن دينه، فلمَّا يئِست منه أن يرجع

إلى دينها، لجأت إلى الإضراب عن الطَّعام والشَّراب، ووقفت في الشَّمس، وقالت له: واللّه لا أستظلُّ ولا آكل ولا أشرب حتَّى تكفُرَ بمحمَّد، فإن متُّ، عيَّرتك العربُ بي.

ولكنَّ سعدًا ثبتَ، وحين شارفتْ على الهلاك، وقف أمامها وقال لها: يا أمَّاه، لو كان لك مئةُ نفسٍ، فخرجت نفسًا، نفسًا، ما تركتُ ديني، فكُلي إن شئت، أو لا تأكلي!

فلمَّا علمت أنَّه باقٍ على دينِه، فكّتْ إضرابها.

ومارست قريشٌ الحربَ النَّفسيَّةَ على النَّبيِّ ﷺ أيضًا، ومن صُورِ هذه الحربِ أنَّ عُتبةَ وعُتيبةَ ابني أبي لهبٍ كانا قد تزوَّجا قبلَ البعثةِ برُقيَّةَ وأمِّ كلثومَ ابنتي النَّبيِّ ﷺ، فلمَّا بُعث النَّبيُّ ﷺ أمرَ أبو لهبٍ ابنيه فطلَّقاهما!

وجلسَ مرَّةً عقبة بن أبي مُعيطٍ يسمعُ من النَّبيِّ ﷺ فرآه أُبيُّ بن خلفٍ فظنَّ أنَّه قد آمن، فذهب إليه وقال له: هل آمنتَ بمحمَّدٍ. فقال: لم أؤمنْ.

فلم يُصدِّقه وقال له: حتى تُثبتَ لي أنَّك لم تؤمنْ بمحمَّدٍ لا بدَّ أنْ تبصقَ في وجهِه.

فقام اللَّعينُ عُقبة من فورِه وذهب إلى النَّبيِّ ﷺ وبصقَ في وجهِه، بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللّه.

حربٌ نفسيَّةٌ ما زالت تتكرَّر بوجوهٍ مختلفةٍ اليومَ، تختلفُ الوسائلُ والغايةُ واحدةٌ الضَّغطُ على المُؤمنينَ ليتركوا إيمانَهم.

٨. الاضطهادُ والإيذاءُ الجسديُّ:

استنفدت قريشٌ كلَّ وسائلِها لصدِّ المسلمينَ عن دينِهم ولم يبقَ أمامهم إلَّا حيلةُ الضُّعفاءِ إذا ما أنهكهم الحقُّ، التَّنكيلُ والإيذاءُ والتعذيب!

روى البخاريُّ من حديثِ ابنِ مسعودٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يُصلِّي عندَ البيتِ وأبو جهلٍ وأصحابٌ له جلوسٌ، إذ قال بعضُهم لبعضٍ: أيُّكم يجيءُ بسَلا جزورِ بني فلانَ ويضعه على ظهرِ محمَّدٍ إذا سجدَ. فانبعث أشقَى القومِ عُقبةُ بن أبي مُعيطٍ، فجاء به حتى إذا سجدَ النَّبيُّ ﷺ وضعَ سلا الجزورِ على ظهرِه بين كتفيهِ وأنا أنظرُ، لا أُغني شيئًا، لو كانت لي مَنَعة!

فجعلوا يضحكونَ ويميلونَ بعضُهم على بعضٍ، ورسولُ اللّهِ ﷺ ساجدٌ لا يرفعُ رأسَه، حتى جاءت فاطمةُ رضي اللّه عنها فطرحته عن ظهرِه، فرفعَ رأسَه ثمَّ قال: اللهمَّ عليكَ بقريشٍ ثلاثًا.

فشَقَّ عليهم إِذْ دَعَا عليهم وَكانوا يَرَوْنَ الدَّعْوَةَ في ذلِكَ البَلَدِ مُسْتَجابَةً، ثمَّ سمَّى: اللهمَّ عليكَ بأبي جهل، وعليكَ بعُتبةَ بن ربيعة، وشيبةَ بنِ ربيعة، والوليدِ بن عتبة، وأُميّةَ بن خَلَف، وعُقبةَ بن أبي مُعيط.

فَوَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذينَ عَدَّ رسولُ اللّهِ ﷺ صَرْعى في القليبِ يومَ بدرٍ.

وكان عمُّ عُثمانَ بن عفَّان ﵁ يلفُّه في حصيرٍ من أوراقِ النَّخيل ثم يُدخِّنُه تحته!

وكان بـلالُ بـن ربـاحٍ ﷺ مولـى لأُميَّـةَ بـن خَلَـف، فـكان أُميَّـةُ يضـعُ فـي عُنقِـه حبـلًا ثـمَّ يُسـلِّمُه إلـى الصِّبيـان يطوفـون بـه فـي جبـالِ مكَّة، حتـى كان يظهـرُ أثـرُ الحبلِ فـي عُنقِـه، وكان أُميّـةُ يشـدُّه شـدًّا ثـمَّ يضربُـه بالعِصـيِّ، وكان يُلجِئُـه إلـى الجلوسِ فـي شـمسِ مكَّـة الحارقـة، وكان يُجوِّعُـه ويمنـعُ عنـه المـاءَ أيضًـا، وأشـدُّ ذلـك كلِّـه أنَّـه كان يُخرِجُـه إذا حَمِيَـتِ الظَّهيـرةُ فيطرحُـه علـى رمـالِ مكَّـة المُلتَهِبـة، ثـمَّ يأمـرُ بالصَّخـرةِ العظيمـة فتوضَـعُ علـى صـدرِه، ثـمَّ يقـول لـه: واللّٰهِ لا تـزالُ هكـذا حتـى تكفـرَ بمحمّـدٍ وتعبـدَ الـلاتَ والعُـزّى.

وكان بـلالٌ يُـردِّد: أَحـدٌ، أَحـد، ومـا زال علـى هـذه الحـال حتـى اشـتراه أبـو بكـرٍ فأعتقـه.

وهـذا خبَّـابُ بن الأرتِّ ﷺ الـذي لاقـى صُنوفًـا مـن العـذاب لا تخطـرُ علـى بـالِ الشَّـياطين، كان المشـركون يربطـون حبـلًا فـي رقبتـه ويَجـرُّونـه فـي شـوارعِ مكَّـة، وكانـوا يُحمُـونَ الفحـمَ الملتَهِـبَ ويضعـون خبّابًـا ﷺ فوقَـه حتـى أثّـر ذلـك فـي ظهـرِه، وظلَّـت علامـاتُ الحـروق باقيـةً فـي جسـدِه حتى فـارق الدُّنيـا، ولكـن سـبحانَ مـن ثبَّتَـه علـى ديـنِ الحـقِّ.

ولاقـى آلُ ياسـرٍ فـي سـبيلِ اللّٰه مـا لا تحتملـه الجبـال، كان ياسـرٌ وزوجتُـه سُـميَّة وابنُـه عمَّـار رضـي اللّٰه عنهـم، مـن موالـي بنـي مخـزوم، فلمَّـا علـم أبـو جهـلٍ بإسـلامِهم جُـنَّ جنونُـه، فـكان يُعذِّبُهـم بنفسِـه، وكان النَّبـيُّ ﷺ إذا مـرَّ بهـم وهـم علـى هـذه الحـال يقـول لهـم: صبـرًا آلَ ياسـر، فـإنَّ موعدَكـم الجنَّـة.

وأوتـدَ اللَّعيـنُ أبـو جهـلٍ لِسُـميَّة فـي الأرض وربطهـا مـن يديهـا ورجليهـا، وأخـذ يجلدُهـا ويأمرُهـا أن تكفـرَ بـالله وترجـعَ إلـى ديـنِ قريـش، ويُفحِـشُ فـي القـول، فبَصقـت فـي وجهِـه، فأخـذ حَربـةً وطعنَهـا بهـا لتكـونَ أوَّلَ شـهيدةٍ فـي الإسـلام، ثـمَّ أمـرَ فقتلـوا ياسـرًا أمـامَ عينـي عمَّـار.

شـهِد عمّـارٌ ﷺ مقتـلَ أبويـه أمـامَ عينيـه، فمـا كان منـه إلَّا أن ذكـر آلهتَهـم بخيـر، فتركـوه، ولقيـه النَّبـيُّ ﷺ بعـد ذلـك، فكان عمَّـار يخجـلُ أن ينظـرَ فـي عينـي النَّبـيِّ ﷺ، فقـال لـه: كيـف تجـدُ قلبَـك؟

فقال: مطمئنٌّ بالإيمان يا رسولَ الله.

فقال له: إن عادوا فَعُد!

هـذا غيـضٌ مـن فيـضٍ مـا لاقـاه المسـلمون مـن العـذاب الجسـديِّ علـى يدِ قريـش، ألا وإنَّ سُـنَنَ الظَّالميـن واحـدة، وطُرقَهـم ذاتَهـا، ومـن أراد العمـلَ لهـذا الدِّيـن علـى منهـاجِ النَّبـيِّ ﷺ فعليـه أن يُوطِّـنَ نفسَـه أنَّ البـلاء قـد يُصيبُـه، ونسـألُ الله العافيـة.

الهِجرةُ إلى الحَبَشَةِ: تركوا الأوطانَ وحَمَلوا القرآنَ!

بعدَ أن ضاقتْ مكَّةُ بالمسلمينَ، وارتفعَ في بطحائها صُرَاخُ الجلَّادِيَن، وانتشرَ في أرجائها أنينُ المعذَّبينَ، أذِنَ لهم النَّبيُّ ﷺ أن يهاجروا: إنَّ بأرضِ الحبشةِ ملكٌ لا يُظْلَمُ عندَهُ أحدٌ!

نزلتْ كلماتُهُ بردًا على قلوبٍ حرَّقَتْها نارُ الظُّلمِ وسلامًا على أرواحٍ أنهَكَتْها وطأةُ الطُّغْيانِ، فتهيَّأتِ القلوبُ قبلَ الأقدامِ وهاجرتِ النَّوايا قبلَ الأجسادِ، وخرجوا تحتَ عباءةِ اللَّيلِ يطوُونَ الصَّحراءَ خُفيةً عن أعينِ الطُّغاةِ. ركبوا البحرَ، والبحرُ يومئذٍ مِرآةٌ لقلوبِهم، مائجٌ بالخَشْيَةِ من المجهولِ، وساكِنٌ بحُسنِ الظَّنِّ باللّهِ. وبين هذا وذاك كانَ الإيمانُ سفينتَهم التي لا تغرق.

ركبوا السُّفنَ الخشبيَّةَ الصَّغيرةَ، والماءُ من تحتِهم، والسَّماءُ من فوقِهم، وبينهما يقينٌ باللّهِ أنَّهُ لن يُضَيِّعَ أهلهُ. وحينَ بلغوا أرضَ الحبشةِ تنفَّسوا الحريَّةَ لأولِ مرَّةٍ منذُ أن جَهَروا بدعوتِهم، فصَبَّتْ قريشٌ جامَّ كفرِها عليهم. كأنَّ السَّماءَ هنا أوسعُ صدرًا، والرِّيحُ ألينُ لمسًا، والأرضُ صارت أحنَّ.

دخلوا على النَّجَاشِيِّ، ملكٌ أسود الوجهِ أبيضُ القلبِ، وما النَّاسُ إلَّا بقلوبِهم! خَاطَبوهُ بلسانِ الصِّدقِ، وتلا عليهِ جَعْفَرٌ الآياتِ من سورةِ مريمَ، فسرى النُّورُ في قلبِه كما يسري الضوءُ لحظةَ انبلاجِ الصُّبحِ، وبكى حتَّى بلَّلَ لِحيَتَهُ. وقال كلمتَهُ الخالدةَ أبَدَ الدَّهرِ: إنَّ هذا والَّذي جاءَ بهِ عيسى عليه السلام ليخرُجا من مشكاةٍ واحدةٍ!

صدقَ فيه قولُ النَّبيِّ ﷺ، وكلُّ قولٍ للنَّبيِّ ﷺ صادقٌ: لا يُظلمُ عندَهُ أحدٌ. فآواهُم وأكرمهم، وردَّ عنهم مَكْرُ قريشٍ حين بَعَثَت رُسُلَها تَطْلُبُهم. فوقفَ جَعفرٌ خَطيبًا بالحقِّ، فقال لهم النَّجَاشِيُّ: اِذهبوا فأنتم آمنون في أرضي.

يا لهُ من مَشهدٍ مهيبٍ، نصرَ الله تعالى فيهِ عبادَهُ من غيرِ سيفٍ ولا جُنْدٍ!

هذه هي باختصار حكايةُ الهِجرةِ إلى الحَبَشةِ، على أنَّ الهِجرةَ إلى الحَبَشةِ لم تكن هجرةً واحدةً، وإنَّما كانت اثنتين. والتَّقديمُ تهيئةٌ للحديثِ، والإجمالُ لا يُغني عن التفصيلِ، فإليك الحكايةَ كلَّها!

في شهرِ رجبٍ من السَّنةِ الخامسةِ للبعثةِ الشَّريفةِ خرج أوَّلُ رَكبٍ من المسلمينَ إلى الحَبَشةِ، كانوا اثنَي عشر رجلاً وأربعَ نسوةٍ، أميرُهم عُثمانُ بن عفَّان، ومعه زوجتُهُ رُقَيَّةُ بنتُ النَّبيِّ ﷺ. خرجوا خِلْسَةً تحتَ جُنْحِ الظَّلام كي لا تَفْطُنَ لهم قريشٌ، وتوجَّهوا إلى جُدَّةَ، أقرب مدينةٍ إليهم مُطِلَّةٍ على البحرِ، وعلى متنِ سفينتينِ تُقِلَّانِ البضائعَ والنَّاسَ، يَمَّموا وجوهَهم شَطْرَ الحَبَشةِ، وكان قد مضى وقتٌ حينَ عَلِمَتْ قريشٌ بخبرِهم، فخرجتْ تقتفي أثرَهم، ولكنَّهم كانوا قد انطلقوا تَحفُّهم عنايةُ ربِّهم، ووصلوا إلى الحَبَشةِ، وأقاموا في أهنأِ بالٍ وأحسنِ جوارٍ.

وبعد هذه الحادثةِ بشهرينِ، خرج النَّبيُّ ﷺ إلى الكعبةِ، فإذا جمعٌ غفيرٌ من قريشٍ هناك، فعَاجلهم يَقرَعُ أسماعَهم وقلوبَهم بسورةِ النَّجمِ، يُرتِّلُ آياتِها آيةً، آيةً، فغمرهم بسِحرِ البيانِ الذي في القرآنِ، المضافِ إليه عذوبةُ صوتِه، حتَّى إذا بلغ آخرَ السُّورةِ ﴿فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا﴾، ثمَّ سجد، فما تمالكوا أنفسَهم إلَّا وهم ساجدونَ معه.

وبلغ قريشًا الخبرُ، فجلدتهم بألسنةِ اللَّومِ والعتابِ، فجاؤوا بعُذْرٍ كاذبٍ ليَرضى عنهم قومُهم، أو ليَسْلَموا من سخطِهم، وتابعوا في كفرِهم وغَيِّهم.

ولكنَّ الخبرَ كان قد انتشر، وبلغ المسلمينَ في الحَبَشةِ، فاعتقدوا أنَّ قريشًا قد آمنت، فعادوا إلى مكَّةَ، وكانت هذه هي الهجرةَ الأولى إلى الحَبَشةِ.

عاد مهاجرو الحَبَشةَ ليجدوا قريشًا على حالِها، يُسِيمونَ المسلمينَ سوءَ العذابِ، وحدَّثوا أصحابَهم عمَّا وجدوهُ من أمانٍ في الحَبَشةِ، فتطاولت الأمنياتُ إلى الهجرةِ. مؤلمٌ جدًّا أن يضيقَ على المرءِ وطنُه. ولما جاء الإذنُ من النَّبيِّ ﷺ بالهجرةِ إلى الحَبَشةِ تشكَّل وفدٌ قوامُهُ ثلاثةٌ وثمانونَ رجلاً، وتسعَ عشرةَ امرأةً!

كانتِ الهجرةُ الثَّانيةُ إلى الحَبَشةِ أصعبَ بكثيرٍ من الهجرةِ الأولى، فقد أخذتْ قريشٌ حِذْرَها، وأعملتِ العيونَ على المسلمين. كما أنَّ العددَ هذه المرَّةَ يفوقُ العددَ الأوَّلَ أضعافًا، إنَّ العددَ الآن

يُناهِزُ المِئَـةَ. كما أنَّ الوفدَ هذه المرَّةَ فيه من كلِّ بيتٍ سيِّدٍ من صَنادِيدِ قريشٍ مُمَثِّلًا، وهذا ما زاد من صعوبةِ الموقفِ.

كان في الوفدِ حبيبة بنت أبي سفيانَ، سيّدُ قريشٍ! وأبو حُذيفةَ بن عُتبةَ، السَّيدُ المُطاعُ في قومِه! وثلاثةٌ من أبناءِ سُهيلِ بنِ عمرو، فصيحِ قريشٍ ولسانِها! وهِشامُ بنُ العاصِ بنِ وائلٍ، والعاصُ بنُ وائلٍ كان من أغلظِ قريشٍ على المسلمين.

ولكنَّهم رغمَ كلِّ هذه التعقيداتِ، خرجوا تَحفُّهم رعايةُ اللهِ حتَّى بلغوا الحَبَشةَ.

عَزَّ على قريشٍ أن يجدَ المسلمون في الحَبَشةِ وطنًا وجِوارًا من مَلِكٍ بينهم وبينه علاقاتٌ طيِّبةٌ، فعمدوا إلى بعثَةٍ دبلوماسيَّةٍ يرأسها داهيةُ قريشٍ عمرو بن العاص. وأرسلوا مع البعثةِ الهدايا للنَّجاشيِّ ولبطَارقَتِه الذين كانوا مُستشاريه في مجلسِ الحُكمِ.

التقى وفدُ قريشٍ البطارقةَ أولًا، وأعطَوْهم هداياهم، وأغروهم أن يُشيروا على النَّجاشيِّ بتسليمِهم المسلمين ليعودوا بهم إلى مكَّة.

ثمَّ دخلوا على النَّجاشيِّ وقدَّموا له الهدايا، وقالوا: أيُّها الملكُ، إنَّه قد ضوى إلى بلدِك غِلمانٌ سفهاء، فارقوا دينَ قومِهم، ولم يدخلوا في دينِك، وجاؤوا بدينٍ ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومِهم من آبائِهم وأعمامِهم وعشائرِهم، لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

وقالتِ البطارقةُ: صدقًا أيُّها الملك! فأسلمهم إليهما، فليردوا إلى قومِهم وبلادِهم.

ولكن رأى النجاشيُّ أنه لا بدَّ من تمحيصِ القضيةِ، وسماعِ أطرافِها جميعًا، فأرسل إلى المسلمين، ودعاهم، فحضروا، وكانوا قد أجمعوا على الصدقِ كائنًا ما كان. فقال لهم النجاشيُّ: ما هذا الدينُ الذي فارقتم فيه قومَكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا دين أحدٍ من هذه الملل؟

قال جعفرُ بنُ أبي طالبٍ – وكان هو المتكلِّمُ عن المسلمين –: أيُّها الملك، كنا قوماً أهلَ جاهلية، نعبدُ الأصنامَ، ونأكلُ الميتةَ، ونأتي الفواحش، ونقطعُ الأرحام، ونسيءُ الجوارَ، ويأكل منَّا القويُّ الضعيفَ، فكنا على ذلك، حتى بعث اللّهُ إلينا رسولًا منَّا، نعرفُ نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى اللّهِ لنوحِّده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارةِ والأوثان، وأمرنا بصدقِ الحديثِ، وأداءِ الأمانة، وصلةِ الرَّحم، وحُسنِ الجوار، والكفِّ عن المحارمِ والدِّماء، ونهانا عن الفواحشِ، وقولِ الزور، وأكلِ مالِ اليتيم، وقذفِ المحصنات، وأمرنا أن نعبد اللّه وحده، لا نشركُ به شيئًا، وأمرنا بالصلاةِ والزكاةِ والصيامِ، فصدَّقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دينِ اللّه، فعبدنا اللّه وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة اللّه تعالى، وأن نستحلَّ ما كنا نستحلُّ

من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناكَ على من سواك، ورغِبنا في جوارِكَ، ورجونا ألا نُظلم عندكَ أيُّها الملك.

فقال له النجاشيُّ: هل معكَ ممَّا جاء به رسولكُم عن اللّه من شيء؟

فقال له جعفر: نعم!

فقال له النجاشيُّ: فاقرأه عليّ. فقرأ عليه صدرًا من سورة مريم، فبكى واللّه النجاشيُّ حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا أناجيلهم حين سمعوا ما تلا عليهم!

ثم قال النجاشيُّ لعمرو بن العاص وصاحبه: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدةٍ، انطلقا، فلا واللّه لا أسلمهم إليكما ولا يُكَادُون. فخرجا!

وقال عمرو بن العاص لعبد اللّه بن ربيعة: واللّه لآتينهم غدًا بما أستأصل به خضراءهم.

فقال له عبد اللّه بن ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، ولكن أصرَّ عمرو على رأيه.

فلما كان الغد قال للنجاشيِّ: أيُّها الملك! إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولًا عظيمًا!

أرسل إليهم النجاشيُّ يسألهم عن قولهم في المسيح، ففزعوا، ولكن أجمعوا على الصِّدقِ، كائنًا ما كان. فلما دخلوا عليه، وسألهم، قال له جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد اللّه ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فأخذ النجاشيُّ عودًا من الأرض، ثم قال: واللّهِ ما عدا عيسى ابن مريم ما قلتَ هذا العود، فتناخرتْ بطارقته، فقال: وإن نخرتم واللّه.

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي، من سبّكم غرم، ما أحب أن لي جبلاً من ذهبٍ وأني آذيتُ رجلًا منكم!

ثم قال لحاشيته: ردُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجةَ لي بها، فواللّه ما أخذ اللّه منِّي الرَّشوة حين ردَّ عليَّ ملكي، فآخذ الرَّشوة فيه، وما أطاع النَّاس فِيَّ فأطيعهم فيه.

وبين يَدي الهجرةِ إلى الحَبَشةِ، وقفات:

1. كان اللّه تعالى كان قادرًا على أن يَنشُرَ دينَه بكلمةِ «كُن»، وكان سبحانه قادرًا على أن يدفعَ العذابَ عن المسلمين بأمرٍ تستجيبُ له الأرضُ في طرفةِ عينٍ. ولكنَّها ليست سُنَّة اللّهِ في التَّغييرِ، ولا في التَّدافُع بين الحقِّ والباطلِ.

فإذا ضاقتْ عليكم الدُّنيا، فلا تسألوا: أين اللّه؟!

إنَّهُ هنا معكم، وهو الذي أقامكم على دينِه، وهو مقامٌ لا يُقيمُهُ إلَّا لِمَن يُحِبُّ.

فَلْيَكُنِ السُّؤالُ: هل ما نحنُ عليهِ يُرضي اللّه؟!

فإن كان، فَلا تَبْرَحوا أماكنَكم!

2. إنَّ الهِجرةَ إلى الحَبَشَة لم تكن للحِفاظِ على الدُّعاة، وإنَّما للحفاظِ على الدَّعوة!

هـذا الـكلامُ لا يعنـي بـأيِّ حـالٍ مـن الأحـوال أنَّ المسـلمَ رخيـصٌ، وأنَّ الإسـلام لا يأبُـه لـه.

علـى العكسِ تمامًـا، إنَّ هـدمَ الكعبـةِ سـبعينَ مـرَّةً أهـونُ علـى اللّٰهِ مـن إراقـةِ دَمِ مُسـلِم.

وإنَّ مـن مقاصـدِ الشَّـريعةِ السـمحاءِ الحِفـاظُ علـى النَّفـس، ولكنَّ الإسـلامَ أوّلًا.

سـلامةُ الدَّعـوةِ مُقَدَّمـةٌ علـى سـلامةِ الدَّاعيـة، وحيـنَ لا يَسُـدُّ ثَغْـرَ الإسـلام إلَّا المُواجهـة، فـلا يجـوزُ أبـدًا الأخـذُ بالرُّخصـة. تخيَّلـوا لـو أنَّـه يـومَ فِتنـةِ خَلْقِ القـرآن قـرَّر الإمـامُ أحمـدُ أن يختـارَ السَّـلامة!

3. اختيارُ الحَبَشَة لم يكن عشوائيّاً، هيَ أرضُ والسَّلام!

لقـد كان اختيـارًا واعيًـا وحكيمًـا، فيـه مـن العُمـقِ مـا لـو غُصنـا فيـه مـا بَلَغْنـا قَعْـره.

فالحَبَشَـةُ أوّلًا فيهـا ملـكٌ عـادلٌ لا يُظلَـمُ عنـده أحـد، ومـا فـرَّ المسـلمون إلَّا مـن الظُّلـم، فـلا يَسـتقيمُ أن ينتقلـوا مـن جـوارِ ظالـم إلـى جوارِ مَـن هـو أظلـمُ منـه. لا أحدَ يَسـتجيرُ مـن الرَّمضـاءِ بالنّـار!

والحَبَشَـةُ ثانيًـا بعيـدةٌ عـن مكَّـة، وهـذا يُصَعِّـبُ علـى قُريشٍ تَتَبُّعَهُـم بجيشٍ أو منازلـةَ مَـن أجارُوهُـم، وهـذه نقطـةٌ جوهريَّـة.

والحَبَشَـةُ ثالثًـا تَدِيـنُ بالنَّصرانيَّـة؛ أهـلُ كتـابٍ يَعرِفـونَ معنـى الوحـيِ والجَنَّـةِ والنَّـارِ والبَعـثِ والحِسـاب، وإن كانـوا قـد حرَّفـوا دينَهـم، فأصـلُ التَّوحيـدِ فيهـم بـاق، وهـم فـي نهايـةِ المطـاف أقربُهـم مَـوَدَّةً مـن باقـي الأديـان، فـإنْ عَـزَّ المُوافِـقُ لـك، فَحُـطَّ رِحالَـك علـى أهـونِ مُخالِـف.

والحَبَشَةُ رابعًا: بلدٌ قويٌّ مُستقِلٌّ اقتصاديًّا وعسكريًّا، يصعُبُ على قُريشٍ مُحاربته أو التّحكُّم بقراراته. ولو نَزَلوا في قبيلةٍ من قبائلِ العرب ما استقامت لهم الهجرة، لِنفُوذِ قُريشٍ على أغلبِ القبائل وإن كان نفوذًا دينيًّا، ولاشتراكِ كلِّ هذه القبائلِ مع قريشٍ في عقيدتِها، ولخوفِها أيضًا من الحربِ مع قريش.

كانتِ الهِجرةُ إلى الحَبَشَةِ رِحلةَ الإيمانِ تحتَ جَناحِ الحِكمة. خرجوا من مكَّةَ لا هَرَبًا من البلاءِ، بل حِفاظًا على جَذوةِ العَقيدة. حَمَلوا قلوبَهم العامرةَ باليقين، ومَضَوا نحوَ مَلِكٍ عادلٍ لا يُظلَمُ عندَه أحدٌ، ولِيُعلِّموا الدُّنيا أنَّ العَدالةَ أثمَنُ من القوَّة، وأنَّ الحَقَّ قد يَجِدُ مَأواهُ في غيرِ الذينَ من المُفْتَرَضِ أنَّهُم أهلُه!

الهِجرةُ إلى الحَبَشَة لم تكن فِرارًا، بل فَتحًا بصَمتٍ وصَبرٍ وإيمان. ومُنذُ ذلك اليومِ عَلَّمَتْنا أنَّ مَن خَرَجَ في سبيلِ الحَقِّ فلا يُضيعُ اللّه خُطاه، ولو سارَ إلى آخِرِ الأرض.

الحِصَارُ في شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ

رَجَعَت بعثَةُ قُرَيْشٍ مِنَ الحَبَشَةِ تَجُرُّ أَذْيالَ الخَيْبَةِ، فقد رَفَضَ النَّجاشِيُّ أن يطردَ المسلمينَ الذين لاذوا به، وسمحَ لهم أن يعيشوا في ديارهِ بأمان. لا الهدايا التي حملوها آتَتْ أُكُلَها، ولا المناظراتُ الفكريَّةُ أثمرت، سلَبَهم الإسلامُ أحدَ أهمِّ حلفائهم البعيدين، وهنا كان مكمن مصيبتهم.

ومنذ تلك اللَّحظةِ توالتِ الضَّرباتُ على رأسِ قريشٍ؛ ما إن تستفيقُ من ضربةٍ حتى تنهالَ عليها أخرى. أسلمَ حمزةُ بن عبدِ المطلبِ ﷺ، فلم تكد قريشٌ تستفيقُ من صدمتها حتى أسلمَ عمرُ بن الخطَّاب ﷺ، وحين كانت تستجمعُ قواها، وتُعِدُّ وفدًا تفاوضيًّا مليئًا بالإغراءاتِ مبطَّنًا بالتهديدِ، باءت كلُّ محاولاتها بالفشل؛ فقد رفضَ النَّبيُّ ﷺ أن يتنازلَ قيدَ أُنملَة، ولمَّا عادت من عنده تزبُد وتُرعد، بلغهم أنَّ بني هاشمٍ قد تعاهدوا جميعًا على حمايةِ النَّبيِّ ﷺ ومنعِ قريشٍ من المساسِ به!

كانت قريشٌ تتخبَّطُ كالثَّورِ الهائجِ على وقعِ الضرباتِ المتتالية، وأعاذَك اللهُ من الثِّيرانِ إذا تخبَّطت؛ فإنَّها تجنحُ إلى الدَّمارِ جُنوحًا غريبًا.

عجزت قريشٌ عن كسرِ شوكةِ الدَّعوةِ، وأدركت أن السُّيوفَ لا تقتلُ الفكرةَ، وأن نورَ الإسلامِ لا يُطفَأُ بريحِ العداوةِ، فأجمعت كيدَها، وكتبت صحيفتَها الجائرةَ.

اجتمعتْ قريشٌ في دار بني كنانة، فتحالفوا، على بني هاشم وبني المطَّلب ألَّا يُناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلِّموهم، حتى يُسلموا إليهم رسول اللّه ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق، ألَّا يقبلوا من بني هاشم صُلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفةٌ حتى يُسلموه، للقتل!

تمَّ هذا الميثاق، وعُلِّقت الصَّحيفة في جوف الكعبة!

ثلاث سنواتٍ من الحصار، لم يكن المشركون يتركون طعاماً يدخل مكَّة ولا بيعاً إلَّا بادروه فاشتروه، حتى بلغ بنو هاشمٍ الجَهد فأكلوا أوراق الشَّجر، وحتى كان يُسمع من وراء الشِّعب أصواتُ نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع، وكان لا يصل إليهم شيءٌ إلَّا سرّاً وكانوا لا يخرجون من الشِّعب لاشتراء الحوائج إلَّا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي تَرِد مكة من خارجها، ولكن أهل مكَّة كانوا يزيدون عليهم في السِّلعة قيمتها حتى لا يستطيعوا الاشتراء.

وكان حكيم بن حزام مرةً يحمل قمحاً إلى عمَّته خديجة وقد تعرَّض له مرة أبو جهل فتعلَّق به ليمنعه فتدخَّل بينهما أبو البختري، ومكَّنه من حمل القمح إلى عمَّته.

وكان أبو طالب يخاف على رسول اللّه ﷺ، فكان إذا أخذ النَّاس مضاجعهم يأمر رسول اللّه ﷺ أن يضطجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام النَّاس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمِّه فاضطجع على فراش رسول اللّه ﷺ، وأمره أن يأتي بعض فرشهم.

ثلاثة أعوام كاملة والأمر على ذلك، ثمَّ تمَّ نقضُ الصَّحيفة وفكُّ الميثاق، وذلك أن قريشاً كانوا بين راضٍ بهذا الميثاق وكارهٍ له، فسعى في نقض الصَّحيفة من كان كارهاً لها.

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي، وكان يصل بني هاشم في الشِّعب مُستخفياً باللَّيل بالطَّعام، فلمَّا طال الحال، ذهب إلى زهير بن أبي أميَّة المخزوميِّ، وكانت أمُّه عاتكة بنت عبد المطَّلب، وقال: يا زهير، أرضيتَ أن تأكل الطَّعام، وتشرب الشَّراب، وأخوالك بحيث تعلم؟

فقال: ويحكَ، فما أصنع وأنا رجلٌ واحد؟ أما واللّه لو كان معي رجل آخر لقمتُ في نقضها!

قال: قد وجدتَ رجلاً.

قال: فمن هو؟

قال: أنا!

قال له زهير: اِبغنا رجلاً ثالثاً.

فذهب إلى المُطعم بن عدي، فذكَّره أرحام بني هاشم وبني المطَّلب ابني عبد مناف، ولَامَه على مُوافقته لقريشٍ على هذا الظُّلم، فقال المُطعم: ويحك، ماذا أصنع؟ إنَّما أنا رجلٌ واحد.

قال: قد وجدت ثانياً.

قال: من هو؟

قال: أنا.

قال: اِبغِنا ثالثاً.

قال قد فعلت.

قال: من هو؟

قال: زهير بن أبي أميَّة.

قال: اِبغِنا رابعاً.

فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحواً مما قال للمُطعم.

فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟

قال: نعم.

قال: من هو؟

قال: زهير بن أبي أميَّة، والمطعم بن عدي، وأنا معك!

قال: اِبغِنا خامساً.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطَّلب بن أسد، فكلَّمه، وذكَر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟

قال: نعم، ثم سمَّى له القوم، فاجتمعوا عند الحَجُون، وتعاقدوا على القيام بنقض الصَّحيفة.

وقال زهير: أنا أبدأُكم فأكون أوَّل من يتكلَّم.

فلمَّا أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهيرٌ عليه حُلَّة، فطاف بالبيت سبعاً، ثمَّ أقبل على النَّاس، فقال: يا أهل مكَّة أنأكل الطَّعام، ونلبس الثِّياب، وبنو هاشم هَلْكَى، لا يُباع ولا يبتاع منهم؟ واللّٰه لا أقعد حتى تُشقَّ هذه الصَّحيفة القاطعة الظَّالمة.

قال أبو جهل، وكان في ناحية المسجد: كذبتَ، واللّٰه لا تُشَقُّ.

فقال: زمعة بن الأسود: أنت واللّٰه أكذب. ما رضينا كتابتها حين كُتبت.

قال أبو البختريّ: صدق زمعة، لا نرضى ما كُتب فيها ولا نُقِرُّ به.

قال المطعم بن عديّ: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى اللّٰه منها ومما كُتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قُضِي بليل، تشاوروا فيه بغير هذا المكان.

وأبو طالبٌ جالسٌ في ناحية المسجد. إنَّما جاءهم لأن اللّٰه كان قد أطلع رسوله على أمر الصَّحيفة، وأنَّه أرسل عليها الأَرَضَة، فأكلت جميع ما فيها من جوى وقطيعة وظلم إلَّا ذِكر اللّٰه عزَّ وجلَّ، فأخبرَ بذلك عمَّه، فخرج إلى قريشٍ فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فإن كان كاذباً خلَّينا بينكم وبينه، وإن كان صادقاً رجعتُم عن قطيعتنا وظلمنا!

قالوا: قد أنصفتَ.

وبعد أن دار الكلامُ بين القوم وبين أبي جهل، قام المطعم إلى الصَّحيفة ليَشقَّها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلَّا: باسمك اللهم!

تمَّ نقض الصَّحيفة، وخرج رسول اللّٰه ﷺ ومن معه من الشِّعب، وقد رأى المشركون آيةً عظيمةً من آيات نبوَّتِه، ولكن هيهات للقلوب القاسية أن تلين!

خرج بنو هاشم من الشِّعبِ نِحافَ الجِسام، عِظامَ العزائم، تلمعُ في عيونِهم بشائرُ النَّصرِ، فقد أدركوا أنَّ الحقَّ يُحاصَرُ حينًا ليزدادَ صلابةً، ويُؤذى حينًا ليزدادَ بقاءً.
ذلك الحِصارُ لم يكن قَيْدًا، بل كان مِعراجًا صَعِدَت فيه الدَّعوةُ من ضِيقِ الوادي إلى سَعةِ السماءِ، ومِن أَنينِ الجِياعِ إلى نَصرٍ يملأُ الأرضَ.
فَتَذَكَّروا أنتم أنَّ الجوعَ يُهزَمُ بالصَّبرِ، وأنَّ الحِصارَ لا يَقتُلُ النُّورَ، وأنَّ مَن كانَ اللّٰهُ معه فمَهْما أُغلِقَت عليه أبوابُ الأرضِ، ففوقَه أبوابُ السماءِ مَفتوحةٌ.

وبين يدي المقاطعةِ والحصارِ في شِعْبِ أَبِي طالِبٍ لا بُدَّ من وقفات:
أوّلًا: الثَّباتُ على المبدأ، صَبَرَ النَّبيُّ ﷺ وأصحابُه على الحصارِ والجوعِ دون أن يُساوِموا على دينِهِم، أو يَلينوا في دعوتِهم؛ ليعلَموا أنَّ العَقيدةَ لا تُشترى براحةٍ زائلةٍ، ولا تُفدى برَغَدِ العيشِ.

ثانيًا: الدَّمُ لا يَصيرُ ماءً، وَقَفَ بَنو هاشِم -مُؤْمِنُهُم وكافِرُهُم- إلى جانبِ النَّبيِّ ﷺ؛ ليعلَموا أنَّ الرَّوابطَ الأُسَرِيَّةَ حين تُبنَى على المُروءةِ والوفاءِ تكونُ دِرعًا أمام الظُّلمِ. والعَكسُ لا يَسْتَقيمُ، فلا تَنصُرْ رَحِمًا على حسابِ الحَقِّ.

ثالثًا: الموقفُ الإنسانيُّ حتى مِن الخصومِ، فإنَّ الخَيرَ لا يُنزَعُ مِن قلوبِ الناسِ جميعًا، وإنَّ الكُفرَ ليس واحدًا، كما أنَّ الإيمانَ كذلك. النَّاسُ في نهايةِ المَطافِ مَعادِنُ، والعاقِلُ مَن خَبَرَ معادِنَ الناسِ، واستفاد منهم؛ كلٌّ واحدٍ بحسبِ رِقَّةِ قلبِهِ وطِيبِ أصلهِ ومَعْدِنِهِ.

رابعًا: إنَّ العاقبةَ لِلمُتَّقينَ، انتهى الحِصارُ بتمزيقِ الصَّحيفةِ الظَّالمةِ، وخرجَ المسلمونَ مرفوعي الرُّؤوسِ؛ لتكونَ رسالةً لنا اليومَ أنَّ الليلَ مهما طالَ فإنَّ الفجرَ سيعقُبُه لا مَحالَةَ، وأنَّ الباطلَ قد يكسَبُ معركةً، ولكنَّ الحَقَّ يكسَبُ الحَربَ في نهايةِ المَطافِ.

عامُ الحُزنِ: السَّلامُ على قلبِكَ يا رسولَ اللّٰه!

إنَّـه عـامُ الحُـزنِ أشـدُّ الأعـوامِ وَطـأةً علـى قلـبِ رسـولِ اللّٰه ﷺ. فيـه أُغلِقَ عليـه بابـانِ مـن الرَّحمـةِ كانـا يُظلّانِـه فـي لهيـبِ الدَّعـوةِ: بـابُ العَـمِّ الحانـي، وبـابُ الزَّوجـةِ المُواسـية.

فـي مَطلـعِ ذلـك العـامِ أغمـضَ أبـو طالـبٍ عينيـه، الشَّـيخُ الجليـلُ الـذي احتضـنَ اليَتيـمَ صغيـرًا، ونصـرَهُ كبيـرًا، وذادَ عنـه مـا وسِـعَهُ الذَّودُ بنفسِـه وببنـي هاشـم. كان السَّـندَ فـي مواطـنِ الضَّعـف، والـدِّرعَ إذا اشـتدَّتِ السِّـهامُ حـول الدَّعـوةِ، مـا وَهَـنَ ولا لان. رجـلٌ مثـلُ أبـي طالـبٍ يُبكـى بـدمِ القلـبِ لا بمـاءِ العيـنِ؛ عِرفانًـا بجميلِـه حينًـا، وأَسـفًا عليـه حينًـا آخـر. لقـدِ اتَّسَـع قلبُـه علـى الدَّاعيـة، وضـاقَ علـى الدَّعـوةِ، فسـبحانَ مَـن بيـدِهِ قلـوبُ عبـادِه.

ولـم يكـد قلـبُ النَّبـيِّ ﷺ يَتَعافـى مـن فقـدِ العَـمِّ حتَّـى كُلِـم بفقـدِ الحبيبـةِ والزَّوجـةِ خديجـة؛ رفيقـةِ دربِّـه، وضِيـاءِ عُمـرِه، ومَوطـنِ سـكينتِه وجَبَهتـه الدَّاخليـة. المـرأةُ التـي اتَّسَـع عليـه قلبُهـا حيـن ضاقـت عليـه مكَّـة، التـي آمنـت حيـن كفـر النَّـاس، وأعطـتْ حيـن منـع النَّـاس، وكان لـه منهـا الولـدُ، صـارت الآنَ بيـن أطبـاقِ التُّـراب. وبفقـدِ أبـي طالـبٍ فَقَـد النَّبـيُّ ﷺ نصيـرَهُ فـي وجـهِ قريـش، وبفقـدِ خديجـةَ فقـد مَـلاذَهُ وموضـعَ طمأنينتـه. كـم شـعرَ وقتـذاك أنَّـه صـار وحيـدًا ومكشـوفًا. فالسَّـلامُ علـى قلبِـكَ يـا رسـولَ اللّٰه.

خرج أبو طالبٍ من حصارِ الشِّعبِ مُنهكًا، هو الآنَ في الثَّمانينَ من عمرِه، وأماراتُ الموتِ باديةٌ على وجهِه. فأرادت قريشٌ أن تلعب ورقتَها الأخيرة، فشكَّلتْ وَفدًا رفيعًا من كُبرائِها، وجاءت إلى أبي طالبٍ فقالت: يا أبا طالبٍ، إنَّكَ منَّا حيثُ علمتَ، وقد حضرَك ما ترى، وتخوَّفْنا عليك الموت، وقد علمتَ الذي بيننا وبين ابنِ أخيك؛ فادعُهُ فخُذْ له منَّا وخُذْ لنا منه، ليَكُفَّ عنَّا ونَكُفَّ عنه، وليَدَعْنا ودينَنا ونَدَعْهُ ودينَه.

فأرسل أبو طالبٍ إلى النَّبيِّ ﷺ وقال: هؤلاء أشرافُ قومِكَ قد اجتمعوا لك ليُعطوكَ وليأخذوا منك.

فقال النَّبيُّ ﷺ: يا عمُّ، أفلا أدعوهم إلى ما هو خيرٌ لهم؟

قال أبو طالبٍ: إلامَ تدعوهم؟

فقال: أدعوهم إلى كلمةٍ واحدةٍ تدينُ لهم بها العربُ ويملِكون بها العَجَم!

فقال أبو جَهلٍ: ما هي هذه الكلمةُ؟ وأبيكَ لَنُعطينَّكَها وعشرَ أمثالِها!

فقال النَّبيُّ ﷺ: تقولونَ: لا إلهَ إلَّا الله، وتخلَعونَ ما تعبُدونَ من دونه.

فلم يُعجِبْهم، وقاموا عنه يتملَّكُهم الغضب.

ولكَ أن ترى كيف أنَّ الباطلَ كلَّما رأى من الحقِّ ثباتًا تنازلَ له خطوةً؛ فمن قبلُ كانت المساومةُ على تركِ هذه الدَّعوة، أمَّا الآن فالمساومةُ أن نَدَعَكَ وشأنَكَ وتَدَعَنا وشأنَنا!

وهـذا عـرضٌ مُغـرٍ لا يُرفَض لـو كان الإسـلامُ جاء بفكـرةِ التَّعايـشِ مـع الباطـل، ولكـنَّ الإسـلامَ العظيـمَ جـاء ليُلغِـيَ الباطـلَ لا ليمنَحـه شَـرعيَّةَ البقـاء.

وعندمـا نـام أبـو طالـبٍ على فـراشِ المـوت، ذهـب إليـه النَّبـيُّ ﷺ مُمنِّـيًا نفسَـه أن يُتَـوِّجَ عمُّـه نُصـرةَ هـذا الديـن باعتناقِـه، فوجـد أبـا جهـلٍ قـد سـبقه إليـه، يريـد أن يتأكَّـدَ أنَّـه سـيُغادِرُ الدُّنيـا علـى ديـنِ قريـش.

يا لشياطينِ الإنسِ إذا استفحلَ بها الكُفر!

فقـال لـه النَّبـيُّ ﷺ: يـا عـمُّ، قُلْ: لا إلـهَ إلَّا اللّه، كلمـةً أُحـاجُّ لـك بهـا عنـد اللّه.

فقال له أبو جهلٍ: يا أبا طالبٍ، أَتَرغَبُ عن مِلّةِ عبدِ المُطَّلب؟

وكان آخـرَ مـا قـال أبـو طالـبٍ قبـل خـروجِ روحِـه: أنـا علـى مِلَّـةِ عبـدِ المُطَّلِـب.

ولـكَ أن تتخيَّـل مقـدارَ الأسـى فـي قلـبِ رسـولِ اللّه ﷺ علـى عمِّـه، فقـال والحـزنُ يعتصـرُه: واللّهِ لأسـتغفرنَّ لـك مـا لـم أُنْـهَ عنـكَ.

فنَـزَل قـولُ اللّه تعالـى: ﴿مَـا كَانَ لِلنَّـبِيِّ وَالَّذِيـنَ آمَنُـوا أَنْ يَسْـتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِـينَ وَلَـوْ كَانُـوا أُولِي قُـرْبَى مِـنْ بَعْـدِ مَـا تَبَـيَّنَ لَهُـمْ أَنَّهُـمْ أَصْحَـابُ الْجَحِيـمِ﴾!

وبوفـاةِ أبـي طالـبٍ اسـتفحلَتْ قريشٌ فـي إيـذاءِ النَّبـيِّ ﷺ، وحادثةُ وَضـعِ سَـلا الجَـزور علـى رأسِـه ﷺ التـي تحدَّثنـا بهـا سـابقًا كانـت

بعد وفاةِ أبي طالب، وهذه جرأةٌ لم تكن تتجرَّأها قريشٌ في حياةِ أبي طالب.

كان النَّبيُّ ﷺ حين يُؤذى من قريشٍ يأتي إلى خديجة، وها هي الآنَ على فراشِ الموت، يدخل عليها وقد اشتدَّ عليها، فيقول لها: بالكُرْهِ مِنِّي ما يَجْري لكِ يا خديجة! أي: يُوجِعُني ما يُوجِعُك.

خمسٌ وعشرونَ سنةً وهي تُحُوطُه وتحنو عليه وتحميه.

خمسٌ وعشرونَ سنةً وهي أمُّه وزوجتُه وحبيبتُه ورفيقتُه ودُنياه.

خمسٌ وعشرونَ سنةً تَغيَّر فيها النَّاس وبقيتْ خديجةُ هي خديجة.

آمَنَتْ بي حين كَفَرَ بِيَ النَّاس، وصَدَّقَتني حين كَذَّبني النَّاس، وأشرَكَتْني في مالِها حين حرَمَني النَّاس، ورَزَقَني اللّهُ وَلَدَها.

هكذا كان يُحدِّث عنها النَّبيُّ ﷺ بعد وفاتِها.

تزوَّج بعدها إحدى عَشْرةَ امرأةً، وبقي إلى آخرِ عمرِه يقول: واللّهِ ما أبدَلَني اللّهُ خيرًا من خديجة.

لم يكن يعدُّها من النِّساءِ فقط، بل كان يعدُّها من أبوابِ الرِّزق: إنِّي رُزِقْتُ حُبَّها.

وفي ليلةِ العاشِر من رمضان، من السَّنةِ العاشرةِ للبِعثةِ الشَّريفة، تُوفِّيَت أمُّنا خديجةُ بنتُ خُوَيْلِد رضي اللّه عنها. نزل النَّبيُّ ﷺ إلى قبرِها، سَجَّاها في يديه الشَّريفتين، ودعا لها، ثمَّ أهالَ عليها التُّراب، ومضى. الكثيرُ منه بقي في قبرِ خديجةَ إلى الأبد، والكثيرُ من خديجةَ بقي فيه إلى الأبد.

فالسَّلامُ عليكِ يا أمَّنا خديجة، والسَّلامُ على قلبِكِ المليءِ بالحبِّ والإيمان.

جزاكِ اللّٰه عنَّا، وعن الإسلام، وعن رسولِ اللّٰه ﷺ خيرَ ما جزى زوجةَ نبيٍّ عن حُسنِ صُحبَتِها.

أمَّا أنا وأنت، فها هي الدُّنيا، وها هو حظُّ المؤمنِ منها؛ ينهشُه الفقدُ من جهةٍ، ويُطوِّقه الحزنُ من جهة، وبينهما لحظاتُ صفاءٍ وسَعَة. وبين هذا وذاك، علينا أن نُوَطِّنَ أنفسَنا على ألَّا يُلهينا الحزن، ولا يُطغينا الفرحُ عمَّا خُلِقْنا له.

إلى الطَّائف: من القُساةِ إلى القُساة!

ضاقَتْ عليه مكَّة، أبو طالبٍ الذي كان يَحُوطُه ويرعاه قد مات، وخديجةُ جبهتُه الدَّاخليَّةُ وموضعُ طمأنينتِه ماتتْ أيضًا، ولم يتغيَّر شيءٌ في مكَّة؛ ما زالت غارقةً في الضَّلال، تُكذِّب نبيَّها، وتَسومُ أصحابَه أصنافَ العذاب، فقرَّر المسيرَ إلى الطَّائف، علَّه يجد فيها قلوبًا أرحم من تلك القلوبِ القاسية التي وجدها في صُدورِ سادةِ قريش.

خرج النَّبيُّ ﷺ إلى الطَّائف مشيًا على قدميه، يصحبه مولاه زيدُ بن حارِثة. وفي الطَّريق، كان كلَّما مرَّ على حيٍّ من أحياءِ العرب دعاهم إلى الإسلام، فلم يُجِبْه إلى ذلك أحد.

ولمَّا وصل إلى الطَّائف، وهي يومئذٍ موطنُ ثَقيفٍ، عرض دعوتَه على سادتها، وهم يومئذٍ إخوةٌ ثلاثة: عبدُ ياليل، ومسعود، وحبيب أبناءُ عمرو الثَّقفيّ. فوجدهم كأبي جهلٍ غِلظةً، وكأبي لهبٍ تكذيبًا، وكأُميَّةَ بنِ خَلَفٍ أذيَّةً.

فأمَّا الأوَّل فقال له وهو يمزِّق قطعةً من ثوبِ الكعبة: إن كان اللهُ أرسلك!

وأمَّا الثَّاني فقال: أمَا وجد اللهُ أحدًا غيرك؟

وأمَّا الثَّالث فقال له: إن كنتَ رسولًا، لأنتَ أعظمُ خَطَرًا من أن أرُدَّ عليكَ الكلام. وَلَئِن كنتَ تَكذِبُ على الله، ما ينبغي أن أُكلِّمَك.

فقام عنهم النَّبيُّ ﷺ وقال لهم: إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنِّي.

أرأيتَ كم أُوذِيَ ليكون لنا دين؟ أن يُقال له استخفافًا: أمَا وجد اللّه أحَدا غيرك؟ يا لِقَسوتها ويا لِقلبه كم احتمل في سبيل اللّه!

فإن لم يَعرفِ النَّاس قدرَك، فتَعَزَّ بسيِّدِك، خيرِ ولدِ آدمَ، يَهزَأ به سادةُ ثقيف. ولا حول ولا قوّة إلا باللّه!

وبقِيَ النَّبيُّ ﷺ عشرةَ أيَّامٍ في الطَّائف، لم يترك أحدًا من أشرافها إلَّا دعاه إلى الإسلام، فلم يُجِبْه منهم أحد.

ثمَّ قالوا له: اُخرُجْ من بلادِنا!

وسلَّطوا عليه غِلمانَهم وسُفهاءَهم، فمنهم الشَّاتِمُ بأقذعِ الألفاظ، ومنهم الرَّاجِمُ بأقسى الحجارة، حتَّى سال الدَّمُ من قدمَيهِ الشَّريفتين، وكان زيدُ بنُ حارِثة يَقِيهِ بنفسه، ولكن ما يفعل رجلانِ في وجهِ قبيلة؟!

وما زالوا يتَّبعونه شتمًا ورجمًا حتَّى بلغ بُستانًا لِعُتبةَ وشيبةَ ابنَي ربيعة، فلمَّا التجأ إليه انصرفوا عنه.

وكأنَّ ما لقيَهُ من الأذى النَّفسيِّ من سادة ثقيف لم يشْفِ صدورَهم، حتَّى آذَوه في جسده أيضًا.

أرأيتَ بأيِّ شيءٍ وَصَل الإسلامُ إليك، لم يَصِلْكَ على طبقٍ من لُطف، إنَّما على طبقٍ من جَهدٍ وتضحيةٍ ودَم، هذا الإسلامُ غالٍ فلا تُضيِّعْه!

وفي بستانِ ابني ربيعة، جلس النَّبيُّ ﷺ في ظلِّ داليةِ عنب، ورفع يديه يُناجي ربَّه: اللهمَّ إليكَ أشكو ضَعفَ قوَّتي، وقِلَّةَ حِيلتي، وهَواني على النَّاس. يا أرحمَ الرّاحمين، أنتَ ربُّ المستضعفين،

وأنتَ ربِّي. إلى مَن تَكِلني؟ إلى بعيدٍ يَتَجَهَّمُني؟ أم إلى عدوٍّ ملّكتَه أمري؟ إن لم يكن بكَ غَضَبٌ عليَّ فلا أُبالي، ولكنَّ عافيتَكَ هي أوسعُ لي. أعوذُ بنورِ وجهك الذي أشرقتْ له الظُّلماتُ، وصَلُح عليه أمرُ الدُّنيا والآخرة، من أن يَنزل بي غضبُك، أو يَحلَّ عليَّ سَخَطُك. لكَ العُتبى حتَّى تَرضى، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بك.

فلمَّا رآه ابنا ربيعة على هذا الحال، رَقَّ قلبُهما عليه، فَنادَيا على غلامٍ نصرانيٍّ لهما يقال له عَدَّاس، وقالا: خُذ قِطفًا من هذا العنب، واذهب به إلى هذا الرَّجل.

فجاءه عَدَّاسٌ، ووضع قِطفَ العنب بين يديه، فتناول منه النَّبيُّ ﷺ وقال: بِسمِ الله.

فقال عَدَّاسٌ: إنَّ هذا الكلامَ ما يقولُه أهلُ هذه البلاد.

فقال له النَّبيُّ ﷺ: مِن أيِّ البلادِ أنت؟ وما دينُك؟

فقال: أنا نصرانيٌّ من أهلِ نِينَوَى.

فقال له النَّبيُّ ﷺ: مِن قريةِ الرَّجلِ الصالحِ يُونُسَ بن مَتَّى.

فقال: ما يُدريك ما يُونُسُ بن مَتَّى؟

فقال النَّبيُّ ﷺ: ذلك أخي، كان نبيًّا، وأنا نبيٌّ.

فأكبَّ عَدَّاسٌ على رأسِ رسولِ الله ﷺ، وعلى يدَيهِ ورِجلَيه يُقبِّلُها!

وأسلم عَدَّاس. وسبحانَ مَن يُرسِل قَبَسًا من نورٍ على قلوبِ عبادِه في أحلكِ الأوقاتِ ظُلمة.

مهما ضاقت سيُرسلُ اللّهُ إليك دوماً ما يُعَزِّيك به، ويُخبرُك أنَّه راضٍ عنك، وأنَّك على الطَّريق.

فاتَتْهُ الطَّائف كُلُّها هذه المرة، ورجع بقلبِ عَدَّاسٍ!

ولكنَّ الهَمَّ بقي ثقيلاً، بقيتْ الطَّائف جُرحًا ينزِفُ في قلبه ﷺ! سألَتْه عائشةُ رضي اللّه عنها مرَّةً:

هل أتى عليكَ يومٌ كان أشدَّ عليكَ مِن يوم أُحُد؟

فقال لها: لقد لَقِيتُ من قومِك ما لَقِيتُ، وكان أشدَّ ما لَقِيتُ منهم يومَ العَقَبة، إذ عَرَضتُ نفسي على ابنِ عبدِ ياليلِ بن كلالٍ، فلم يُجبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مَهمومٌ على وجهي، فلم أستَفِقْ إلَّا وأنا في قَرْنِ الثَّعالِب.

فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتني، فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إنَّ اللّه قد سمع قولَ قومِك لك وما رَدُّوا عليك، وقد بعث اللّهُ إليك مَلَكَ الجبال لتأمرَه بما شئتَ فيهم.

فناداني ملكُ الجبال، فسلَّم عليَّ، ثمَّ قال: يا محمَّد، إن شئتَ أن أُطبِقَ عليهم الأخشَبَين فعلتُ.

فقال له النَّبيُّ ﷺ: بل أرجو أن يُخرجَ اللّهُ مِن أصلابِهم مَن يعبدُ اللّهَ عزَّ وجلَّ وحده لا يُشرك به شيئًا.

يا لِقلبِك يا رسولَ اللّه! يا لِقلبِك الذي لا يعرفُ الانتقامَ ولا التشفِّي.

يُعلِّمنا النَّبيُّ ﷺ أنَّ مهمَّةَ المسلمِ الأولى أن ينشرَ الإسلامَ في الأرض، وأن يهتمَّ لهدايةِ المُخالف والموافِق، وأنَّ مَن خُيِّر بين هدايةِ الذين آذَوه وبين الانتقام منهم، فاختار الانتقام، فقد شَطَّ عن سُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ، ولم يَفهَم الغايةَ السَّامية من الدَّعوة. ولو تأمَّلتَ، لوجدتَ أن النَّبيَّ ﷺ لم يختر بين هدايةِ هؤلاء الذين آذَوه فقد كانوا في عينيه يومئذٍ أبعدَ ما يكون المرءُ عن الهداية ولكنَّه اختار أبناءَهم! وهذا أبلغُ من الأول!

لقد اختار أمَلًا قادمًا على عذابٍ واقع. ما أرحمَه من نبِيٍّ ﷺ!

وإن كان عَدّاسٌ هو خيطَ النُّورِ الأوَّل في ظُلمةِ الرِّحلة، فإنَّ مجيءَ جبريل عليه السلام وملكِ الجبال كان الخيطَ الثَّاني من النُّور. هنا بدأت معيَّةُ الله تتجلَّى لنَّبيِّه ﷺ، فاطمأنَّ كلُّه. ولكن لا أحدَ أكرمُ من الله، في تلك اللَّيلة صرَف اللهُ تعالى إلى نبيِّه ﷺ نَفَرًا من الجِنِّ، سمعوا تلاوتَه، فدعاهم فآمنوا، وانطلقوا إلى قومِهم دُعاةً.

سُبحان مَن يأخذُ بيدٍ ويُعطي بالأخرى، وسبحان من يُغلِقُ بابًا بحكمته، ويفتحُ أبوابًا برحمته. آمَن عَدَّاس، وآمَن الجِنُّ، والطَّائف بقيت على موعدٍ مع عفوٍ رآه النَّبيُّ ﷺ لاحقًا بعينيه حين أسلمَت الطَّائف، وجاءته ثقيفٌ تُبايعه على الإسلام.

وإنِّي أريد منك الآن أن تتأمَّل معي: فلم أستَفِقْ إلَّا وأنا في قَرْنِ الثَّعالب. هو يعلم أنَّه نبيٌّ، ويعلم أنَّ الدِّين الذي جاء به سيظهر في نهاية المطاف، ولكنَّه إنسان: يحزن، ويضيق صدرُه،

ويصيبُه الهَمُّ، بل ويَسير هائمًا على وجهه لا يدري أين تأخذُه قدمُه. بأبي هو وأمي، ثمَّ ينتبه، فإذا هو في قرن الثَّعالب، قد مَشى مسافةً بعيدةً عن الطَّائف.

فما بالك بنا نحن؟ نحنُ الذين لو جُمِع إيمانُنا في كفَّة، وإيمانُه ﷺ في كفَّة، لرَجَح إيمانُه على إيمانِنا، ولفاق يقينُه باللّٰه يقينَنا، ولغلب صبرُه صبرَنا.

أليس مِن حقّنا نحن أيضًا أن ننكسرَ أحيانًا؟ وأن نمشيَ ولا ندري أين تأخذُنا أقدامُنا؟ فهل قدَّرْنا هذا لبعضِنا؟ وعرَفْنا أنَّه تمرُّ بالإنسان لحظاتٌ يَخرج فيها عن طَبْعِه، وعن اتّزانِه الذي عرفناه به؟

تمرُّ بالإنسان لحظاتٌ لا يطيق فيها أن يقول كلمةً، أو أن يسمع نصيحةً، أو يقابل إنسانًا. فلماذا نعتبر الأمر شخصيًّا، ونزيد هموم بعضنا البعض، بدل أن نراعي أن النَّفس في إقبالٍ وإدبار، وأن الرُّوح تمرض تمامًا كما يمرض البدن؟ إذا رأيتَ صديقًا ضَجِرًا، فلا تكن له همًّا فوق همِّه، بل كن له قَرْنَ الثَّعالب الذي يستفيق عنده. اِحترم حزنه، وحاجته في أن يبقى وحده. ثمَّ حين يهدأ، اِربِتْ على كتفه، واِمسح على صدره، وواسِ قلبه، حدِّثه حديثَ القلب للقلب، والرُّوح للرُّوح، دَعْكَ من المنطق قليلًا فالنَّفسُ لحظةَ انكسارها تحتاج احتواءً لا درسًا، والرُّوح لحظة تِيهِهَا تحتاج احتضانًا لا محاضرة!

نحن نضعف، لا من قلَّة الإيمان، ولكن من قسوة الحياة. ما كان إيمانُ النَّبيِّ ﷺ يوم الطَّائف قليلًا، ولكنَّ الخذلان كان موجعًا. ولقد علم الله حجم وجعه وانكساره، فلم يعاتبه، لأنَّه هَامَ على وجهه، ولم يقل له: أين إيمانك بي؟ بل أرسل له ملائكةً تحفُّه وتنصره.

علِم الله أن رسول الله ﷺ، نهاية المطاف إنسان، وأنَّ النَّاس تمرُّ بهم لحظاتُ ضعف،

تحتاج عندها قلبًا حنونًا، لا عقلَ فيلسوفٍ، أو لسانَ خطيبٍ.

ولأنَّ المصائب لا تأتي فُرادى، ولأنَّ أشدَّ النَّاس ابتلاءً الأنبياء، وهو سيِّدهم، كان على موعد مع ابتلاءٍ جديد حتَّى قبل أن تلتئم الجراح في قدميه، أمَّا عن جرح قلبه فكان ما زال ينزُّ حين قررتْ قُريش أن تمنعه من دخول مكَّة، وهكذا صار بين نارين لا الغريب قبِلَ منه دعوته، ولا القريب قبلَ عودته! فكان لا بُدَّ له أن يبحث عمَّن يُجيره ويحميه ويُدخله تحت كنفه إلى مكَّة، فذهب إلى المُطْعِم بن عديٍّ، وقبلَ أن يُجيره، وباتَ عنده تلكَ اللَّيلة، ثمَّ لمَّا كان الصَّباح، خرجَ المطعم وبنوه مُتقلِّدي السُّيوف، حتَّى أتوا الكعبة، وقال للنَّبيِّ ﷺ: طُفْ بالبيت ما شئت!

فجاء أبو سُفيان فقال للمُطْعِم: أمُجيرٌ أنتَ أم تابعٌ له؟

فقال: بل مُجير!

فقال أبو سُفيان: قبِلنا جواركَ، وخلَّينا بين محمَّد وما هو فيه!

ثـمَّ مكـثَ أيامـاً فـي مكَّـة، وأُذِنَ لـه بالهجـرة، ودار الزَّمـان قليـلاً، مـاتَ فـي دورتـه المُطْعِـم بـن عـديٍّ، ثـمَّ كانـتْ غـزوة بـدر التـي انتهـتْ بالنَّصـر، ولمَّـا جِـيء بأسـرى قُريـش إلـى النَّبـيِّ ﷺ قـال: لـو كان المُطْعِـمُ بـن عـديٍّ حيَّـاً وكلَّمنـي فـي هـؤلاء النَّتْنَـى لتركتهـم لـه!

رغـمَ أن هـؤلاء أسـرى حـرب، ولـو أن أحـداً اسـتطاع أن يقتلـه مـا تـردَّد ثانيـة، ولكنَّـه حَفِـظ للمُطْعِـم بـن عـديٍّ معروفـه معـه، ولـم ينسـه، وأخبرهـم أنَّـه لـو كان حيّـاً وشَـفِعَ فيهـم مـا ردَّ طلبـه، ولأطلقهـم لـه عرفانـاً بمعروفـه الـذي صنعـه معـه!

النُّبـلاء لا ينسـون مواقـف الآخريـن المشـرِّفة معهـم حتَّـى ولـو كانـوا مـن غيـر مِلَّـةٍ وعلـى غيـر ديـن!

فهـل حفظنـا للنَّـاس معروفهـم، وتحيَّنَّـا الفُـرص لنـردَّ إليهـم هـذا الجميـل عمـلاً بهَدْيِـه وسُـنَّته، أم أخذنـا ومضينـا؟!

العبـدُ تُقيِّـده السَّلاسـل، أمَّـا الحُـرُّ فيُقيِّـده المعـروف! فكُـنْ حـرّاً ولا تنـسَ معروفـاً أُسـدِيَ إليـكَ، صحيـح أنَّ الـذي فعـلَ المعـروف هـو فـي الغالـب لا ينتظـر سـداداً، ولكـنَّ مـن العـار أن تنسـى أنـتَ!

الإسراءُ والمعراجُ: سَيِّدُ الأرضِ في السَّماء!

عاد النَّبيُّ ﷺ مكلومًا من الطَّائف، هناك حيث كُذِّب ورُجِم، كما أن جِراحَهُ السابقة لم تلتئم بعد. ما زال حُزنُه على عمِّه أبي طالبٍ لم يَنقشِع، وهو بين حُزنين: حُزن لفقدِه لمن كان يذود عنه ويحوطه ويرعاه، وحُزنٍ على أن مضى أبو طالبٍ من الدُّنيا وهو على غير مِلَّةِ الإسلام. جُرحُ فَقْدِ خديجةَ كان ما زال يَنِزُّ أيضًا؛ تلك المرأةُ الفريدةُ في حياتِه التي لم يملأ مكانها أحد.

كانت الأرضُ في ظلِّ كلِّ هذا كأنَّها مأتمٌ كبير. وحين ضاقت الأرضُ عن عزاءٍ أصبحت السَّماءُ عزاءً. لقد سمع الله قول نبيِّه: إن لم يكن بك عليَّ غَضَبٌ فلا أُبالي! فاستدعاه إلى السَّماء. ويا له من عزاء، ويا لِمَقامِ النَّبيِّ ﷺ عند ربِّه.

نزل جبريل عليه السلام إلى النَّبيِّ ﷺ بصحبة ملَكين آخرين، فأخذوه وشقوا صدره، ثمَّ انتزعوا قلبه وغسلوه بماء زمزم، ثمَّ قاموا بملء قلبه إيماناً وحكمةً، وأعادوه إلى موضعه.

ثمَّ جاء جبريل عليه السلام بالبراق، وهي دابَّة عجيبة تضع حافرها عند منتهى بصرها، فركِبَه النَّبيُّ ﷺ وانطلقا معاً، إلى بيت المقدس.

وفي هذه المدينة المباركة كان النَّبيُّ ﷺ على موعدٍ للقاءٍ بإخوانه من الأنبياء عليهم السلام، فقد اصطحبه جبريلُ عليه السلام إلى المسجد الأقصى، وعند الباب ربط جبريل عليه السلام البراق بالحلقة

التي يربط بها الأنبياء، ثمَّ دخلا إلى المسجد، فصلَّى النَّبيُّ ﷺ بالأنبياء إماماً، وكانت صلاته تلك دليلاً على مدى الارتباط بين دعوة الأنبياء جميعاً من جهة، وأفضليَّته عليهم من جهة أخرى، وإيذاناً بنسخِ كلِّ الشَّرائع، وتسيُّد النَّبيِّ ﷺ للرِّسالة قاطبة!

وجاءه جبريل عليه السلام بثلاثة آنية، الأوَّل مملوء بالخمر، والثَّاني بالعسل، والثَّالث باللَّبن، فاختار النَّبيُّ ﷺ إناء اللَّبن فأصاب الفطرة، ولو اختار غيرها لغَوَتْ أمَّتُه!

ثمَّ بدأ الجزء الثَّاني من الرِّحلة، وهو الصُّعود في الفضاء وتجاوز السَّماوات السَّبع، وكان جبريل عليه السلام يطلب الإذن بالدُّخول عند الوصول إلى كلِّ سماء، فيُؤذن له وسط ترحيب شديد من الملائكة بقدوم سيِّد الخلق وإمام الأنبياء ﷺ.

وفي السَّماء الدُّنيا، التقى النَّبيُّ ﷺ بآدم عليه السلام، فتبادلا السَّلام والتَّحية، ثمَّ دعا آدم له بخير، وقد رآه النَّبيُّ ﷺ جالساً وعن يمينه وشماله أرواح ذريته، فإذا التفتَ عن يمينه ضحك، وإذا التفتَ عن شماله بكى، فسأل النَّبيُّ ﷺ جبريل عليه السلام عن الذي رآه، فذكر له أن أولئك الذين كانوا عن يمينه هم أهل الجنَّة من ذريته فيسعد برؤيتهم، والذين عن شماله هم أهل النَّار فيحزن لرؤيتهم!

ثمَّ صعد النَّبيُّ ﷺ إلى السَّماء الثَّانية ليلتقي بعيسى ويحيى عليهما السلام، فاستقبلاه أحسن استقبال وقالا: مرحباً بالأخ الصَّالح والنَّبيِّ الصَّالح.

وفـي السَّـماء الثَّالثـة، رأى النَّبـيُّ ﷺ أخـاه يوسـف عليه السلام، وسـلَّمَ عليـه، وقـد وصفـه النَّبـيُّ ﷺ بقولـه: وإذا هـو قـد أُعطِـيَ شَـطر الحُسـن!

ثـمَّ التقـى بأخيـه إدريـس عليه السلام فـي السَّـماء الرَّابعـة، وبعـده هـارون عليه السلام فـي السَّـماء الخامسـة.

ثـمَّ صعـد جبريـل عليه السلام بالنَّبـيِّ ﷺ إلـى السَّـماء السَّـادسـة لرؤيـة أخيـه موسـى عليه السلام، وبعـد السَّـلام عليـه بكـى موسـى فقيـل لـه: مـا يبكيـك؟

فقـال: أبكـي لأن غلامـاً بُعِـث بعـدي، يدخـلُ الجنَّـة مـن أمَّتـه أكثـر ممـن يدخلهـا مـن أمَّتـي.

ثـمَّ كان اللقـاء بخليـل الرَّحمـن إبراهيـم عليه السلام فـي السَّـماء السَّـابعة، حيـث رآه النَّبـيُّ ﷺ مسـنداً ظهـره إلـى البيـت المعمـور، كعبـة أهـل السَّـماء، الـذي يدخلـه كلّ يـوم سـبعون ألفـاً مـن الملائكـة لا يعـودون إليـه أبـداً، وهنـاك اسـتقبل إبراهيـمُ عليه السلام النَّبـيَّ ﷺ ودعـا لـه، ثـمَّ قـال: يـا محمَّـد، أقـرِئ أمَّتـك منِّـي السَّـلام، وأخبرهـم أنَّ الجنَّـة طيِّبـة التُّربـة، عذبـة المـاء، وأنَّهـا قيعـان، وأنَّ غراسـها: سـبحان اللّٰه، والحمـد للّٰه، ولا إلـه إلا اللّٰه، واللّٰه أكبـر!

وبعـد هـذه السِّلسـلة مـن اللِّقـاءات المباركـة، صعـد جبريـل عليه السلام بالنَّبـيِّ ﷺ إلـى سـدرة المنتهـى، وهـي شـجرة عظيمـة القـدر كبيـرة الحجـم، ثمارهـا تشـبه الجـرار الكبيـرة، وأوراقهـا مثـل آذان الفِيَلـة، ومـن تحتهـا تجـري الأنهـار، وهنـاك رأى النَّبـيُّ ﷺ جبريـل عليه السلام علـى صورتـه الملائكيَّـة ولـه سـتمائة جنـاح!

ثمَّ حانت أسعد اللَّحظات إلى قلب النَّبيِّ ﷺ، حينما تشرف بلقاء اللّه، دون أن يراه سبحانه، والوقوف بين يديه ومناجاته، لتتصاغر أمام عينيه كلُّ الأهوال التي عايشها، وكلُّ المصاعب التي مرَّت به، وهناك أوحى اللّه إلى عبده ما أوحى، وكان ممَّا أعطاه خواتيم سورة البقرة، وغفران كبائر الذُّنوب لأهل التَّوحيد الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك، ثمَّ فرض عليه وعلى أمَّته خمسين صلاة في اليوم واللَّيلة.

وعندما انتهى النَّبيُّ ﷺ من اللِّقاء الإلهي مرَّ في طريقه بموسى عليه السلام، فلمَّا رآه سأله: بم أمرك؟

فقال له: بخمسين صلاة كلَّ يوم!

فقال موسى عليه السلام: أمَّتك لا تستطيع خمسين صلاة كلَّ يوم، وإنِّي واللّه قد جرَّبت النَّاس قبلك فارجع إلى ربِّك فاسأله التَّخفيف.

فعاد النَّبيُّ ﷺ إلى ربَّه يستأذنه في التَّخفيف فأسقط عنه بعض الصَّلوات، فرجع إلى موسى عليه السلام وأخبره، فأشار عليه بالعودة وطلب التَّخفيف مرَّة أخرى، وتكرَّر المشهد عدَّة مرَّات حتَّى وصل العدد إلى خمس صلوات في اليوم واللَّيلة، واستحى النَّبيُّ ﷺ أن يسأل ربَّه أكثر من ذلك، ثمَّ أمضى اللّه عزَّ وجلَّ الأمر بهذه الصَّلوات وجعلها بأجر خمسين صلاة.

وقد شاهد النَّبيُّ ﷺ في هذه الرِّحلة الجنَّة ونعيمها، وأراه جبريل عليه السلام الكوثر، وهو نهر أعطاه اللّه لنبيِّه إكراماً له، حافَّتاه والحصى الذي في قعره من اللُّؤلؤ، وتربته من المسك، وكان النَّبيُّ ﷺ كلَّما مرَّ بملأ من الملائكة قالوا له: يا محمَّد، مُرْ أمَّتك بالحجامة!

وفـي المقابل، وقـف النَّبـيُّ ﷺ علـى أحـوال الذيـن يعذَّبـون فـي نـار جهنَّـم، فـرأى أقوامـاً لهـم أظفـارٌ مـن نحـاس يجرحـون بهـا وجوههـم وصدورهـم، فسـأل جبريـل عليه السلام عنهـم فقـال: هـؤلاء الذيـن يأكلـون لحـوم النَّـاس، ويقعـون فـي أعراضهـم!

ورأى أيضـاً أقوامـاً تقطـع ألسـنتهم وشـفاههم بمقاريـض مـن نـار، فقـال لـه جبريـل عليه السلام: هـؤلاء خطبـاء أمَّتـك مـن أهـل الدُّنيـا، كانـوا يأمـرون النَّـاس بالبـرِّ وينسـون أنفسـهم وهـم يتلـون الكتـاب، أفـلا يعقلـون؟!

ورأى شـجرة الزَّقـوم المذكـورة فـي القـرآن، ورأى مالِـكاً خـازن النَّـار، وشـمَّ رائحـة ماشـطة ابنـة فرعـون وأولادهـا!

فلمَّـا أصبـح أخـذ النَّبـيُّ ﷺ ناحيـة مـن البيـت وجلـس علـى غيـر عادتـه مما يألفـه النَّـاس، دنـا منـه أبـو جهلٍ، فلمَّـا رآه متغيـر الحـال، قـال: هـل مـن خبـر يـا محمَّد؟

قال: نعم.

قال: وما ذاك؟

قال: أُسريَ بي ليلة البارحة إلى المسجد الأقصى.

قال: وعدتَ من ليلتك؟

قال: نعم.

قـال: يـا ابـن أخـي! أتـرى إن جمعـتُ لـك أنديـة قريـش أتخبرهـم بمـا أخبرتنـي به؟

قال النَّبيُّ ﷺ: نعم.

فنادى أبو جهل بأعلى صوته، يريد أن يشمت به، يا بني كعب ابن لؤي، يا معشر قريش، هلموا إليَّ!

فاجتمعوا من كلِّ حَدَب وصوبٍ تاركين أنديتهم حتَّى أقبلوا، قال: اسمعوا ما يقول محمَّد.

فلمَّا أخبرهم النَّبيُّ ﷺ، إذا بأحدهم يضع أصابعه بين أذنيه، وإذا بأحدهم يفغر فاه، ويضع أحدهم يديه على رأسه متعجباً، قالوا: وعدت من ليلتك؟!

قال: نعم، وعدت من ليلتي!

قالوا: صف لنا بيت المقدس، فلمَّا همَّ النَّبيُّ ﷺ بوصفه وقد رآه في اللَّيل، وهو نبيٌّ كريم زاهد عابد، لمَّا دخل المسجد لم ينظر إلى أروقته ولا إلى جدرانه ولا إلى حيطانه، فقد صلَّى وتعبَّد اللّه جلَّ وعلا فيه، فلم يقدر أن يصف لهم المسجد، فما هي إلَّا برهة وجبريل عليه السلام يُدني المسجد بين يديه، فأخذ النَّبيُّ ﷺ ينظر إلى المسجد ويصفه للملأ من قريش، وكلَّما زاد في وصفه قال القوم من قريش: أمَّا المسجد فكما قال، وأمَّا الوصف فكما وصف.

ثمَّ أخبرهم أنَّه مرَّ على قافلةٍ لهم وأنَّها ضلَّت بعيراً في الطَّريق، فوعدهم يوم كذا وكذا أن تعود القافلة إلى مكَّة، فاحتسبوا تلك الأيَّام حتَّى خرجوا في ظهيرتهم، فلمَّا خرجوا فما إن طلع حاجب الشَّمس إلَّا والقافلة قادمة مقبلة إلى مكَّة كما أخبر النَّبيُّ ﷺ!

وارتدَّ ناسٌ ممَّن كانوا قد آمنوا! ورأتها قريشٌ فرصةً سانحة، وسَعَوْا بذلك إلى أبي بكرٍ، فقالوا: هل لك إلى صاحبِك يزعم أنَّه أُسرِيَ به اللَّيلة إلى بيتِ المقدسِ؟

قال: أَوَقال ذلك؟

قالوا: نعم.

قال: لئن كان قالَ ذلك لقد صدَقَ!

قالوا: أوتُصَدِّقُه أنه ذهب اللَّيلة إلى بيتِ المقدسِ وجاء قبل أن يُصبِحَ؟

قال: نعم إنِّي لَأُصَدِّقُه فيما هو أبعدُ من ذلك، أُصَدِّقُه بخبرِ السَّماء في غُدُوِّه أو رَوْحِه، فلذلك سُمِّي أبو بكرٍ الصِّديق!

ولأنَّ السيرةَ تُعاش ولا تُروى، وتُقرأ كدُستورِ حياةٍ لا كتاريخٍ ميِّت، لا بد من الوقوف هُنيهةً مع أهمِّ الدُّروس والعِبَر المستفادة من رحلة الإسراء والمعراج:

أولًا: إنَّ مع العُسر يُسرًا، ومن رَحِمِ المِحن تولد المِنَح. كم كانت الدُّنيا شديدةً على النَّبيِّ ﷺ قبل الإسراء والمعراج، كان مكلومًا بفقدِ عمِّه أبي طالبٍ الذي كان له دِرعًا، وبفقدِ زوجته خديجةَ التي كانت له حضنًا، ثمَّ ما أصابه من أذىً في رحلته إلى الطَّائف. ثمَّ جاء اليُسر لِيَكسِر العُسر، وجاءت المنحة لتزيل المِحن بطريقةٍ لا تخطر على بال. ولو قيل لرسول الله ﷺ اختر لنفسك عزاءً، لربَّما ما كان ليختار عزاءً بهذا الدفء، أن يصعد إلى السَّماء السَّابعة. فمهما اشتدَّت الأمور، ومهما عظُم الكرب،

كونوا على يقينٍ أن ربَّ الفَرَج قريب، وأن كلَّ هذا ما هو إلَّا امتحانٌ وسحابةُ بلاءٍ ستنقشِع، ويذهب التَّعب، ويبقى الأجر.

ثانيًا: باختيار إناءِ اللَّبَن اختار النَّبيُّ ﷺ الفِطرة، الفِطرةُ جَمرَةٌ في موقِدِ البشريَّة، ممنوعٌ أن تنطفئ. إنَّها البوصلةُ التي تضبط وجهة الإنسان. وإنَّ الفاصل بين الإنسانيَّة والحيوانيَّة ليس الدِّين، وإنَّما الفِطرة؛ إذ لا دين مع فساد الفطرة. وإنَّ الرأسماليَّةَ المسعورة اليوم خطورتُها ليست على الإسلام فقط، وإنَّما على البشريَّة كلِّها. إنَّ ما يُروِّجون له من الشُّذوذ وتغيير الجنس، وزِنى المحارم، وشواطئ العُراة، والزَّواج من الحيوانات، لا يجعل البشريَّة عاجزةً عن استقبال الدِّين، بل يجعلها عاجزةً عن ممارسة إنسانيَّتها.

ثالثًا: الصَّلاة مِعراجُ الرُّوح، كلُّ العبادات فُرضت على المسلمين والنَّبيِّ ﷺ في الأرض، وحدها الصَّلاة فُرضت في السَّماء حين كان في السَّماء السَّابعة. وهذا لعظيم شأنها وعلوِّ قدرها. وهي آخر وصاياه ﷺ من الدُّنيا.

الصَّلاة مِعراجُ الرُّوح، رحلةٌ سماويَّةٌ عُلويَّة، تقفز بها الرُّوح خارج حدود الجسد الطِّينيِّ المحبوس فيه، وتُحلِّق في مَلَكوت الله الواسع. وبقدر الخشوع وتحقيق الأركان تحصل لذَّة العبادة وتنعكس على الجوارح. ولخَّصها لك النَّبيُّ ﷺ حين كان يريد من بلال أن يُقيم الصَّلاة، فيقول له: أرِحْنا بها يا بلال.

رابعًا: الإيمانُ ليس بالتَّمنِّي ولكن ما وَقَرَ في القلب وصدَّقَهُ العمل، صحيحٌ أنَّه لن يدخل أحدٌ الجنَّة إلا برحمة الله حتَّى النَّبيُّ ﷺ

ولكن هل تُدرَك رحمةُ اللّٰه بشيءٍ أفضل من القيام بما فرضه اللّٰه تعالى وترك ما نهى عنه؟

رأينا في رحلة المعراج أصنافًا من العذاب تُصيب المَرءَ بالرُّعب، وكلُّها بسبب ذنوبٍ عظيمة يستهين بها النَّاس. كلُّنا أصحابُ معاصٍ، وليس على ظهر الأرض معصوم. ولكن سبحان من أرخى علينا سِتره. أمَّا المؤمنُ الحَيِيُّ فإذا أذنب عاد خَجِلًا. والمرء بخيرٍ ما دام يستغفر ويتوب. اللَّهم عاملنا بما أنت أهلُه، لا بما نحن أهلُه.

خامسًا: المسجدُ الحرام والمسجدُ الأقصى توأمان، القبلةُ الأولى للمسلمين، والقبلةُ الثَّانية، لا فِكاكَ بينهما. كان اللّٰه تعالى قادرًا أن يجمع للنَّبيِّ ﷺ الأنبياء في الكعبة، ويصلي بهم إمامًا، ثمَّ يُعرج به من هناك، ولكنَّه أراد أن يُقدِّس بيتَ المقدس في قلوبنا، وأن يُريَنا منزلتَه عنده.

لهذا ونحن نتَّجِهُ بقلوبنا قبل وجوهنا إلى المسجد الحرام علينا ألا ننسى مسجدًا أسيرًا في بيت المقدس ينتظر منَّا الكثير. فاللَّهم استخدمنا ولا تستبدلنا.

سادسًا: إنْ قالَ فقد صدقَ، منذ بدأت الرِّسالات، لم يحظَ نبيٌّ بصاحبٍ كحظوة النَّبيِّ ﷺ بأبي بكر. فاختر لك صحبةً صالحة؛ إنَّ الحياةَ رحلةُ سفر، وكانت العرب تقول: الرَّفيق قبل الطَّريق.

هذا دينُ الجماعة لا دينُ الأفراد. دينُ العُصبة المسلمة التي تعمل لإعلاء العقيدة يدًا واحدة، ومن قبل: قلبًا واحدًا. وإنَّ الذِّئب لا يأكل من الغنم إلَّا القاصِيَة.

سابعًا: النَّصرُ ليس في البقاء على قيد الحياة، وإنَّما في الثَّبات على المبدأ، في ظاهر الأمر، وبالقياسات الدُّنيويَّة الفارغة، حقق فرعونُ نصرًا ساحقًا على الماشِطة، فقد آذاها وأولادَها بالزَّيت المغليِّ. ولكن بحسابات الآخرة، فإنَّ القتيلَ ينتصرُ على القاتل إن مات على الحقِّ.

هذه الدُّنيا ليست نهاية المطاف، إنَّها أوَّلُه فقط؛ من اللَّحظة التي تخرج فيها الروحُ من الجسد تبدأ الرِّحلة.

الهجرةُ: من ضِيقِ الدَّعوةِ إلى سعةِ الدَّولةِ!

الهجـرةُ النَّبويَّـةُ الشَّـريفةُ لـم تكـن انتقـالاً مـن مـكانٍ إلـى مـكانٍ بقـدرِ مـا كانـت ارتقـاءً بالدعـوةِ إلـى مرحلـةِ الدولـةِ. خـرجَ النبـيُّ ﷺ مـن مكـةَ والحنيـنُ إليهـا يشـتعلُ فـي صـدرهِ اشـتعالَ النـارِ تحـتَ المرجلِ. تـركَ وراءَه بيتـاً نشـأَ فيـه، ومراتـعَ الصِّبـا، وطرقـاتٍ فيهـا من الذكريات أكثرُ مما فيها من الخطواتِ. هنا جرى طفلاً، وهنا رعى شـاباً، وهنـا تاجـرَ رجـلاً، وهنـا أحـبَّ زوجـاً، وهنـا أنجـبَ أبـاً، وهنـا دعـا نبيـاً، وهنـا صُـدِّقَ وهنـا كُـذِّبَ، وهنـا خديجـةُ، ويـا لوحشـةَ الطريـقِ إذا مـا تـركَ الرِّجـالُ قلوبَهـم وراءهـم.

خـرجَ النبـيُّ ﷺ مـن مكـةَ كـروحٍ تخـرجُ مـن جسـدٍ، وبعـضُ الرحيـلِ مـوتٌ ولـو كان علـى قدميـن!

وعلـى مشـارفها وقـف هنيهـةً مودِّعـاً، والعربـيُّ صَـبٌّ بطبعـه، وهـو سـيدُ العـربِ، خاطبَهـا بصـوتٍ تختنـقُ فيـه الدمعـةُ، ويمتـزجُ معـه الأسـى: واللّهِ إنـك لأحـبُّ بـلادِ اللّه إلـيَّ ولـولا أن قومَـك أخرجونـي منـك مـا خرجـت.

خـرجَ النبـيُّ ﷺ مـن مكـةَ إلـى المدينـةِ، وفـي ظهـره قومـه يطلبـون دمـه، والجائـزةُ لمـن أتـى بـه حيـاً أو ميتـاً، هـانَ علـى القبيلـة أطهرهـا! وتلقـاء وجهـه قـومٌ غربـاء أعطـوه وعـداً أن يكونـوا لـه أهـلاً، وبعـضُ صحابـةٍ سـبقوه ليبـدأ بهـم الرحلـة التـي قلبـت هـذا الكوكـبَ رأسـاً

على عقب، ولا أُغالي إذ أقول إن الإسلامَ وُلد مرتين: مرة يوم نزول الوحي، ومرة يوم وصول النبي ﷺ إلى المدينة المنورة.

خرجَ النبيُّ ﷺ من مكةَ إلى المدينةِ، هنا الأنصارُ سيفُ الإسلام ودرعه، هنا الصادقون الذين آووه ونصروه ومنعوه، هنا جحافلُ الفاتحين ومهدُ الدولة، هنا المشكاة التي خرج منها النُّورُ الذي أضاء هذا الكوكب.

ولكن هذه الهجرةُ المباركةُ لم تأتِ هكذا دفعةً واحدةً، ولم تكن قرارَ يومٍ وليلةٍ، كان لها مقدماتٌ، وسبقتها إرهاصاتٌ، وكان فيها محطاتٌ. الهجرةُ الشريفةُ لم تكن كرحلةِ الطائفِ حيث ذهبَ النبيُّ ﷺ عارضاً دعوته، كانت الدعوةُ تنتظره هناك ليبدأ الفصلَ الأجملَ والأعقدَ في تاريخِ الإسلام.

قبل الهجرةِ المباركة كان هناك بيعتان في العقبة، وبينَ البيعتين كان هناك مصعبُ بن عمير رضي الله عنه، فتى قريش الوسيم.

أ. بيعةُ العقبةِ الأولى:

بعد سنواتٍ طويلةٍ قضاها النَّبيُّ ﷺ في جهادٍ دائم، وعملٍ متواصلٍ لا يعرفُ الكللَ ولا الملل، وهو يطوفُ على القبائل، مُبلِّغاً دعوة ربه، ملتمساً الحليفَ والنصير ، ملاقياً في سبيل ذلك صنوف الأذى والصَّد والإعراض، أراد اللّه إتمام أمره، ونصر

دينه، وإعزاز نبيِّه ﷺ، فكانت البداية، ونقطة التَّحول الحاسمة، وبصيص النُّور الذي أطلَّ من بين ركام الظلمات، عندما قيَّضَ اللّٰه تعالى أولئك النَّفر السِّتة من أهل المدينة، فالتقى بهم النَّبيُّ ﷺ في موسم الحجِّ من السَّنة الحادية عشرة للبعثة الشريفة، وعرض عليهم الإسلام، فاستجابوا لدعوته وأسلموا، وكان هذا الموكب أول مواكب الخير التي هيَّأت للإسلام أرضاً جديدة، وملاذاً أميناً، حيث لم يكتف هؤلاء النَّفر بالإيمان، وإنما أخذوا العهدَ على أنفسهم بدعوة أهليهم وأقوامهم، ورجعوا إلى المدينة وهم يحملون رسالة الإسلام، حتى لم تبقَ دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول اللّٰه ﷺ.

فلما كان موسم الحجِّ من العام التَّالي، جاء إلى الموسم اثنا عشر رجلاً من المؤمنين، عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، فالتقوا بالنَّبيِّ ﷺ عند العقبة بمنى، وبايعوه البيعة التي سميت «بيعة العقبة الأولى»، وكانت بنود هذه البيعة نفس البنود التي بايع النَّبيُّ ﷺ عليها النساء فيما بعد، ولذلك عرفت أيضا باسم «بيعة النساء»، والسَّببُ أنَّه لم يكن فيها بيعةٌ على القتال!

وقد روى البخاريُّ في صحيحه نصَّ هذه البيعة وبنودها في حديث عبادة بن الصامت، وكان ممن حضر البيعة، وفيه أن النَّبيَّ ﷺ قال لهم: تعالوا بايعوني على ألا تشركوا باللّٰه شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتانٍ تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروفٍ، فمن وفى منكم فأجره

على اللّه، ومن أصابَ من ذلك شيئاً فعوقبَ به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصابَ من ذلك شيئاً فستره اللّه فأمره إلى اللّه، إن شاءَ عاقبه، وإن شاء عفا عنه!

قال: فبايعناه على ذلك!

وهذه سُنَّة اللّهِ في هذا الدِّين، ما ضاقتْ عليه أرضٌ إلا فتحَ له غيرها! وما زهدَ فيه قومٌ إلا رغَّبَ به غيرهم! إنَّه ليس حكراً على بلدٍ، ولا مُلكاً لقوم، وتأمَّلْ بالذين حملوا رايته على مرِّ العصور، تجدهم من كلِّ عِرقٍ ولون، وكم تنقَّلتْ دار الخلافة من مكانٍ إلى مكان!

من اشترى بيعَ له، ومن باعَ حُرِمَ منه، وإنّه لقافلةٌ ماضيةٌ إلى يوم القيامة، من ركبَ فيها فاز، ومن تخلَّفَ عنها خسر!

ب. أوَّلُ سفير في الإسلام:

كان لا بدَّ للنُّور أن يمتدَّ إلى أرضٍ تتهيأُ لاحتضان الرِّسالة، فاختار النبيُّ ﷺ أن يرسل مع أصحابِ بيعة العقبةِ الأولى من يعلمهم أمرَ دينهم ويساعدهم في نشره وتبليغه.

فوقع اختياره على مصعبِ بن عمير رضي الله عنه، ذلك الشاب الوسيم الذي بدل الحريرَ بالصبر، والترفَ بالثبات. أرسله إلى المدينة يحمل في صدره قرآناً وفي قلبه إيماناً وفي لسانه حكمةً وبياناً، ليكون بيده غرسُ الإيمان في تربةٍ جديدة.

دخل مصعبُ القلوبَ بلطفه قبل أن يدخل البيوتَ بخطاه، وجعل من المدينة حديقةً تنبضُ بالتوحيد. لم يكن اختيارُ مصعب بن عمير ﵁ دون غيره من الصحابة اختيارًا اعتباطيًا، حاشا رسولَ اللّه ﷺ ذلك، وإنما تفرَّسَ حوله، وقلَّبَ أمره، وأجال نظره، فوجد مصعبًا غايته. ولقد اجتمعت في مصعب صفاتٌ تفرقت في غيره من الصَّحابة، ومن أهم الأسباب التي دعت النَّبيَّ ﷺ أن يختار مصعب بن عمير ﵁ هي:

أولاً: نظرًا للمسافة الشَّاسعة بين مكة والمدينة المنوَّرة، إن من يقع عليه الاختيار سيكون هو المرجع الوحيد ومصدر التَّلقي الأول والأخير لهذا الدين في المدينة، فلا يصلح لهم حديث عهدٍ بالإسلام أو قديم عهدٍ به لا يحفظ كل ما نزل من الوحي، بالإضافة إلى علمه بالعبادات وقدرته على شرحها وتبسيطها. وقد كان مصعبُ بن عمير ﵁ يحفظ كل ما نزل من القرآن، وهو من أوائل الذين أسلموا، الأمر الذي أتاح له أن يجمع مع الحفظ أسباب النزول وتفسير النبي ﷺ لما نزل من القرآن.

ثانيًا: توفرت في مصعب بن عمير ﵁ كلّ الصِّفات المثاليَّة للدَّاعية، تلك المكتسبة والموهوبة معًا، فقد كان وسيماً، والوجوهُ الحسنة رسول القلوب، وكان غايةً في الذكاء، لبقًا إلى أبعد حد، هادئًا ينسابُ كالنَّسيم، صبورًا لا يملُّ من المحاولة، حليمًا لا يعتريه الغضب بسرعة، رحيمًا يعرف معنى أن يخرج اللّه به الناس من الظلمة إلى النور.

ثالثًا: كان مصعب بن عمير ﷺ ينحدر من أسرةٍ ثريَّة، وهذه الصِّفة بحد ذاتها عاملٌ مؤثرٌ في دعوته، فأما الفقير فيرى فيه درسًا عمليًا أن هذا الدين أغلى من الدنيا، وأما الغنيُّ فلا يتردد، والناس مفطورةٌ على أن تتأثر بأشباهها، ولربما لو كان فقيرًا ولم يعرف الغنى في حياته لقال غنيٌّ في نفسه ما ليَ وترك دنياي، ولكنه الآن في حضرة ثريٍّ مثله ترك دنياه، وإن الممكن قادرٌ على فرض نفسه أكثر من المُتخيَّل.

رابعًا: العربُ أمةٌ تُلْقِي للأنْسَاب بالاً، وكلما شَرَفَ نسبُ الرجل فيهم زاد تأثيرُه عليهم، ولم يكن عجبًا أن يسأل هِرَقْل عن نسبِ النَّبيِّ ﷺ، فلما علمَ أنه شريفٌ في نسبه قال: وكذلك الرسلُ تُبعَث في نسبِ قومها. كان مصعبُ بن عمير ﷺ من أشرف قريشٍ نسبًا، فهو من بني عبدِ الدار، الملأ من قريش الذين كانت عندهم مفاتيحُ الكعبة ويتوارثونها كابرًا عن كابر. وأن يرسل النَّبيُّ ﷺ إلى المدينة قرشيًا عريقًا في نسبه، أبلغُ تأثيرًا في نفوسهم من إرسال واحدٍ من عوام النَّاس. صحيحٌ أن المعيار في هذا الدين للتقوى، وأن الإسلام جاء ليجعل الناس سواسية، ولكن النَّبيَّ ﷺ يعرف جيدًا كيف يفكر العرب وكيف يستجيبون.

خامسًا: قبل مجيئه إلى المدينة المنورة، كان مصعبُ بن عمير ﷺ قد خُيِّر بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، ترك الثَّراء والنَّعيم لأجل هذا الدين، لهذا فهو في مأمنٍ أن تفتنه الدنيا في الغربة أو تلهيه عن المهمة التي جاء لأجلها. لا يوجد نعيمٌ في الدنيا في ذلك الزمان إلا وكان مصعب قد أخذ بحظه منه، جاءهم بعد أن أُتخم منها ووضعها

تحت قدميه، فهو لا يُشترى ولا يُستمال بها! وكم فتنت الدنيا أصحاب الدعوات حين فتحت لهم ذراعيها، أما مصعب ﷺ فكان بين ذراعيها وغَادرَ، ولو أرادها ما كان لأحدٍ في المدينة أن يعطيه ما أعطته أمه في مكَّة. مصعبُ بن عمير ﷺ كان في مأمنٍ من الدنيا، وهذه إحدى نقاط قوته.

سادسًا: الإمارة خطيرةٌ على النفوس، وكم من منصبٍ جعل الناسَ غيرَ الناس الذين كنا نعرفهم. ومصعب وإن أتى سفيرًا، إلا أنه في الحقيقة كان أميرًا بمعنى أن كل من يدخل في هذا الدين سيكون تحت إمرته. ومصعب ﷺ لو كان يبحث عن شرف المناصب لصبا إلى مفاتيح الكعبة عند قومه، ولعرفته العرب قاطبة، فلن تمنحه المدينة أكثر مما كانت ستمنحه مكة. مصعبُ بن عمير ﷺ كان في مأمنٍ من فتنة المنصب والإمارة، وهذه نقطةٌ جوهرية في شخصيته.

سابعًا: مصعبُ بن عمير ﷺ، ابنُ الهجرتين إلى الحبشة، كان قبل مجيئه إلى المدينة محصنًا من أن يلهيه الحنينُ إلى وطنه عن المهمةِ التي جاء فيها. ومن صبرَ على العيش في الحبشة، حيث القوم هناك أغرابٌ، لا لسانَه لسانهم ولا عُرفَه عرفهم، فهو لا شك أصبر على العيش في غربة المدينة، فالقوم في نهاية المطاف عربٌ يجمعه فيهم لسانٌ ولغةٌ وعاداتٌ وتقاليد وأعراف.

ثامنًا: مهمةُ أولِ سفيرٍ في الإسلام هي إلى مدينةٍ كبيرةٍ، لم يُسلم من أهلها بعد أكثر من أصابع اليدين، تحتاج همةً ونشاطًا، وقدرةً على الحركة، وصبرًا على التنقل. فلا بد أن يقع الاختيار

على شابٍ قويٍّ، وقد كان مصعب في الخامسة والثلاثين من عمره، يتفجَّرُ فيه الشَّباب، وترشح من جسده القوة. كل هذا جعل من مصعب بن عمير ﷺ اختيارًا مثالياً لهذه المهمة الحساسة والخطيرة.

وإذا أردت أن تعرف مدى حساسيتها وخطورتها، فسَل نفسك السُّؤال التالي: ماذا لو فشل مصعب بن عمير ﷺ في دعوته؟ حين أتى النَّبيُّ ﷺ إلى المدينة، كان مصعبُ بن عمير ﷺ قد أدخل الإسلام إلى كل بيت فيها. مصعبُ هو فاتحُ المدينة، لا بسيفه، ولكن بدعوته.

نزلَ مصعب بن عمير ﷺ على أسعد بن زرارة ﷺ، وأخذا ينشران الإسلام في أهل يثرب بجد وحماس، وكان مصعب ﷺ يعرف بالمقرئ لأنَّه كلما دعا أحداً إلى الإسلام قرأ عليه القرآن!

ومن أروع ما يروى من نجاحه في الدعوة أن أسعد بن زرارة خرج به يوماً يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، فدخلا في حائط من حوائط بني ظفر، وجلسا على بئر يقال لها بئر مرق، واجتمع إليهما رجال من المسلمين، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا قومهما من بني عبد الأشهل يومئذ على الشرك، فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد: اذهبْ إلى هذين اللذين قد أتيا ليُسفِّها ضعفاءنا فازجرهما، وانِهَهُما عن أن يأتيا دارينا، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا.

فأخذ أُسيد حربته وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيِّد قومه قد جاءك فاصدق اللّٰه فيه.

قال مصعب: إن يجلس أكلِّمه.

وجاء أُسيد فوقف عليهما متشتِّماً، وقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة!

فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره!

فقال: أنصفتَ!

ثمَّ ركز حربته وجلس، فكلَّمه مصعب بالإسلام، وتلا عليه القرآن.

قال: فواللّٰه لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم، وفي إشراقه وتهلُّلِه!

ثمَّ قال: ما أحسن هذا وأجمله؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدِّين؟

قالا له: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثمَّ تشهد شهادة الحقِّ، ثمَّ تصلِّي ركعتين.

فقام واغتسل، وطهَّر ثوبه، وتشهَّد وصلَّى ركعتين.

ثمَّ قال: إنَّ ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلَّف عنه أحد من قومه، وسأرشده إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثمَّ أخذ حربته وانصرف إلى سعدٍ في قومه، وهم جلوس في ناديهم.

فقال سعد: أحلفُ باللّٰه لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف أُسيد على النَّادي قال له سعد: ما فعلتَ؟

فقال: كلَّمتُ الرَّجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.

وقد حُدِّثتُ أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنَّهم قد عرفوا أنَّه ابن خالتك، ليخفروك، فقام سعد مغضباً للذي ذكر له، فأخذ حربته، وخرج إليهما، فلمَّا رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتِّماً، ثمَّ قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمتَ هذا منِّي، تغشانا في دارنا بما نكره؟

وقد كان أسعد قال لمصعب: جاءك والله سيِّد من ورائه قومه، إن يتبعك لم يتخلَّف عنك منهم أحد!

فقال مصعب لسعد بن معاذ: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره!

قال: قد أنصفتَ.

ثمَّ ركز حربته فجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن.

قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم، في إشراقه، وتهلُّلِه!

ثمَّ قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟

قالا: تغتسل، وتطهِّر ثوبك، ثمَّ تشهد شهادة الحقِّ، ثمَّ تصلِّي ركعتين. ففعل ذلك.

ثمَّ أخذ حربته، فأقبل إلى نادي قومه، فلما رأوه قالوا: نحلفُ بالله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به.

فلَّما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبةً!

قال: فإنَّ كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، إلا رجل واحد وهو الأصيرم، تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقتل، ولم يسجد لله سجدة، فقال النَّبيُّ ﷺ: عملَ قليلاً وأُجر كثيراً!

وأقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أميَّة بن زيد وخطمة ووائل، كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر، وكانوا يطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة.

وقبل حلول موسم الحجِّ التالي، عاد مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى مكَّة، يحمل إلى النَّبيِّ ﷺ بشائر الفتح، ويقص عليه خبر الأوس والخزرج، وما له فيهم من قوة ومنعة!

مصعبُ بن عُمير رضي الله عنه درسٌ خالدٌ على صفحاتِ الزَّمان مفاده: لا يستكثرنَّ أحدٌ نفسه على الله!

فها هو الشَّاب الوسيم الذي لم يفتنه جمال وجهه أن يسعى في جمال قلبه!

وها هو الثَّريُّ الذي وضعَ الدُّنيا تحت قدميه ابتغاءً لرضى لربِّه!

وها هو المُدلَّلُ في بيته الذي تركَ كلَّ شيءٍ وراءه، ثم مضى إلى الحبشة، ثمَّ إلى يثرب، حيث شظف العيش، معلناً إيَّاها: حيثما كان دين المرء فهناك وطنه!

هذا دين النُّخب، والنَّاسُ معادن، وقد كان خيارهم في الجاهليّة خيارهم في الإسلام!

أبو بكر قبل الإسلام كان شامةً بين النَّاس!

وعمر قبل الإسلام كان سيّد عديٍّ، وسفير قريش، ومجالدها!

وخالد بن الوليد كان جنرال القبيلة!

نعم كان في هذا الدين بسطاء ومجهولون، لأنه دينٌ لكلّ النَّاس، ولكن الذين حملوه كانت لهم دنيا، وتجارات، وأراضٍ، ومناصب، لم يحملوه من فراغ، ولم يدافعوا عنه لأنه ليس لديهم ما يخسروه، صهيبٌ الرّومي قايضته قريش بين ماله وبين الذّهاب إلى النَّبيِّ ﷺ مهاجراً، فتنازل لهم عن المال ومضى حيث حبيبه، وهناك تلقاه النَّبيُّ ﷺ قائلاً: ربحَ البيعُ أبا يحيى!

ت. بيعة العقبة الثانية:

في السَّنة الثالثة عشرة من البعثة الشَّريفة، حدث لقاءٌ غيَّر مجرى التاريخ، فقد حضر لأداء مناسك الحج بضعٌ وسبعون مسلماً من أهل يثرب، هم ثمرة جهد مصعب بن عمير! فلما قدموا مكة، جرت بينهم وبين النَّبيِّ ﷺ اتصالات سرية بعيدة

عن أعين قريش، اتفق فيها الفريقان على أن يجتمعوا في سرية تامة في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة، حيث الجمرة الأولى من منى.

قال جابر بن عبد اللّه فقلنا: حتى متى يُترَكُ رسول اللّه ﷺ، يُطرد في جبال مكة، ويخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل، ورجلين حتى توافينا فقلنا: يا رسول اللّه، على ما نبايعُك؟

قال: تبايعوني على السَّمع والطاعةِ في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في اللّه لا يأخذكم في اللّه لومةُ لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمتُ عليكم، وتمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم، ولكُمُ الجنة.

قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة، فقال: رويداً يا أهل يثّرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلَّا ونحن نعلم: أنَّه رسول اللّه ﷺ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافَّة وقتل خياركم، وأن تعضَّكم السُّيوف، فإما أنتم قوم تصِرُّون على ذلك، وأجركم على اللّه، وإما أنتم تخافون من أنفسكم جُبينة، فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند اللّه!

قالوا: أمطِّ عنا يا أسعد، فواللّه لا ندع هذه البيعة أبداً!

قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنَّة.

وهكذا بايع الأنصار رسول اللّه ﷺ على الطَّاعة والنُّصرة والحرب، لذلك سمَّاها عبادة بن الصامت ﵁ بيعة الحرب!

أمَّا رواية الصحابي كعب بن مالك الأنصاري ﵁، وهو أحد المبايعين في العقبة الثانية، ففيها تفصيلات مهمة، قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين وقد صلينا وفقهنا، ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول اللّه ﷺ بالعقبة، من أوسط أيام التشريق، وكنا نكتم من بايعنا من المشركين أمرنا، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول اللّه ﷺ، نتسلل تسلل القَطَا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول اللّه ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس ابن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس، كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فبين أن الرسول ﷺ في منعةٍ من قومه بني هاشم ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة، ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له، وإلا فليدعوه، فطلب الأنصار أن يتكلم

رسول اللّه ﷺ، فيأخذ لنفسه، ولربه ما يجب من الشروط.

قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم!

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعنّكَ مما نمنع منه أُزُرنا!

فبايعنا يا رسول اللّه ﷺ فنحن واللّه أهل الحرب وأهل الحَلقة «السلاح» ورثناها كابراً عن كابر!

فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان متسائلاً: يا رسول اللّه، إن بيننا وبين القوم حبالاً، وإنا قاطعوها «يعني: اليهود» فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك اللّه أن ترجع إلى قومك، وتدعنا؟

فتبسم رسول اللّه ﷺ ثم قال: بل الدَّم الدَّم، والهدم الهدم، أنا منكم، وأنتم منِّي، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم!

ثمَّ قال: أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم.

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

وقد طلب النَّبيُّ ﷺ منهم الانصراف إلى رحالهم وقد سمعوا الشَّيطان يصرخ منذراً قريشاً، فقال العباس بن عبادة بن نفلة: واللّه الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا.

فقال رسول اللّه ﷺ: لم نُؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم.

وفي الصَّباح جاءهم جمع من كبارِ قريش، يسألونهم عمَّا بلغهم من بيعتهم للنَّبيِّ ﷺ، ودعوتهم له للهجرة فحلف المشركون من

الخزرج والأوس، بأنهم لم يفعلوا والمسلمون ينظرون إلى بعضهم.

قال: ثمَّ قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي وعليه نعلان جديدان، قال: فقلت له كلمة ـ كأني أريد أن أشرك بها القوم فيما قالوا: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ، وأنت سيد من سادتنا، مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟

قال: فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه، ثم رمى بها إليّ، وقال: واللّه لتنعلنّهما!

قال: يقول أبو جابر: مه أحفظت « أي: أغضبت» واللّه الفتى، فأردد إليه نعليه.

قال: قلت: لا واللّه لا أردهما، فأل واللّه صالح لئن صدق الفأل لأسلبنه!

كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها وبواعثها وآثارها وواقعها التاريخي، فتح الفتوح، لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تتابعت حلقتها في صور متدرجة، مشدودة بهذه البيعة، منذ اكتمل عقدها، بما أخذ فيها رسول اللّه ﷺ من عهود ومواثيق على أقوى طليعة من طلائع أنصار اللّه الذين كانوا أعرف الناس بقدر مواثيقهم وعهودهم، وكانوا أسمح الناس بالوفاء بما عاهدوا اللّه تعالى، ورسوله ﷺ، من التضحية مهما بلغت متطلباتها من الأرواح والدماء والأموال، فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحق ونصرته، وهي ملابساتها قوة تناضل قوى هائلة تقف متألية عليها ولم يغِبّ عن أنصار اللّه

قدرها ووزنها، في ميادين الحروب والقتال، وهي آثارها تشميرٌ ناهض بكل ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتالي في سبيل إعلاء كلمة اللّه، على كل عالٍ مستكبر في الأرض، حتى يكون الدين كله للّه، وهي في واقعها التاريخي صدق، وعدل ونصر واستشهاد وتبليغ لرسالة الإسلام.

ويظهر التخطيط العظيم في بيعة العقبة، حيث تمت في ظروف غاية في الصعوبة وكانت تمثل تحدّياً خطيراً وجريئاً لقوى الشرك في ذلك الوقت، ولذلك كان التخطيط النَّبويُّ لنجاحها في غاية الإحكام والدقة على النحو التالي:

1. سِرِّية الحركة والانتقال لجماعة المُبايعين، حتى لا ينكشف الأمر، فقد كان وفد المبايعة المسلم سبعين رجلاً وامرأتين من بين وفد يثربيٍّ قوامه نحو خمسمائة مما جعل حركة هؤلاء السبعين صعبة، وانتقالهم أمراً غير ميسور، وقد تحدد موعد اللقاء في ثاني أيام التشريق، بعد ثلث الليل، حيث النوم قد ضرب أعين القوم، وحيث قد هدأت الرّجل كما تم تحديد المكان في شعب الإيمان، بعيداً عن عين من قد يستيقظ من النوم لحاجة.

2. الخروج المنظم لجماعة المبايعين إلى موعد ومكان الاجتماع، فقد خرجوا يتسللون مستخفين، رجلاً، أو رجلين رجلين.

3. ضرب السرية التامة على موعد، ومكان الاجتماع، بحيث لم يعلم به سوى العباس بن عبد المطلب ﵁، الذي جاء مع النبي ﷺ

ليتوثق له، وعلي بن أبي طالب ﵁ الذي كان عيناً للمسلمين على فم الشِّعب وأبو بكر ﵁ الذي كان على فم الطريق، وهو الآخر عيناً للمسلمين، أما من عداهم من المسلمين وغيرهم، فلم يكونوا يعلمون عن الأمر شيئاً، وقد أمر جماعة المبايعين ألا يرفعوا الصوت، وألا يطيلوا في الكلام، حذراً من وجود عين تسمع صوتهم، أو تجس حركتهم.

4. متابعة الإخفاء والسرية حيث كشف الشيطان أمر البيعة، فأمرهم النّبيُّ ﷺ أن يرجعوا إلى رحالهم، ولا يحدثوا شيئاً رافضاً الاستعجال في المواجهة المسلحة التي لم تتهيأ لها الظروف بعد؛ وعندما جاءت قريش تستبرئ الخبر، مَرَّ المسلمون عليهم بالسكوت، أو المشاركة بالكلام الذي يشغل عن الموضوع.

5. اختيار الليلة الأخيرة في ليالي الحج، وهي الليلة الثالثة عشرة من ذي الحجة حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التالي، وهو يوم الثالث عشر، ومن ثم تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم أو تعويقهم، إذا انكشف أمر البيعة، وهو أمر متوقع، وهذا ما حدث.

6. وكانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح والقوة بحيث لا تقبل التمييع والتراخي، إنه السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في اليسر والعسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام في اللّه لا تأخذهم فيه لومة لائم، ونصر لرسول اللّه ﷺ وحمايته إذا قدم المدينة.

يؤخذ من اختيار النُّقباء دروس مهمة، منها :

1. أن الرسول ﷺ لم يعين النقباء، وإنما ترك طريق اختيارهم إلى الذين بايعوا، فإنهم سيكونون عليهم مسؤولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله، ويقوم بأمره، وهذا أمر شورى، وأراد الرسول ﷺ أن يمارسوا الشورى عملياً من خلال اختيار نقبائهم.

2. التمثيل النِّسبيُّ في الاختيار فمن المعلوم أن الذين حضروا البيعة من الخزرج أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس ثلاثة أضعاف من الأوس بل يزيدون ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج.

3. جعل رسول الله ﷺ النقباء مشرفين على سير الدعوة في يثرب، حيث استقام عود الإسلام هناك، وكثر مثقفوه ومعتنقوه، فأراد الرسول ﷺ أنهم لم يعودوا غرباء لكي يبعث إليهم أحداً من غيرهم وأنهم غدوا أهل الإسلام، وحماته وأنصاره.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله تعالى، ورسوله ﷺ، فمنهم من قضى نحبه، ولقي ربه شهيداً، ومنهم من بقي حتى ساهم في قيادة الدولة المسلمة، وشارك في أحداثها الجسام، بعد وفاة رسول الله ﷺ، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام، النماذج التي تعطي ولا تأخذ، والتي تقدم كل شيء، ولا تطلب شيئاً إلا الجنة، ويتصاغر التاريخ في جميع عصوره ودهوره، أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرجال والنساء!

ث. النبيُّ ﷺ مهاجراً:

اضربوه ضربةَ رجلٍ واحدٍ حتى يتفرَّقَ دمه بين القبائل. هذا شعارُ قريشٍ ليلةَ الهجرة.

يا ليلَ مكة، هل شهدتَ ليلةً أثقل من تلك التي تجمع فيها الشَّرُّ عند باب الطُّهرِ؟ وظنَّت الظلماتُ أنها قادرة على إطفاء النُّور.

في دارِ الندوة اجتمع سادةُ قريش، عيونهم تقدحُ شرًّا، وألسنتهم تقطر جمراً. طال بهم التفكير كيف يوقفون هذا الرجل الذي شقَّ القلوب نصفين: نصفٌ يعاندُ ونصفٌ يُصدِّق.

قال بعضُهم: احبسوه! وقال آخرون: أخرِجوه!

ولكن الشَّيطان نفخ في رمادِ حقدهم حتى اشتعلتْ صدورهم، فنفثتْ أكثر قراراتهم جرماً: اضربوه ضربةَ رجلٍ واحدٍ حتى يتفرق دمه بين القبائل.

كانت قريش تشحذ سيوفها، والعناية الإلهية تحفُّ نبيها. وإذا أراد اللّه أن يحفظ عبدًا من عباده، حفظه، ولو كان في فم الخطر.

عليُّ بن أبي طالب، ذلك الفدائيُّ الذي يحملُ من الشَّجاعة أكثر مما يحمل من السَّنوات، يتطوَّع أن ينام في فراش النَّبيِّ ﷺ، كأنه يقول: خذوا من دمي ما شئتم، المهم أن يسلم النبيُّ ﷺ.

هـذا حديثُ دار النُّبـوَّة، أمَّا خارجها، فتجمَّع فتية غـلاظ القلوب، أيديهـم علـى مقابـض سـيوفهم، ينتظـرون لحظـة خـروج النبـيِّ ﷺ ليسـفكوا دمـه. ويحَ قريشٍ، كيـف هـان عليها أطهـر أبنائها؟

وحانـت اللحظـة: تدثَّـر علـيٌّ فـي الفـراش، وخـرج النبـيُّ ﷺ. خـرج لا مـن بـابٍ خلفـيٍّ للطـوارئ، ولكـن مـن البـاب الـذي هـم عليـه قعـود. خـرج كجبلٍ تحـرَّك مـن مكانـه، وكأنَّ الأرض تفسـح لـه الطريـق احترامًا. أخـذ حفنـةً مـن تـراب الأرض ونثرهـا علـى رؤوسـهم، وجعـل يتلـو آيـةً تشـقُّ جدار الليـل: ﴿وَجَعَلْنَـا مِـن بَـيْنِ أَيْدِيهِـمْ سَـدًّا وَمِـنْ خَلْفِهِـمْ سَـدًّا فَأَغْشَـيْنَاهُمْ فَهُـمْ لَا يُبْـصِرُونَ﴾

وصـل النَّبـيُّ ﷺ إلـى بيـتِ أبـي بكـر، ولطالمـا اسـتأذنه أبـو بكـرٍ بالهجـرة، فـكان يُمسـكه بقولـه: لا تعجـلْ، لعـلَّ اللّٰه أن يجعـل لـك صاحبًـا. كان النَّبـيُّ ﷺ يخبِّـئ أبـا بكـر لنفسـه، ولأنَّ الرفيـق قبـل الطريق. فمـن عسـاه غيـر أبـي بكـر، رفيـق العمـر وصاحـب الدهـر؟ وكأنَّ أبـا بكـرٍ أحسَّ بهـا فـي قلبـه، فابتـاع ناقتيـن وحبسـهما فـي داره استعدادًا إذا حانـت اللَّحظـة، وصـدق حديثُ قلبـه معـه: إن للّٰه عبـادًا يـرون بنـوره، ومنهـم أبـو بكـر.

روى البخـاريُّ مـن حديـث أمِّ المؤمنيـن عائشـة رضـي اللّٰه عنهـا، قالـت:

لَقَـلَّ يَـوْمٌ كانَ يَأْتـي علَـى النَّبـيِّ ﷺ، إلَّا يَأْتـي فيـه بَيْـتَ أبِـي بَكْـرٍ أحَـدَ طَرَفَـيِ النَّهَـارِ، فَلَمَّـا أُذِنَ لـه فـي الخُـرُوجِ إلـى المَدِينَـةِ، لَـمْ يَرُعْنَـا

إلَّا وقد أتَانَا ظُهْرًا، فَخُبِّرَ به أبو بَكْرٍ، فَقالَ: ما جَاءَنَا النَّبيُّ ﷺ في هذِه السَّاعَةِ إلَّا لأمْرٍ حَدَثَ!

فَلَمَّا دَخَلَ عليه قالَ لأبِي بَكْرٍ: أخْرِجْ مَن عِنْدَكَ!

قالَ: يا رَسولَ اللّهِ، إنَّما هُما ابْنَتَايَ -يَعْنِي عَائِشَةَ وأَسْمَاءَ!

قالَ النَّبيُّ ﷺ أشَعَرْتَ أنَّه قدْ أُذِنَ لي في الخُرُوجِ؟

قالَ: الصُّحْبَةَ يا رَسولَ اللّهِ!

قالَ: الصُّحْبَةَ!

قالَ: يا رَسولَ اللّهِ، إنَّ عِندِي نَاقَتَيْنِ أعْدَدْتُهُما لِلْخُرُوجِ، فَخُذْ إحْدَاهُمَا!

قالَ: قدْ أخَذْتُهَا بالثَّمَنِ.

قالت عائشة: فو اللّه ما شعرت قطّ قبل ذلك اليوم أنّ أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي!

ولكَ أن ترى أنَّ النبيَّ ﷺ كتم أسرار مسيره، فلم يُطلع عليها إلا من لهم صلة ماسّة، ولم يتوسّع في إطلاعهم إلا بقدر العمل المنوط بهم.

وقد استأجر النَّبيُّ ﷺ دليلاً خبيراً بطريق الصَّحراء، ليستعين بخبرته على مغالبة المُطارِدين، ونظر في هذا الاختيار إلى الكفاءة فقط، فإذا وُجدتْ في أحدٍ ولو مشركاً، استخدمه وانتفع بموهبته. وهذا ما كان منه ﷺ في استئجاره لعبد اللّه بن أُريقط، فقد كان مشركاً، ولكنَّه كان أعلم النَّاس بالصَّحراء!

أصرَّ النَّبيُّ ﷺ أن يدفع ثمن راحلته، لتكون هجرته بماله ونفسه، وإلا فإنَّه طالما أخذَ من أبي بكرٍ في مواطن كثيرة، فقد صفتْ بينهما المودَّة، وارتفعتْ عنهما الكِلفة!

واتّفقَ النَّبيُّ ﷺ مع أبي بكرٍ على تفاصيل الخروج، وتخيّرا الغار الذي يأوون إليه مع دليلهما، تخيّراه جنوباً باتجاهِ اليمن، لتضليل المُطارِدين، وحدّدا الأشخاص الذين يتّصلون بهما في أثناء اللّجوء إليه، ومهمَّة كلّ شخص.

وسارت الأمور على ما خطَّطا، وكان أبو بكرٍ قد أمر ابنه عبد اللّه أن يتسّمع لهما ما يقول النَّاسُ فيهما، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك من أخبار، وأمرَ عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره، ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار، فكان عبد اللّه بن أبي بكر في قريش يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون في شأن رسول اللّه ﷺ وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيقصّ عليهما ما علم، وكان عامر في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر، فاحتلبا، وذبحا، فإذا غدا عبد اللّه من عندهما إلى مكة، أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم يعفّي عليه! وهذا من تمام الحرص على الأخذ بالأسباب كي لا يفطن أحدٌ إلى الأثر فيهتدي إليهما في الغار!

وانطلقَ مشركو قريشٍ في أثرِ المهاجرين يرصدون الطُّرق، ويفتّشون كلّ مهربٍ، وراحوا يُنقّبون في جبال مكة، وكهوفها، حتى وصلوا قريباً من غار ثور، وأنصتَ الرَّسول ﷺ وصاحبه إلى أقدام المُطارِدين، تخفقُ إلى جوارهم، فأخذ الرَّوع أبا بكر،

وهمس يحدّث رسول اللّه ﷺ: لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا!

فقال له النَّبيُّ ﷺ: يا أبا بكر، لا تحزنْ إنَّ اللّه معنا، يا أبا بكرٍ ما ظنّك باثنين اللّه ثالثهما!

وأنزلَ اللّه تعالى قوله: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

وحفظَ اللّه نبيَّه، وردَّ المشركين عن الغار، وما ذُكر من نسيجِ العنكبوت، وبيضِ الحمامة على باب الغار، فوارد في كُتب السيرةِ ومشهور، والعلماء غالبيتهم على تضعيفه، وأيًّا كان فإنَّ العبرة بالنتيجة لا بالسَّبب، وسبحان من إذا أرادَ أن يُمضي قدره، أمضاه بالسَّببِ، وبانعدام السَّبب، وبخلاف السَّبب!

والآن، مضى ثلاثُ ليالٍ على مبيت النَّبيِّ ﷺ في الغار، وانطفأ حماسُ المشركين في الطّلب، وتأهّبَ المهاجران لاستئنافِ رحلتهما الصعبة.

وجاءَ عبدُ اللّه بن أُريقط في موعده، ومعه رواحله، قد أعلفها لاستقبالٍ سفر بعيد، وتزوّد الرَّكبُ، ثم سار على اسم اللّه.

غير أنّ قريشاً ساءها أن تُخفِقَ في استرجاع النَّبيِّ ﷺ وصاحبه، فجعلت ديةَ كلِّ واحدٍ منهما جائزةً لمن يجيءُ بهما

أحياءً أو أمواتاً، ومئتان من الإبل في الصحراء ثروة تغري بركوب المخاطر وتحمّل المشاق.

ومضى الرّكبُ المبارك، والآن فإنَّ الحديث كلّ الحديث حديث سُراقة، واسمعْ منه يُحدِّثكَ خبره كما في البخاريِّ، فليس أقدرُ من المرءِ على رواية حكايته!

جاءَنا رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ في رَسولِ اللّهِ ﷺ وأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ واحِدٍ منهما؛ مَن قَتَلَهُ أوْ أسَرَهُ، فَبيْنَما أنا جالِسٌ في مَجْلِسٍ مِن مَجالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدْلِج، أقْبَلَ رَجُلٌ منهمْ حتَّى قامَ عليْنا ونَحْنُ جُلُوسٌ، فقالَ: يا سُراقَةُ، إنِّي قدْ رَأَيْتُ آنِفًا أسْوِدَةً بالسَّاحِلِ، أُراها مُحَمَّدًا وأَصْحابَهُ!

فَعَرَفْتُ أنَّهُمْ هُمْ، فَقُلْتُ له: إنَّهُمْ لَيْسُوا بهِمْ، ولَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلانًا وفُلانًا، انْطَلَقُوا بأَعْيُنِنا!

ثُمَّ لَبِثْتُ في المَجْلِسِ ساعَةً، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فأمَرْتُ جارِيَتي أنْ تَخْرُجَ بفَرَسِي وهي مِن وراءِ أكَمَةٍ، فَتَحْبِسَها عَلَيَّ، وأَخَذْتُ رُمْحِي، فَخَرَجْتُ به مِن ظَهْرِ البَيْتِ، فَحَطَطْتُ بزُجِّهِ الأرْضَ، وخَفَضْتُ عالِيَهُ، حتَّى أتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُها، فَرَفَعْتُها تُقَرِّبُ بي، حتَّى دَنَوْتُ منهمْ، فَعَثَرَتْ بي فَرَسِي، فَخَرَرْتُ عَنْها، فَقُمْتُ فأهْوَيْتُ يَدِي إلى كِنانَتِي، فاسْتَخْرَجْتُ مِنْها الأزْلامَ فاسْتَقْسَمْتُ بها: أضُرُّهُمْ أمْ لا؟ فَخَرَجَ الذي أكْرَهُ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي، وعَصَيْتُ الأزْلامَ، تُقَرِّبُ بي حتَّى إذا سَمِعْتُ قِراءَةَ رَسولِ اللّهِ ﷺ، وهو لا يَلْتَفِتُ، وأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالْتِفاتَ؛ ساخَتْ يَدا فَرَسِي في الأرْضِ حتَّى

بَلَغَتا الرُّكْبَتَيْنِ، فَخَرَرْتُ عَنْها، ثُمَّ زَجَرْتُها فَنَهَضَتْ، فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْها، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قائِمَةً، إذا لِأَثَرِ يَدَيْها عُثانٌ ساطِعٌ في السَّماءِ مِثْلُ الدُّخانِ، فاسْتَقْسَمْتُ بالأزْلام، فَخَرَجَ الذي أكْرَهُ، فَنادَيْتُهُمْ بالأمانِ فَوَقَفُوا، فَرَكِبْتُ فَرَسِي حتَّى جِئْتُهُمْ، ووَقَعَ في نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ ما لَقِيتُ مِنَ الحَبْسِ عنْهمْ، أنْ سَيَظْهَرُ أمْرُ رَسولِ اللَّه ﷺ.

فَقُلْتُ له: إنَّ قَوْمَكَ قدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ، وأَخْبَرْتُهُمْ أخْبارَ ما يُرِيدُ النَّاسُ بهِمْ، وعَرَضْتُ عليهمُ الزَّادَ والمَتاعَ، فَلَمْ يَرْزَآنِي ولَمْ يَسْأَلانِي، إلَّا أنْ قالَ: أخْفِ عَنَّا.

فَسَأَلْتُهُ أنْ يَكْتُبَ لي كِتابَ أمْنٍ، فأمَرَ عامِرَ بنَ فُهَيْرَةَ، فَكَتَبَ في رُقْعَةٍ مِن أدِيمٍ، ثُمَّ مَضَى رَسولُ اللَّه ﷺ.

وقد وعدَ النَّبيُّ ﷺ سُراقة بأن يلبسَ يوماً سواري كسرى!

ولأنَّ هذه الأمَّة ذمتها واحدة، يفي بعضُها لبعضٍ، وأعلى الذِّمم ذمّة النَّبيِّ ﷺ، فُتحت بلاد فارس زمن الفاروق، فلما صارتْ كنوز كسرى بين يديه، نادى على سُراقة وألبسه سواري كسرى، ووفى بعهد نبيِّه ﷺ، فجزى الله الفاروق عنَّا خير ما جزى صحابياً عن وفائه!

وبعد أن طوينا حديث سُراقة، فإنَّ الحديثَ الآن حديث أُمِّ معبد! وهو حديثٌ ذو شجون، فيا أُمَّ معبدٍ كرري أوصافه!

مرَّ الرَّكبُ المباركُ على خيمتَيْ أُمِّ مَعْبَدٍ الخُزاعِيَّةِ، وكانَتْ بَرْزَةً جَلْدَةً تَحْتَبي بفِناءِ القُبَّةِ، ثُمَّ تسْقي وتُطعِمُ، فسألوها تمرًا ولحمًا يشتروهُ مِنْها، فلَمْ يُصِيبُوا عِندَها من ذلكَ شيئًا، وكانَ القومُ

مُرْمِلينَ مُسْنِتينَ، فنظَرَ رسولُ اللّهِ ﷺ إلى شاةٍ في كَسْرِ الخَيمةِ، فقالَ: ما هذِهِ الشَّاةُ يا أُمَّ مَعْبَدٍ؟

قالَتْ: شاةٌ خلَّفَها الجَهْدُ عَنِ الغنَمِ!

قالَ: هَلْ بِها مِن لبَنٍ؟

قالَتْ: هِيَ أجهَدُ مِن ذلكَ!

قالَ: أتأذَنِينَ لي أنْ أحلِبَها؟

قالَتْ: نعَمْ، بأبي أنتَ وأُمِّي، إنْ رأيتَ بِها حَلْبًا فاحلَبْها!

فدَعا رسولُ اللّهِ ﷺ، فمسَحَ بيدِهِ ضَرْعَها، وسمَّى اللَّهَ عزَّ وجلَّ، ودَعا لَها في شاتِها، فتفاجَّتْ عليهِ ودَرَّتْ واجْتَرَّتْ، ثُمَّ دَعا بإناءٍ يُرِيضُ الرَّهْطَ، فحلَبَ ثَجًّا حتَّى علاهُ البهاءُ، ثُمَّ سَقاها حتَّى رَوِيَتْ، ثُمَّ سَقَى أصحابَهُ حتَّى رَوُوا، ثُمَّ شَرِبَ آخِرُهُمْ، ثُمَّ حلَبَ ثانيًا بَعدَ بَدْءٍ حتَّى ملأَ الإناءَ، ثُمَّ غادَرَهُ، وبايَعَها وارتحَلَ عَنْها، فقَلَّ ما لَبِثَتْ حتَّى جاءَ زَوجُها أبو مَعْبَدٍ يَسوقُ أَعْنُزٍ عِجافًا يَتَساوَكْنَ هَزْلًا ، مُخُّهُنَّ قليلٌ، فلمَّا رأى أبو مَعْبَدٍ اللَّبنَ عَجِبَ، وقالَ: مِن أينَ لكِ هذا يا أُمَّ مَعْبَدٍ، والشاةُ عازِبٌ حِيَالٌ ولا حَلُوبَ في البيتِ؟

قالَتْ: لا واللّهِ، إلَّا أنَّهُ مرَّ بِنا رجُلٌ مُبارَكٌ، مِن حالِهِ كَذا وكَذا.

قالَ: صِفِيهِ لي يا أُمَّ مَعْبَدٍ.

قالَتْ: رجُلٌ ظاهِرُ الوَضاءَةِ، أبلَجُ الوجهِ، حسَنُ الخَلْقِ، لمْ تُعِبْهُ ثُجْلَةٌ، ولَمْ تُزْرِ بِهِ صَعْلَةٌ، وَسيمٌ قَسيمٌ، في عينَيْهِ دَعَجٌ، وفي أشفارِهِ وَطَفٌ، وفي صوتِهِ صَحَلٌ ، وفي عُنُقِهِ سَطَعٌ، وفي لحيتِهِ كثافةٌ، أَزَجُّ أقرَنُ، إنْ صمَتَ فعليهِ الوقارُ ، وإنْ تكلَّمَ سَما وعلاهُ

البهاءُ، أجملُ النَّاسِ وأبهاهُ مِن بَعيدٍ، وأحلاهُ وأحسنُهُ مِن قريبٍ، حُلْوُ المنطِقِ، فَصْلٌ لا نَزْرٌ ولا هَذَرٌ، كأنَّ منطِقَهُ خَرَزاتٌ نُظِمْنَ يتحدَّرْنَ، رَبْعَةٌ لا تَيْئَسُ مِن طولٍ، ولا تقتحِمُهُ عَينٌ مِن قِصَرٍ، غُصنٌ بَينَ غُصنَيْنِ، فهُوَ أنظَرُ الثلاثةِ مَنظرًا وأحسنُهُمْ قَدْرًا، لَهُ رُفقاءُ يحُفُّونَ بِهِ، إنْ قالَ أنصَتوا لقولِهِ، وإنْ أمَرَ تبادَروا إلى أمْرِهِ، مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ، لا عابِسٌ ولا مُفْنِدٌ!

قالَ أبو مَعْبَدٍ: فهذا واللّهِ صاحِبُ قريشٍ الَّذي ذكَروا مِن أمْرِهِ ما ذكَروا، ولقَدْ هممْتُ أنْ أَصْحَبَهُ، ولَأَفعَلَنَّ إنْ وجدتُ إلى ذلكَ سبيلًا!

وفي اليومِ الثَّاني عشر من ربيع الأول للسَّنة الثَّالثة عشرة من البعثة الشَّريفة، برزَ الأنصارُ على عادتهم منذ سمعوا بمخرج النَّبيِّ ﷺ إليهم، ووقفوا بظاهر المدينة ينتظرون طلعته، ويودّون رؤيته، فلما حميت الظَّهيرة، وكادوا ييأسون من مجيئه، وينقلبون إلى بيوتهم؛ صعد رجل من اليهود على أطم من آطامهم لبعض شأنه، فرأى النَّبيَّ ﷺ وصحبه يتقاذفهم السَّراب، وتدنو بهم الرَّواحل رويداً رويداً إلى المدينة، إلى وطنِ الإسلام الجديد، فصرخ اليهوديُّ بأعلى صوته: يا بني قيلة، هذا صاحبكم قد جاء، هذا جدّكم الذي تنتظرون!

فأسرع الأنصارُ إلى السِّلاح، يستقبلون به رسولهم ﷺ، وسُمِعَ التَّكبيرُ يرجُّ أنحاء المدينة!

وأخيراً وصلَ الرَّكبُ المُبارك وُجهته، وحطَّ في المدينة رحاله، لتبدأ معه مرحلةٌ جديدة من عُمُرِ الدَّعوة، هذه المرحلة التي غيَّرتْ وجه العالم إلى الأبد!

ولأن السِّيرة واقع يُعاش، لا تاريخ يُقرأ، فقد تعلمنا من الهجرة النبوية الشريفة دروساً لا تُعدّ ولا تُحصى، فهي لم تكن انتقالاً من مكان إلى مكان فقط، وإنما كانت تصحيحاً لمسار الزمان وتغييراً لشكل هذا الكوكب إلى الأبد.

1 - علَّمتنا الهجرة النّبويّة الشّريفة أنَّ النَّصر يبدأ من القلب قبل أن يبدأ من السَّيف. صحيح أن الهجرة كانت هروباً من بطش قُرَيْش، ولكنها كانت أيضاً درساً بليغاً لما يمكن أن يحدث حين يُؤمن أصحاب الرِّسالة برسالتهم، وأن هذا الدين شمس يمكن حجبها للحظات ولكن لا يمكن إطفاؤها، إنَّ هذا الدين لا يحتاج إلى تعديل، وإنما إلى يقين، ومتى آمنَّا به، واختلط بعظمنا ولحمنا فإننا نستطيع تغيير العالم.

2 - علَّمتنا الهجرة النّبويّة الشّريفة ثقافة الأخذ بالأسباب. وضعَ النَّبيُّ ﷺ عليّاً مكانه في الفراش حتى إذا استرق الفرسان الذين جاؤوا لقتله، نظروا من كُوَّة الباب، ظنُّوه ما زال نائماً، بينما يكسب هو الوقت ليبدأ رحلة هجرته. اصطحب معه دليلاً يدله على الطريق، ولم يقل أنا نبيٌّ وسأصل على أيِّ حال. كان يعلم أنَّ الله لن يضيعه، ولكنَّه أراد أن يعلِّمنا ثقافة الأخذ بالأسباب.

جعل آل أبي بكرٍ كتيبةً تحرسُ وتُطعم، ولم يقل ما لي وللأسباب إذا كان اللّه معي!

لا أحد أكثر يقيناً منه على اللّه، ولكنَّه أراد أن يعلِّمنا أن للّه سنناً لا تُحابي أحداً، وأن كرامات النَّصر والاستخدام تأتي بعد استنفاذ الأخذ بالأسباب.

3 - علَّمتنا الهجرة النّبويّة الشّريفة أن المؤمن يأخذ بالأسباب ولكنه لا يجعل يقينه عليها، وإنَّما اليقين أولاً وآخراً على اللّه. إنَّ الغار سبب، ولكنَّ الحافظ اللّه، والدَّليل سبب، ولكنَّ الهادي هو اللّه. خذوا بالأسباب ما استطعتم، فهي لا تنافي التَّوكل على اللّه، بل هي واقعة في قدر اللّه، ولكن لا تجعلوا يقينكم عليها، فكم من غايةٍ فاتتْ مع وجود السَّبب، وكم من غاية أُدرِكت رغم غياب السبب؟!

4 - علَّمتنا الهجرة النّبويّة الشّريفة أنَّ المؤمن لا يفقد الأمل باللّه مهما بدا الواقع أمام عينيه قاتماً، ولك أن ترى كيف أنَّ النَّبيَّ ﷺ هو مطارد، والكلُّ يرصده يريد دمه لأجل الجائزة التي وضعتها قُرَيْش، ويبشِّر سُراقة بسِوارَي كِسرى. أرأيتَ قبل اليوم رجلاً فاراً بدينه من قومه ليس معه إلَّا صاحبه ودليله يبشِّر بهدمِ واحدةٍ من أعظم إمبراطوريات ذاك الزمن.

5 - علَّمتنا الهجرة النّبويّة الشّريفة أنَّ التَّاريخ تصنعه اللَّحظات التي نختار فيها طريق المبدأ، فالهجرة لم تكن أسهل طريق، وإنما كانت أصدقَ طريق، ومن سار في طريق الصِّدق يصنعُ لنفسه أثراً لا يمحوه الزمن.

6 - علَّمتنا الهجرة النّبويّة الشّريفة أنَّه لا تمكين بلا ابتلاء. بعد مطاردة ومحاولة قتل، وظلمة الفرار سطعتْ شمسُ الدَّولة، وعلا أذان بلال يصدح في أُذُن العالم كلِّه أنَّ اللّه أكبر، كلُّ شدَّةٍ إذا رافقها صبرٌ ويقينٌ فهي مقدِّمةُ نصرٍ وفتح.

- علَّمتنا الهجرة النّبويّة الشّريفة أن الفكرة كلها ليست بالأماكن، وإنما بالغايات. انتقل النبيُّ ﷺ من مكة إلى المدينة لا فراراً بنفسه، وإنما فراراً بدينه بحثاً عن أرض تتَّسِعُ للرِّسالة! الأوطان في هذا الدين ليست تراباً فقط، وإنما رسالة، ولا تعارض بين العقيدة وحبِّ الوطن، فحبُّ الوطن فطرة والعقيدة ميثاق، وقد يحملُ الرَّجل فطرته معه لأجل ميثاقه. علمتنا الهجرة النّبويّة الشّريفة أن الأوطان تُغادَر حين تضيق، لتُستَعاد حين تفتح. خرج النَّبيُّ ﷺ من مكَّة وهو يحبُّها وودَّعها بكلمات مؤلمة، ولكنَّه عاد إليها فاتحاً. أحياناً نخطو الخطوة المؤلمة لأجل أن نفتح أبواب العزة.

7 - علَّمتنا الهجرة النّبويّة الشّريفة أنَّ هذا الدِّين لا يقوم إلَّا بالتَّضحيات. نام عليٌّ رضي الله عنه في فراش الموت مطمئناً ليحفظَ حياةَ النَّبيِّ ﷺ. وستبقى الهجرة تذكرنا أبدَ الدَّهر أنَّ الأمم لا تُبنى بالكلام، بل تُبنى بدماء الشُّجعان وقلوب المخلصين.

8 - علَّمتنا الهجرة النّبويّة الشّريفة أنَّ الصَّداقة الحقيقيَّة في الشِّدة لا في الرَّخاء. أبو بكر رضي الله عنه قدَّم روحه وماله ووقته وبيته وقلبه. وستبقى الهجرة تذكِّرنا أنَّ الصَّديق الحقيقيَّ ليس من يُرافقك في سَعة الطَّريق، بل هو الذي يكون معك في ضيق الغار.

9 - علَّمتنا الهجرة النّبويّة الشّريفة أنَّ القائد العظيم هو الذي يعيش معاناة شعبه، يهاجر كما يهاجرون، يُطارد كما يُطاردون، ويتعب معهم كما يتعبون، ويعيش معهم حياتهم بكل ما فيها من آلامٍ وتضحيات. كان اللّه تعالى قادرًا على أن يحمل نبيَّه من مكَّة إلىً المدينة بالبراقِ كما حمله من مكَّة إلى بيتِ المقدس، ولكن أين القدوة في ذلك؟ لا بدَّ للمسلمين من طريق عمليٍّ لبناء الأمة، طريق في مقدور عموم المسلمين، ولا بدَّ أن يسير النَّبيُّ ﷺ في هذه الطَّريق رغم كل المعاناة والتَّعب ليعطيَ قدوةً لكلِّ قائد.

النَّبيُّ ﷺ في المدينة: بناءُ الدَّولة!

صحيحٌ أنَّه مَقْدَمُ النَّبيِّ ﷺ إلى المدينة، لم يكن يخلو بيتٌ من بيوتها من مُسلمٍ، ولكن هذا لا يعني أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد ورِثَ مجتمعًا مُتجانسًا لا مشكلاتَ فيه! على العكسِ من هذا تمامًا، لقد ورِثَ تركةً ثقيلةً!

كانت يثربُ قبل مَقدَمِ النَّبيِّ ﷺ مدينةً تمشي على حدِّ السِّكين! نعم تمشي ولكنَّها تقطرُ دمًا!

فالدمُ بين الأوسِ والخزرجِ لم يزل ساخنًا، والذِّكرياتُ الثَّقيلةُ لمعركةِ بُعاث ما تزالُ تتردَّد في الأزقّة كصدى لا يريد أن يخبو.

أعوامٌ طويلةٌ عاشوها في توتّرٍ لا يُطفئه نصرٌ ولا يحدُّه انهزامٌ، قبيلتانِ تتشاطران الأرضَ والعداوةَ أيضًا!

وكان اليهودُ على عادتهم في كلِّ عصرٍ ينفثون هواءً مسمومًا في جمرٍ غطَّاه الرَّماد، فما يلبثُ ما خبا من جمرِ العداوةِ زمنًا، تشِبُّ فيه النَّار من جديد!

وكانوا يحفظون كُتبًا تتحدَّث عن نبيٍّ آخرَ الزَّمان، ويرون في أفقِ الأيَّام غيمةً بيضاء قد تُمطِر، لكنَّهم يشتهون أن يكون الغيثُ لهم وحدهم.

وكانـت السُّـوقُ تُـدارُ بميـزانٍ يميـلُ بالسِّـلاح لا بالقِيَـم، والبيـوتُ تُغلَـقُ أبوابُهـا عنـد الغـروب خشـيةَ غـارةٍ أو ثـأر. ومـع ذلـك، لـم تكـن المدينـةُ بهـذه القتامـة التـي تبـدو كليـلٍ مُمتـدٍّ ليـسَ لـهُ صُبـح! ففـي القلـوبِ بقايـا حلـمٍ لسـلامٍ يُرمِّـم الشُّـقوق، وفـي النُّفـوسِ اسـتعدادٌ خفـيٌّ لصـوتٍ يُعيـد ترتيـبَ الحيـاة. كانـت يثـربُ تبحـثُ عـن رجـلٍ يجمعُ ولا يُفـرِّق، يُصلِحُ ولا يهدم، يملكُ مـن الحكمـةِ مـا يُطفِـئ نـارًا اسـتعصى علـى كلِّ زعيـمٍ أن يُخمِدَهـا.

ثـمَّ جـاء ذلـك اليـومُ الـذي غيَّـرَ مجـرى التَّاريـخ؛ إنَّـه يـومُ دخـل النَّبـيُّ ﷺ المدينـة. لـم يكـن دخولُـه مشـيًا علـى الطريـق، بـل كان كأنّما الفجـرُ يمشـي علـى قدميـن! خرجـت جمـوعُ النَّـاس مـن كلِّ دار، الرِّجـالُ والنِّسـاءُ والأطفـالُ، تُزاحِمُهـم الدَّهشـةُ وتسـبقُهم الفرحـةُ، والقلـوبُ تخفـقُ كأوراقٍ فـي ريـحٍ مُباركـة. ورأى أهـلُ المدينـة وجهـه، فـإذا بـالأرواحِ تسـكن، كأنَّ كلَّ السـنواتِ السـابقة لـم تكـن إلَّا طريقًـا موحشًـا ينتهـي بهـذه اللَّحظـة.

فـي تلـك السَّـاعة تغيَّـر كلُّ شـيء، سـقطت الأسـوارُ الخفيَّـةُ بيـن القبيلتيـن، وصـار الأوسُ والخـزرجُ إخـوةً لا يُفـرِّق بينهـم إلَّا التَّقـوى، وانطفـأت نـارُ الثَّـأرِ تحـت رمـادٍ بـاردٍ لـم يقـوَ بعد ذلك على الاشـتعال. صـار الضعيـفُ مُكرّمًـا لا يُهـان، والقـويُّ مسـؤولًا لا يطغـى.

دخـل النَّـاس فـي عقـدٍ جديـدٍ مـن الحيـاة، كُتِـب فيـه العـدلُ بمـدادٍ مـن الوحـي، وتأسَّـست فيـه دولـةٌ لـم تشـهد البشـريَّةُ مثيـلًا لصفائهـا.

كانـت المدينـةُ قبـل قدومِـه ﷺ تبحـثُ عـن قائِـدٍ وحيـاةٍ! فلمَّـا نـزل فيهـا دبَّـتّ فـي تُرابِهـا الـرُّوح. ومنـذ ذلـك اليـوم، لـم تَعُـد يثـربُ اسمًا لمدينـةٍ، بـل صـارت المدينـةَ التـي غَدَت موطنًـا للنّـور، ومُختـارًا للنبـوّة، ودارًا للحضـارةِ التـي سـتُعلِّمُ العالـمَ كيـف ينهـضُ بالعـدلِ لا بالسـيف، وبالمحبّـةِ لا بالعصبيّـة!

وقـد كانـت المدينـةُ المنـوَّرةُ قبـل البعثـةِ الشـريفةِ يعيـشُ فيهـا الأوسُ والخـزرجُ أبنـاءُ العمومـةِ وخُصَمـاءُ الدهـرِ، واليهـود!

وبدخـولِ الإسـلامِ إلـى المدينـةِ تغيَّـرتِ التَّركيبـةُ المجتمعيَّـةُ لأوّلِ مـرّةٍ علـى أسـاسِ العقيـدة، فصـار بالإمـكانِ الحديـثُ عـن ثـلاثِ فئـاتٍ هـم:

أوّلًا: المسـلمون، وهـم المهاجـرون مـن مكّـة، ومـن أسـلمَ مـن الأوسِ والخـزرج!

ثانيًا: المشركون، وهم من بقيَ على دينِه من الأوسِ والخزرج!

ثالثًا: اليهـود، وهـم ثـلاثُ قبائـل: بنـو قينقـاع، وبنـو النَّضيـر، وبنـو قُريظة!

دون أن ننسـى فئـةً رابعـةً لـم تكـن أقـلَّ خطـورةً علـى الإسـلامِ مـن المشـركين واليهـود، ألا وهـم المنافقـون الذيـن أظهـروا الإسـلامَ وأبطنـوا الكفـر!

فأمّا المسلمون فكانوا جماعةً مشتملةً على قسمين:

قسمٌ هم في أرضِهم وديارِهم وأموالِهم، لا يهمُّهم من ذلك إلَّا ما يهمُّ الرَّجل وهو آمنٌ في سِربِّه، وهم الأنصار.

وكان بجانبِ هؤلاء قِسمٌ آخر هم المهاجرون، فاتَهم كلُّ ذلك، ونجَوا بأنفسهم إلى المدينة، ليس لهم مَلجأٌ يأوون إليه، ولا عملٌ يعملونه لمعيشتِهم، ولا مالٌ يَبلغون به قِوامًا من العيش، وكان عددُ هؤلاء اللَّاجئين غيرَ قليلٍ، وكانوا يزيدون يومًا فيومًا، فقد كان أُمرَ بالهجرةِ كلُّ من آمن بالله ورسولِه.

وأمَّا المُشركون فهم من صميمِ الأوسِ والخزرج، ولم تكن لهم سيطرةٌ على المسلمين، وكان منهم من يتخالَجه الشُّكوكُ، ويتردَّدُ في تركِ دينِ الآباء، ولكن لم يكن يُبطِنُ العداوةَ والكيدَ ضدَّ الإسلامِ والمسلمين، ولم تَمدُدْ عليهم مدّةٌ طويلةٌ حتَّى أسلموا وأخلَصوا دينهم لله.

غيرَ أنّ المنافقين فهم الذين رأَوا في الدّينِ الجديدِ تهديدًا لتركيبةِ المدينةِ عمومًا، ولمصالحهم خصوصًا، فلم يستطيعوا الجهرَ بعداوتِهم لأنّ الإسلامَ صار له شوكةٌ ومنعة، فأظهروا الإسلامَ وأبطنوا الكفر!

وعلى رأسِ هؤلاء عبدُ الله بن أُبيّ بن سلول، فقد كانت الأوسُ والخزرجُ اجتمعوا على سيادتِه بعد حربِ بُعاث، ولم يكونوا اجتمعوا على سيادةِ أحدٍ قبلَه، وكانوا قد نظَموا له الخَرَز ليتوّجوه ويملكوه، وكان على وشكِ أن يصيرَ ملكًا على أهلِ المدينة، إذ

باغَتَ مجيءُ رسولِ اللّه ﷺ، وانصرافُ قومِه عنه إليه، فكان يرى أنّه استلبَه مُلكًا، فكان يُبطِنُ شديدَ العداوةِ ضدّه.

ولمّا رأى الظروفَ لا تساعده على شِركه، وأنّه يَحرِمُ الفوائدَ الدنيويةَ، أظهر الإسلامَ بعد بدر، ولكن بقي مُستبطِنًا الكفر، وكان لا يجد مجالًا للمكيدةِ برسولِ اللّه ﷺ وبالمسلمين إلّا ويأتي بها، وكان أصحابُه من الرؤساء الذين حُرِموا المناصبَ المرجوّةَ في مُلكه، يُساهمونه ويدعمونه في تنفيذِ خططه!

وأمّا اليهودُ في المدينةِ فلم يكونوا عربًا اعتنقوا اليهوديّة، وإنّما هم في الأصلِ عبرانيّون جاؤوا إلى جزيرةِ العربِ هاربين من اضطهادِ الأشوريّين والرُّومان لهم! وبعد القدومِ إلى الحجازِ صُبِغوا بالصِّبغةِ العربيّة في الزّيِّ واللغةِ والحضارة، حتّى صارت أسماءُ قبائلِهم أو أفرادِهم عربيّة، وحتّى قامت بينهم وبين العربِ علاقةُ الزَّواج والصِّهر، إلّا أنّهم تحافظوا بعصبيّتهم الجنسيّة، ولم يندمجوا في العربِ قطعًا، بل كانوا يفتخرون بدينِهم وأصلِهم، وكانوا يحتقرون العربَ احتقارًا بالغًا حتّى كانوا يسمّونهم أمِّيِّين بمعنى أنّهم وحوشٌ سُذّج، وأراذلُ متأخّرون، وكانوا يرون أنّ أموالَ العربِ مُباحةٌ لهم، يأكلونها كيف شاؤوا، ولم يكن لهم تحمّسٌ في نشرِ دينهم، وإنّما جُلُّ بضاعتِهم الدينيّة هي: الفألُ والسّحرُ والنَّفثُ والرُّقيةُ وأمثالُهم، وبذلك كانوا يرون أنفسَهم أصحابَ علمٍ وفضلٍ وقيادةٍ روحانيّة.

وكانوا مُهَرةً في فنونِ الكسبِ والمعيشة، فكانت في أيديهم تجارةُ الحبوبِ والتّمرِ والخمرِ والثّياب، كانوا يورِّدون الثّيابَ والحبوبَ والخمر، ويُصدّرون التّمر، وكانت لهم أعمالٌ من دون ذلك هم لها عاملون، فكانوا يأخذون المنافعَ من عامّةِ العربِ أضعافًا مُضاعفة، ثمَّ لم يكونوا يقتصرون على ذلك، بل كانوا أكّالين للرِّبا، كانوا يُقرضون شيوخَ العربِ وساداتَهم ليكتسب هؤلاء الرؤساءُ مدائحَ من الشّعراءِ، وسمعةً بين النَّاس بعد إنفاقِها من غير جدوى ولا طائلة، ثمَّ كانوا يرتهنون أرضَ هؤلاء الرُّؤساءِ وزُرُوعَهم وحوائطَهم، ثمَّ لا يلبثون إلَّا أعوامًا حتَّى يتملَّكونها.

وكانوا أصحابَ دسائسَ ومؤامراتٍ وعُتُوٍّ وفساد، يُلقون العداوةَ والشّحناء بين القبائلِ العربيّةِ المجاورة، ويُغرون بعضَها على بعضٍ بكيدٍ خفيٍّ لم تكن تشعره تلك القبائل، فلا تزال في حروبٍ داميةٍ متواصلة، ولا تزال أناملُ اليهودِ تؤجّج نيرانَها كلَّما رأتها تقارب الخمودَ والانطفاء، وبعد هذا التّحريضِ والإغراء كانوا يقعدون على جانب، يرون ساكتين ما يحلّ بهؤلاء العرب، نعم كانوا يزوّدونهم بقروضٍ ثقيلةٍ ربويّة حتَّى لا يحجموا عن الحربِ لعسرِ النّفقة، وبهذا العمل كانوا يحصلون على منفعتين: كانوا يتحفّظون على كيانهم اليهوديّ، وينفقون سوق الرِّبا ليأكلوه أضعافًا مُضاعفة، ويكسبوا ثرواتٍ طائلة.

وطبعًا فإنّ اليهود لم يكن يُرجى منهم أن ينظروا إلى الإسلام إلَّا بعين البغضِ والحقد، فالرَّسول ﷺ لم يكن من جنسهم حتَّى يسكُن جأشُ عصبيَّتهم الجنسيَّة التي كانت مُتغلّبةً على نفسيَّاتهم وعقليَّاتهم، ثمَّ دعوةُ الإسلام لم تكن إلّا دعوةً صالحةً تُؤلّف بين أشتاتِ القلوب، وتُطفئ نارَ العداوةِ والبغضاء، وتدعو إلى التزام الأمانةِ في الشُّؤون، وإلى التقيُّد بأكلِ الحلالِ من طيِّب الأموال، ومعنى كلّ ذلك أنّ قبائلَ يثربَ العربيّة ستتآلف فيما بينها، وحينئذٍ لا بُدَّ من أن تفلت من براثن اليهود، فيفشل نشاطُهم التجاريّ، ويُحرَموا أموالَ الرِّبا التي كانت تدورُ عليها رحى ثروتهم، بل ربَّما يُحتمل أن تتيقَّظ تلك القبائل، فتدخل في حسابِها الأموالَ الرِّبويّة التي أخذها اليهود، فتقوم بإرجاعِ أرضِها وحوائطِها التي أضاعتها إلى اليهودِ في تأديةِ الرّبا.

كان اليهودُ يدخلون كلَّ ذلك في حسابِهم منذ عرفوا أن دعوةَ الإسلامِ تحاولُ الاستقرار في يثرب، ولذلك كانوا يُبطنون أشدَّ العداوةِ ضدّ الإسلامِ وضدّ رسولِ اللّه ﷺ منذ أن دخل يثرب، وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارِها إلّا بعد حين.

ويظهر ذلك جليًّا بما رواه ابن إسحاق عن أمّ المؤمنين صفيّة رضي اللّه عنها:

حدّثت عن صفيّة بنتِ حُييّ بن أخطب أنّها قالت: كنت أحبَّ ولدَ أبي إليه، وإلى عمّي أبي ياسر، لم ألقهما قطُّ مع ولدٍ لهما إلّا أخذاني دونه.

فلمَّا قدم رسولُ اللّه ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي، حُييّ بن أخطب، وعمّي أبو ياسر بن أخطب، مُغَلِّسَين، فلم يرجعا حتَّى كانا مع غروب الشَّمس، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَينى.

فهششتُ إليهما كما كنت أصنع، فواللّه ما التفتَ إليَّ واحدٌ منهما، مع ما بهما من الغمّ.

وسمعتُ عمّي أبا ياسر، وهو يقول لأبي: أهو هو؟

قال: نعم واللّه!

قال: أتعرفه وتثبته؟

قال: نعم!

قال: فما في نفسك منه؟

قال: عداوته واللّه ما بقيت!

في هذا المجتمعِ الخليط، انبرى النَّبيُّ ﷺ يُعمِلُ مِعولَ الهدمِ حينًا، ويدَ البناءِ حينًا آخر، حتَّى استقرّت له الأمور، وأتمَّ اللّهُ له الأمر، وجاء نصرُ اللّهِ والفتح، ولكن كلَّ هذا سبقه أربعُ خطواتٍ جعلت الدّولةَ تقفُ على أقدامِها:

أوَّلًا: بناءُ المسجد!

عندما وطِئَت قدما النَّبيِّ ﷺ أرضَ المدينة، كان أوَّلُ ما خطَّته خطاه أن جعل للرُّوح مقامًا، وللوحي مهوى، وللأمَّة قلبًا ينبض، فشرع في بناءِ المسجد!

اجتمع المهاجرون والأنصار كأنَّ قلوبَهم أُفرغت في قالبٍ واحد، لا يفرِّق بينهم نَسَبٌ ولا يُباعدهم ثراء، إنَّما جمعتهم يدٌ تمتدُّ بالحجر، وأخرى تمسح العَرَق، وثالثة ترفع الدُّعاء. ترى الغبار يتصاعد فوق الرؤوس كأنَّه بخورٌ يتصعَّد من فؤاد المدينة احتفاءً بميلاد أوَّل بيتٍ يضيء دربَها.

وكان رسولُ الله ﷺ يعمل بينهم كأنَّه واحدٌ منهم، يحمل اللَّبِنات بيدٍ قد حملت همَّ الرسالة، ويغرسها في جدارٍ سيصبح بعد قليل محرابَ أمَّة. يبتسمُ والجهدُ يتصبَّب على جبينِه الطاهر، كأنَّما يعلِّم الدُّنيا أنَّ المجد لا يُمنَح للمتكاسلين، وأنَّ بيوتَ الله تُشيَّد بعرق الأطهار لا بزخارف الحجارة.

وكانت المدينةُ في تلك الأيَّام تخلع عن كتفيها ثوبَ الجاهليَّة، وترتدي ثوبَ النور، كلُّ ضربةِ مِسحاةٍ كانت كأنَّها ضربةٌ على قلبِ الزمان تُعلن بداية عصرٍ جديد. الأطفالُ يرقبون، والنِّساءُ يَدعون، والرِّجالُ يعملون، والنَّبيُّ ﷺ بينهم كالنُّور يمشي على الأرض، حتَّى بدا المسجد ككائنٍ حيٍّ يشهق أول أنفاسه، ويستعدُّ ليكون محرابَ العبادة، ومجلسَ العلم، ومنطلقَ الجيوش، وصوتَ العدالة، وصدى السَّماء.

وحين اكتمل البناء، لم يكن مجرَّد جدرانٍ وسقفٍ من جريدِ النخل، كان وعدًا. كان الإعلانَ الرَّسميَّ لميلاد مجتمعٍ لا يحكُمُه

طغيـان، ولا يرفعُـه مـال، ولا يَهدِمُـه ظلـم، بـل يجمعـه هـذا البيـتُ الذي سـاوى بيـن غنـيٍّ وفقيـر، وبيـن سـيِّدٍ وعبـد، وبيـن عربـيٍّ وأعجمـيٍّ، وجعـل معيـارَ القـرب مـن اللّه هـو نقـاءُ القلـب لا نَسَـب الـدم.

هكـذا قـام المسـجدُ النبـويُّ: مـن عَـرَقِ النبـوَّة، ومـن دمـوعِ الفـرح التـي بلَّلـت تـرابَ المدينـة، ومـن صـدورٍ آمنـت بـأنَّ هـذا البيت سـيكون نقطـةَ الارتـكاز التـي سـينهض منهـا العالـم كلُّـه.

لم يكن المسـجدُ حجارةً تُرى، بل نورًا يُتَّبَع!

أمَّا كيف بُنيَ المسـجدُ تفصيـلًا، فتلك حكايةٌ أخرى!

أوَّل مـا فعلـه رسـولُ اللّه ﷺ بعدمـا دخـل المدينة أن بنى المسـجدَ الـذي هـو مـكانٌ لتجمُّـع المسـلمين، ومـكانٌ لعبـادةِ اللّه ربِّ العالميـن، تُلقَـى فيـه المواعـظُ والتوجيهـات، والخطـبُ النَّافعـات، وتُجيَّـش منـه الجيـوش، وتربَّـى فيـه الأجيـال، ويـأوي إليـه المسـكين، ويسـتريح بظلِّه المتعبـون مـن ذوي الفقـر والعالـة، مـع مـا فـي المسـجد مـن اجتمـاعِ المسـلمين وتآلُـفِ قلوبهـم، وتعاونهـم علـى البـرِّ والتقـوى!

أمَّـا عـن بنـاءِ المسـجدِ النبـويِّ ومـا جـرى فـي ذلـك مـن أحـداث، فقـد روى البخـاريُّ مـن حديـثِ أنـسِ بـن مالـك، قـال: لمَّـا قـدِم رسـولُ اللّه ﷺ المدينـة نـزل فـي عُلـوِّ المدينـة فـي حـيٍّ يقـال لهـم: بنـو عمرو بـن عـوف، فأقـام فيهـم أربـعَ عشـرةَ ليلـة، ثـمَّ أرسـل إلـى مَـلأِ بنـي

النجـار فجـاءوا متقلِّدي سـيوفهم، وكأنِّـي أنظـر إلـى رسـولِ اللّهﷺ علـى راحلتـه، وأبـي بكـرٍ رِدفَـه، ومَـلأُ بنـي النجـار حولـه، حتَّـى ألقـى بفِنـاء أبـي أيـوب، فـكان يُصلِّـي حيـث أدركتـه الصَّـلاة، ويُصلِّـي فـي مرابضِ الغنـم، ثمَّ أمـر ببنـاءِ المسـجد فأرسـل إلـى مـلأ بنـي النَّجـار فجـاؤوا فقـال: يـا بنـي النَّجـار ثامِنُونـي بحائطكـم هـذا!

فقالوا: لا واللّه، لا نطلب ثمنَه إلّا إلى اللّه عزَّ وجلَّ.

فأَبى رسولُ اللّه ﷺ إلّا بالثَّمن!

وكانـت فيـه قبـورُ المشـركين، وكانـت فيـه خُـرَب، وكان فيـه نخـل، فأمـر رسـولُ اللّه ﷺ بقبـورِ المشـركين فنُبِشـت، وبالخُـرَب فسُـوِّيت، وبالنخـل فقُطِـع، فصفُّـوا النخـل قِبلـةَ المسـجد، وجعلـوا عضادَتَيـه حجـارةً، فجعلـوا ينقلـون ذلـك الصَّخـر وهـم يرتجـزون، ورسـولُ اللّهﷺ معهـم يقـول:

اللَّهُمَّ لا خير إلَّا خيرُ الآخرة، فانصُرِ الأنصارَ والمهاجرة!

وقـد ثبـت فـي صحيـحِ البخـاريِّ فـي موضـعٍ آخـر عـن الزهـري عـن عـروة أن المسـجدَ الـذي كان مِربدًا، وهـو المكان الـذي يُجفَّف فيـه التمـر، كان ليتيميـن كانـا فـي حجـرِ أسـعدَ بـن زرارة، وهمـا سـهل وسُـهيل، فسـاومهما فيـه رسـولُ اللّه ﷺ فقـالا: بـل نهبُـه لـك يـا رسـول اللّه، فأَبـى حتَّـى ابتاعـه منهمـا وبنـاه مسـجدًا!

قـال ابـنُ كثيـر: ولـم يكـن فـي مسـجدِ النبـي ﷺ أوّل مـا بُنـي منبـرٌ يخطـب النَّـاس عليـه، بـل كان النبـي ﷺ يخطـب النَّـاس وهـو

مستندٌ إلى جِذعٍ عند مُصلَّاه في الحائطِ القِبلي، فلمَّا اتُّخذ له المنبر، وعُدِل إليه ليخطبَ عليه، فلمَّا جاوز ذلك الجذع خار ذلك الجذع وحنَّ حنينَ النوقِ العِشار، لما كان يسمع من خطب الرسول ﷺ عنده، فرجع إليه النبي ﷺ فاحتضنه حتَّى سكن كما يسكن المولودُ الذي يُسكَّن!

وما أحسن ما قال الحسنُ البصريُّ بعد ما روى هذا الحديث عن أنس بن مالك: يا معشر المسلمين! الخشبةُ تحنُّ إلى رسولِ الله ﷺ شوقًا إليه، أوَليس الرجالُ الذين يرجون لقاءه أحقَّ أن يشتاقوا إليه؟!

تمَّ بناءُ المسجدِ في حدودِ البساطة، فراشُهُ الرِّمالُ والحَصْباء، وسقفُه الجريد، وأعمدتُه الجذوع، وربما أمطرت السَّماء فأوحلت أرضه، وقد تَفْلِتُ الكلابُ إليه فتغدو وتروح. هذا البناءُ المتواضع هو الذي ربَّى ملائكةَ البشر، ومؤدِّبي الجبابرة، وملوكَ الدارِ الآخرة.

في هذا المسجد أذِن الرَّحمنُ لنبيٍّ يؤمُّ بالقرآن خيرَ من آمن به، يتعهَّدهم بأدبِ السَّماء من غَبَشِ الفجر إلى غَسَقِ اللَّيل.

إنَّ مكانةَ المسجدِ في المجتمعِ الإسلاميِّ تجعله مصدرَ التوجيهِ الرُّوحيِّ والمادّي، فهو ساحةٌ للعبادة، ومدرسةٌ للعلم، وندوةٌ للأدب، وقد ارتبطت بفريضةِ الصَّلاة وصفوفِها أخلاقٌ وتقاليدُ هي لُبابُ الإسلام. لكنّ النَّاس في عصورٍ تلت حتَّى

عصرنا غالوا في العمارة، وأمَّا رسالةُ المسجد فتشكو إلى اللّه اليوم حال العباد!

أمَّا الأسلافُ الكبار فقد انصرفوا عن زخرفةِ المساجد وتشييدها إلى تزكيةِ أنفسهم وتقويمها، فكانوا أمثلةً صحيحةً للإسلام.

لمِثل هذا فليُبنَ المسجدُ، فهو قلعةُ الإيمان، وحصنُ الفضيلة، وهو المدرسةُ الأولى التي يتخرج منها المسلم، هو بيتُ الأتقياء، ومكانُ اجتماع المسلمين يوميًّا، ومركزُ مؤتمراتهم، ومحلُّ تشاورهم وتناصُحِهم، والمنتدى الذي فيه يتعارفون ويتآلفون، وعلى الخير يتعاونون، منه خرجت جيوشهم، ففتحت مشارقَ الأرض ومغاربَّها، منه تخرَّج العلماءُ والفقهاء. وفي رحابِه كان التقاضي والقضاء، ومحاسبةُ الخلفاء، فيه كانت الملاعنَةُ تجري بين الرجالِ والنساء، وفيه كانت تتمُّ قسمةُ الغنائم، فهو ملتقى الأمّة وناديها وجامعتها، ومكانُ شُوراها.

هكذا فهم المسلمون الأوَّلون وظيفةَ المسجد، وهكذا بنَوه، فلم يُسرفوا في بنائه، ولم يُزخرفوا، ولم يُبذِّروا، ففتح اللّهُ على أيديهم. فلمَّا صار المسلمون إلى التبذيرِ والإسرافِ والزخرفةِ والمظاهر الفارغة، شأنهم في الأندلس وما تبعها، نزع اللّهُ الملكَ من أيديهم، فصار ما بنوه من المساجد كنائسَ ومتاحف، وما بقي في أيدينا جدرانٌ سامقة، وقِبابٌ بهيَّة، ومآذنُ شامخة، أمَّا

أرواحُنا فما زالت تَزحفُ على الأرض، وستبقى حتَّى نعيَ أن بناءَ المسلم، وزخرفةَ روحِه بالوحي، أَجدى من زخرفةِ المبنى، إنّ الإيمانَ الحقيقيَّ هو بناءُ الإنسان لا بناءُ الجدران!

ثانياً: المُآخاةُ بين المهاجرين والأنصار!

بعدَ أن فرغَ النَّبيُّ ﷺ من بناءِ المسجد، انبرى ليُقيم بناءً آخر لا يقلُّ أهمِّيَّة، بناءً لا يُشيَّد بالطِّينِ ولا يُرفَع بالخشب، إنَّه بناءُ القلوبِ على القلوب، وتشييدُ الأُمَّةِ من جِسمَيْن خُلِقا ليكونا واحدًا. فجمع المهاجرين والأنصار، ثمَّ مدَّ بينهما جسرًا من نور، وقال بصدقِ النبوَّةِ ورقَّةِ الأبوَّة: تآخوا في اللّهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ!

كانت الكلّماتُ قليلة، لكنَّها كانت أثقلَ من الذَّهب في ميزانِ الأخلاق، وأعمقَ من المحيطِ في طبقاتِ المعاني. في تلك اللَّحظة، لم يكن أحدٌ يبحث عن النَّسَب، ولا يسأل عن المال، ولا يقيس قدرَ أخيه بقبيلته، فقد انطفأت فوارقُ الدُّنيا في وهجِ الأخوَّة الإيمانيَّة. كأنَّ القلوبَ كانت تنتظر هذه اللَّحظة منذ بدء الخليقة.

قام سعدُ بنُ الرَّبيع، ذلك الأنصاريُّ النبيل الذي كانت المدينة تتزيَّن بابتسامته، فأخذ بيدِ أخيه عبدِ الرَّحمنِ بنِ عوف، يده التي أنهكتها الأسفار، وقال له بلا تردُّد: يا أخي، هذا مالي فاقسِمْه بيني وبينك، ولي امرأتان، فانظر أَعجَبَهُما إليك فأُطلِّقها فتتزوَّجها!

أيُّ قلبٍ يَسَعُ هذا العطاء؟
أيُّ نفسٍ تُقدِّم نصفَ حياتِها لإنسانٍ لَقِيَتْه للتَّو؟
وأيُّ مدينةٍ تلك التي أنجبت رجالًا بهذا السَّخاء الرُّوحيّ؟

لكنَّ عبدَ الرَّحمنِ بنَ عوف، الذي جاء من مكَّة بأسمالِه القليلة وكرامتِه الكبيرة، ابتسم ابتسامةَ العفيفِ الواثق، وقالَ قولتَه الشَّهيرة التي أضاءت تاريخَ الكرامةِ الإيمانيَّة: بارك اللّٰهُ لك في أهلِك ومالِك، ولكن دُلَّني على السُّوق!

كان المُعطي عظيمًا، وكان الآخذ عظيمًا، وكان الإسلامُ بينهما أعظم.

ورأى النَّاس كيف صنع النَّبيُّ ﷺ أُمَّةً تتآخى فيها القلوبُ قبل الأجساد، أُمَّةً جعلت الغريبَ قريبًا، والبعيدَ مُدْنًى، والمسافرَ أهلَ دار. لم تكن المؤاخاةُ هِبَةَ حُسنِ الضِّيافة، بل كانت إعلانًا بأنَّ هذه الأُمَّة لن تُبنى على الدَّم وحده، بل على الرِّضا والعَدْلِ والإيثارِ والوفاءِ.

لقد كانت المؤاخاةُ صرخةً في وجهِ الجاهليَّة التي لطالما قالت: أنا ابنُ فلان، ومن قبيلةِ كذا.

وجاء الإسلام ليقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤمِنُون إِخْوَةٌ﴾.

وفي تلك الكلمة تحوَّلت المدينةُ إلى عائلةٍ كبرى، كلُّ قلبٍ فيها نافذةُ نور، وكلُّ يدٍ فيها بِساطُ رحمة.

وهكـذا تأسَّسـت الدَّولـةُ علـى أسـاسٍ لـم تَعـرِفْ مثلَـه أرض، لا تُمسِـكُه الحجـارة، ولا تُقيمُـه الأبـراج، بـل يُقيمُـه الصِّـدقُ والصَّفـاء، ويُقوِّيـه الحُـبُّ والعـدل، ويُسـيِّجه قولُـه تعالـى:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

كانـت المؤاخـاةُ أعظـمَ معجـزةٍ اجتماعيَّـة فـي التَّاريـخ، بهـا ذاب الاحتقـان، وتوحَّـد المختلـف، وامتـدَّ ظـلُّ النَّبـيِّ ﷺ علـى المدينـةِ كلِّهـا، فصـار يُظلِّلهـا بأَمْـنٍ لا يُشـبهُه أَمْـن، ووئـام لا يُشـبهُه وئـام.

ومنـذ ذلـك اليـوم، عـرف النَّـاس أنَّ الأُمَّـةَ الحقيقيَّـة لا تُبنـى بالسُّـيوف قبـل أن تُبنـى بالقلـوب، وأنَّ العظمـة لا تنبـت فـي أرضٍ يابسـة، بـل فـي القلـوب التـي روَتْهـا الأُخـوَّةُ الصادقـة!

كان النَّبـيُّ ﷺ يضبـط إعـداداتِ الدَّولـة، ويقلِـبُ الدُّنيـا حرفيًّـا رأسًـا علـى عقـب، إنَّـه لا يبنـي كيانًـا سياسـيًّا فقـط، بـل يبنـي أُمَّـة، لهـا دسـتور، وضوابـط، ومرجعيَّـة!

لهـذا مـا تعانـق المهاجـرون والأنصـار مُحتَفِيـن بروعـةِ الإخـاءِ، حتَّـى كان النَّبـيُّ ﷺ يجمعهـم، وهـم المتفرِّقـون فـي القبائـل والأنسـاب، فـي عبـاءةِ الأُمَّـة، وثيقـةٌ سياسـيَّة تضبـطُ إيقـاعَ العمـل، وترسـم حـدودَ الحركـة، وتُؤطِّـر ميثاقًـا للمسـلمين مـن يـومِ التآخـي إلـى قيـامِ السَّـاعة، سـتَّةَ عشْـرَ بنـدًا واضحًـا لا يقبـل التَّأويـل، ولا مـكانَ فيـه للكنايـة!

هـذا كتـابٌ مـن محمَّـد النَّبـيِّ ﷺ بيـن المؤمنيـن والمسـلمين مـن قريـش ويثـرب، ومـن تبعهـم فلحِـق بهـم، وجاهـد معهـم:

1- أنَّهم أُمَّةٌ واحدةٌ من دونِ النَّاس.

2- المهاجـرون مـن قريـش علـى رِبْعَتِهـم يَتَعاقَلـون بينهـم، وهـم يَفْـدون عانيَهـم بالمعـروفِ والقِسْـطِ بيـن المؤمنيـن، وكلُّ قبيلـةٍ مـن الأنصـار علـى رِبْعتِهـم يَتَعاقَلـون مَعاقِلَهـم الأولـى، وكلُّ طائفـةٍ منهـم تَفْـدي عانيَهـا بالمعـروفِ والقسـطِ بيـن المؤمنيـن.

3- وأنَّ المؤمنيـن لا يتركـون مُفْرَحًـا بينهـم أن يُعطـوه بالمعـروفِ فـي فـداءٍ أو عَقْـل.

4- وأنَّ المؤمنيـن المتَّقيـن علـى مـن بَغَـى عليهـم، أو ابتغـى دَسِـيعَةَ ظُلْـمٍ أو إثـمَّ أو عُـدوانٍ أو فسـادٍ بيـن المؤمنيـن.

5- وأنَّ أيديَهم عليه جميعًا، ولو كان ولدَ أحدِهم.

6- ولا يقتلُ مؤمنٌ مؤمنًا في كافر.

7- ولا يَنصُرُ كافرًا على مؤمن.

8- وأنَّ ذمَّةَ اللّهِ واحدةٌ يُجيرُ عليهم أدناهم.

9- وأنَّ مـن تَبِعَنـا مـن يهـود فـإنَّ لـه النَّصْـرَ والأُسـوة، غيـرَ مظلوميـن ولا مُتَنَاصِريـن عليهـم.

10- وأنَّ سِـلْم المؤمنيـن واحـدة، ولا يُسـالِم مؤمـنٌ دون مؤمـنٍ فـي قتـالٍ فـي سـبيلِ اللّه إلَّا علـى سـواءٍ وعَـدْلٍ بينهـم.

11- وأنَّ المؤمنيـن يَبُـوءُ بعضُهـم علـى بعضٍ بمـا نـال دماءَهـم فـي سـبيلِ اللّه.

12- وأنَّه لا يُجيرُ مشركٌ مالًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحولُ دونه على مؤمن.

13- وأنَّه من اعتبط مؤمنًا قتلًا عن بيِّنةٍ فإنَّه قَوَدٌ به، إلَّا أن يرضى وليُّ المقتول.

14- وأنَّ المؤمنين عليه كافَّة، ولا يَحِلُّ لهم إلَّا قيامٌ عليه.

15- وأنَّه لا يَحِلُّ لمؤمنٍ أن يَنصُر مُحْدِثًا ولا يُؤويه، وأنَّه من نصره أو آواه فإنَّ عليه لعنةَ اللّٰهِ وغضبَه يومَ القيامة، ولا يُؤخَذُ منه صَرْفٌ ولا عَدْل.

16- وأنَّكم مهما اختلفتم فيه من شيءٍ فإنَّ مَرَدَّه إلى اللّٰه عزَّ وجلَّ وإلى محمَّد ﷺ.

يا لرسولِ اللّٰهِ ﷺ كيف غيَّرَ هذا العالم!

إنَّ المؤاخاةَ لم تكن حدثًا تاريخيًّا عابرًا، بل كانت قد رسمت ملامحَ أوَّلِ مجتمعٍ إسلاميٍّ، ووضعتِ النَّموذجَ الذي تبني عليه الأُممُ العظيمةُ وحدتَها وقوَّتَها وخُلودَها، وإنَّ من أهمِّ الدُّروسِ والعِبَرِ المستفادةِ من هذه المؤاخاة هي:

1. أنَّ رابطةَ الإيمانِ أقوى من رابطةِ الدَّم، أثبتت المؤاخاةُ أنَّ الإيمان حين يستقرُّ في القلب يصنع أمتنَ وشائجَ ممَّا تصنعه الأنساب. فقد انصهر المهاجرُ والأنصاريُّ في وحدةٍ روحيَّةٍ لا تُبنى على مصالحَ ولا أهواء، بل على يقينٍ مشتركٍ وطريقٍ واحد.

2. أنَّ المجتمعَ المسلم يقوم على التَّعاضُد لا على التَّنافُس، يوم أُخِيَ بين الرَّجل وأخيه، لم تكن الأُخوَّةُ شعاراتٍ تُقال، بل تقاسيمَ

قلب، ولُقمةً تُقسَم، ودُورًا تُفتح، وأموالًا تُشارَك. لقد بُنيت المدينةُ على أساسِ التَّكافلِ لا الاستئثار، وعلى المواساةِ لا المُفاخرة.

3. أنَّ إزالةَ الفوارقِ الاجتماعيَّةِ ممكنةٌ حين تذوبُ النُّفوسُ للّه، جاء المهاجرون بلا مالٍ ولا دارٍ ولا قبيلةٍ تحميهم، وجاء الأنصار ببيوتِهم وزروعِهم وعِزِّهم، ومع ذلك التقى الطَّرفان على مستوى واحدٍ من الكرامةِ الإنسانيَّة، لا فضلَ لموسِرٍ على مُعْسِرٍ إلَّا بالتقوى.

4. أنَّ القيادةَ النبويَّة تصنع وحدةً لا تُشَقُّ، كانت المؤاخاةُ درسًا في فنِّ بناءِ المجتمعات. لم تكن خطوةً عاطفيَّة، بل مشروعًا استراتيجيًّا يُمَهِّدُ لقيامِ دولة، ويضمن اندماجَ المهاجرين في مجتمعِ المدينة بلا توتُّرٍ ولا صدام.

5. أنَّ البذلَ طريقٌ للحُبِّ، وأنَّ العطاء يصنع الثِّقة، بذل الأنصارُ حتَّى استحيَت الجبالُ من سَخائهم، فبادَلهم المهاجرون حُبًّا ووفاءً وعملًا وجهادًا. وهكذا وُلِدَ مجتمعٌ تُربِّيه القلوبُ قبل الأيدي، وتَصنعُه المشاعرُ قبل السُّيوف.

6. أنَّ الأُمَّة تُبنى حين يذوب «الأنا» في «نحن»، لم يَعُد للمهاجرِ شأنٌ منفصل، ولا للأنصاريِّ شأنٌ خاصّ. كانت الآمالُ واحدة، والتَّجاربُ مشتركة، والهَمُّ واحدًا. وهذه الرُّوح هي التي مهَّدت لقيامِ حضارةٍ امتدَّت من المدينة إلى آفاقِ الأرض.

7. أنَّ الأُخُوَّةَ في اللّه ليست مجرَّد عاطفة، بل مسؤوليَّة، فكلُّ أُخوَّةٍ تُبنى بلا واجباتٍ تذبل، ولكن أُخوَّة المهاجرين والأنصار قامت على نُصرةٍ، وحمايةٍ، وتضحيةٍ، وتقاسُم، وجهاد. لذلك بقيت خالدة، لأنَّها تحوَّلت من مشاعرَ إلى أعمال.

8. أنَّ المجتمعَ السعيد هو الذي يرى في اختلافِ النَّاس ثراءً لا تهديدًا، جاء المهاجرون بخبراتِهم وتجاربِّهم وتِجارتِهم، وجاء الأنصار ببيئتِهم وأرضِهم وعاداتِهم، فكان الامتزاجُ بينهم مصدرَ قوَّة، لا سببَ نزاع.

9. أنَّ بناءَ الدَّولة يبدأ ببناءِ القلوب، قبل أن تُشيَّد الأسوار، وتُنظَّم الجيوش، وتُكتَب الوثائق، أصلح النَّبيُّ ﷺ النُّفوس أوَّلًا. كانت المؤاخاةُ العمودَ الأوَّل الذي حمل سقفَ الأُمَّة.

10. أنَّ التَّضحيَة طريقُ النَّصر، وما انتصرت الأُمَّة في بدرٍ وأُحُدٍ والخندق إلَّا لأنَّها قامت على نُفوسٍ مستعدَّةٍ أن تُعطي قبل أن تأخذ، وتُؤثِر قبل أن تُؤثَر، وتُقدِّم أخاها على نفسِها!

ثالثاً: المعاهدة مع يهود المدينة!

كانت يثربُ مدينةً ممزَّقة الأنسجة؛ قبيلتان طال بينهما الدم، ويهودٌ بأحلافٍ متشابكة، ومسلمون مهاجرون فقدوا الأهل والدار، وأنصارٌ بثِقَل الماضي وعبء المستقبل. وبين هذه الأطياف كلّها، وقف النَّبيُّ الكريم ﷺ كمن يمسك بخيوطٍ شتَّى، يريد أن يصوغ منها نسيجًا واحدًا يعيش فيه الجميع بطمأنينة.

عندها وُضِعت تلك الوثيقة التي لم تكن سطورًا من حِبر، بل خارطةً أخلاقيّة تحكم علاقات المسلمين، سبقت كلّ ما عرفه عصرها من قوانين. وكتب فيها أن المسلمين أمّة واحدة من دون النَّاس!

ومضى النَّبيُّ ﷺ ينسج حول هذه الوحدة دوائرَ من العدالة، تشمل أهلَ الكتاب، وتضمن لهم حقَّهم في دينهم ونفوسهم وأموالهم. فكانت المعاهدة مع يهود المدينة!

كانت هذه لحظة ميلاد دولةٍ لا تشبه الدُّول، دولةٌ ترتفع على أخلاق السَّماء، لا على أطماع الأرض.

ولم يكن النَّبيُّ ﷺ يصالحهم خوفًا ولا ضعفًا ولا حاجة، بل لأن المدينة تتنفَّس التعدُّد، ولأنَّ المجتمع الجديد لا يمكن أن يُبنى إلَّا على أساسٍ يضمن لكلِّ إنسان مكانه وحرمته.

لقد كان اليهود يومها يملكون المال والسِّلاح والحصون، لكن النَّبيَّ ﷺ لم يفتح باب الصِّراع، بل فتح باب الشَّراكة، أراد لهم أن يكونوا جزءًا من أمن المدينة لا خنجرًا في خاصرتها، وأن يعيشوا تحت ظلِّ القانون لا في زحام الفوضى.

وحين وقَّعوا على الصَّحيفة، شعر النَّاس أن صوت الحديد في المدينة خفَت، وأن ريح الدَّم التي اعتادت أرض يثرب بدأت تَهدأ. كان العدل هو الباب الذي مرَّت منه السَّكينة، وكان العهدُ هو الجسر الذي عبرت عليه القلوب من الشَّكِّ إلى الاحترام.

وهكذا لم تكن وثيقةً سياسيّةً فحسب، بل كانت درسًا عميقًا في أن السِّلم لا يولد من تشابه النَّاس، بل من قدرتهم على احترام اختلافهم.

كانت تكتب للعالم كلِّه أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يأت ليبني دولةً للمسلمين وحدهم، بل ليبني مجتمعًا يستطيع كلُّ ساكنيه أن يناموا مطمئنِّين تحت قمرٍ واحد، ولكنَّ اليهود قاتلهم اللّٰه هم اليهود!

أمّا بالنسبة إلى بنود المعاهدة معهم، فقد جاءت في اثنَي عشر بندًا، راعاها النَّبيُّ ﷺ، وما رَعَوْها هم حقَّ رعايتها، ومضَوا حتَّى اليوم ينقُضون عهدهم في كلِّ مرَّة:

1. إنَّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، وكذلك لغير بني عوف من اليهود.
2. وإنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.
3. وإنَّ بينهم النَّصر على من حارب أهل هذه الصَّحيفة.
4. وإنَّ بينهم النُّصح والنَّصيحة، والبرُّ دون الإثمِّ.
5. وإنَّه لم يأثمَّ امرؤ بحليفه.
6. وإنَّ النَّصر للمظلوم.
7. وإنَّ اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
8. وإنَّ يثرب حرامٌ جوفها لأجل هذه الصحيفة.
9. وإنَّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدثٍ أو اشتجارٍ يُخافُ فسادُه فإن مَرَدَّه إلى اللّٰه عزَّ وجلَّ، وإلى محمَّد ﷺ.
10. وإنَّه لا تُجار قريشٌ ولا من نصرها.
11. وإنَّ بينهم النَّصر على من دهم يثرب، على كلِّ أناسٍ حصَّتهم من جانب الذي قِبلهم.
12. وإنَّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالمٍ أو آثمَّ.

ومن أهم الدُّروس المستفادة من معاهدة النَّبيِّ ﷺ مع اليهود:

1. أهميَّة العدل كأساس للتَّعايش، المعاهدة أثبتت أنَّ السَّلام لا يقوم على القوَّة أو الغلبة، بل على العدالة بين جميع أطراف المجتمع، وحفظ حقوق الجميع مهما اختلفت معتقداتهم.

2. الوفاء بالعهود أساس الثقة، الالتزام بالمواثيق يعزِّز الأمن والاستقرار، ويجعل العلاقات بين المجتمعات متينةً ومستدامة.

3. التَّعاون على الخير والمصالح المشتركة، المعاهدة أكدت أن المجتمع المتعدِّد الأطياف يمكنه حماية المدينة وتحقيق مصالح مشتركة رغم اختلاف الأديان.

4. التَّسامح الدِّينيِّ والاجتماعيّ، اختلاف الدِّين لا يمنع العيش المشترك، بل يمكن أن يكون رافدًا للقوَّة حين تُحترم الخصوصيَّات.

5. الحكمة في القيادة والسياسة، النَّبيُّ ﷺ جمع بين الدِّين والسياسة والأخلاق، ووضع نموذج القيادة الربانيَّة العادلة.

6. أهمية تنظيم المجتمع بوثائق واضحة، كتابة الحقوق والواجبات رفعت الخلاف للشَّرع، ومنعت كثيرًا من الفتن.

7. السَّلام أساس النَّهضة المجتمعيَّة، لا ازدهار بلا أمنٍ واستقرار، وهذا ما رسَّخته المعاهدة في مجتمع المدينة.

على أن يُعلم يقينًا أنَّ هذا كلَّه لا ينطبق على حال المسلمين مع اليهود في فلسطين اليوم، فلا يُؤخذ زورًا للاستسلام والتَّطبيع؛ فإنَّ قياس ذاك على هذا قياسٌ باطلٌ مع الفارق!

فاليهودُ في المدينة يومذاك كانوا أصحاب أرضهم، جاء النَّبيُّ ﷺ فوجدهم فيها، بينما هم اليوم غزاةٌ محتلون!

أمَّا ما يُقاس عليه من فعل النَّبيِّ ﷺ اليوم فهم أهلُ الكتاب من النَّصارى واليهود الذين يعيشون بيننا بلا عدوان؛ فهؤلاء لهم حقُّ المواطنة، ولهم حرمة دمائهم وأموالهم.

والمشكلة مع اليهود في فلسطين ليست لأنَّهم يهود، بل لأنَّهم غزاةٌ معتدون، والإسلام موقفه من العدوان واحد مهما كان الفاعل!

الإسلامُ يَسُلُّ سيفَه!

لـم يخـرج الإسـلامُ مـن غِمْدِ السَّيف، ولا وُلِدَ مـن صليلِ الحديد! وإنّمـا خـرج مـن قلبِ نبـيٍّ كان يمشـي وحيـدًا فـي طُرُقـاتِ مكّة يحمل نـورًا بيـن يديـه، ويُنـادي فـي النّـاس: تعالـوا إلـى كلمـةٍ سـواء!

لـم يكـن الإسـلامُ يومًـا جيشًـا مُدَجَّجًـا يلـوِّحُ سـيفَه فـي وجـوهِ النّـاس، وإنّمـا كان فكـرةً نورانيَّـة تمشـي علـى قدميـن، تحمـل فـي يـدٍ رحمـةً، وفـي يـدٍ عـدلًا!

وحيـن يُقـال: إنّ الإسـلام انتشـر بالسـيف، فذلـك يشـبه أن يُقـال: إنّ الشـمس تُكره الأزهـارَ علـى التفتُّـح! فالحـقُّ لا يُفـرَض بالقـوّة، بـل للقُلـوبِ أبوابُهـا حيـن تلمـس صدقَه!

لـم يعـرف التاريـخ دينًـا حـورب فـي مهـده كمـا حـورب الإسـلام، ولـم يعـرف دعـوةً غضّـةً طريّـةً تعرّضـت لمحاولـة الـوأد كمـا تعـرّض الإسـلام، ومـع ذلـك مـا ذُكـر السـيف إلا حارسًـا، ومـا سُـلّ إلا ليدفـع ظالمًـا، ولا أُسْـلِطَ إلا حيـن لـم يبـقَ سـبيلٌ آخـر. إنّ القطّـة، وهـي القطّـة، إذا مـا حُشـرت فـي الزّاويـة وخلفهـا أبناؤهـا، صـارت لبـؤة، فكيـف بهـذا الدِّيـن الـذي يفيـض عـزّة وكرامـة؟! فهـو، وإن كان فيـه وداعـة القطـط فـي أُلفتهـا، لـه وثبـة الأسـود إذا مـا أُريـد بـه ضيـم!

أضجعـوا الإسـلامَ أرضًـا وأوثقـوه يريـدون نحـرَه، فلمّـا انتفـض فـي وجـهِ ذابحيـه اتّهمـوه بالإرهـاب، وقالـوا: انتشـر بالسـيف!

ثلاثـةَ عشـرَ عامًـا كان النبـيُّ ﷺ يسـير فـي طُرقـاتِ مكّـة بـلا سيف، ولا تُـرس، ولا رُمـح، نـداؤه فيهـم نـداءُ المُشـفِق: قولـوا لا إلـهَ إلّا اللّه تُفلِحـوا.

ومـع ذلـك أطلقـوا عليـه نِبالهـم، واتّهمـوه بالسّـحرِ والكـذبِ والجنـون، ووضعـوا علـى رأسـه سـلا الجـزور وهو سـاجدٌ عنـد الكعبة.

وحاصـروه وبنـي هاشـم فـي الشِّـعبِ ثـلاثَ سـنينَ حتـى أكلـوا أوراقَ الشـجر، وتآمـروا علـى قتلـه فـي مكّـة، ورجمـوه بالحجـارة فـي الطائـف!

عذّبـوا أصحابَـه، وصلبـوا بـلالًا، وأحرقـوا خَبّابًـا، وبِحَربَـة الغَـدر طَعـن أبـو جهـلٍ سُـمَيّة، وبأصابـعِ الحِقـد خَنـق ياسـرًا!

ألجـأوهـم إلـى تـرك ديارهـم بعدمـا ضيّقـوا عليهـم مكّـة، فَيَمّمـوا وجوههـم إلـى الحبشـة، وليـس لهـم مـرامٌ غيـر أن يَسـلموا ويرتاحـوا مـن الأذى، إنّ فيهـا مَلِـكًا لا يُظلـم عنـده أحـد.

خرجـوا باحثيـن عـن شـهقة عـدلٍ بعدمـا صـارت رئاتهـم تزفُـر نـارًا مـن غضـب كتمـوه فـي صدورهـم ممـا نـزل بهـم مـن الظلـم، كلّ هـذا والقـرآن ينـزل فيهـم: كفّـوا أيديكم!

ونبيهم ﷺ يُخاطبُ بالوحي: «ادفعْ بالتي هـي أحسـن»!

فلما ضاق بهم ذرعًا قالوا: انتشرَ الإسلامُ بالسَّيف!

الإسلامُ لم يَنتشرْ بالسَّيفِ، بلِ انتصَرَ بالسَّيف.

لـم يُـؤذَن للمسـلمين بالقتـالِ إلّا يـومَ ضاقـتِ الأرضُ عليهـم، وارتفعتِ السُّيوفُ في وُجوهِهم، فنزلتِ الآيةُ العظيمةُ التي رَسَمَت حدودَ الصِّراع: ﴿أُذِنَ لِلَّذِيـنَ يُقاتَلـونَ بِأَنَّهُـم ظُلِمـوا﴾.

فالقتـالُ لـم يكـن دعـوةً إلـى الإسـلام، بـل كان دفاعًـا عـن حـقِّ الإسـلامِ فـي الوجـود.

وحيـن أقـامَ الإسـلامُ دولتَـهُ الأولـى، لـم يَجمـعِ النبـيُّ ﷺ اليهـودَ ويَعـرِضْ عليهـم الإسـلامَ على حدِّ السَّـيف، وإنّما وقَّع معهم صحيفةَ المدينـة، أوَّلَ وثيقـةٍ سياسـيَّةٍ فـي التاريـخِ للسِّـلمِ الأهلـيِّ والتعايُـشِ المشـترك.

جَعَلَهـم فيهـا أمّـةً مـع المؤمنيـن، أي شـركاءَ فـي وطـنٍ واحـد، لا رَعايـا ولا خاضعيـن، أقـرّ لهـم دينَهـم كمـا هـو، وأموالَهـم كمـا هـي، ومعابدَهـم كمـا هـي، وألـزَمَ نفسَـه بحمايتهـم.

أيُّ سيف هذا الذي يحمي المخالفين في دينهم؟

إنّه سيفُ الإسلام، سيفُ العدل، لا سيفُ البغيِ والإكراه!

الإسلامُ لم يَنتشرْ بالسَّيف، بلِ انتصَرَ بالسَّيف!

ولـو كان السَّيفُ وسيلةَ انتشـارِه لَمَا بقيت كنائسُ الشامِ والعراقِ ومصـرَ عامـرة، ولَمَـا بقـي أهلُهـا علـى دينهـم قرونًـا تحـت حكـم المسـلمين.

السّـيفُ لا يحفـظ كنيسـةً، ولا يحمـي صليبًـا، ولا يُبقـي شـعائرَ المخالفيـن لـه قائمـةً حتـى اليوم، ولكـنَّ الإسـلامَ فعل، لأنّـه لـم يـأتِ ليقتـلَ المخالـف، بـل ليقيـمَ العـدل!

والتاريخُ يـروي لنـا مشـهدًا يثيـر الدهشـة: حيـن دخـل عمـرُ بـن الخطّـابِ بيتَ المقدس، أبـى أن يصلّـي داخـل كنيسـةِ القيامـة، خشـيةَ أن يأتـيَ المسـلمون بعد ذلـك فيقولـوا: هنـا صلّـى عمـر، فيأخذونهـا منهـم ويجعلونهـا مسـجدًا.

وما زالت الكنيسةُ قائمةً على أقدامها حتى اليوم.

هـذا ليـس مشـهدًا مـن فتوحـاتِ الحديـد، بـل مـن فتوحـاتِ الضميـر!

وإنّ الفتوحـاتِ التـي يتحـدّث عنهـا بعـضُ القـوم اليـوم، وكأنّهـا حمـلاتٌ قسـريّة، كانـت فـي حقيقتهـا انتفاضـةَ شـعوبٍ تبحـث عـن مُتنفَّـس.

بـلادُ الشـام تحـت حكمِ الـروم كانـت تـرزح تحـت نيـرِ الضرائـب والاضطهـادِ الدينـيّ.

ولسـنا نحـن مـن يقـول هـذا، وإنّمـا مؤرّخوهـم هـم مـن روَوا أنّ كلّ مـن كان يخالـف الكنيسـةَ يُعـذَّب ويُنفـى ويُحـرَق.

فلمّا جاء المسلمون استقبلتهم الشعوب كمنقذين لا كغزاة!

ودخـل النـاس فـي الإسـلام لا تحـت ضغـط السـيف، بـل تحـت ظلّ العدالة!

لم تُفتَح كلُّ البلادِ بالجيوش، فبعضُها فُتِح بالأخلاق!

إندونيسـيا وماليزيـا مثـلًا، لـم يصـل إليهمـا جيـشٌ قـط، وكلُّ أولئـك دخلـوا الإسـلام عبـر الكلمـة والقـدوة، لا عبـر القتـال.

ولو كان السيفُ وسيلةَ الدعوة، فأيُّ سيفٍ وصل إلى جُزرٍ في أقصى المحيطات لا يعرف اسمَها إلّا البحّارة؟

والعجيبُ أن يُنصِفَ هذا الدينَ المنصِفون من المستشرقين، ويجورَ عليه بعضُ أبنائه متَّهِمين إيّاه بأنّه انتشر بحدِّ السيف.

يقول ماكس مولر: لم يُكرِه المسلمون أحدًا على الإسلام، وتاريخُهم شاهدٌ على ذلك.

ويقول توماس أرنولد: لو شاء المسلمون أن يُكرِهوا الناسَ على دينهم، لما بقي مسيحيٌّ واحدٌ في البلاد التي حكموها.

ثم، وأيُّ جريمةٍ في أن يكونَ للإسلامِ جيشٌ وسيف؟ وهل قامت دولةٌ في التاريخ لم يكن لها جيش؟

ثم ما شأنُنا بالتاريخِ والواقعُ ماثلٌ أمامنا؟ ألسنا نُذبح كلَّ يومٍ على أيدي جيوشٍ تدّعي دولُها الحضارةَ والإنسانيّة؟

المشكلةُ ليستْ في وجودِ الجيشِ للدولة، فهذا من مُكوّناتِ الدول، المشكلةُ ما الذي تفعله الجيوشُ، وبأيِّ عقيدةٍ تُحارب، ولأيِّ هدف؟

هناك فارقٌ شاسعٌ بين سَفكِ الدمِ لأجلِ النفطِ والنفوذ، وبين الجيشِ الذي يأتي حاملًا العدلَ للنّاس.

ولتعرفَ الفارق بين الإسلامِ وغيرِه، قارنْ ما فعله الإسلامُ في الأندلس مع مخالفيه، بأيِّ سماحةٍ عاملهم، ثم انظرْ إلى محاكمِ التفتيشِ والإجرامِ حين صارت الأرضُ لهم.

الإسلامُ لم يَنتشرْ بالسَّيف، بل دافَعَ بالسَّيف حينَ اضطُرَّ، وحين ذهب غازيًا كان داعيًا، ولم يُحارِبْ إلّا الذين حالوا بين الناس وبين رسالة ربهم. السيفُ في الإسلامِ حارسٌ لا واعظ، وحامٍ لا مبشر، وسلاحُ بقاءٍ لا وسيلة دعوة.

وبالعودة إلى السيرة العطرة، فإن أول معركة حقيقية سَلّ فيها الإسلامُ سيفه كانت غزوة بدر. لقد سبقت تلك الغزوة بعوثٌ وسرايا، ولكنها لم تخرج عن حدود المناوشات، والإتيان بها جميعًا يحوّل الكتاب إلى تأريخ، وما أردت هذا، فسأتجاوز مضطرًا كي لا أخرج عن مقصد الكتاب، وكي لا تكثر الصفحات فيجد القارئ نفسه أمام سفر ضخم مهيب. وكفى بالقلادة ما أحاط بالعنق، وإلى غزوة بدر نمضي!

غَزوةُ بدرٍ الكُبرى!
ومنْ لم يَذُدْ عن حوضِه بسلاحه يُهدَّم!

لا يومَ كيومِ بدرٍ، وهيهاتَ أن يأتيَ الزمانُ بمثله. في يومٍ طويلٍ نهارُه، شديدٍ حرُّه، وقف ثلاثُمئةٍ وثلاثةَ عشرَ رجلًا في قلبِ الصحراءِ القاحلة، يُقاتلون أكثرَ من ألفِ كافرٍ ومُشرِك، حتى نُولَد نحنُ مسلمين!

خرج النبيُّ ﷺ من المدينة لا يطلبُ حربًا ولا يسعى إلى دم، وإنّما لعيرٍ قُرشيّةٍ سلبَتْه وأصحابَه أمنَهم وديارَهم.

خرج وهو يقول: اللهمَّ هذه قريشٌ جاءت بخيلائِها وفخرِها، تُحادّكَ وتُكذِّبُ نبيَّكَ. خرجَ معه صَفوةُ الله من خلقه، أولئك الذين اطّلع الله عليهم فقال: اعملوا أهلَ بدرٍ ما شئتم فقد غفرتُ لكم.

وجاءت قريشٌ تستعرضُ بالجندِ والحديد، لا تعرفُ أنّ النصرَ لا تجلبُه السيوف، وإنّما تستنزله القلوب!

جاءت قريشٌ تسيرُ ببطشِها وغرورِها، تحمل أوزارَ ثلاثِ عشرةَ سنةٍ من الظلم، هي عُمرُ فجورِها على الإسلام في مكّة. لم يكفِها كلُّ الذي مضى، فجاءت تريد أن تنحَرَ الجَزُر وتشرَبَ الخمر وتَعزِفَ القِيانُ حتى تُسمِعَ بفجورِها العرب، وكأنّ أحدًا قد فاته كلُّ محاولاتها لوأدِ الرسالة!

وحين تقابل الجيشان بدت الأرضُ كأنّها حضنٌ، لا يوجد على ظهرِها أطهرُ من هؤلاء لتضمَّهم، وبدت السماءُ وِشاحًا لا يوجد تحتها أطهرُ من هؤلاء لتظلِّلَهم!

ثلاثُمئةٍ وثلاثةَ عشرَ مؤمنًا يقفون بقلوبٍ هي أكبرُ من أجسادهم، يواجهون جيشًا يُضاعِفُهُم ثلاثَ مرّات. وإنّها لم تكن يومًا بالسيفِ، وإنّما بالقلب!

رفع النبيُّ ﷺ أكفَّ الضراعة: اللهم إن تَهلِكْ هذه العصابةَ فلن تُعبَد في الأرض.

كان يعرفُ أنّ حوائجَ الأرضِ مفاتيحُها في السماء، وأنّ على العرشِ ربًّا أمرُه نافذ، وإرادتُه كلمتُه، إذا أراد شيئًا قال له: كُنْ، فكان!

أنزل النبيُّ ﷺ يديهِ، ولكنّه أبقى قلبَه معلّقًا بربّه، ثم نادى بالمسلمين: قوموا إلى جنّةٍ عرضُها السمواتُ والأرض.

فوثبوا، لا كأنّهم ماضون إلى حدِّ السيف، بل إلى إحدى الحُسنَيَيْن: النصرِ أو الشهادة.

كانت كلُّ ضربةٍ من أيديهم تأخذُ ثأرًا قديمًا طال انتظارُه، فما في تلك الجهة إلّا عدوٌّ يعرفون وجهَه أو يعرفون فعلَه، وإنّ الحرَّ لا ينامُ عن ثأره.

وفي ساعةٍ لا تُقاسُ بالدقائقِ، وإنّما بصليلِ الصوارم، انطفأ كبرياءُ قريش، وانتصب الحقُّ واقفًا يُعلِنُ للعالمِ كلّه أنّه قادم.

هذه كانت الحكايةَ بمغزلِ البلاغة، أمّا التاريخُ فيسردُ، فإليك التفصيل:

سمع النبيُّ ﷺ بخبرِ تجارةٍ لقريشٍ قادمةٍ من الشام يرأسُها أبو سفيان، فنادى في أصحابه للحاق بتلك القافلة، لعلَّ اللّه يجعلُ فيها للمسلمين عِوَضًا، وكانت قريشٌ قد سلبتِ المسلمين كرائمَ أموالهم وأراضيهم بعد هجرتهم من مكة إلى المدينة.

وظنَّ بعضُ الصحابة أنّها مجرّدُ سريّةٍ كالسرايا الاستطلاعية العديدة التي سبقت تلك الغزوة الكبرى، فبقي بعضُهم في المدينة، خاصّةً أنّهم لم يكونوا يتوقّعون حربًا مع قريش، ولم يعزمِ النبيُّ ﷺ على أحدٍ بالخروج، بل ترك ذلك للرغبة والاختيار.

استطاع أبو سفيان، حين وصله خبرُ تحرّك المسلمين، أن يُفلِت بالقافلة، وأرسل ضِمضِمَ بنَ عمرو الغفاريَّ لاستنفارِ قريشٍ لمجابهة المسلمين. فاستصرخ ضمضمُ القومَ، فخرج سادةُ قريشٍ أجمعون إلّا من أقعدته الحاجة، فكانوا بين رجلين: إمّا خارجٍ وإمّا باعثٍ مكانه رجلًا، وأوعبت قريشُ، فلم يتخلّف من أشرافها أحد، إلّا أنّ أبا لهب بن عبد المطلب بعث مكانه العاصَ بن هشام بن المغيرة، استأجره بأربعة آلاف درهم كانت له عليه قد أفلس بها.

خرج النبيُّ ﷺ في ثلاثمئةٍ وثلاثةَ عشرَ رجلًا، ولم يكن معهم من الخيل إلّا فرسان: فرسٌ للزبير بن العوام، وفرسٌ للمقداد بن الأسود، وكان معهم سبعون بعيرًا يعتقب الرجلان والثلاثةُ على البعير الواحد.

ولمّا علمت قريشٌ بنجاة القافلة بعد خروجها واجتماعها، همّوا بالرجوع، ولكنّ أبا جهلٍ أبى الرجوعَ إلّا أن يسمع بهم العربُ وبخبر هبّتهم، فقال بتكبّرٍ وترفّع: واللّه لا نرجع حتى نَرِد بدرًا، فنُقيمَ بها ثلاثًا، فننحرَ الجَزُر، ونطعمَ الطعام، ونسقيَ الخمر، وتعزفَ القِيان، وتسمعَ بنا العربُ فلا يزالون يهابوننا أبدًا.

ولم يرجع من قريشٍ سوى الأخنسِ بنِ شُرَيقٍ لمّا علم بنجاة القافلة، ولم يرغبْ في القتال، فرجع بقومه بني زهرة وكانوا ثلاثمئةَ رجل، وكان مُطاعًا، فاعتبطت بنو زهرة برأيه، فلم يزل فيهم مُهابًا مُطاعًا.

ولمّا وصل خبرُ خروج سادةِ قريشٍ وصناديدِها إلى النبيِّ ﷺ استشار أصحابَه، وأنبأهم بتغيّر الوضع، فتكلّم سادةُ المهاجرين، وسكت النبيُّ ﷺ يريد أن يسمع رأيَ الأنصار. ففهمها سعدُ بنُ معاذٍ فقال: كأنّك تريدُنا يا رسول اللّه؟

فقال النبيُّ ﷺ: نعم.

فقال: يا رسولَ اللّه، قد آمَنّا بك، وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئتَ به هو الحقّ، فامضِ لِما أردتَ، فوالذي بعثك بالحقّ لو استعرضتَ بنا هذا البحر لخُضْنَاه معك، ما تخلّفَ منّا رجلٌ واحد. فابتَهجَ النبيُّ ﷺ برأيِهم وعزيمتِهم، وقال لهم: سيروا وأبشِروا، فإنّ اللّه قد وعدني إحدى الطائفتين، واللّهِ لكأنّي الآن أنظر إلى مصارع القوم.

وأشار الحبابُ بنُ المنذر على النبيِّ ﷺ بتغييرِ موقعِ تمركزِ الجيش، فقال: يا رسول اللّه، أرأيتَ هذا المنزلَ، أَمنزلًا أنزلكه اللّه ليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخّر عنه؟ أم هو الرأيُ والحربُ والمكيدة؟

قال: بل هو الرأيُ والحربُ والمكيدة.

فقال: فإنّ هذا ليس بمنزلِ حرب، فانهضْ بالناس حتى نأتي أدنى ماءٍ من القوم، فننزله ونخرّب ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضًا فنملأه، ثم نقاتل القوم فَنشرب ولا يشربون.

فقال له النبيُّ ﷺ: لقد أشرتَ بالرأي.

وأمر الجيشَ بالتوجّه نحو ماء بدر.

وبنى المسلمون عريشًا للنبيِّ ﷺ على تَلٍّ مرتفع يشرف على المعركة، وكان مِمّا أشار به سعدُ بنُ معاذٍ خشيةَ أن يُهزم المسلمون فيتمكّنَ المشركون من رسول اللّه ﷺ. فدعا له النبيُّ ﷺ بخيرٍ وأثنى عليه.

ولمّا أصبح الصباحُ أقبلت قريشٌ بكتائبها، فلمّا تراءى الجمعان، دعا النبيُّ ﷺ وقال: اللهم هذه قريشٌ قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تُحادّك وتُكذِّب رسولك، اللهم فنصرُك الذي وعدتني.

وأمر النبيُّ ﷺ أصحابَه ألّا يبدؤوا القومَ بالقتال حتى يأمرَهم، وقال لهم: إذا أكثبوكم فارموهم بالنبل، ولا تسلّوا السيوف حتى يغشوكم.

وكان أوّلَ من قُتِل من المشركين الأسودُ بنُ عبد الأسد المخزومي، قتله حمزةُ، وكان قد عاهد نفسه أن يقاتل حتى الموت، أو يشرب من حوض المسلمين، فعاجله حمزةُ بالموت وهو على مشارف الحوض.

ثم دعت قريشٌ إلى المبارزة، فخرج من فرسانها: عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، والوليدُ بنُ عتبة. فخرج إليهم عبيدةُ بنُ الحارث، وحمزةُ بنُ عبد المطلب، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ من المهاجرين. فقتل حمزةُ شيبة، وقتل عليٌّ الوليد، وأمّا عبيدةُ فتبادر هو وعتبة ضربتين وأثخن كلّ واحدٍ منهما صاحبَه، حتى بادر حمزةُ وعليٌّ فقتلا عتبة، واحتملا صاحبَهما عبيدة وقد قُطِعت رجلُه، وما لبث أن مات من أثر الجراح بعد أربعة أيام أثناء عودتهم إلى المدينة.

وهنا كرَّت قريشٌ على المسلمين، وحمي الوطيس، وكانت المعركةُ مشهودةً من جانب الملائكة يقاتلون مع المسلمين، وما لبث أن انقشع غبارُ القتال عن هزيمة ساحقةٍ لقريش، فقد فقدت قريشٌ من خيرةِ فرسانها سبعين، وأُسِر سبعون، واستُشهِد من المسلمين أربعةَ عشرَ رجلًا، وكان نصرًا مؤزّرًا.

وقد قُتِل من المشركين في نهاية تلك المعركة ساداتُ قومهم، وطُرِحوا في قَليبِ بدرٍ بعد القتال، ثم قام النبيُّ ﷺ على شفا البئرِ يُناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلانُ بنُ فلان، ويا فلانُ بنُ فلان، أيَسُرُّكم أنّكم أطعتم الله ورسولَه؟ فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقًّا؟

فقال عمرُ: يا رسولَ الله، ما تُكلّم من أجسادٍ لا أرواحَ لها؟

فقال النبيُّ ﷺ: والذي نفسُ محمدٍ بيده، ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم، ولكنّهم لا يجيبون.

انتهت غزوةُ بدرٍ، ولكنّ دروسَها باقيةٌ أبدَ الدهر، بدرٌ لم تكن غزوةً وإنّما كانت مدرسة:

1- علمتنا غزوةُ بدرٍ أن العبدَ يريدُ، واللهُ يريدُ، ولا يكونُ إلّا ما أرادَ الله. خرج المسلمون في طلبِ قافلةِ قريشٍ، ففَرَّ بها أبو سفيان، وأفلتت القافلةُ، وضاع صيدُ المسلمين، وظنّ أطرافُ الصراع أنّ الأمر قد انتهى، وما تنتهي الأمور في الأرض قبل أن تقولَ السماءُ كلمتها. وقد قالت: فلتكن الحرب.

2- علمتنا غزوةُ بدرٍ أن الباطلَ يمشي نحو مصرعه. نجَتِ القافلةُ من طُلّابها، ولكنَّ قريشًا لم تَنجُ من غرورِ أبي جهل. رأى الأمرَ فرصةً سانحةً، وقال: لننقضِ عليهم. فقال عتبة: اعصِبُوها برأسي، وقولوا جَبُنَ عتبةُ، وارجعوا. ولكنّه غرورُ الباطل، وفرعونُ هذه الأمّة قتله غرورُه.

3- علمتنا غزوةُ بدرٍ أنّه لا أحد يعلمُ الغيبَ إلّا اللّه، حتى النبيُّ ﷺ ظنّ أن الأمر لن يكون أكبرَ من الإغارةِ على قافلة. ولو تواعدتِ الطّرفان لاختلفا في الميعاد، ولكنّه موعدٌ قضى اللّه أن يكون فكان.

4- علمتنا غزوةُ بدرٍ أن الحكيمَ لا ينامُ عن عدوّه ولو كان نملة. فحكيمُ وُلدِ آدم لم تُشغله الدعوةُ عن أمرِ عدوِّه، ولم يَصرِفه القرآنُ وقيامُ الليل عن تتبُّع أخبار قريش. كان يتحسّسُ أخبارَهم، وإلّا فكيف عَرف أساسًا بأمر القافلة؟ إنّ هذا الدينَ توازن، فما يقومُ الدينُ بهدم الدنيا، ولا تستقيم الدنيا بهدمِ الدين.

5- علمتنا غزوةُ بدرٍ أنّ الإسلام لم يَنتشر بالسيف. فالذين حملوا السيوفَ في بدرٍ مُنِعوا من القتال لسنواتٍ قبلها. إنّ الإسلام انتشر بالحقِّ الكامن فيه، وبالنورِ المنبعثِ من جنباته. ولكنّ الحقَّ الذي لا تدعمه القوةُ يستهينُ به الناس. ولم يكن السيفُ إلّا لإزالةِ العوائق أمام الدعوة، وإلّا فإنّ بلادًا كثيرةً فُتِحت بأخلاقِ التجّارِ المسلمين.

6- علمتنا غزوةُ بدرٍ أهمَّ درسٍ في القيادة: الأخذُ بالشورى، وضربُ الرأي بالرأي، لِما فيه مصلحةُ الأمة. قبل المعركةِ يقولُ

النبـيُّ ﷺ: أشـيروا علـيّ أيّهـا النـاس. ولمـا رأى فيهـم مـا يسـرُّ قلبَـه، سـار بهـم إلـى القتـال. وفـي ترتيبـاتِ الحـرب ينـزلُ ﷺ علـى رأيِ الحبـابِ بـن المنـذر: لنَجعَـلَ آبـارَ بـدرٍ خلـفَ ظهورنـا فنشـرب ولا يشـربون، مـا دام الأمـر رأيًـا وحربًـا ومكيـدة. وبعـد المعركـة يستشـيرُ ﷺ أصحابَـه فـي الأسـرى. ولـو اسـتغنى قائـدٌ عـن الشـورى لـكان رسـولُ اللّه ﷺ أغناهـم.

7- علمتنـا غـزوةُ بـدرٍ أن الدعـاءَ أخـذٌ بالأسـباب أيضًـا. ولـو اسـتغنى أحـدٌ عـن الدعـاء يومًـا لاسـتغنى عنـه رسـولُ اللّه ﷺ يـوم بـدر. إنّهـا حـربُ الإيمـان الـذي لا لَبْـس فيـه، ضـد الشـركِ الـذي لا لَبْـس فيـه. ولكنّ النبـيَّ ﷺ كان يدعـو ملءَ قلبـه: اللهـم نصـرك الـذي وعـدت، اللهـم إن تهلـكْ هـذه العصابـةَ فلـن تُعبـدَ فـي الأرض أبـدًا.

8- علمتنـا غـزوةُ بـدرٍ أنّ الجنـةَ تحـت ظـلالِ السـيوف، وأنّ الجهـادَ عبـادة، وأنّ الـربَّ الـذي قـال: كُتِـبَ عليكـمُ الصيـامُ، هـو الـذي قـال: كُتِـبَ عليكـمُ القتـال. ولهـذا لـم يقـل ﷺ لأصحابـه: قومـوا إلـى الحـرب، وإنّمـا قـال: قومـوا إلـى جنّـة عرضُهـا السـمواتُ والأرض. فطـاب هنـاك المـوتُ، وألقـى عُميـرُ بـنُ الحمـام تمـراتٍ مـن يـدِه، وقـال: إنّهـا لَحيـاةٌ طويلـةٌ إن بقيـتُ حتـى آكلَ تمراتـي هـذه.

9- علمتنـا غـزوةُ بـدرٍ أنّ النبـلاءَ لا يشـغلُهم النصـرُ عـن الوفـاء. عندمـا رُجـم النبـيُّ ﷺ فـي الطائـف، ومَنَعته قريـشٌ مـن دخـولِ مكـة، أنزلـه مطعـمُ بـن عـديٍّ فـي جـواره. فلمـا رأى ﷺ أسـرى المشـركين فـي قيودهـم قـال: لـو كان مطعـمُ بـن عـديٍّ حيًّـا وكلّمنـي فـي هـؤلاء

لأطلقتُهم له. يا للوفاءِ يا رسولَ الله، تُطلِقُ من حاربوك لأجلِ مشركٍ صنعَ معك معروفًا.

10- علمتنا غزوةُ بدرٍ أن القائدَ لا يُخبِّئُ أقاربَه ويلقي بأولادِ الناس في أتون المعارك. فعندما حانت لحظةُ البدء، واصطفَّ الجيشانِ للمبارزة، أرسل النبيُّ ﷺ أحبَّ أعمامه إليه: سيدَ الشهداء حمزة، وصهرَه وحبيبَه عليَّ بن أبي طالب، وابنَ عمّه الآخر عبيدةَ بنَ الحارث بنِ عبد المطلب.

غَزْوَةُ بني قَينُقاع!
أوَّلُ الثَّالوثِ اليهوديِّ يُكسر!

إنّهم اليهود، الغدرُ عندهم طبعٌ، والخيانةُ فيهم أصلٌ. عاهَدوا فخلَفوا العهد، وأُمِّنوا فخانوا. إنّ الغدرَ عندهم كالسمِّ في العروق، يتسلّل إلى كلِّ وعدٍ، ويفسدُ كلَّ عهدٍ؛ ومهما علا صوتُ الحقِّ، وسطع نورُ العدلِ، يبقى هذا الطبعُ فيهم كالموجِ لا يهدأ، وكالجمرِ وإن خَبَا فإنّه يتحيّن لحظةَ وقودٍ ليشتعلَ من جديد.

عندما انتصر المسلمون على قريشٍ في بدر، امتلأت قلوبُ اليهودِ في المدينة غيظًا. وكانت بنو قَينُقاع أشدّ الثالوثِ اليهوديِّ في هذا، فقد كانوا يسكنون المدينةَ لا حوافّها، وكانوا يُمسكون بصناعة الحديدِ، ويحتكرون صياغةَ الذهب، ولهذا توافَر عندهم المالُ والسلاح، وكان عندهم جيشٌ قِوامُه سبعمائةِ فارس. فغَرَّتْهُم أنفسهم، فكانوا يسخرون من المسلمين ويُؤذونهم في السوق، وزاد في غَيِّهم ما بلغ من تجريحِهم في النساء إذا غَشِينَ السوق.

فبلغ النبيَّ ﷺ ذلك، وكان كعادته لا يجعل السيفَ أوَّلَ ما يَلوح، فأراد أن ينهاهم بالحسنى، علَّه يُجنِّبهم ويُجنِّب نفسَه مواجهةً الجميعُ في غِنى عنها. فجاء إليهم في سوقهم، وجمعهم على صعيدٍ واحدٍ، وقال لهم مُهدِّدًا ومُحَذِّرًا: يا مَعشرَ يهود، أسلِموا قبل أن يُصيبَكم ما أصابَ قريشًا!

فقالوا مُتَعاظِمين متبجِّحين: يا محمد، لا يَغُرَّنَّك من نفسك أنّك قتلتَ نفرًا من قريشٍ كانوا غِمارًا لا يَعرِفون القتال، إنّك لو قاتلتَنا لَعَرَفتَ أنّا نحنُ الناسُ، وأنّك لم تَلقَ مثلَنا!

كظمَ النبيُّ ﷺ غيظَهُ وسمعها منهم ولم يردَّ عليهم، وعاد أدراجَه، ولكنَّ اللئيمَ يفهم الحِلْمَ ضعفًا، ويحسب التَّرَوِّيَ جُبناً؛ فزاد بنو قينقاع في أذاهم، إلى أن كان يومٌ جاءت فيه امرأةٌ من المسلمين إلى سوق بني قينقاع، فجلست إلى صائغٍ من اليهود، فجعلوا يريدونها أن تكشف وجهها، فأبَت. فعمِد الصائغُ إلى طرفِ ثوبها فعقده إلى ظهرها وهي غيرُ مُنتبهة، فلما قامت انكشفت عورتُها، فضحكوا بها، فصاحت بأعلى صوتها.

فوثب رجلٌ من المسلمين على الصائغ فقتله، وقام اليهود إلى الرجل فقتلوه، وانتشر الخبر في المدينة!

عندها غضبَ النبيُّ ﷺ، وقديمًا قالت العرب: احذر صَولةَ الحليم إذا غضب!

فارتفع النداءُ الخالد: يا خيلَ اللّهِ اركبي!

وأعطى النبيُّ ﷺ الرايةَ لرئيس هيئة أركانه حمزةَ بنِ عبدِ المطلب، وسار بالجيش إلى بني قينقاع.

فلما رأوه دخلوا إلى حصنهم وأغلقوا على أنفسهم الباب، فضرب النبيُّ ﷺ عليهم حصارًا خانقًا. ولما رأوا منه الجِدَّ، وأنه لا هَوادة، وأنهم إن لم يستسلموا فإنّه قاتلُهم لا محالة، نزلوا على حكمه. عندها أمرَ النبيُّ ﷺ بوِثاقهم.

فقام زعيمُ المنافقين عبدُ اللّهِ بنُ أُبيٍّ بنِ سَلولَ، وقال للنبيِّ ﷺ: يا محمد، أَحْسِنْ في مواليَّ!

وكان بنو قَينُقاع حلفاءه قبل مقدم النبيِّ ﷺ المدينة. فأعرض عنه النبيُّ ﷺ ولم يُجِبه، فكرَّر مقالته، فزادَه النبيُّ ﷺ إعراضًا، فأدخل يدَه في جيب النبيِّ ﷺ ناحية صدره، فقال له النبيُّ ﷺ غاضبًا: وَيْحَكَ! أرسِلْني!

فقال: لا واللّهِ لا أرسِلُكَ حتى تُحسِنَ في مواليَّ، أربعمئةَ حاسرٍ، وثلاثمئةَ دارعٍ، قد مَنَعوني الأبيضَ والأسودَ، وتحصُدُهم في غداةٍ واحدة؟!

ولأنَّ ابنَ سَلول كان مُطاعًا في قومه، وكفاكَ اللّهُ شرَّ الأحمقِ المُطاع، ولم يكن قد مضى على إظهاره إسلامَه غيرُ شهرين، وهبهم النبيُّ ﷺ له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يُجاوروه فيها، فخرجوا إلى الشام.

ومن هذا المشهد نتعلّم أن الوفاءَ بالعهود هو عِمادُ الأمانِ الاجتماعيِّ والسياسيِّ، وأنّ أيَّ خيانةٍ تزرعُ الشكَّ وتهدّدُ استقرارَ المجتمع، مهما بدا الطرفُ المعتدي قويًّا. فالحزمُ مع المُخطئ، والرحمةُ مع المظلوم، هو سبيلُ القيادةِ الحكيمة، كما علّمنا النبيُّ ﷺ.

إنّ غزوةَ بني قَينُقاع تذكّرنا أن التحالفاتِ والثقةَ بين الجماعات ليست مجردَ كلماتٍ على الورق، بل هي صروحٌ تُبنى بالتفاهمِ والأمانةِ، ولا تنهارُ إلّا إذا هدمتها الخيانة. وأنّ الإجراءاتِ الوقائية،

كالحصارِ والحذرِ، أحيانًا تفعلُ ما لا يفعله السيفُ؛ فهي تحفظُ الأرواح، وتحمي المجتمعَ من الانهيار.

ومن أعظمِ الدروس أنّ الخيانة لا تهدّدُ الفردَ وحده، بل تهدّدُ كلَّ جدرانِ الثقةِ التي يرتكزُ عليها المجتمع، وأنّ الحفاظَ على العهودِ والمواثيق هو ما يجعلُ السلامَ والأمنَ ثابتين كجبلٍ شامخٍ لا تهزّه الرياحُ العاتية.

هكذا، تركت لنا هذه الغزوةُ عِبرةً تتردّدُ في صفحاتِ التاريخ: الحزمُ مع المفسد، والرحمةُ مع المظلوم، والوفاءُ بالعهودِ أساسُ كلِّ مجتمعٍ صالحٍ وكلِّ قائدٍ حكيم. ففي كلِّ قرارٍ، وفي كلِّ تعاملٍ، يظلُّ درسُ بني قَيْنُقاع حيًّا، يهمس: من ينكثِ العهدَ يهدمِ السلام، ومن يحفظْه يزرعِ الأمن، ومن يجمعْ بين الحزمِ والرحمة يحفظِ الإنسانيةَ نفسها!

اِغتيال كعْبِ بن الأشرف!
عمليَّةٌ خَلْفَ خُطوطِ العَدُوِّ!

كان كعبُ بنُ الأشرف من أشدِّ اليهودِ بُغضًا للمسلمين، وإيذاءً للنبيِّ ﷺ؛ ذلك أنّه لما أشرقت دولةُ الحقِّ في المدينة، وأضاءتْ شمسُ الإسلامِ قلبَ يثرب، لم يحتمل قلبُه المظلمُ ذلك النورَ، فراح يَشحَذُ سيفَ لسانِه، ينالُ من عِرضِ النبيِّ ﷺ، ويُهَيِّجُ العداوةَ، ويَسكُبُ سُمًّا في آذانِ القبائل!

ولمّا وقعت بدرٌ، وارتجّت الجزيرةُ العربيّةُ لهيبة النصر، لم يجد كعبٌ في قلبه غير نارٍ تتأجّج؛ فراح يندبُ قتلى قريشٍ، لا رحمةً بهم، بل حقدًا على النبيِّ ﷺ وأصحابه. ثمَّ تجاوز الشتمَ إلى التحريض، والتحريضَ إلى الوعد، والوعدَ إلى القَسَم، أنّه لن يقرَّ له جفنٌ حتى يطفئَ نورَ هذا الدين.

وبلسانٍ كَذِبٍ، حين بلغه مصرعُ صناديدِ قريش، قال: هؤلاء أشرافُ العربِ وملوكُ الناس، واللهِ إن كان محمدٌ أصاب هؤلاء القومَ لَبَطنُ الأرضِ خيرٌ من ظهرها!

وحينئذٍ قال رسولُ اللهِ ﷺ: مَن لِكعبِ بنِ الأشرف؟ فإنّه آذى اللهَ ورسولَه!

فانتدب له محمدُ بنُ مَسلَمة، وعبّادُ بنُ بَشر، وأبو نائلة واسمه سَلْكانُ بنُ سَلامة، وهو أخو كعبِ بنِ الأشرفِ من الرضَاعة، والحارثُ بنُ أوس، وأبو عَبْسِ بنُ جَبْرٍ، وكان قائدُ هذه الكتيبةِ التي ستعملُ خلفَ خطوطِ العدوّ محمدَ بنَ مَسلَمة.

وقال محمدُ بنُ مَسلَمة للنبيِّ ﷺ: يا رسولَ اللّه، أتحبُّ أن أقتُلَه؟

قال: نعم.

قال: فَأْذَنْ لي أن أقولَ شيئًا!

قال: قُلْ.

فأتاه محمدُ بنُ مَسلَمة، فقال: إنّ هذا الرجلَ قد سألنا صدقةً، وإنّه قد عنانا.

قال كعب: واللّهِ لَتَمَلُّنَّه.

قال محمدُ بنُ مَسلَمة: فإنّا قد اتّبعناه، فلا نُحبُّ أن ندَعَه حتى ننظرَ إلى أيِّ شيءٍ يصيرُ شأنُه؟ وقد أردنا أن تُسْلِفَنا وِسْقًا أو وِسْقَيْن.

قال كعب: نعم، أَرْهِنوني.

قال ابنُ مَسلَمة: أيُّ شيءٍ تريد؟

قال: أَرْهِنوني نساءَكم.

قال: كيف نَرْهَنُكَ نساءَنا وأنت أجملُ العرب؟

قال: فَتَرْهَنوني أبناءَكم.

قال: كيف نَرْهَنُكَ أبناءَنا فيُسَبُّ أحدُهم، فيُقال: رُهِن بوسقٍ أو وِسْقَيْن؟ هذا عارٌ علينا، ولكنّا نَرْهَنُكَ الأمَةَ، يعني السلاح.

فواعده أن يأتيَه.

وصنع أبو نائلة مثلَ ما صنع محمدُ بنُ مَسلَمة؛ فقد جاء كعبًا فَتَناشَد معه أطرافَ الأشعارِ سُوَيْعةً، ثم قال له: ويحكَ يا ابنَ الأشرف، إنّي قد جئتُ لحاجةٍ أريد ذكرها لك، فاكتم عنّي.

قال كعب: أفعل.

قال أبو نائلة: كان قدومُ هذا الرجلِ علينا بلاءً؛ عادَتْنا العربُ، ورَمَتْنا عن قوسٍ واحدة، وقَطَعَتْ عنّا السُّبُل، حتى ضاع العيالُ، وَجهَدَتِ الأنفس، وأصبحنا قد جَهِدْنا وجهدَ عيالُنا، ودار الحوارُ على نحوِ ما دار مع ابنِ مَسلَمة، وقال أبو نائلة أثناء حديثه: إنّ معي أصحابًا لي على مثلِ رأيي، وقد أردتُ أن آتيَكَ بهم فتبيعَهم، وتُحسنَ في ذلك.

وقد نجح ابنُ مَسلَمة وأبو نائلة في هذا الحوارِ إلى ما قَصَدَا، فإنّ كعبًا لن يُنكرَ معهما السلاحَ والأصحابَ بعد هذا الحوار.

وفي ليلةٍ مُقْمِرة، اجتمعت هذه الكتيبةُ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ، فشيّعهم إلى بقيعِ الغرقد، ثمّ وجَّههم قائلًا: انطلقوا على اسمِ اللّه، اللهمّ أعِنْهم!

ثم رجع إلى بيتِه، وطَفِق يُصلّي ويُناجي ربَّه.

ووصلت الكتيبةُ إلى حِصن كعبِ بنِ الأشرف، فَهتَف به أبو نائلة، فقام لينزلَ إليهم.

فقالت له امرأتُه: أين تخرجُ هذه الساعة؟ أسمعُ صوتًا كأنّه يقطرُ منه الدم!

قال كعب: إنما هو أخي محمدُ بنُ مَسلَمة، ورَضِيعِي أبو نائلة، إنّ الكريمَ لو دُعِي إلى طَعنةٍ أجاب.

ثم خرج إليهم وهو متطيّبٌ ينفخ رأسه.

وكان أبو نائلة قال لأصحابه: إذا ما جاء فإنّي آخذُ بشعره فأَشُمُّه، فإذا رأيتموني استمكنتُ منه من رأسه فَدُونَكم فاضرِبوه.

فلمّا نزل كعبٌ إليهم تَحَدَّث معهم ساعةً، ثم قال أبو نائلة: هل لك يا ابنَ الأشرف أن نتماشى إلى شِعْبِ العجوز، فنتحدّث بقيةَ ليلتنا؟

قال: إن شئتم!

فخرجوا يَتَماشون.

فقال أبو نائلة وهو في الطريق: ما رأيتُ كالليلةِ طِيبًا أَعطَرَ قَطّ!

فَرِح كعبٌ بما سمع، فقال: عندي أعطرُ نساءِ العرب!

قال أبو نائلة: أتأذَنُ لي أن أَشُمَّ رأسَك؟

قال: نعم.

فأدخل يدَه في رأسه فَشَمَّه وأشَمَّ أصحابَه.

ثم مشى ساعةً، ثم قال: أعود؟

قال كعب: نعم.

فعاد لمثلها وشمَّه، حتى اطمأنّ.

ثم مشى ساعةً، ثم قال: أعود؟

قال: نعم.

فأدخل يدَه في رأسه، فلمّا استمكن منه قال: دونَكم عدوَّ اللّه!
فاختلَفَتْ عليه أسيافُهم، لكنّها لم تُغْنِ شيئًا، فأخذ محمدُ بنُ مَسلَمة مِعْوَلًا فوضعه في ثِنَّتِه، ثم تحامل عليه حتى بلغ عانَتَه، فوقع عدوُّ اللّهِ قتيلاً.
وكان قد صاح صيحةً شديدةً أفزعت من حوله، فلم يَبْقَ حصنٌ إلّا أوقِدَت عليه النيران.

ورجعت الكتيبةُ وقد أُصيب الحارثُ بنُ أوسٍ بذُبابِ بعضِ سيوفِ أصحابِه فَجُرِحَ ونزَفَ الدمَ. فلمّا بلغت الكتيبةُ حُرّةَ العريض، رأت أنّ الحارثَ ليس معهم، فوقفت ساعةً حتى أتاهم يتبعُ آثارهم، فاحتملوه.
حتى إذا بلغوا بقيعَ الغرقد كبَّروا، وسمع رسولُ اللّهِ ﷺ تكبيرَهم، فعرَف أنّهم قد قتلوه، فكبَّر.
فلما انتهَوا إليه قال: أَفْلَحَتِ الوجوه!
قالوا: ووجهُكَ يا رسولَ اللّه.
ورَمَوا برأسِ الطاغيةِ بين يديه، فحمد اللّهَ على قتله، وتَفَلَ على جُرحِ الحارثِ فبرِئَ، ولم يُؤذَ بعده!

ولمّا علمت اليهودُ بمصرعِ طاغيتِها كعبِ بنِ الأشرف، دَبَّ الرعبُ في قلوبِهم العنيدة، وعلموا أنّ الرسولَ ﷺ لن يتوانى في استخدامِ القوةِ حين يرى أنّ النصحَ لا يُجدي نفعًا لِمَن يريد العبثَ بالأمنِ وإثارةَ الاضطراباتِ وعدمَ احترامِ المواثيق؛ فلم

يُحرِّكوا ساكنًا لقتلِ طاغيتِهم، بل لَزموا الهدوءَ، وتظاهروا بإيفاءِ العهود، واستكانوا، وأسرعتِ الأفاعي إلى جُحورها تختبئ فيها.

وهكذا تفرّغ الرسولُ ﷺ لمواجهةِ الأخطارِ التي كان يتوقّع حدوثَها خارجَ المدينة، وأصبح المسلمون وقد تَخَفَّف عنهم كثيرٌ من المتاعبِ الداخليةِ التي كانوا يَتَوَجَّسُونها، ويَشُمّون رائحتها بين آونةٍ وأخرى.

ولأنّ السيرةَ واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ؛ هذه أهمُّ الدروسِ المستفادةِ من حادثةِ اغتيال كعبِ بنِ الأشرف:

1- أنَّ حرمةَ المجتمعِ فوق حرمةِ الأفراد، كان كعبٌ يُشعل نارَ الفتنةِ في المدينة، يُحَرِّضُ قريشًا، يَهجو النبيَّ ﷺ، ويُثيرُ الأذى ضدَّ المؤمنين؛ فجاءت الحادثةُ لتؤكّد أنّ المجتمعَ حين يُهدَّد في أمنه واستقراره، فإنّ الدولةَ تمتلك حقَّ الدفاعِ عنه وإزالة مصدرِ الخطر.

2- أنَّ حريةَ الكلمةِ لا تعني حريةَ التحريضِ والخيانة، لم يُقتل كعبٌ لأنّه شاعر، بل لأنّه تجاوز حدودَ الكلمةِ إلى التحريضِ المباشر على الحربِ وتأليبِ الأعداءِ وإثارةِ الفوضى.

3- أنَّ العهودَ تُحترم، ومَن ينقضها يتحمّلُ نتائجَه، كعبٌ كان في حِلفِ المدينة، ومع ذلك خانَ العهد؛ وخيانةُ العهودِ لم تكن تمرُّ دون حساب.

4- الحكمـةُ فـي تنفيـذِ القـراراتِ الحسّاسـة، اختـار النبـيُّ ﷺ رجـالًا يتحلَّـون بالكتمـانِ والشـجاعةِ والدقّـة، وأنجـزوا العمليـةَ دون اضطـرابٍ داخـلَ المدينـة.

5- أنَّ القيـادةَ لا تتهـاوَن مـع الفتـن، لـو تُـرِكَ كعـبٌ لوسّـع دائـرةَ التحريـضِ ضـدّ المسـلمين؛ فـكان مـن الحكمـةِ قطـعُ الشـرِّ مـن جـذوره.

6- أنَّ الأمَـن نعمـةٌ لا تُتـرَك للمصادفـات، الخطـرُ الداخلـيُّ أخطـرُ مـن الخارجـيّ؛ فكان الحـزمُ ضـرورةً لصـون المدينـة.

7- أنَّ الأخـلاقَ لا تتعـارضُ مـع الحـزم، النبـيُّ ﷺ أرحـمُ النـاس، ولكـن رحمتَـهُ لا تعنـي تـركَ المفسـدين يعبثـون بأمـن المجتمـع.

غزوةُ أُحُد!
هزيمةٌ تُربِّيك خيرٌ مِن نصرٍ يُطغيكَ!

خرجتْ قُريشٌ مِن غزوةِ بدرٍ مُثخَنَةً، ومرَّغَ الإسلامُ كبرياءَها في التُّرابِ، وقتلَ أبرزَ رُؤوسِ الكفرِ فيها، لهذا لم تَكُن غزوةُ أُحُدٍ مجرَّدَ جولةٍ ثانيةٍ من صراعِ الحقِّ والباطلِ، كانتْ بالنسبةِ إلى قُريشٍ تعني الثَّأرَ، أمَّا المُسلمونَ فقد كانوا على موعدٍ مع واحدٍ مِن أبلغِ الدُّروسِ في تاريخِ الإسلامِ!

خرج مشركو قريشٍ مِن غزوةِ بدرٍ وقد وَهَنَتْ قواهم، حيث فرَّقَ المُسلمونَ شملَهم، وقتلوا أشرافَهم، وأضعفوا شوكتَهم بين قبائلِ الجزيرةِ العربيَّةِ، وقطعوا طريقَ قوافلِهم إلى الشَّامِ!

فكان لا بُدَّ لهم مِن الثَّأرِ، ورَدِّ الهزيمةِ على المُسلمينَ، وكسرِ شوكتِهم، فجمع أبو سفيان ثلاثةَ آلافِ مقاتلٍ مِن قُريشٍ وكِنانةَ والأحابيشِ، وخرجتْ معهمُ النِّساءُ ليُشجِّعنَ الرِّجالَ على القتالِ، ومن بينِهنَّ هِندُ بنتُ عُتبةَ زوجةُ أبي سفيان، وكان قلبُها يشتعلُ بنارِ الألمِ لمقتلِ أبيها وأخيها في غزوةِ بدرٍ، ونظَّمَ الكفَّارُ جيشَهم فجعلوا قيادةَ الجيشِ لأبي سفيان، وقيادةَ الفُرسانِ لخالدِ بنِ الوليدِ، ومعه عِكرمةُ بنُ أبي جهلٍ.

وتوجَّه الجيشُ إلى المدينةِ، وعلم المُسلمونَ بتحرُّك المشركينَ وقدومِهم إليهم فحملوا أسلحتَهم، والتفُّوا حول نبيِّهم ﷺ، وظلُّوا

حارسـينَ لمدينتِهـم ليـلَ نهـارَ، وإذا بالرَّسـولِ ﷺ يجمـعُ أصحابَـه، ويستشـيرُهم فـي الأمـرِ، فـرأى بعضُهـم ألَّا يخـرجَ المُسـلمونَ مـن المدينـةِ، وأن يتحصَّنـوا فيهـا، فـإذا دخلهـا المشـركونَ قاتلَهـم المُسـلمونَ فـي الطُّرقـاتِ وحصدوهـم حصـدًا، فهـم أعلـمُ بمسـالكِ مدينتِهـم، ورأى البعـضُ الآخـرُ، وخاصَّـةً الَّذيـن لـم يشـهدوا القتـالَ يـومَ بـدرٍ، أن يخرجـوا لِمُلاقـاةِ المشـركينَ خـارجَ المدينـةِ.

وكان الرَّسـولُ ﷺ مِـن أصحـابِ الـرَّأيِ الأوَّلِ، ومـع ذلـك وافـقَ علـى الـرَّأيِ الثانـي، لأنَّ أصحـابَ هـذا الـرَّأيِ ألحُّـوا عليـه، ولـم يكـنِ الوحـيُ قـد نـزل بأمـرٍ محـدَّدٍ فـي هـذا الشَّـأنِ، ودخـل الرَّسـولُ ﷺ بيتَـه ولَبِـسَ ملابـسَ الحـربِ، وخـرج إلـى النَّـاس، وشـعر الصَّحابـةُ الذيـن أشـاروا عليـه بالخـروجِ بأنَّهـم أكرهـوه علـى ذلـك، فقالـوا لـه: اسـتكرَهْناكَ يـا رسـولَ اللّهِ، ولـم يكـن لنـا ذلـك، فـإن شـئتَ فاقعـدْ!

فقـال رسـولُ اللّه ﷺ: مـا ينبغـي لنبـيٍّ إذا لَبِـسَ لأْمَتَـه، أي دِرعَـه، أن يضعَهـا حتَّـى يحكُـمَ اللّهُ بينـه وبيـن عـدوِّه!

وخـرج النَّبـيُّ ﷺ مِـن المدينـةِ فـي ألـفٍ مِـن أصحابِـه، فـي شـوَّالَ سـنةِ ثـلاثٍ مـن الهجـرةِ، حتَّـى إذا كانـوا بيـن المدينـةِ وأُحُـدٍ، رجـع عبدُ اللّهِ بنُ أُبَـيٍّ بنِ سَـلولٍ بثُلثِ الجيشِ، وتبعهـم عبدُ اللّهِ بنُ حـرامٍ يُناشـدُهمُ اللّه أن يرجعـوا، ولا يخذلـوا نبيَّهـم، وينصحَهـم بالثَّبـاتِ، ويُذكِّرَهـم بواجـبِ الدِّفـاعِ عـن المدينـةِ ضـدَّ المُغيريـنَ، ولكـنَّ الإيمـانَ بـاللّهِ ورسـولِه واليـومِ الآخـرِ لـم يكـن ثابتًـا فـي قلوبِهـم، ولذلـك لـم يسـتجيبوا لـه، وقـال ابـنُ سَـلولٍ: لـو نعلـمُ قتـالًا لاتَّبعناكـم!

وأعطى النَّبيُّ ﷺ لواءَ المُسلمينَ إلى مُصعبِ بنِ عُميرٍ.

وجعل النَّبيُّ ﷺ يستعرضُ الجيشَ يومئذٍ، فردَّ الصِّغارَ الذين لا يقدِرونَ على القتالِ، وكان منهم يومئذٍ: عبدُ اللّهِ بنُ عُمرَ، وأُسامةُ بنُ زيدٍ، والبراءُ بنُ عازبٍ، وزيدُ بنُ أرقمَ وعمرو بنُ حزم.

وهذا رافعُ بنُ خديجٍ عمرُه خمسَ عشرةَ سنةً يريدُ أن يُشاركَ في المعركةِ، فيلبسُ خُفَّينِ في قدمَيْه ليبدو طويلًا، فلا يردُّه رسولُ اللّهِ ﷺ، وتوسَّطَ له عمُّه ظهيرٌ، فذكر لرسولِ اللّهِ ﷺ أنَّه يُجيدُ الرِّمايةَ، فقبِلَه!

وعندئذٍ قال سَمُرةُ بنُ جُندُبٍ: أجازَ الرَّسولُ ﷺ رافعًا وردَّني وأنا أقوى، وأصرعُ رافعًا وأغلبُه، فأمره النَّبيُّ ﷺ أن يُصارِعَه، فغلب سَمُرةُ رافعًا، فقبِلَه رسولُ اللّهِ ﷺ، وهكذا كان الفتى المُسلمُ الصَّغيرُ يحرصُ على التَّضحيةِ بروحِه مِن أجلِ دينِه والدِّفاعِ عنه.

واقترح بعضُ الصَّحابةِ الاستعانةَ باليهودِ، فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: لا نستنصِرُ بأهلِ الشِّركِ على أهلِ الشِّركِ!

وعسكر المُسلمونَ في شِعْبٍ في جبلِ أُحُدٍ، وجعلوا الجبلَ خلفَ ظهورِهم، واختار النَّبيُّ ﷺ خمسينَ رجلًا يُحسنونَ الرَّمايةَ، وجعل عبدَ اللّهِ بنَ جُبَيْرٍ قائدًا عليهم وقال لهم: لا تبرحوا أماكنَكم، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تُشاركونا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينونا!

وهكذا أغلق البابَ أمام التفافِ الأعداءِ حولَ جيشِه، وحمى يمينَه بالجبالِ!

وفـي صبـاحِ يـومِ السَّـبتِ، السَّـابعِ مِـن شـهرِ شـوَّالَ مِـن السَّـنةِ الثَّالثـةِ للهجـرةِ الشَّـريفةِ، بـدأتِ المعركـةُ، وانقـضَّ المُسـلمونَ علـى المشـركينَ، فقتلـوا حملـةَ لـواءِ المشـركينَ، فكانـوا يسـقطونَ واحـدًا بعـد آخَـرَ، حتَّـى سـقط اللـواءُ ولـم يجـدْ مَـن يحملُـه!

وكان الفـارسُ الشُّـجاعُ حمـزةُ بـنُ عبـدِ المطَّلـبِ ينقـضُّ بسـيفِه علـى المشـركينَ، فيُطيـحُ بهـم، وكان وَحشـيٌّ بـنُ حَـربٍ ينظـرُ إلـى حمـزةَ مِـن بعيـدٍ ويتبعُـه حيـثُ كان، ذلـك لأنَّ سـيِّدَه جُبيـرَ بـنَ مُطعـمِ بـنِ عـديٍّ الَّـذي قُتِـل عمُّـه طُعَيمـةُ بـنُ عَـديٍّ يـومَ بـدرٍ، قـال لوَحشـيٍّ: اخـرجْ مـع النَّـاس، فـإنْ أنـتَ قتلـتَ حمـزةَ عـمَّ محمَّـد بعمِّـي، فأنـت عَتيـقٌ!

وكان وَحشـيٌّ عبـدًا حَبشـيًّا يَقـذفُ بالحربـةِ بمهـارةٍ شـديدةٍ، فقلَّمـا يُخطـئُ بهـا شـيئًا، فاقتـربَ وَحشـيٌّ مِـن حمـزةَ، ورمـاه بالحربـةِ فأصابَتْـه، لكـن حمـزةَ لـم يستسـلِمْ، بـل توجَّـه إلـى وحشـيٍّ ودمُـه ينـزفُ بغـزارةٍ، فلـم يسـتطعِ الوقـوفَ علـى قدمَيْـه، فوقَـعَ شـهيدًا فـي سـبيلِ اللّهِ، وسـيطَر المُسـلمونَ علـى المعركـةِ، وأكثـروا القتـلَ والأسـرَ فـي جُنـودِ المشـركينَ، وحـاول المشـركونَ الفـرارَ، فذهـب المُسـلمونَ وراءَهـم، فـكان المشـركونَ يتركـونَ متاعَهـم وسـلاحَهم لينجُـوا مِـن القتـلِ.

وكان الرُّمـاةُ علـى الجبـلِ يُشـاهِدونَ المعركـةَ، فظنُّـوا أنَّهـا قـد انتهـتْ بانتصـارِ المُسـلمينَ، فتركـوا أماكنَهـم، ونزلـوا مِـن فـوقِ الجبـلِ ليُشـارِكوا فـي جمـعِ الغنائـمِ، فتركـوا ظهـرَ المُسـلمينَ مكشـوفًا

لعدوِّهـم، وقائدُهـم عبدُ اللّهِ بنُ جُبيرٍ يصـرخُ فيهـم، وينهاهـم، ويقـول لهـم: كيـف تفعلـونَ بقـولِ رسـولِ اللّهِ ﷺ: لا تبرحـوا أماكنَكـم!

فلـم يسـتمعوا إليـه ونزلـوا، ولـم يبـقَ مـع ابـنِ جُبيـرٍ غيـرُ سـبعةٍ مِـن الرُّمـاةِ!

فانتهـز خالـدُ بـنُ الوليـدِ قائـدُ فُرسـانِ المشـركينَ فرصـةَ الخطـأِ الَّـذي وقـع فيـه رُمـاةُ المُسـلمينَ، فاسـتدار وجـاء مِـن خلـفِ الجيـشِ، وقتـل مَـن بَقِـيَ مِـن الرُّمـاةِ، فاختـلَّ نظـامُ المُسـلمينَ وارتبكـوا، ونجـح المشـركونَ فـي قتـلِ كثيريـنَ منهـم.

كلُّ هـذا البـلاء لأنَّ بعـضَ الرُّمـاةِ خالفـوا أمـرَ رسـولِ اللّهِ ﷺ، وتبـدَّل الحـالُ، ورَكَّـز المشـركونَ علـى رسـولِ اللّهِ ﷺ ليقتلـوه، ولكنَّـه ثبَـتَ لهـم، وأخـذ يُدافـعُ عـن نفسِـه، وحولَـه بعـضُ أصحابِـه يـذودونَ عنـه، كان أكثرَهـم استماتةً يومَهـا طلحـةُ بـنُ عُبيـدِ اللّهِ!

وكانـت المـرأةُ الأنصاريَّـةُ الشُّـجاعةُ نُسـيبةُ بنـتُ كعـبٍ تُدافـعُ عـن النَّبـيِّ ﷺ كاللَّبُـؤَةِ، حتَّـى نجَّـى اللّهُ رسـولَه مِـن المـوتِ، ولكنَّـه تعـرَّضَ لإصابـاتٍ كثيـرةٍ فـي ركبتِـه ووجهِـه وأسـنانه، وسـال الـدمُ علـى وجهِـه الشَّـريفِ، فأخـذ يمسـحُ الـدمَ وهـو يقـولُ: كيـف يفلـحُ قـومٌ شـجُّوا رأسَ نبيِّهـم وهـو يدعوهـم إلـى ربِّهـم!

وأشـاع المشـركونَ أنَّ النَّبـيَّ ﷺ قـد قُتِـل، لكـي يُؤثِّـروا فـي عزيمـةِ المُسلمينَ، ويُثيـروا الذُّعـرَ بينهـم، ولكـن رسـولَ اللّهِ ﷺ نـادى أصحابَـه: هَلُـمَّ إلـيَّ عبـادَ اللّهِ!

فاجتمع حولَه عددٌ مِن أصحابِه، وارتفعت روحُهم المعنويَّةُ، وظلَّ النَّبيُّ ﷺ ومَن ثبَتَ معه في أرضِ المعركةِ، بل قاتلوا حتَّى اللَّحظةِ الأخيرةِ، إلى أنِ اكتفتْ قُريشٌ بما حقَّقتْ وانصرفوا بعد انتهاء المعركةِ.

ولمَّا انقضتِ الحربُ، صعد أبو سفيان على مكانٍ مرتفعٍ، ونادى في المُسلمينَ: أفيكم محمَّد؟ فلم يردَّ عليه أحدٌ!

فقال: أفيكم أبو بكرٍ؟ فلم يردَّ عليه أحدٌ!

فقال: أفيكم عُمرُ بنُ الخطَّابِ؟ فلم يردَّ عليه أحدٌ!

فقال: أمَّا هؤلاء فقد قُتِلوا، فلم يتمالكْ عُمرُ نفسَه، فردَّ عليه قائلًا: يا عدوَّ اللّهِ، إنَّ الَّذين ذكرتَهم أحياءٌ، وقد أبقى اللّهُ لك ما يسوؤُكَ!

ثمَّ قال أبو سفيان: أُعْلُ هُبَلْ!

فقال النَّبيُّ ﷺ: ألا تُجيبونَه؟

قالوا: ما نقولُ؟

قال: قولوا: اللّهُ أعلى وأجلُّ!

ثمَّ قال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم!

فقال النَّبيُّ ﷺ: ألا تُجيبونَه؟

فقالوا: ما نقولُ؟

قال: قولوا: اللّهُ مولانا ولا مولى لكم!

فقال أبو سفيان: يا محمَّد، يومٌ بيومٍ، يومٌ نُساءُ ويومٌ نُسَرُّ!

فقال النَّبيُّ ﷺ: ألا تُجيبونَه؟

فقالوا: ما نقولُ؟

قال: ليسوا سواءً، قَتلانا في الجنَّة وقتلاكم في النَّار!

وعاد المشركونَ إلى مكَّة، وقد انتشرتْ في ساحةِ القتالِ جُثثُ شهداءِ المُسلمينَ وقتلى الكفَّارِ، وقد ارتوَتِ الرِّمالُ بدماءِ الشُّهداءِ الطَّاهرةِ الَّتي أُريقَت مِن أجلِ الإسلامِ، فيا له مِن مشهدٍ حزينٍ!

سبعونَ شهيدًا مِن المُسلمينَ، واثنانِ وعشرونَ قتيلًا مِن المشركينَ، وحزن المُسلمونَ حُزنًا شديدًا على شهدائِهم، ووقف رسولُ اللّهِ ﷺ حزينًا ينظرُ إلى جثَّةِ عمِّه حمزةَ وقد مَثَّلَ به الأعداءُ، فأقسم لَيُمَثِّلَنَّ بسبعينَ مِن الكفَّارِ إن نصره اللّهُ عليهم بعد ذلك، فنزل قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾

تجلَّت صُوَرٌ رائعةٌ مِن البطولةِ والشَّجاعةِ والإيمانِ لرجالِ ونساءِ المُسلمينَ في غزوةِ أُحُدٍ، وكذلك حدثت بعضُ المُعجزاتِ، لتكونَ عِظةً وذِكرى وتبصِرةً للمؤمنينَ، فهذا أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ يُقبِلُ على النَّبيِّ ﷺ، وكان قد حلف أن يقتلَه، وأيقن أنَّ الفرصةَ قد حانَتْ، فجاء يقولُ: يا كذَّابُ، أين تفرُّ؟

وحمل على رسولِ اللّهِ ﷺ بسيفِه!

فقال النَّبيُّ ﷺ: بل أنا قاتلُه إن شاءَ اللّهُ!

وطعنَه رسولُ اللّهِ ﷺ طعنةً وقع منها، فما لَبِث أن مات.

ويمسك رسولُ اللّهِ ﷺ بسيفِه قبلَ بدءِ المعركةِ ويقولُ: مَن يأخذُ هذا السَّيفَ بحقِّه؟

فتأخَّر القومُ، فقال أبو دُجانةَ: وما حقُّه يا رسولَ اللّهِ؟

فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: أن تضربَ به في العدوِّ حتَّى يَنحنيَ!

فقال أبو دجانةَ: أنا آخُذُه بحقِّه!

فأعطاه إيَّاه. وكان أبو دجانةَ رجلًا شجاعًا يختالُ عند الحربِ، وكانت له عصابةٌ حمراءُ إذا اعتَصَبَ بها فإنَّه يُقاتلُ حتَّى الموتِ، فأخذ أبو دجانةَ السَّيفَ يضربُ به المشركينَ.

وأثناءَ المعركةِ رأى أبو دجانةَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ قد أصبح هدفًا لِنبالِ المشركينَ بعد أن فرَّ المُسلمونَ، فأسرع أبو دجانةَ واحتَضَن الرَّسولَ ﷺ، فصار النَّبلُ يقعُ على ظهرِ أبي دجانةَ وهو منحنٍ على جسدِ النَّبيِّ ﷺ حتَّى انتهتِ المعركةُ.

ومرَّ أنسُ بنُ النَّضرِ على بعضِ الصَّحابةِ فوجدهم لا يُقاتلونَ، وعندما سألهم عن سببِ امتناعِهم عن القتالِ، قالوا: قُتِل رسولُ اللّهِ ﷺ!

فقال أنسٌ: وما تصنعونَ بالحياةِ بعدَه؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه رسولُ اللّهِ ﷺ!

ثمَّ توجَّه إلى اللّهِ تعالى وقال: اللهمَّ إنِّي أعتذرُ إليكَ ممَّا صنع هؤلاءِ، يعني المُسلمينَ الَّذين قعدوا، وأبرأُ إليكَ ممَّا صنع هؤلاءِ، يعني المشركينَ!

وظلَّ أنسٌ يُقاتلُ حتَّى قُتِل، فوجدوا في جسدِه بضعًا وثمَّانينَ جُرحًا ما بين طعنةٍ برُمحٍ أو ضربةٍ بسيفٍ أو رَميةٍ بسهمٍ، فما عرفه أحدٌ إلَّا أختُه بعلامةٍ كانت تعرفُها في إصبعِه.

وهذا غسيلُ الملائكةِ حَنظلةُ بنُ أبي عامرٍ، الَّذي تزوَّج جميلةَ بنتَ عبدِ اللّٰهِ بنِ أُبيٍّ بنِ سَلولٍ، وفي اليومِ التَّالي لزواجِه يسمعُ نداءَ القتالِ، فيخرجُ وهو جُنُبٌ مُلبِّيًا النِّداءَ، ويُقاتلُ في سبيلِ اللّٰهِ حتَّى يُقتَل، فقال رسولُ اللّٰهِ ﷺ: إنَّ صاحبَكم تغسلُه الملائكةُ!

وهذا قَتادةُ بنُ النُّعمانِ أُصيبَت عينُه، ووقعت على خدِّه، فأتى رسولَ اللّٰهِ ﷺ، فأخذ رسولُ اللّٰهِ ﷺ عينَه بيدِه، ورَدَّها إلى موضعِها، وقال: اللهمَّ أكسِبْه جمالًا!

فكانت أحسنَ عينَيْه، وأحدَّهما نظرًا، وكانت لا تَرمَدُ إذا رَمِدَتِ الأُخرى.

ولم تكنِ النِّساءُ أقلَّ بطولةً مِن الرِّجالِ، فهذه صفيَّةُ بنتُ عبدِ المطَّلبِ، لمَّا رأت المُسلمينَ قد انهزموا، وفرَّ بعضُهم مِن ميدانِ المعركةِ، أمسكت رُمحًا تضربُ به مَن فرَّ مِن المُسلمينَ، وتحثُّه على العودةِ إلى القتالِ، ولمَّا علمت بمقتلِ أخيها حمزةَ ذهبت لتنظرَ إليه، فلقيَها الزُّبيرُ، فقال: يا أُمَّاه، إنَّ رسولَ اللّٰهِ ﷺ يأمرُك أن ترجعي!

قالـت: ولِـمَ؟ وقـد بلغنـي أنَّـه قـد مُثِّـل بأخـي، وذلـك فـي اللّٰهِ، لأصبـرنَّ، وأحتسـبنَّ إن شـاءَ اللّٰه.

فلمَّا جاء الزُّبيرُ إلى رسولِ اللّٰهِ ﷺ أخبره بذلك.

قال: خَلُّوا سبيلَها!

فَنظرت إليه، فصلَّتْ عليه، واسترجعتْ واستغفرتْ له.

ومـرَّ رسـولُ اللّٰهِ ﷺ بامـرأةٍ مِـن بنـي دِينَـارٍ، وقـد أُصيـب زوجُهـا وأخوهـا وأبوهـا مـع رسـولِ اللّٰهِ ﷺ، فلمَّـا ذكـروا لهـا مـا حـدث لأخيها ولأبيهـا ولزوجِهـا قالـت: فمـا فعل رسـولُ اللّٰهِ ﷺ؟

قالوا: خيرًا، هو بحمدِ اللّٰهِ كما تُحبِّينَ!

قالت: أَرُونِي حتَّى أنظرَ إليه!

فأشـاروا إليـه، حتَّـى إذا رأتـه قالـت لـه: كلُّ مصيبـةٍ بعـدَكَ جَلَلٌ، أي صغيـرةٌ!

فـإن كانـتْ غـزوةُ أُحُـدٍ قـد انتهـتْ، فـإنَّ مهمَّـةَ الرُّمـاةِ الَّذيـن يحفظـونَ ظهـورَ المُسـلمينَ لـم تنتـهِ بعـدُ، فطوبَـى للمُدافعيـنَ عـن هـذا الدِّيـنِ كلٍّ فـي مجالِـه، طوبَـى للقابضيـنَ علـى الجمـرِ رافضـي الانحنـاءِ والتَّلـوُّنِ، كلَّمـا وهنـوا قليـلًا تعـزَّوا بصـوتِ النَّبـيِّ ﷺ يُنـادِي فيهـم: لا تبرحـوا أماكنَكـم!

فلا تبرحوا أماكنَكم!

الأُمَّهـاتُ اللَّواتـي يُربِّيـنَ أولادَهُـنَّ علـى الصَّلاة والصِّيـامِ والأخلاقِ، أنتُـنَّ تحميـنَ ظهورَنـا، فلا تبرحـنَ أماكنَكُنَّ!

الآباءُ الذين يسألونَ أولادَهم عن جزءِ ﴿عَمَّ﴾ كما يسألونَهم عن علاماتِهم المدرسيَّةِ، أنتم تحمونَ ظهورَنا، فلا تبرحوا أماكنَكم!

المُدرِّسونَ الذين يُؤمنونَ أنَّ هذا الجيلَ إذا تربَّى جيِّدًا يُمكن أن يخرجَ منه أبو بكرٍ وعُمرُ وعثمَّانُ وعليٌّ مرَّةً أخرى، أنتم تحمونَ ظهورَنا، فلا تبرحوا أماكنَكم!

المُوظَّفونَ الذين يُؤدُّونَ أعمالَهم بمِهنيَّةٍ وضميرٍ، ويُراقبونَ اللّٰه قبلَ مُدرائِهم، أنتم تحمونَ ظهورَنا، فلا تبرحوا أماكنَكم!

المُهندسونَ الذين يُشيِّدونَ الجسورَ، ويشقُّون الطُّرُقَ دون غشٍّ واحتيالٍ وصفقاتٍ مشبوهةٍ، أنتم تحمونَ ظهورَنا، فلا تبرحوا أماكنَكم!

فتياتُ الحجابِ والعِفَّةِ اللَّواتي يُربِّينَ أنفسَهنَّ استعدادًا لتربيةِ أولادِهنَّ، أنتُنَّ تحمينَ ظهورَنا، فلا تبرحنَ أماكنَكُنَّ!

شبابُ صلاةِ الفجرِ، ومجالسُ الحديثِ، ودورُ القرآنِ، أنتم تُرسانةُ الإسلامِ الأفتكَ والأقوى، فلا تبرحوا أماكنَكم!

كلُّ واحدٍ فينا لو تأمَّل موضعَ قدمَيْهِ لاكتشف أنَّه جنديٌّ لأجلِ هذا الدِّينِ، وأنَّه لو حارب بشراسةٍ وأمانةٍ فإنَّه سيسدُّ ثَغرًا هامًّا، ويدفعُ خطرًا عظيمًا، كلُّ واحدٍ منَّا في مكانٍ وضعه اللّٰه فيه، وألقى على كتفِه مسؤوليَّةً وأمانةً، فلا تبرحوا أماكنَكم!

ولأنَّ السِّيرةَ واقعٌ يُعاشُ، لا تاريخٌ يُقرأُ، انقضتْ غزوةُ أُحُد، أمَّا دروسُها فما زالت صالحةً لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وهذه هي أهمُّ الدُّروسِ المُستفادةِ منها:

1 - قد يخسرُ الحقُّ معركةً، ولكنَّه في نهايةِ المطافِ يكسبُ الحربَ، علينا ألَّا ننشغلَ بالنَّصرِ والهزيمةِ بقدْرِ انشغالِنا في أن نكونَ في صفِّ الحقِّ فعلًا، وبعيدًا عن صفِّ الباطلِ فعلًا! نحن في نهايةِ المطافِ لن نُسألَ عن النَّتائجِ وإنَّما عن السَّعيِ، ولن نُسألَ عن الوصولِ وإنَّما عن المسيرِ، قَتلى المُسلمينَ في غزوةِ أُحُدٍ شُهداءُ في الجنَّةِ رغمَ هزيمتِهم، وقتلى المشركينَ جِيَفٌ في النَّارِ رغمَ انتصارِهم، فالعِبرةُ ليست في البقاءِ على قيدِ الحياةِ، وإنَّما بالبقاءِ على المنهجِ أو الموتِ عليه، وإنَّ أصحابَ الأُخدودِ أُبيدوا عن بكرةِ أبيهم، ولكنَّهم قد حطُّوا رحالَهم في الجنَّةِ بعد أنِ امتطَوا صهوةَ اللَّهبِ، والمَاشِطةُ وأولادُها كان الزَّيتُ المغليُّ مَركبَهم نحو الخلودِ!

2 - معصيةُ أمرٍ واحدٍ مِن أوامرِ النَّبيِّ ﷺ أدَّتْ إلى الهزيمةِ يومَ أُحُدٍ، فلا تُمنِّي الأُمَّةُ نفسَها بالنَّصرِ بغيرِ طاعةِ أوامرِ نبيِّها، لا نصرَ إلَّا بالطَّاعةِ. فإن لاذتِ الأُمَّةُ باللّٰهِ نصرَها، ولو قلَّتْ أسبابُها المادِّيَّةُ، وإنِ ابتعدتْ عنه تركَها لما بين يديها مِن أسبابٍ!

3 - النَّصرُ والهزيمةُ مجرَّدُ طقسٍ، أمَّا الإيمانُ فمناخٌ، فلا يجعلنَّكم تقلُّبُ الطَّقسِ تشكُّونَ في صحَّةِ المناخ! نعم، هُزِمَ المُسلمونَ، ولكنَّهم كانوا على حقٍّ، وانتصرَ المشركونَ، ولكنَّهم كانوا على باطلٍ!

4 - هزيمةٌ تجعلك تلجأُ إلى اللّٰهِ، خيرٌ مِن نصرٍ يجعلك تَطغى، وسُبحانَ مَن يُؤدِّبُ عبادَه بما يكرهونَ ليجعلَهم له كما يُحبُّ! ولو انتصر المُسلمونَ يومَ أُحُدٍ رغم مخالفتِهم أمرَ النَّبيِّ ﷺ لَهُدِمَ في

نفوسِهم، ونفوسِ كلِّ المُسلمينَ مِن بعدِهم، أهمُّ درسٍ في الإسلامِ: طاعةُ اللهِ ورسولِه!

5 - القتلُ واحدٌ، ولكنَّ العاقبةَ ليست سواءً: قَتلانا في الجنَّة وقتلاهم في النَّار! سُنَّةٌ للهِ ماضيةٌ، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، في نِزالٍ وقتالٍ، اُنظروا للأمرِ مِن هذه الزَّاويةِ يَهنُ المصابُ!

6 - في الأزماتِ تظهرُ معادنُ النَّاس، هناكَ انكشفَ ابنُ سَلولٍ، وهناكَ أيضًا صدقَ أنسُ بنُ النَّضرِ ربَّه، فأنزل فيه: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...﴾

الأزماتُ كاشفاتٌ، تُميطُ الأقنعةَ، وتُظهِرُ الوجوهَ الحقيقيَّةَ للنَّاسِ!

فالحمدُ للهِ الَّذي يُرسِلُ علينا الأزماتِ كي لا يُبقينا مخدوعينَ!

7 - النَّصرُ والهزيمةُ ساعةٌ وساعةٌ؛ يُهزَمُ الحقُّ في جولةٍ، كي لا تَمتلئَ صفوفُه بالمنافقينَ وعبَّادِ النَّتائجِ! ويكسبُ في جولةٍ، كي لا يشكَّ أصحابُه في سلامةِ المنهجِ وصِحَّةِ الطَّريقِ!

8 - وَضْعُ الرُّماةِ على الجبلِ يُخبِرُك إلى أيِّ حدٍّ كان النَّبيُّ ﷺ يأخذُ بالأسبابِ، لم يقلْ: أنا نبيٌّ وسأنتصرُ على أيِّ حالٍ، بل كان يأخذُ بالأسبابِ ما استطاعَ، ولكنَّه يَعقِدُ ثقتَه بربِّ الأسبابِ لا بالأسبابِ!

9 - القائدُ لا يَحتمي بجُندِه، بل يتقدَّمُهم، وعندما أصاب الصَّحابةَ الهلعُ، كان عليه الصَّلاة والسَّلامُ ثابتًا، يَرمي أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ بالحربةِ فيَخورُ أمامَه كالثَّورِ، ويقعُ ميتًا!

فلا يَستكثِرَنَّ أحدٌ نفسَه على اللّهِ، ولا يَرضَ بمقعدِ التَّنظيرِ ليُبرِّرَ قعودَه مع الخوالفِ!

لِيَكُنْ في حضرةِ الدَّم!

10 - إنَّ أشدَّ ما في يومِ أُحُدٍ مِن وجعٍ، لا نزولَ الرُّماةِ، مع أنَّه موجِعٌ، ولا استشهادَ حمزةَ، مع أنَّه يُفطِّرُ القلبَ، ولكنَّه الدمُ الَّذي سالَ مِن النَّبيِّ ﷺ يومَ شجُّوا رأسَه، وكسَروا رِباعيَّتَه / مقدِّمةَ أسنانِه، وهو يمسحُ الدمَ عن وجهِه، ويقولُ: «كيف يفلحُ قومٌ شجُّوا رأسَ نبيِّهم وكسَروا رِباعيَّتَه»؟!

واللّهِ إنَّ كوكبًا سال فيه دمُ رسولِ اللّهِ ﷺ لَهوَ كوكبُ سُوءٍ!

حَادِثَةُ الإفكِ!
بَرَاءَة من فوقِ سَبْعِ سَمَاوات!

كانتْ غَزْوَةُ بَنِي المُصْطَلِقِ شَرارَةً وارتدادَ صَدًى لِتَهْدِيدٍ صامِتٍ أَخَذَ يَتَعاظَمُ في أطْرافِ الجزيرةِ.

فقدْ بَلَغَ النبيَّ ﷺ أنَّ الحارِثَ بْنَ أَبِي ضِرارٍ، سَيِّدَ بَنِي المُصْطَلِقِ، يَجمعُ القَبائلَ، ويُهَيِّئُ الرِّجالَ، ويَستَنفِرُ الأحلافَ لِيَغْزُوَ المَدِينَةَ ويُطفِئَ نورَها قبلَ أنْ يَبلُغَ مَداهُ.

لم تَكُنِ الغَزْوَةُ إذنْ مُجرَّدَ حَملَةٍ عابِرَةٍ، بل خُطْوَةٌ اسْتِباقِيَّةٌ لِحمايةِ الدَّوْلَةِ الناشِئَةِ مِنْ طَعْنَةٍ تُدَبَّرُ في الظَّلامِ.

خَرَجَ النبيُّ ﷺ بجيشِهِ، لا طالِبَ مُلْكٍ ولا باغِيَ دَمٍ، بل حارِسًا لِلأمانِ، قاصِدًا أنْ يُطفِئَ شَرًّا قبلَ أنْ يَشتَعِلَ، وأنْ يَرُدَّ كَيْدًا قبلَ أنْ يَستَفحِلَ.

وقَدْ وقعتْ في هذه الغزوة حوادث جِسامٍ، لا مناصَ من الوقوفِ عندها!

أوَّلاً: زواجُ النَّبيِّ ﷺ من جُويرية بنتِ الحارث:

لمَّا قَسَمَ رَسولُ اللهِ ﷺ سَبْيَ بَنِي المُصْطَلِقِ، وَوَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرارٍ فِي سَهْمِ ثابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمّاسٍ، كَاتَبَهَا عَلَى نَفْسِهَا، فَجَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تَسْتَعِينُهُ عَلَى كِتابَتِهَا.

فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ: أَوْ أَقْضِي عَنْكِ كِتابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ؟

فَقَالَتْ: نَعَمْ.

فَقضَى عَنْهَا رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ كِتابَتَهَا، وَتَزَوَّجَهَا.

فلمَّا عَلِمَ النَّاس أَنَّ رَسُولَ اللّٰه ﷺ قَدْ تَزَوَّجَ جُوَيْرِيَةَ، قَالُوا: أَصْهَارُ رَسُولِ اللّٰه ﷺ تَحْتَ أَيْدِينَا؟!

فَأَعْتَقُوا مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ سَبْي بَنِي المُصْطَلِق.

فَمَا رُئِيَتِ امْرَأَةٌ كَانَتْ عَلَى قَوْمِهَا أَبْرَكَ مِنْ جُوَيْرِيَةَ، أَعْتَقَ فِي سَبَبِهَا مِئَةُ بَيْتٍ مِنْ بَنِي المُصْطَلِقِ.

ولأنَّ السِّيرةَ واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروس المستفادة من زواجِ النَّبيِّ ﷺ من جويرية بنتِ الحارث:

1 ـ أنَّ الرَّحمةَ قد ترفعُ أمَّةً بأسرِها، فالنبيُّ ﷺ لم يتزوجْ جويريةَ طمعًا، وإنما رحمةً ومواساةً لامرأةٍ وقعتْ في الأسرِ، فكانَ هذا الزَّواج سببًا في تحريرِ مئاتٍ من قومِها. وهكذا تكونُ الرحمةُ حينَ تصدرُ من قلبٍ كبيرٍ: نفعُهُ يعمُّ ولا يقفُ عندَ شخصٍ واحدٍ.

2 ـ أنَّ الخيارَ الأخلاقيَّ أقوى من الخيارِ السياسيِّ، كان يمكنُ للنبيِّ ﷺ أن يُبقيَ على السبي، لكنه قدَّمَ فضيلةَ العتقِ على مصلحةِ المغانم. المبدأُ عندهُ قبلَ المكسبِ، والإنسانُ قبلَ المتاع.

3 ـ أنَّ حُسنَ التعاملِ قد يغيّرُ مصيرَ الشعوبِ، رأى النَّاس أنَّ قومَ جويريةَ صاروا أصهارًا للنبيِّ ﷺ، فاستحوا أن يُبقوا عليهم، فأعتقوهم. خُلُقٌ حسنٌ من امرأةٍ واحدةٍ حرّرَ قبيلةً بأكملِها. الكلمةُ الطيبةُ قد تصنعُ ما لا تصنعُهُ الجيوشُ.

4 ـ أنَّ الإسلامَ لا يُذلُّ الأسيرَ بل يرفعُهُ، جويريةُ لم تُتركْ في السبيِ، ولم تُهَنْ، بل خُيِّرتْ، وأُعطيتْ كرامةَ الزَّواج من رسولِ اللّهِ ﷺ، وارتفعتْ مكانتُها حتَّى صارتْ أمًّا للمؤمنينَ. هذا درسٌ عظيمٌ في كرامةِ الإنسانِ مهما كانَ ضعفُهُ.

5 ـ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُداوي القلوبَ قبلَ أن يفتحَ البلدانَ، لمّا رآها مستضعفةً متألّمةً، لم يتركْها لحزنِها، ولم يعاملْها كغنيمةٍ، بل خفّفَ عنها عبءَ الكتابةِ، وضمّدَ جراحَها، وهذا منهجٌ نبويٌّ لا يزالُ بحاجةٍ إلى أن يُتعلّمَ كلَّ يومٍ.

6 ـ أنَّ الزَّواج في الإسلامِ رسالةٌ، لا شهوةً فقط، زواجُهُ ﷺ بجويريةَ لم يكنْ عبثًا، وإنما كان خطوةً إصلاحيةً، اجتماعيةً، إنسانيةً، وسياسيةً، في الوقتِ نفسه. زواجٌ واحدٌ غيّرَ موقفَ قبيلةٍ كاملةٍ من الإسلامِ.

7 ـ أنَّ الفضلَ يعودُ لأهلِه ولو كانوا في الأصلِ أعداءً، قيلَ عن جويريةَ: "ما كانت امرأةٌ أعظمَ بركةً على قومِها منها."

امرأةٌ واحدةٌ، من قومٍ محاربينَ، تصبحُ سببَ نجاةٍ لهم، لأنَّ اللّهَ يجعلُ البركةَ حيثُ يشاءُ.

8 ـ أنَّ الإسلامَ ينتصرُ بالأخلاقِ أكثرَ مما ينتصرُ بالسِّنانِ، حينَ رأى بنو المصطلقِ هذا العدلَ والكرمَ، دخلَ كثيرٌ منهم في الإسلامِ. لم يُجبروا، ولم يُقهروا. القلوبُ فُتحتْ قبلَ الحصونِ.

9 ـ أنَّ الحريـةَ أحـبُّ إلـى النفـسِ مـن الملـكِ، جويريـةُ اختـارتْ الحريـةَ علـى المـالِ. فلـم تسـألِ النبـيَّ ﷺ أن يزيدَهـا مـالًا، بـل أن يُسـاعدَها علـى فـكِّ رقبتِهـا. النفـوسُ الأصيلـةُ تختـارُ الكرامـةَ لا الذهـبَ.

10 ـ أنَّ الكبـارَ لا يقابلـونَ الإسـاءةَ بالإسـاءةِ، قـومُ جويريـةَ خرجـوا ليعيثـوا فـي دارِ المسـلمينَ، فلمَّـا هُزمـوا لـم يُنتقـمْ منهـم، بـل أُكرمـوا، وعُتقـوا، وتحوّلـتِ العـداوةُ إلـى صِهْـرٍ وودٍّ. وهكـذا تُغلـقُ الجـراحُ بأخـلاقِ الكبـارِ لا بطعنـاتِ الصغـارِ.

ثانياً: تطاولُ ابنِ سَلولٍ!

عنـدَ رُجـوعِ النبـيِّ ﷺ مـن غـزوةِ بنـي المصطلـقِ، وقـعَ شِـجارٌ بيـنَ رجـلٍ مـنَ المهاجريـنَ ورجـلٍ مـنَ الأنصـارِ، فصـرخَ المهاجـريُّ: يـا للمهاجريـنَ!

وصرخَ الأنصاريُّ: يا للأنصارِ!

فسـمعَ ذلـكَ رسـولُ اللّهِ ﷺ فقـالَ: مـا بـالُ دعـوى الجاهليـةِ؟! دَعوهـا فإنهـا مُنتِنَـةٌ.

وكانَ عبدُ اللّهِ بنُ أُبيٍّ بنِ سلولٍ حاضـرًا، فاغتنمَ الموقفَ لِيُؤلِّبَ قومَهُ، وقـالَ لهم سـاخطًا: مـا رأيتُ مثلَ هـؤلاءِ! سَـمِّنْ كلبَـكَ يَأْكُلْكَ! واللّهِ لَئِـن رَجعنـا إلـى المدينـةِ لَيُخرِجَـنَّ الأعـزُّ منهـا الأذلَّ!

وأشارَ إلى نفسِهِ بالعزِّ وإلى رسولِ اللّهِ ﷺ بالأذلِّ عياذًا باللّهِ.

وكانَ هنـاكَ غـلامٌ مـنَ الأنصـارِ، هـو زيـدُ بـنُ أرقـمَ، سـمعَ كلامَـهُ، فمضـى إلـى رسـولِ اللّهِ ﷺ فأخبـرَهُ بمـا قـالَ.

فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ يختبرُهُ: يا غلامُ، لعلَّكَ غضبتَ عليهِ؟

فقالَ: لا واللّهِ يا رسولَ اللّهِ.

وعندما بلغَ عمرَ بنَ الخطابِ ﷺ الخبرُ، قالَ: مُرني يا رسولَ اللّهِ أضرِبْ عنقَ هذا المنافقِ!

فقالَ النبيُّ ﷺ: دَعْهُ يا عمرُ، لا يَتحدَّثُ النَّاس أنَّ محمَّدا يقتلُ أصحابَهُ.

وذهبَ عبدُ اللّهِ بنُ أُبيٍّ يُنكِرُ ما قالَ ويقسِمُ باللّهِ أنهُ ما نطقَ بشيءٍ، وهمَّ بعضُ الأنصارِ أن يُصدِّقوهُ ويُكذِّبوا الغلامَ، حتَّى نزلَ قولُ اللّهِ تعالى في سورةِ المنافقونَ: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾

فقالَ النبيُّ ﷺ لزيدٍ: قد صدَّقكَ اللّهُ يا زيدُ.

ثمَّ جاءتِ بقيَّةُ القصةُ، والتي تُظهِرُ الفرقَ الشاسعَ بينَ منهجِ المنافقينَ ومنهجِ المؤمنينَ:

فقد بلغَ عبدَ اللّهِ بنَ عبدِ اللّهِ بنِ أُبيٍّ (ابنَ المنافقِ) ما قالَهُ أبوهُ، فقامَ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ وقالَ: يا رسولَ اللّهِ، لقد بلغني ما قالَ أبي، واللّهِ لَتعلمنَّ أنهُ الأذلُّ وأنكَ الأعزُّ. واللّهِ يا رسولَ اللّهِ، إنْ شئتَ أن آتيكَ برأسِهِ لفعلتُ!

فلمَّا اقتربَ الجيشُ منَ المدينةِ، سبقَ الابنُ أباهُ ووقفَ على بابِ المدينةِ شاهِرًا سيفَهُ، وقالَ لأبيهِ: واللّهِ لا تدخلُها حتَّى يأذَنَ لكَ رسولُ اللّهِ ﷺ! فلتعلمنَّ اليومَ مَنِ الأعزُّ ومنِ الأذلُّ!

فجـاءَ عبـدُ اللّهِ بـنُ أُبـيٍّ يَشـكو إلـى النبـيِّ ﷺ: يـا رسـولَ اللّهِ، يمنعنـي ابنـي أن أدخُـلَ المدينـةَ!

فأرسلَ النبيُّ ﷺ إلى الابنِ وقالَ لهُ: خَلِّ عنهُ، دَعْهُ يَدخُلْ.

فقالَ الابنُ: أمَّا وقد أذِنَ لكَ رسولُ اللّهِ ﷺ فادخُلْ.

وكانَ يقولُ بعدَ ذلكَ: واللّهِ ما رأيتم مثلي في بَرٍّ بأبي!

يَقصِـدُ: لـم أُطِـعْ أبـي فـي معصيـةٍ، ولـم أتـركْ طاعـةَ رسـولِ اللّهِ ﷺ.

ولأنَّ السِّـيرةَ واقـعٌ يُعـاش، لا تاريـخٌ يُقـرأ، هـذه هـي أهـمُّ الـدُّروس المسـتفادة مـن حادثـةِ تطـاولِ ابـن سـلولٍ علـى النَّبـيِّ ﷺ:

1 ـ أنَّ الفِتَـنَ تَكشِـفُ النُّفـوسَ كمـا تَكشِـفُ النَّـارُ المَعْـدِنَ، مـا إنْ وَقَـعَ الشِّـجارُ الصغيـرُ حتَّـى ظَهَـرَ مـا فـي قَلْـبِ ابـنِ سَـلولَ مـن غِـلٍّ وحَسَـدٍ وضِغْـنٍ علـى الإسـلام، فطَفِـحَ باطِنُـهُ الفاسِـدُ علـى لِسـانِهِ. الشَّـدائدُ تَكشِـفُ، والرَّخـاءُ يُخْفِـي.

2 ـ أنَّ المُنافِقَ لا يَعيشُ إلّا على حِسابِ غيرِهِ، فجُملتُهُ الخبيثةُ: سَـمِّنْ كَلْبَـكَ يَأكُلْـكَ! تَكشِـفُ طَريقَـةَ التَّفكيـرِ النِّفاقِـيِّ: مَنْفَعَـةٌ ثـمَّ جُحـودٌ ثـمَّ طَعْـنٌ فـي اليَـدِ التـي أَعْطَتْـهُ.

3 ـ أنَّ العَداوَةَ لِلنَّبـيِّ ﷺ كامِنَـةٌ فـي الصُّـدورِ قبلَ الأَلْسُـنِ، فابـنُ سَـلولَ لَـمْ يَقُـلْ مـا قـالَ إلّا حَسَـدًا وبُغْضًـا لِمـا أَعَـزَّ اللّهُ بِـهِ الإسـلامَ، فالنِّفـاقُ مَـرَضٌ داخِلِـيٌّ يَظهَـرُ عنـدَ أوَّلِ فُرْصَـةٍ.

4 ـ أنَّ رَسـولَ اللّٰه ﷺ أَحكَمُ النَّـاس وأَرْفَقُهُـم، إذ رَفَـضَ قَتْـلَ ابـنِ سَـلولَ وقـالَ: «لا يَتَحَـدَّثُ النَّـاس أنَّ محمَّـدا يَقتـلُ أَصحابَـهُ.»

فالنَّظَرُ للعاقِبَةِ أَولَى من شَفاءِ الغَيْظِ.

5 ـ أنَّ المُؤمِـنَ يُغَلِّـبُ حَـقَّ اللّٰه علـى حَـقِّ الأَقـارِبِ، عبـدُ اللّٰهِ بـنُ عبدِ اللّٰهِ بـنِ سَـلولَ وَقَـفَ فـي وَجـهِ أَبِيـهِ وقـالَ: لَا تَدخُـلْ حتَّـى يَـأذَنَ لَـكَ رَسـولُ اللّٰه ﷺ.

6 ـ أنَّ طاعَـةَ اللّٰهِ ورسـولِهِ فـوقَ العاطِفَـةِ القَرابِيَّـةِ، فَلَـمْ يَمْنَعْـهُ حُـبُّ الأُبـوَّةِ أنْ يَقِـفَ مـعَ الحَـقِّ. الإيمـانُ لا يُجامِـلُ.

7 ـ أنَّ الكَرامَـةَ الحَقيقيَّـةَ فـي طاعَـةِ اللّٰه لا فـي المُلـك ولا فـي القَبيلَـةِ، قولـهُ: «لَيُخْرِجَـنَّ الأَعَـزُّ مِنْهَـا الأَذَلَّ» كَشَـفَ اللّٰهُ بُطْلانَـهُ، وأَظْهَـرَ أنـه هـو الأَذَلُّ، وأنَّ رَسـولَ اللّٰهِ ﷺ هـو الأَعَـزُّ.

8 ـ أنَّ القُـرآنَ يَهتِـكُ سُـتورَ المُنافِقيـنَ، فقـد أَنـزَلَ اللّٰهُ تَصديقًـا لِغُـلام صغيـرٍ (زيـدِ بـنِ أَرقَـمَ)، وفـي هـذا دَرْسٌ: الحَـقُّ يُعـرَفُ بالدَّليـلِ لا بالعُمُـرِ والمَقَـام.

9 ـ أنَّ الشَّـبابَ قَـدْ يَسـبِقونَ الكِبـارَ فـي الإيمـانِ والبَصيـرَةِ، فزيـدٌ قَـالَ الحَـقَّ، وعبـدُ اللّٰهِ بـنُ عبـدِ اللّٰهِ أوقَـفَ أَبـاهُ علـى بـابِ المدينَـةِ. الإيمـانُ نُـورٌ.

10 ـ أنَّ الطّاعَـةَ تُعطِـي صَاحِبَهـا كَرامَـةً حتَّـى عنـدَ شِـدَّةِ المَوقِـفِ، فعبـدُ اللّٰهِ يقـولُ للنَّبـيِّ ﷺ: «لـو أَمَرْتَنـي بقتلِـهِ لَقَتَلْتُـهُ.» ثـمَّ لا يَتَعَـدّى قبـلَ أنْ يَـأذَنَ رسـولُ اللّٰه ﷺ.

11 ـ أنَّ الدَّعـوَةَ تَحتـاجُ حُسـنَ سياسَـةٍ كمـا تَحتـاجُ قُـوَّةً، لَـوْ قُتِـلَ ابـنُ سَـلولَ يومَهـا لَضاعَـتِ الحِكمَـةُ، ولَقالَـتِ العَـرَبُ: يَقتُـلُ أَصحابَـهُ.

12 ـ أنَّ الثَّبـاتَ على الحَقِّ أَهـمُّ مـن عُلُـوِّ الصَّـوتِ، ابـنُ سَـلولَ كانَ صاخِبًا، وابنُـهُ كانَ ثابتًـا . الأَوَّلُ هُـدِمَ بآيَـةٍ، والثّانـي رُفِـعَ بصفحـةٍ خالِدَةٍ.

13 ـ أنَّ اللّه يُظهِـرُ الحَـقَّ ولـو كَـرِهَ المُنافِقـونَ، أَنـزَلَ اللّه آيـاتِ المنافِقيـنَ فَكَشَـفَ الكَـذِبَ وأَعْلَـنَ صِـدقَ الغُـلام.

14 ـ أنَّ أهـلَ الباطِلِ يَتَّكِئـونَ علـى الإشـاعَاتِ، وأهـلَ الحَقِّ يَتَّكِئـونَ علـى الوَحـي، أَشـاعَ ابـنُ سَـلولَ الفُرقَـةَ، وجَمَـعَ النَّبـيُّ ﷺ القُلـوبَ بكَلِمَـةٍ واحِـدَةٍ: «دَعوهـا فإِنَّهـا مُنتِنَـةٌ.»

15 ـ أنَّ الـوَلاءَ والبَـراءَ أَصـلٌ فـي العَقيـدَةِ، عبـدُ اللّهِ بـنُ عبـدِ اللّهِ وَقَـفَ مـعَ رَسـولِ اللّهِ ﷺ وضِـدَّ نِفـاقِ أَبيـهِ، فـكانَ هـذا غايَـةَ الصِّـدقِ فـي الإيمـانِ.

ثالثاً: حادثةُ الإفْكِ!

وفـي غـزوةِ بنـي المصطلـقِ وقعـتْ حادثـةُ الإفـكِ الشَّـهيرة، حيـثُ وقـعَ المنافقـون فـي عِـرْضِ رسـول اللّه ﷺ! ولنسـتمِعْ إلـى هـذه الحادثـة مـن بَطَلَتِهـا!

روى البُخـاريُّ ومسـلمٌ فـي صحيحيهمـا مـن حديـث الصِّديقـة بنـت الصِّديق عائشـةُ بنـتُ أبـي بكـرٍ، قالـتْ:

كانَ رَسـولُ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَـفَرًا أَقْـرَعَ بيْـنَ أَزْوَاجِـهِ، فأيُّهُـنَّ خَـرَجَ سَـهْمُهَا خَـرَجَ بهَـا رَسـولُ اللّهِ ﷺ معه، فأَقْـرَعَ بيْنَنَـا فـي غَـزْوَةٍ غَزَاهَـا فَخَـرَجَ فِيهَـا سَـهْمِي، فَخَرَجْـتُ مـع رَسـولِ اللّهِ ﷺ بَعْـدَ مـا أُنْـزِلَ

الحِجَابُ، فَكُنْتُ أُحْمَلُ في هَوْدَجِي وأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حتَّى إذَا فَرَغَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ مِن غَزْوَتِهِ تِلكَ وقَفَلَ، دَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بالرَّحِيلِ، فَمَشيتُ حتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فلمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أقْبَلْتُ إلى رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لي مِن جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، وأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ علَى بَعِيرِي الذي كُنْتُ أرْكَبُ عليه، وهُمْ يَحْسِبُونَ أنِّي فِيهِ، وكانَ النِّسَاءُ إذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ، ولَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إنَّما يَأْكُلْنَ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وحَمَلُوهُ، وكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ فَسَارُوا، ووَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ ما اسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وليسَ بهَا منهمْ دَاعٍ ولَا مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الذي كُنْتُ به، وظَنَنْتُ أنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إلَيَّ، فَبيْنَا أنَا جَالِسَةٌ في مَنْزِلِي، غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وكانَ صَفْوَانُ بنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِن ورَاءِ الجَيْشِ، فأصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وكانَ رَآنِي قَبْلَ الحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ باسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وجْهِي بجِلْبَابِي، ووَاللَّهِ ما تَكَلَّمْنَا بكَلِمَةٍ، ولَا سَمِعْتُ منه كَلِمَةً غيرَ اسْتِرْجَاعِهِ، وهَوَى حتَّى أنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ علَى يَدِهَا، فَقُمْتُ إلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بي الرَّاحِلَةَ حتَّى أتَيْنَا الجَيْشَ مُوغِرِينَ في نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وهُمْ نُزُولٌ، فَهَلَكَ مَن هَلَكَ، وكانَ الذي تَوَلَّى كِبْرَ الإفْكِ عبدُ اللَّهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ!

فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، والنَّاس يُفِيضُونَ في قَوْلِ أصْحَابِ الإفْكِ، لا أشْعُرُ بشيءٍ مِن ذلكَ، وهو يَرِيبُنِي في وجَعِي أنِّي لا أعْرِفُ مِن رَسولِ اللهِ ﷺ اللُّطْفَ الذي كُنْتُ أرَى منه حِينَ أشْتَكي، إنَّما يَدْخُلُ علَيَّ رَسولُ اللهِ ﷺ فيُسَلِّمُ، ثمَّ يقولُ: كيفَ تِيكُمْ؟ ثمَّ يَنْصَرِفُ!

فَذلكَ يَرِيبُنِي ولَا أشْعُرُ بالشَّرِّ، حتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ مع أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ، وكانَ مُتَبَرَّزَنَا، وكُنَّا لا نَخْرُجُ إلَّا لَيْلًا إلى لَيْلٍ، وذلكَ قَبْلَ أنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِن بُيُوتِنَا، وأَمْرُنَا أمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ في البَرِّيَّةِ قِبَلَ الغَائِطِ، وكُنَّا نَتَأَذَّى بالكنف أنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، فَانْطَلَقْتُ أنَا وأُمُّ مِسْطَحٍ، وهي ابْنَةُ أبِي رُهْمِ بنِ المُطَّلِبِ بنِ عبدِ مَنَافٍ، وأُمُّهَا بنْتُ صَخْرِ بنِ عَامِرٍ، خَالَةُ أبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وابنُهَا مِسْطَحُ بنُ أُثَاثَةَ بنِ عَبَّادِ بنِ المُطَّلِبِ، فأقْبَلْتُ أنَا وأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتي حِينَ فَرَغْنَا مِن شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ في مِرْطِهَا فَقالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ!

فَقُلتُ لَهَا: بِئْسَ ما قُلْتِ، أتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟

فَقالَتْ: أيْ هَنْتَاهْ ولَمْ تَسْمَعِي ما قالَ؟

قلتُ: ما قالَ؟

فأخْبَرَتْنِي بقَوْلِ أهْلِ الإفْكِ! فَازْدَدْتُ مَرَضًا علَى مَرَضِي، فلمَّا رَجَعْتُ إلى بَيْتي دَخَلَ علَيَّ رَسولُ اللهِ ﷺ فَسَلَّمَ، ثمَّ قالَ: كيفَ تِيكُمْ؟

فَقُلتُ له: أتَأْذَنُ لي أنْ آتِيَ أبَوَيَّ؟

إنما أُرِيدُ أنْ أسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِن قِبَلِهِمَا!

فـأذِنَ لـي رَسـولُ اللّهِ ﷺ، فَقُلـتُ لِأُمِّـي: يـا أُمَّتَـاهُ، مَـاذَا يَتَحَـدَّثُ النَّـاس؟

قالَـتْ: يـا بُنَيَّـةُ، هَوِّنـي عَلَيْـكِ، فَـوَاللّهِ لَقَلَّمـا كَانَـتِ امْـرَأَةٌ قَـطُّ وَضِيئَـةً عِنْـدَ رَجُـلٍ يُحِبُّهَـا، لَهَـا ضَرَائـرُ، إلَّا كَثَّـرْنَ عَلَيْهَـا!

فَقُلتُ: سُبْحَانَ اللّهِ، أوَلقَدْ تَحَدَّثَ النَّاس بهذا؟

فَبَكَيْـتُ تِلـكَ اللَّيلَـة حتَّـى أصْبَحْـتُ لا يَرْقَـأُ لـي دَمْـعٌ ولَا أكْتَحِـلُ بِـنَوْمٍ، ثـمَّ أصْبَحْـتُ أبْكِي! ودَعَـا رَسـولُ اللّهِ ﷺ عَلِـيَّ بـنَ أبِـي طَالِـبٍ وأُسَـامَةَ بـنَ زَيْـدٍ، حِيـنَ اسْـتَلْبَثَ الوَحْـيُ، يَسْـأَلُهُما ويَسْتَشِـيرُهُما فـي فِـرَاقِ أهْلِـهِ، فأمَّـا أُسَـامَةُ فأشَـارَ علَـى رَسـولِ اللّهِ ﷺ بالَّـذي يَعْلَـمُ مِـن بَـرَاءَةِ أهْلِـهِ، وبِالَّـذي يَعْلَـمُ لهـمْ فـي نَفْسِـهِ، فَقـالَ أُسَـامَةُ: أهْلَـكَ، ولَا نَعْلَـمُ إلَّا خَيْـرًا.

وأَمَّـا عَلِـيٌّ فَقـالَ: يـا رَسـولَ اللّهِ، لَـمْ يُضَيِّـقِ اللّهُ عَلَيْـكَ، والنِّسَـاءُ سِـوَاهَا كَثِيـرٌ، وسَـلِ الجَارِيَـةَ تَصْدُقْـكَ!

فَدَعَـا رَسـولُ اللّهِ ﷺ بَرِيـرَةَ، فَقـالَ: أيْ بَرِيـرَةُ، هـلْ رَأَيْـتِ مِـن شَـيءٍ يَرِيبُـكِ؟

قالَـتْ بَرِيـرَةُ: والـذي بَعَثَـكَ بالحَـقِّ، مـا رَأَيْـتُ علَيْهَـا أمْـرًا قَـطُّ أَغْمِصُـهُ، غيـرَ أنَّهَـا جَارِيَـةٌ حَدِيثَـةُ السِّـنِّ، تَنَـامُ عـن عجِيـنِ أهْلِهَـا، فَتَأْتـي الدَّاجِـنُ فتَأْكُلُـهُ!

فَقَـامَ رَسـولُ اللّهِ ﷺ مِـن يَومِـهِ فَاسْـتَعْذَرَ مِـن عبـدِ اللّهِ بـنِ أُبَـيٍّ، وهـو علَـى المِنْبَـرِ، فَقـالَ: يـا مَعْشَـرَ المُسْـلِمِينَ، مَـن يَعْذِرُنـي مِـن رَجُـلٍ قـدْ بَلَغَنِـي عنْـه أذَاهُ فـي أهْلِـي، واللّهِ مـا عَلِمْـتُ علَـى أهْلِـي إلَّا خَيْـرًا،

ولَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا ما عَلِمْتُ عليه إلَّا خَيْرًا، وما يَدْخُلُ علَى أهْلِي إلَّا مَعِي!

فَقَامَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ أخُو بَنِي عبدِ الأشْهَلِ، فَقالَ: أنَا يا رَسولَ اللّهِ أَعْذِرُكَ، فإنْ كانَ مِنَ الأوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وإنْ كانَ مِن إخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أمْرَكَ!

فَقَامَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، وهو سَيِّدُ الخَزْرَجِ، وقد احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ، فَقالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللّهِ لا تَقْتُلُهُ، ولَا تَقْدِرُ علَى قَتْلِهِ، ولو كانَ مِن رَهْطِكَ ما أحْبَبْتَ أنْ يُقْتَلَ.

فَقَامَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ، وهو ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ، فَقالَ لِسَعْدِ بنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فإنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عنِ المُنَافِقِينَ!

فَثَارَ الحَيَّانِ الأوْسُ والخَزْرَجُ حتَّى هَمُّوا أنْ يَقْتَتِلُوا، ورَسولُ اللّهِ ﷺ قَائِمٌ علَى المِنْبَرِ! فَلَمْ يَزَلْ يُخَفِّضُهُمْ حتَّى سَكَتُوا وسَكَتَ! فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذلكَ كُلَّهُ لا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ ولَا أكْتَحِلُ بنَوْمٍ، حتَّى لَأَظُنُّ أنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي! فَبيْنَا أبَوَايَ جَالِسَانِ عِندِي وأَنَا أبْكِي، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأنْصَارِ، فأذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي! فَبيْنَا نَحْنُ علَى ذلكَ دَخَلَ رَسولُ اللّهِ ﷺ عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، ولَمْ يَجْلِسْ عِندِي مُنْذُ قِيلَ ما قِيلَ قَبْلَهَا، وقدْ لَبِثَ شَهْرًا لا يُوحَى إلَيْهِ في شَأْنِي بشيءٍ، فَتَشَهَّدَ رَسولُ اللّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قالَ: أمَّا بَعْدُ، يا عَائِشَةُ، إنَّه بَلَغَنِي عنْكِ كَذَا وكَذَا، فإنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللّهُ، وإنْ كُنْتِ ألْمَمْتِ بذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وتُوبِي إلَيْهِ، فإنَّ العَبْدَ إذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عليه!

فلمَّا قَضَى رَسولُ اللّهِ ﷺ مَقالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حتَّى ما أُحِسُّ منه قَطْرَةً، فَقُلتُ لأبِي: أجِبْ رَسولَ اللّهِ ﷺ عنِّي فِيما قالَ.

فَقالَ أبي: واللّهِ ما أدْرِي ما أقُولُ لِرَسولِ اللّهِ ﷺ.

فَقُلتُ لأُمِّي: أجِيبِي رَسولَ اللّه ﷺ فِيما قالَ.

قالَتْ أُمِّي: واللّهِ ما أدْرِي ما أقُولُ لِرَسولِ اللّه ﷺ.

فَقُلتُ وأنا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لا أقْرَأُ مِنَ القُرْآنِ كَثِيرًا: إنِّي واللّهِ لقَدْ عَلِمْتُ: لقَدْ سَمِعْتُمْ هذا الحَدِيثَ حتَّى اسْتَقَرَّ في أنْفُسِكُمْ وصَدَّقْتُمْ به، فَلَئِنْ قُلتُ لَكُمْ: إنِّي بَرِيئَةٌ، لا تُصَدِّقُونِي، ولَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بأمْرٍ، واللَّهُ يَعْلَمُ أنِّي منه بَرِيئَةٌ، لَتُصَدِّقُنِّي، فَوَاللّهِ لا أجِدُ لي ولَكُمْ مَثَلًا إلَّا أبَا يُوسُفَ حِينَ قالَ: "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللَّهُ المُسْتَعَانُ علَى ما تَصِفُونَ".

ثُمَّ تَحَوَّلْتُ واضْطَجَعْتُ علَى فِرَاشِي، واللَّهُ يَعْلَمُ أنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ، وأنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي ببَرَاءَتِي، ولَكِنْ واللّهِ ما كُنْتُ أظُنُّ أنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ في شَأْنِي وحْيًا يُتْلَى، لَشَأْنِي في نَفْسِي كانَ أحْقَرَ مِن أنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بأمْرٍ، ولَكِنْ كُنْتُ أرْجُو أنْ يَرَى رَسولُ اللّهِ ﷺ في النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بهَا، فَوَاللّهِ ما رَامَ رَسولُ اللّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ، ولَا خَرَجَ أحَدٌ مِن أهْلِ البَيْتِ، حتَّى أُنْزِلَ عليه، فأخَذَهُ ما كانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حتَّى لَيَتَحَدَّرُ منه مِنَ العَرَقِ مِثْلُ الجُمَانِ، وهو في يَومٍ شَاتٍ مِن ثِقَلِ القَوْلِ الذي أُنْزِلَ عليه، فَسُرِّيَ عن رَسولِ اللّهِ ﷺ وهو يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أوَّلَ كَلِمَةٍ قالَهَا: يا عَائِشَةُ، أمَّا اللَّهُ فقَدْ بَرَّأَكِ.

فَقالَتْ لي أُمِّي: قُومِي إلَيْهِ.

فَقُلتُ: واللّهِ لا أقُومُ إليْه، فإنِّي لا أحْمَدُ إلَّا اللّه عزَّ وجلَّ.

وأنْـزَلَ اللّهُ تَعَالَـى: ﴿إنَّ الَّذِيـنَ جَـاؤُوا بالإفْـكِ عُصْبَـةٌ مِنكُمْ﴾، ثـمَّ أنْـزَلَ اللّهُ هـذا فـي بَرَاءَتـي. قـالَ أبـو بَكْـرٍ الصِّدِّيـقُ – وكانَ يُنْفِـقُ علَـى مِسْـطَحِ بـنِ أُثَاثَـةَ لِقَرَابَتِـهِ منـه وفَقْـرِهِ –: واللّهِ لا أُنْفِـقُ علَـى مِسْـطَحٍ شـيئًا أبَـدًا، بَعْـدَ الـذي قـالَ لعائِشَـةَ مـا قـالَ!

فأنْـزَلَ اللّهُ: ﴿وَلَا يَأْتَـلِ أُولُـو الْفَضْـلِ مِنكُـمْ وَالسَّـعَةِ أَن يُؤْتُـوا أُولِى الْقُـرْبَىٰ وَالْمَسَـاكِينَ وَالْمُهَاجِرِيـنَ فِى سَـبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُـوا وَلْيَصْفَحُـوا أَلَا تُحِبُّـونَ أَن يَغْفِـرَ اللَّهُ لَكُـمْ وَاللَّهُ غَفُـورٌ رَّحِيـمٌ﴾.

قالَ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى واللّهِ إنِّي لَأُحِبُّ أنْ يَغْفِرَ اللّهُ لِي.

فَرَجَـعَ إلـى مِسْـطَحٍ النَّفَقَـةَ الَّتـي كانَ يُنْفِقُ عليـه، وقـالَ: واللّهِ لا أنْزِعُهَـا منـه أبَـدًا.

وكانَ رَسـولُ اللّهِ ﷺ سَـأَلَ زَيْنَـبَ بنْـتَ جَحْـشٍ عـن أمْـرِي، فَقـالَ لِزَيْنَـبَ: مَـاذَا عَلِمْـتِ، أوْ رَأَيْـتِ؟

فَقالَـتْ: يـا رَسـولَ اللّهِ، أحْمِـي سَـمْعِي وبَصَـرِي، واللّهِ مـا عَلِمْـتُ إلَّا خَيْـرا.

وهـي الَّتـي كانَـتْ تُسَـامِينِي مِـن أزْوَاجِ النبـيِّ ﷺ فَعَصَمَهَـا اللّهُ بالـوَرَعِ، وطَفِقَـتْ أُخْتُهَـا حَمْنَـةُ تُحَـارِبُ لَهَـا، فَهَلَكَـتْ فيمَـن هَلَـكَ!

ولأنَّ السِّـيرة واقـعٌ يُعـاشُ لا تاريـخٌ يُقـرأ، هـذه هـي أهـمُّ الـدُّروس الحياتيَّـة التـي تُسـتخلصُ مـن حادثـة الإفـك:

1. الزَّوْجَـةُ رفيـقٌ دائـمٌ فـلا تزهَـدْ بهـا! وعندمـا أرادَ اللّهُ تعالـى أنْ يُؤنِـسَ آدمَ عليه السلام خلقَ لـهُ زَوْجَـةً! زَوْجَـةٌ صَالِحَـةٌ تُغنيـكَ عـنِ الدُّنيـا

كلِّها، والدُّنيا كلُّها لا تُغنيكَ عن زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ! رِبَاطٌ مُقَدَّسٌ حفَّهُ اللّٰهُ بالمودَّةِ والرَّحمةِ، تحملُكَ مرَّةً وتحملُها مرَّةً، تتغاضى لها وتتغاضى لكَ، صَديقٌ مَوْثُوقٌ إنْ قلَّ حولَكَ الأصدقاءُ، ورفيقٌ عذبٌ إنْ جفا عنكَ الرِّفاقُ، وصدرٌ حنونٌ إنْ رمتْكَ الدُّنيا بنبالِ قسوتِها، وكتفٌ متينٌ إنْ أردتَ الاتّكاءَ، ومُدَبِّرٌ أمينٌ إنْ خانَكَ التدبيرُ، ونَاصِحٌ مُحِبٌّ إنْ زلَّتْ بكَ الخطواتُ، ولكن تذكَّرْ أنَّ الحُبَّ قبلَ أنْ يكونَ ثمَارًا تُجنى، فهوَ بذورٌ تُزرعُ، ولا حصادَ إلَّا لزارعٍ، والطريقةُ الوحيدةُ للحصولِ على الحُبِّ هيَ تقديمُهُ! وانظُرْ للنَّبيِّ ﷺ كيفَ أنَّهُ، وحتَّى وهو في الجيشِ، يحرصُ أنْ يكونَ معهُ زَوْجَةٌ، فلا تمشِ وحدَكَ وقدْ جعلَ اللّٰهُ لكَ رفيقًا!

2. العَدْلُ بينَ الزَّوْجَاتِ واجبٌ في النَّفقةِ والمبيتِ، أمَّا الحُبُّ فلا أحدَ يملكُ قلبَهُ، وقدْ كانَ نبيًّا ذلكَ الذي قالَ: اللَّهُمَّ لا تُؤاخذْني فيما لا أملكُ، قالَها قاصدًا قلبَهُ لأنَّهُ كانَ يُحِبُّ عائشةَ أكثرَ من غيرِها، ولكنَّهُ كانَ يَعدِلُ بينَ زوجاتِهِ عدلًا عجيبًا، فلا يُعطي عائشةَ أكثرَ من غيرِها، ولا يبيتُ عندَها أكثرَ ممَّا يبيتُ عندَ ضرائرِها رضيَ اللّٰهُ عنهنَّ أجمعين، ولو أنَّهُ أرادَ أنْ يُطيعَ قلبَهُ لكانَ اصطحبَ عائشةَ معهُ كلَّ مرَّةٍ، ولكنَّهُ كانَ يقتَرِعُ بينَ نسائِهِ فأيُّهُنَّ خرجَ اسمُها كانتْ معهُ، وبهذا لا تشعرُ أيُّ واحدةٍ منهنَّ بالظلمِ، وقدْ كانتْ عائشةُ معهُ في الغزوةِ التي كانتْ فيها حادِثَةُ الإِفْكِ، وكانتْ أمُّ سلمةَ معهُ في صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ! مَعذورٌ أنتَ حينَ تَميلُ بقلبِكَ، ولكنَّكَ مُؤْزورٌ ومحاسَبٌ حينَ تظلِمُ في معاملتِكَ،

والظُّلْمُ ليسَ في أخذِ مالِ النَّاس فقط، وإنَّما هو في ألَّا تُعطيَ النَّاس حقوقَهم التي هيَ لهم عندَكَ، ولو كانتْ معنويَّةً!

3. العَاقِلُ لا يضعُ نفسَهُ في موضعِ الشُّبْهَةِ، لأنَّ النَّاس مفطورونَ على سُوءِ الظَّنِّ! ودفعُ الشبهةِ سُنَّةٌ نبويةٌ شريفةٌ. كانَ النبيُّ ﷺ مُعتكفًا في المسجدِ، فجاءتْ إليهِ أمُّنا صَفِيَّةُ تَزورُهُ ليلًا، فجلستْ عندَهُ ثمَّ قامتْ لتذهبَ إلى بيتِها، فقامَ معها النبيُّ ﷺ ليُوَصِّلَها، فمرَّ رجلانِ من الأنصارِ بهما، فلمَّا رأيا النبيَّ ﷺ أسرعا، فقالَ لهما: على رِسْلِكما، إنَّها صَفِيَّةُ بنتُ حُيَيٍّ. فقالا: سبحانَ اللّٰهِ يا رسولَ اللّٰهِ، فقالَ لهما: إنَّ الشَّيْطَانَ يجري من الإنسانِ مجرى الدم، فخشيتُ أنْ يَقذِفَ في قلوبِكما شرًّا! وبالعودةِ إلى حادثةِ الإفْكِ... فإنَّ أمَّنا عائشةَ أطهرُ من ماءِ زمزمَ، وصفوانَ بنَ المُعَطِّلِ صحابيٌّ جليلٌ فوقَ التُّهمةِ، ولكنْ تأخُّرُهما عن الجيشِ فتحَ بابًا للمرضى والمنافقين، فوقعوا في عرضِها رضيَ اللّٰه عنها. فإنْ كانَتْ أمُّ المؤمنين وصحابيٌّ جليلٌ لم ينجُوَا من سوءِ الظنِّ، فلا تتوقَّعْ أنْ أسلَمَ أنا وأنتَ وهي... فالنَّاس لا يُحسِنونَ الظنَّ عادةً! من يراكَ مع امرأةٍ ليستْ من محارمِكَ في مقهى، لن يقولَ إنَّكَ تُساعدُها... بل سَيُسِيءُ الظنَّ مباشرةً! فانتبهْ جيّدًا إلى موضعِ خطواتِكَ.

4. إيّاكَ ونقلَ الإشَاعَاتِ، فشأنُ النَّاس دائمًا أنْ يَفتريَ بعضُهم على بعضٍ! لا تُصدِّقْ تهمةً بلا دليلٍ، ولا تبحثْ عن دليلٍ للتهمةِ التي سمعتَها. ما لكَ وللناسِ؟ ومن تتبَّعَ عوراتِ النَّاس تتبَّعَ اللّٰهُ عورتَهُ! لا تخُضْ في ذمَّةِ رجلٍ لم تُشاهِدْ خيانتَهُ، ولا في عرضِ امرأةٍ لأنَّ فلانًا قالَ. كفى بالمرءِ إثمًّا أنْ يُحدِّثَ بكلِّ ما سمعَ!

وحتَّى وإنْ رأيتَ... فإنَّ اللّهَ سِتّيرٌ يحبُّ السِّترَ، وما منَّا من أحدٍ إلَّا ولهُ عيوبٌ يكرهُ أنْ يراها النَّاس، فلا تَفضَحْ... فتُفضَحْ!

5. خدمةُ الإنسانِ المَقْطُوعِ نُبْلٌ، وعليهِ أنْ يُراجِعَ إنسانيَّتَهُ وأخلاقَهُ وإسلامَهُ، فمن رأى مقطوعًا في الطريقِ وكان قادرًا على مساعدتهِ فلم يفعلْ فقدْ خانَ المروءةَ! حتَّى العربُ في جاهليَّتها (وهيَ على الشِّركِ) عدُّوا خدمةَ المقطوعِ من أنبلِ الأخلاقِ. قصةُ أمِّ سَلَمَةَ: فرقوا بينها وبين زوجِها أبي سلمة وبين ابنِها، فبقيتْ سنةً كاملةً تبكي وحدَها على مشارفِ مكَّة... حتَّى رقَّ لها أحدُ بني عمومتِها، فأعادوها إلى زوجِها وابنِها، ثمَّ خرجتْ وحدَها تريدُ المدينةَ، فلقيها عُثمَّانُ بنُ طَلْحَةَ وهو مشركٌ، فسارَ معها مسيرةَ أيام، يُنزلُ لها البعيرَ ويبتعدُ عنها حتَّى تركبَ، ويقودُهُ لها في طريقٍ صحراويٍّ طويلٍ، حتَّى بلغَتْ مشارفَ المدينةِ، فعادَ أدراجَهُ إلى مكَّة بعد أنْ أدّى أمانتَهُ كاملةً! أبعدَ هذا النُّبْلِ نُبْلٌ؟ وهذا رجلٌ مشركٌ! فإنْ لم يزِدْكَ دينُكَ خُلقًا... فأنتَ لم تفهمْ معنى الإسلام بعد.

6. اللُّطْفُ مع الزَّوْجَةِ واجبٌ! وكان الأوائلُ يقولونَ: لا نُسَمِّي الرجلَ رجلًا، حتَّى ننظرَ إلى زوجتهِ: أهيَ عزيزةٌ أم مُهانةٌ؟ وإنَّ أمَّنا عائشةَ لم ترتبْ ممّا يحدثُ إلَّا لأنها لم تعُدْ تجدُ من النبيِّ ﷺ ذاك اللطفَ الذي اعتادتْهُ، بل كان يسألها سؤالًا عابرًا: كيفَ تلك؟ وهذا فيه موقفانِ كبيرانِ: لو لم يكن يغدقُ عليها اللطفَ أصلًا لَما شعرتْ بتغيُّرِهِ! والخلافُ بين الأزواجِ لهُ أدبٌ، لم يضربْها ﷺ، لم يشتمها، بل اكتفى بإيقافِ إظهارِ اللطفِ إلى أنْ تنجلي الأزمةُ.

قليلٌ من الإعراضِ يكفي... أمّا تحويلُ البيتِ إلى ساحَةِ معركةٍ فهُو من قلَّةِ الفهمِ والمروءةِ!

7. اعترِفْ بفضلِ النَّاس السابقِ ولو صدرَ منهمُ الخطأ. ولا تنسَ معروفَهم القديمَ وإنْ بدا منهم ما يزعجُك الآن. حَسَّانُ بنُ ثَابِتٍ كان ممّن تكلَّمُوا في حادثةِ الإفكِ... ومع ذلك كانتْ عائشةُ ترفضُ أنْ يُسَبَّ عندها، وقالتْ: لا تسبُّوه، فطالما ذَبَّ عن عرضِ النبيِّ ﷺ. وكانتْ تُنشدُ لهُ: فإنَّ أبي ووالدَهُ وعِرضي لِعرضِ محمَّد منكم وقاءُ! هذا هو النُّبْلُ الحقيقيّ.

8. من الحِكمةِ سترُ الأخبارِ الحزينةِ عنِ المَريضِ، لأنَّ النفسيّةَ إذا ساءتْ تسبّبتْ في تفاقمِ المرضِ، والعكسُ ثابتٌ في الطبِّ: إبعادُ الحزنِ عن المريضِ يُسرِّعُ شفاءَه بإذنِ اللّهِ. ولمّا أصابتِ الحُمّى عائشةَ ونامتْ في فراشِها، لم تكنْ تدري بما يُقالُ عنها، وقدْ حرصَ أبواها ألّا تعلمَ شيئًا حتَّى لا تسوءَ حالُها. فلا تجمعوا على المريضِ سوأتين: سوأةَ المرضِ... وسوأةَ الأخبارِ الحزينةِ التي تكسِرُ خاطرَهُ!

9. إذا وقعَ الخصامُ بين الأَحِبَّةِ، فمن النُّبلِ ألّا يهجُروا بالكليّةِ. كان النبيُّ ﷺ في موقفٍ صعبٍ... فأقسى ما يُبتلى به الزوجُ أن يتكلّمَ النَّاس في عرضِ زوجتِهِ، ومع ذلك لم يهجُرْ عائشةَ: كان يزورها، يعودُها، يسألها: كيف تيكِ؟ فالحبُّ قد يتغيّرُ شكلُهُ، ولكنَّ الحقوقَ لا تسقطُ بالخلافِ. وتبقى الحقيقةُ: مشكلتنا اليوم ليستْ في وقوعِ الخلافاتِ... بل في أنَّنا لا نعرفُ كيف نختلفُ!

10. إذا اضطـرّت المَـرْأَةُ للخـروجِ مـن البيـتِ فحبَّـذا ألّا تخـرجَ وحدهـا، وهـذا ليـسَ شـكًّا فيهـا، بـل حمايـةٌ لهـا. خرجـتْ عائشـةُ لقضـاءِ حاجتهـا فاصطحبـتْ أمَّ مِسْـطَحٍ معهـا، وجعلـتْ لهـا رفيقـةً فـي موضـعٍ يكـونُ فيـه وجـودُ الرفيقـةِ مهمًّـا. فـلا تخرجْـنَ وحيـداتٍ إنْ وُجِـدَتِ الرِّفقـةُ!

11. المُؤْمِـنُ لا يقبـلُ أن يُسـاءَ إلـى أحـدٍ فـي حضرتِـهِ، ولمّـا دعـتْ أمُّ مسـطحٍ علـى ابنِهـا لأنـه خـاضَ فـي عـرضِ عائشـةَ، نهرتْهـا عائشـةُ لمـا تعرفُـهُ مـن فضلِـهِ وسـابقتهِ. أمُّ المؤمنيـن تُعلّمنـا درسًـا فـي حفـظِ أعـراضِ النَّـاس... وأمُّ مسـطحٍ تُعلّمنـا درسًـا آخـر: لا تقبـلْ الباطـلَ ولـو جـاءَ بـه أقـربُ النَّـاس إليـكَ.

12. إذا نـزلَ بـكَ أمـرٌ تَكْرَهُـهُ فـلا تتسـرّعْ فـي القـرارِ، واستشِـرْ مـن تثـقُ بدينِـهِ وعقلِـهِ. وهـذا النبـيُّ ﷺ يستشـيرُ عليًّـا وأُسَـامَةَ فـي أمـرٍ يمـسّ بيتَـهُ! المشـورةُ تُتيـحُ لـكَ اسـتخدامَ عقـولِ غيـرِكَ، وهـي أقـومُ مـن عقـلٍ واحـدٍ. والمشـكلاتُ تُربـكُ صاحبَهـا: ليسـتْ صعبـةً دائمًـا، لكنَّهـا مشـكلتُهُ هـو.

13. لا تقـلْ إلَّا حَقًّـا ولـو كنـتَ خصمًـا، وهـذه مـن أعلـى درجـاتِ النُّبْـلِ. وانظـرْ إلـى زَيْنَـبَ بنـتِ جَحْـشٍ: ضـرَّةُ عائشـةَ، ومنافسـتُها، ومـع ذلـك قالـت: أحمـي سـمعي وبصـري، ومـا علمـتُ إلّا خيـرًا! ألقَـتْ غيرتَهـا بعيـدًا، وانتَصَـرَت لدينِهـا وأخلاقِهـا. النُّبـلاء كثيـرون فـي الوفـاقِ، أمَّـا النَّبيـلُ حقًّـا فهـو الـذي يحفـظُ نُبلَـهُ حيـن يسـتطيعُ أن يتخلّـى عنـه.

14. مواقـفُ الجَبْـرِ فـي الانكسـارِ لا تُنسـى. المـرأةُ الأنصاريّـةُ حيـن سـمعتْ بمصـابِ عائشـةَ، جلسـتْ تبكي معها. لـم تُقـدّمْ حلـولًا، قدّمـتْ قلبًـا. والنَّـاس فـي لحظـاتِ الانكسـارِ لا يريـدون حلـولًا، بـل يريـدون مـن يشـعرُ بألمِهـم.

15. البُـكَاءُ مُسـتراحٌ. لا تكتـمْ أحزانَـكَ، فالقلـبُ قـد ينفجـرُ بمـا يحملُـهُ. وقـالَ ذو الرِّمَّـةِ:

لعلَّ انحدارَ الدمعِ يُعقبُ راحةً

من الوجدِ أو يشفي نجيَّ البلابلِ

فلمَّـا بكـى وجدَ راحـةً. وليـس البـكاءُ ضعفًـا، فقـد بكـى النَّبـيُّ ﷺ عنـد مـوتِ ابنِـهِ إبراهيـمَ، وقـال: إنَّ العيـنَ لتدمـع، وإنَّ القلـبَ ليحـزن، ولا نقـولُ إلَّا مـا يرضـي ربَّنـا.

16 ـ إذا هجمَ عليكَ الحزنُ... فتعزَّ بقصصِ الصَّالِحِينَ.

إنْ كذّبُوكَ... فقد كُذِّبَ نُوحٌ عليه السلام.

وإنْ عصوكَ... فقد عُصِيَ مُوسَى عليه السلام.

وإنْ ظلموكَ... فقد ظُلِمَ يُوسُفُ عليه السلام.

وإن افتقرتَ... فقد افتقرَ عِيسَى عليه السلام.

وإن ابتُلِيتَ بولدٍ عاقّ... فقد ابتُلِيَ نُوحٌ عليه السلام بابنهِ.

وإن ابتُلِيتِ بزوجٍ مؤذٍ... فتذكّري زوجَ آسِيَةَ الطاغيةَ.

وإن جـاءكَ الأذى مـن قريـبٍ... فتذكّـرْ أذى أبـي لَهَـبٍ وهـو عـمّ النبـيِّ ﷺ.

تعزَّ... فإنَّ في قصصِهم عبرةً، وللقلوبِ المكسورةِ دواءً.

غَزوةُ الأحزاب!
آخرُ مرَّةٍ يُغزى الإسلامُ في عُقْرِ داره!

اجتمعَ الأحزابُ حولَ المَدينةِ كما تَجْتَمِعُ الذِئابُ حولَ شاةٍ وحيدةٍ، تُحرِّكُهُم شهوةُ الافتراسِ لا شرفَ الحربِ!

قريشٌ بمالِها، وحقدِها، وجندِها! وغطفانُ بِعَنجَهيَّتِها، واليهودُ بِخُبثِهم، ظنّوا جميعًا أنَّهُم قادرونَ على وَأدِ الإسلامِ في مهدِ دولتِهِ، ولكن هَيْهاتَ أن يَستطيعَ النَّاس إطفاءَ شَمعةٍ أوقدَها اللّهُ!

اجتمعَ الأحزابُ، عَشَرَةُ آلافٍ مِن الجُندِ، بَل عَشَرَةُ آلافٍ مِن الحِقدِ، جاءوا يَحملون أُمنِيَّةً ألقاها الشيطانُ في قلوبِهم، وفي عيونِهم شَرَرٌ يَتَطايرُ، كانوا كغَيْمةٍ سوداءَ تَسُدُّ الأُفُقَ، فظنّوا أن شُعلةَ الإسلامِ ستَنطَفِئَ عندَ أوّلِ هَبّةٍ، وما عَلِموا أن تلك الشُّعلةَ لم تَكُن نارًا، وإنّما كانت نورًا في صَدرِ نبيٍّ يَستَضِيءُ بها صَحبُهُ!

اِجْتَمَعَ الأحزابُ مِن كلِّ صَوبٍ، حَمَلوا في صُدورِهم أحقادَ السِّنينِ، وجَرّوا خلفَهم ضَغائنَ الأَمْسِ، يَحدوهم الأَمَلُ أنَّه بإمكانِهم أن يَقتلعوا هذه الفَسيلةَ النورانيَّةَ التي نَبَتَتْ في عُمقِ صَحرائِهم، وحَسِبوا أنَّهُم الرِّيحُ العاصِفُ، وفي عُقولِهم صُوَرُ الفَسائلِ التي طالما ذَرَّتْها الرِّيحُ، رَتَّبوا كلَّ شيءٍ بِدِقَّةٍ، دَبَّروا أمرَهم بليلٍ، وأخَذوا حَذَرَهم، ولكن عنايةَ اللّهِ إذا حَفَّتْ عباده، يُؤتى العِداةُ مِن مآمِنِهم!

وبَيْنَ الخَوفِ والبَردِ والجُوعِ، كان النبيُّ ﷺ يَمشي بينَ أصحابِه بوجهٍ تَكسوه السَّكينةُ، كأنَّما لا قَمَرَ في هذا الظَّلامِ سِواهُ، كان يُرَبِّتُ على كَتِفِ العامِلِ، ويَمسَحُ التُّرابَ عن رأسِ المُتْعَبِ، ويَغرِسُ في القلوبِ بُذورَ الصَّبرِ!

تَوَزَّعَ الصَّحابةُ حولَ الخَندَقِ لا يحرُسون مَدينَةً، بَل يَحرُسونَ دينًا وعَقيدةً، يَتَصَبَّرونَ على الجُوعِ الذي يَنحَتُ أضلاعَهم، وعلى البَردِ الذي يَقصِمُ أطرافَهم، وبَيْنَما كان بَعضُهم يَرتَجِفُ مِن تآمُرِ الجُوعِ مع البَردِ، كان النبيُّ ﷺ يَربِطُ حَجَرَيْنِ على بَطنِهِ!

كان الخَندَقُ الذي حُفِرَ بأيدٍ مُتْعَبَةٍ، أَشبَهَ بِسَطْرٍ صغيرٍ كُتِبَ في رَملِ التَّاريخِ، لكنَّه حَمَلَ معنًى أَعظَمَ مِن كلِّ خُطَطِ الدِّفاعِ التي عَرَفَتْها الجُيوشُ، معنَى التَّدبيرِ الذي يَسبِقُه الدُّعاءُ، والجُهدِ الذي يُرافِقُه اليَقينُ، والعَمَلِ الذي يَقودُ إلى العِنايةِ!

كان الصَّحابةُ يَضرِبونَ الأَرضَ بالفُؤوسِ، لكنَّهُم في الحقيقةِ كانوا يَضرِبونَ اليَأسَ في صُدورِهِم!

كُلُّ حَجَرٍ يُقلَبُ، كان قَلبًا يُقلَبُ إلى الإيمانِ!

كُلُّ حُفنَةِ تُرابٍ تُرمَى، كان هَمًّا يُرمَى!

كُلُّ عَرَقٍ يَتَساقَطُ، كان دُعاءً يَرتَفِعُ!

كان الصَّحابةُ يَحرُسونَ الخَندَقَ، لكنَّ الحقيقةَ التي نَعرِفُها اليومَ أَنَّهُم كانوا يَحرُسونَ الإسلامَ!

وكان لَيْلُ المَدينةِ تَحتَ الحِصارِ غيرَ اللَّيل!

لَيْلٌ لم تَعرِفْ يَثْرِبُ مِثلَهُ، رِيحٌ تَعوي بينَ البُيوتِ، وتُرابٌ يَتطايرُ كطَعَناتٍ مُتتابِعَةٍ، فيَلسَعُ الوجوهَ كأنَّه الإبَرُ!

وفي لَحظةٍ فاصِلَةٍ، حين بَلَغَتِ القلوبُ الحَناجِرَ، وتَكَسَّرَ الصَّبرُ على شِفاهِ الرِّجالِ، جاءَتِ الرِّيحُ!

جاءَت نَفحةٌ عُلويَّةٌ نَفَثَتْها فَمُ العِنايةِ، لا تَرفَعُ سيفًا، ولا تَرمي سَهمًا، ولا تَضرِبُ رُمحًا، ولكنَّها مَأمورةٌ، وإذا ما حَفَّتْكَ عِنايةُ رَبِّكَ فَنَمْ آمِنًا في أَجْفانِ الخَطَرِ!

اِقتَلَعَتِ الرِّيحُ خِيامَ الأحزابِ، وقَلَبَتْ قُدورَهم، وأَطفَأَتْ نِيرانَهم، وأَلْقَتْ في قلوبِهم خَوفًا لو وُزِّعَ على الجِبالِ لَتَصَدَّعَتْ!

وفي الصَّباحِ، كان المَشهَدُ مُهيبًا، وليس في الكونِ أَكثَرُ هَيْبَةً مِن وُقوفِ المَرءِ على أَطلالِ مُعجِزَة!

اِختفى الأحزابُ كما يَختفي الظِّلُّ إذا اصطادَه شُعاعُ الشَّمس، وتَحوَّلتِ الجُموعُ التي أَرادَتْ أن تَبتلِعَ المَدينةَ الصَّغيرةَ إلى أَنْقاضِ خِيامٍ وقُدورٍ!

وَوَقَفَ الصَّحابةُ على أَطرافِ الخَندَقِ مَبهورينَ، لا مِن اِنْتِصارٍ صَنَعَتْهُ سُيوفُهم، بل مِن دَرْسٍ كَتَبَتْهُ يَدُ اللهِ: إنَّ القلوبَ إذا صَدَقَتْ، نَجاها اللهُ ولو اجتَمَعَ عليها أَهلُ الأَرضِ جميعًا!

ووَقَـفَ النبـيُّ ﷺ يُطالِـعُ الأُفُـقَ المُمتَـدَّ، كأنَّمـا يَقـرَأُ القـادِمَ كُلَّـهُ: الآنَ نَغْزوهـم ولا يَغْزونَنـا!

كانـت مَقولتُـهُ إيذانًـا بِعَصـرٍ جديـدٍ، عَصـرٍ تَتَحـوَّلُ فيـه المَدينـةُ مِـن قَلعـةِ مُحاصَـرةٍ إلـى رايـةٍ تَتَقَـدَّمُ، ومِـن دِفـاعٍ مُرهِـقٍ إلـى هُجـومٍ يَفتَـحُ الدُّنيـا!

وهكـذا بَقِيَـتْ غَـزوةُ الأحـزابِ دَرْسًـا لا يَشـيخُ مـع الزَّمَـنِ: إنَّ النَّصـرَ ليـس ضَربَـةَ سَـيْفٍ، بـل ضَربَـةَ يَقيـنٍ!

تِلـكَ كانـتِ الحِكايـةُ باقتِضـابٍ إذا مـا حَفَّهـا البَيـانُ، أَمَّـا التَّاريـخُ فيَسْـرِدُ سَـردًا، فَإِلَيـكَ الـذي حَـدَثَ!

لمّـا أجلـى رسـولُ اللّهِ ﷺ بَنـي النَّضيـرِ عـنِ المدينـةِ، خرجـوا إلـى خيبـرَ وقـد امتـلأت قلوبُهـم غيظًـا وحسـدًا، فلـم يزالـوا يتـردّدون بيـن القبائـلِ، يحرِّضونَهـا علـى رسـولِ اللّهِ ﷺ، ويعدونهـا إنْ هـي غـزتِ المدينـةَ أنْ يكونـوا معهـا بمالِهـم وولدِهـم. وكان رأسُـهم حُيَـيُّ بـنُ أخطـبَ، لا يقـرُّ لـه قـرارٌ حتَّـى يجمـعَ العـربَ كلَّهـم علـى حـربِ النبـيِّ ﷺ. فخـرج إلـى مكَّـة، فدخـل علـى قريـشٍ، وزيَّـن لهـم حـربَ محمَّـد، وقـال: إنّـا سـنكونُ معكم حتَّـى نسـتأصِلَ محمَّـداً وأصحابَـهُ.

ففرحـت قريـشٌ وقالـت: الآنَ آنَ لنـا أنْ نثـأرَ لِأُحُـدٍ، وتلاقـت إرادتُهـم علـى ذلـك. ثـمَّ خـرج حُيَـيٌّ إلـى غطفـانَ فكلّـم عُيينـةَ بـنَ حِصـنٍ والحـارثَ بـن عـوفٍ، ووعدهـم مـن ثمَـارِ خيبـرَ مـا يجعلُهـم يجيئـونَ بجموعِهـم، فاسـتجابوا، ولـم يـزل ينتقـلُ بيـن القبائـلِ حتَّـى تهيّـأت الأحـزابُ التـي لـم يجتمـعْ مِثلُهـا فـي العـربِ قـطُّ.

وبلَغَ رسولَ اللّهِ ﷺ خروجُ الأحزاب، فجمع أصحابَهُ للمشورةِ، وقد أخذ الخوفُ من قلوبِهم مأخَذَهُ، لما علِموا من قوّةِ قريشٍ وغطفانَ وكثرةِ مَن تبِعَهم. فتكلم سلمانُ الفارسيُّ، وكان ممّن شهد أمثالَ تلك الحروبِ في بلادِ فارسَ، فقال: «يا رسولَ اللّهِ، إنّا كنا بفارسَ إذا خِفْنا الخيلَ خندقْنا علينا».

فاستحسن رسولُ اللّهِ ﷺ الرأيَ، وأمر بحفرِ الخندقِ في الجهةِ المكشوفةِ من المدينةِ، وهي ثغرةٌ واسعةٌ يخشى المسلمون دخولَ الخيلِ منها.

وخرج المسلمون ومعهم رسولُ اللّهِ ﷺ يحفرونَ الخندقَ في بردٍ شديدٍ، وقد نالهم من الجوعِ شدّةٌ حتّى إنّ بعضَهم ليشدّ على بطنِهِ حجرًا، وكان النبيُّ ﷺ قد ربط على بطنِهِ حجرينِ. وكان يحمل الترابَ بنفسِهِ، ويثبّت القلوبَ، ويقول: «اللهم لا عيشَ إلّا عيشُ الآخرةِ، فاغفر للأنصارِ والمهاجرةِ».

وأثناءَ الحفرِ اعترضت الصحابةَ صخرةٌ عظيمةٌ استعصت عليهم، فدعوا رسولَ اللّهِ ﷺ، فلمَّا جاء أخذ المعولَ وقال: «باسمِ اللّهِ». وضربَّها ضربةً فتحت بصاعقةِ نورٍ، وقال: «اللّه أكبرُ، فُتِحَت لي مفاتيحُ الشام». ثمَّ ضرب ثانيةً فسطع نورٌ آخرُ وقال: «اللّه أكبرُ، فُتِحَت لي مفاتيحُ فارسَ». ثمَّ ضرب ثالثةً وقال: «اللّه أكبرُ، فُتِحَت لي مفاتيحُ اليمنِ». وكان المنافقون يرون ذلك فيسخرون، ويقولون: «يَعِدُكم بكنوزِ كسرى وقيصرَ، وأحدُكم لا يأمنُ أنْ يذهبَ لقضاءِ حاجتِهِ!».

فلمَّا فرغ المسلمون من حفرِ الخندقِ، وأقبلت الأحزابُ في عشرةِ آلافٍ، نزلوا بظاهرِ المدينةِ، فلمَّا رأوا الخندقَ قالوا: «هذه مكيدةٌ لم تكن العربُ تعرفُها». وضربوا حصارًا شديدًا على المسلمين، ورموا بالنبلِ والحجارةِ، ومنعوا النَّاس من الخروجِ، وكان اللَّيل باردًا، والنهارُ ثقيلًا، والمسلمون على السهرِ والخوفِ والجوعِ.

وزاد الجوعُ بالنَّاس حتَّى بلغ منهم مبلغًا شديدًا، وكان من أعجبِ ما وقع يومئذٍ كرامةُ جابرِ بنِ عبدِ اللّهِ في الطعامِ. فقد رأى برسولِ اللّهِ ﷺ ضعفًا وجوعًا، فانصرف إلى أهلِهِ، وقال لامرأتِهِ: «لقد رأيتُ برسولِ اللّهِ ما لا أُطيقُ، هل عندكِ شيءٌ؟».

فقالت: «عندي صاعٌ من شعيرٍ وعَناقٌ».

فطحنت الشعيرَ وطبخت العناقَ. وجاء جابرٌ سرًا إلى رسولِ اللّهِ ﷺ وقال: «يا رسولَ اللّهِ، إني صنعتُ طعامًا يسيرًا، فأتِ أنت ورجلٌ أو رجلانِ».

فوضع النبيُّ ﷺ يدَهُ على صدرِهِ وقال: «يا جابرُ، كثيرٌ طيّبٌ».

ثمَّ نادى في أهلِ الخندقِ جميعًا: «يا أهلَ الخندقِ، إنّ جابرًا صنع لكم طعامًا، فهلمّوا».

فبُهِتَ جابرٌ، وذهب إلى أهلِهِ يقول: «ويحكِ، قد جاء رسولُ اللّهِ ﷺ بالنَّاس جميعًا!».

فقالت: «هو أعلمُ بما يقول».

فجاء النبيُّ ﷺ إلى البيتِ، وقال لجابرٍ: «لا تُنزِلَنَّ من القدرِ إلّا بإذني، ولا تُخرِجَنَّ خبزًا من التنورِ إلّا بإذني».

فكان ﷺ يأخذ من القدرِ ويكسر من الخبزِ ويباركُ، فيدخل النَّاس فوجًا بعد فوجٍ، يأكلون حتَّى يشبعوا وينصرفون، والقدرُ كما هي، والتنورُ كأنْ لم يُمَسّ. حتَّى أكل أهلُ الخندقِ جميعًا، وبقي الطعامُ كما هو. فكانت هذه الكرامةُ من أعجبِ ما رآه النَّاس يومَ الخندقِ، يثبّت اللّهُ بها قلوبَ المؤمنين.

وفي بعض الأيامِ وجد عمرو بنُ عبدِ وُدٍّ العامريُّ -وكان من أشدِّ فرسانِ العربِ- ثغرةً ضيقةً في الخندقِ، فاقتحم منها ومعه نوفلٌ وكتيبةٌ من فرسانِ قريشٍ، وجعل يدعو إلى المبارزةِ ويقول: «مَن يبارزُ؟».

فلمَّا سمع المسلمون صوتَهُ اضطرب بعضُهم، وعرفوا بأسَهُ.

فقام عليٌّ بنُ أبي طالبٍ وهو شابٌّ، وقال: «أنا يا رسولَ اللّهِ».

فقال له النبيُّ ﷺ: «اجلسْ، إنه عمرو».

ثمَّ عاد عليٌّ ثانيةً وثالثةً، حتَّى أذن له النبيُّ ﷺ.

وخرج إليه، فقال له عمرو: «مَن أنت؟».

قال: «أنا عليٌّ».

قال: «ابنَ أخي، ما كنتُ لأقتلك».

فقال عليٌّ: «لكنّي واللّهِ لأقتلنّك».

واقتتلا قتالًا شديدًا، حتَّى علت الغبرةُ، ثمَّ سمع المسلمون تكبيرَ عليٍّ، وقد قتل عَمْروًا، فكبّر المسلمون، وسقط في أيدي

المشـركين، وارتفعـت روحُ المسـلمين. وقـد قـال النبـيُّ ﷺ يومهـا: «بَـرَزَ الإيمـانُ كلُّـه إلـى الشـركِ كلِّـهِ».

وبلَـغَ رسـولَ اللّهِ ﷺ فـي أثنـاءِ الحصـارِ أنَّ بَنـي قُريظـةَ قد نقضوا العهدَ، بعد أن جاءهـم حُيَـيُّ بنُ أخطـبَ، فدخل حصونَهـم، فـلا يـزال يفتـل فيهـم حتَّـى مالـت قلوبُهـم، وقالـوا لـه: «قـد نقضْنـا العهدَ».

وكان بيـن المسـلمين وقريظـةَ عهـدٌ علـى النصـرةِ والدفـاع المشـتركِ، فلمَّـا غدروا اشـتدّ الأمرُ علـى المسـلمين، إذ صـار العـدوُّ يأتـي مـن داخـلِ المدينـةِ وخارجِهـا.

وأرسـل النبـيُّ ﷺ سـعدَ بـنَ معـاذٍ وسـعدَ بـنَ عبـادةَ ليتثبتـا مـن أمرِهـم، فلمَّـا رجعـا قـالا: «عَضَـلٌ وقـارةٌ!» إشـارةٌ إلـى قبيلتيـنِ غدرتـا مـن قبـلُ.

فعلم النَّاس أنَّ الخطبَ جللٌ، وأنَّ المدينةَ قد انكشفت.

وفـي تلـك السـاعاتِ الحرجـةِ ظهـر نفـاقُ المنافقيـن، فكانـوا يسـتأذنون النبـيَّ ﷺ ويقولـون: «إنَّ بيوتنـا عـورةٌ» - ومـا هـي بعـورةٍ - ويتسـللون مـن العملِ، ويرجفـون فـي الصفـوفِ، ويقولـون: «مـا وعدنـا اللّهُ ورسـولُهُ إلّا غُـرورًا».

ثـمَّ جـاء نُعيـمُ بـنُ مسـعودٍ الأشـجعيُّ، وكان قـد أسـلم سـرًّا، فعـرض نفسَـهُ علـى رسـولِ اللّهِ ﷺ، وقـال: «يـا رسـولَ اللّهِ، إنَّ قومـي لا يعلمـون بإسـلامي، فمُرنـي بمـا شـئتَ».

فقال له النبيُّ ﷺ: «إنما أنت رجلٌ واحدٌ، فخَذِّلْ عنا ما استطعتَ».

فدخل نُعيمٌ على بني قريظةَ وقال لهم: «إنَّ قريشًا وغطفانَ إنْ رأوا فرصةً انصرفوا وتركوا المدينةَ لكم، فخذوا منهم رهائنَ».

ثمَّ ذهب إلى قريشٍ فقال لهم: «إنَّ بني قريظةَ قد ندموا، وأرادوا أن يأخذوا منكم رجالًا يسلّمونهم لمحمَّد».

ثمَّ ذهب إلى غطفانَ فقال مثل ذلك.

فوقع الشكُّ في نفوسِ الأحزابِ، وفسدت الثقةُ التي كانت بينهم، وصار بعضُهم يتهم بعضًا، حتَّى انقطع ما بينهم من حلفٍ.

ولما كانت ليلةٌ شديدةُ الريحِ والقَرِّ، بعث اللّهُ ريحًا صرصرًا فجعلت تقلع خيامَ المشركين، وتكفِئ قدورَهم، وتقطع حبالَهم، ولا تدع لهم بناءً يقوم، ولا نارًا توقد.

حتَّى قام أبو سفيانَ وقال: «إنّا واللّهِ ما أصبحْنا بدارِ مقامٍ، فارتحلوا».

فانصرف الأحزابُ خائبين، وقد كفى اللّهُ المؤمنين القتالَ!

فلمَّا أصبح المسلمون ورأوا انصرافَ الأحزابِ، قال رسولُ اللّهِ ﷺ: «الآنَ نغزوهم ولا يغزونَنا». ثمَّ أمر بالسير إلى بني قريظةَ الذين خانوا العهدَ.

وانتهت الغزوةُ، وقد ردّ اللّٰهُ كيدَ الأحزابِ، وثبّت دعائمَ الدولةِ، ورفع المسلمين إلى مقامٍ لم يبلغوه قبلَها، وكانت تلك الوقعةُ فاصلةً بين مرحلتينِ: مرحلةٍ يستقبلون فيها هجومَ قريشٍ، ومرحلةٍ يغزون هم فيها قريشًا حتَّى فُتِحت مكَّة!

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه أهمُّ الدُّروس المستفادة من غزوة الأحزاب:

1. أنَّ بَصيرةَ رَجُلٍ واحدٍ قد تُنقِذُ أُمَّةً؛ كما فعلت فكرةُ الخَندَقِ، فالرَّأيُ السَّديدُ أحيانًا أقوى من ألفِ سيفٍ، ويحوِّلُ ميزانَ القُوَى بلمحةِ عقلٍ ثاقبٍ.

2. أنَّ التوكُّلَ بلا عَمَلٍ تَمَنٍّ، والعملَ بلا توكُّلٍ غُرورٌ؛ فلا يتحقَّقُ النصرُ إلا إذا ارتبطت حركةُ الأرضِ بثقةِ السَّماء، واجتمع الجهدُ البشريُّ مع العَونِ الإلهيِّ.

3. أنَّ القِيادةَ ليست صَوتًا يعلو، بل كَتفًا تتّسِخُ بالتُّرابِ مع الجنودِ؛ فالقائدُ الحقُّ يعيشُ تَعَبَهُم، ويحملُ معهم خوفَهم، ويشعرون في حضوره بالقوّةِ لا بالكلّماتِ.

4. أنَّ الشَّدائدَ تَصهَرُ القلوبَ؛ فتُبقِي الصَّادِقَ كَالذَّهَبِ، وتُسقِطُ المُنافِقَ كالرَّمادِ؛ ففي لحظاتِ المِحَنِ تتعرّى النفوسُ، ويظهرُ مَعدِنُ كلِّ إنسانٍ.

5. أنَّ ساعةَ الصَّبرِ عندَ القمّةِ أثمَّنُ مِن ألفِ ساعةِ راحةٍ في السَّفحِ؛ فالنصرُ يُولَدُ عند آخرِ خطوةٍ من التحمُّلِ، لا عند أوَّلِ تنهيدةِ يأسٍ.

6. أنَّ الرِّيَح التي يُرسِلُها اللهُ قد تهزمُ جيوشًا لا يهزمُها سيفٌ؛ فالموازينُ بيدِ اللهِ، وقد ينكسرُ العدوُّ بلا ضربةٍ، بكلمةٍ واحدةٍ: «كُنْ».

7. أنَّ الجماعةَ المُتَّحِدةَ أقوى من عشرةِ آلافٍ مُتفرِّقين؛ فالأحزابُ اجتمعوا بأجسادِهم وتفرّقوا بقلوبِهم، والمسلمون كانوا قلّةً بأجسادِهم، لكنهم كتلةٌ واحدةٌ بروحِهم.

8. أنَّ الألَم والجوعَ والخوفَ ليست نِقَمًا، بل جُسورًا يمشي عليها النصرُ؛ فاللهُ يُهَيِّئُ القلوبَ بالابتلاءِ لتكونَ أهلاً لأمانةِ الانتصارِ.

9. أنَّ الخيانةَ ليست رَأيًا، بل سقوطًا أخلاقيًّا يُسقِطُ أصحابَه مهما بلغوا قوّةً؛ فالعهدُ عند الشرفاءِ دينٌ، وعند الغادرين ورقةٌ تُسقَطُ متى شاؤوا.

10. أنَّ تحالُفَ الباطلِ هَشٌّ؛ لأن القلوبَ السوداء لا تُتقِنُ البقاءَ معًا طويلًا؛ فالشرُّ لا يجتمعُ إلا ليختلفَ ويتصدَّعَ سريعًا.

11. أنَّ الحِكمةَ أحيانًا أبلغُ من السَّيفِ؛ وأنَّ حُفرةً في الأرضِ قد توقفُ عاصفةً في السَّماء؛ فالعقلُ الرشيدُ يتفوّقُ على الاندفاعِ.

12. أنَّ اللهَ يُمهِل ليميِّز الصَّفَّ، ثمَّ ينصرُ من صَبَرَ وثَبَتَ ولم يُبَدِّل؛ فالمحنةُ في الأحزابِ كانت اختبارًا، والفرجُ جاء بعد اكتمالِ الابتلاءِ.

13. أنَّ المِحنَ العظيمةَ تُمهِّدُ للقوّةِ؛ وغزوةُ الأحزابِ كانت انتقالًا من الدِّفاعِ إلى الفتحِ، فبعد تلك اللَّيلة تغيّر التاريخُ وارتفعت رايةُ العزّةِ.

14. أنَّ النصرَ يبدأ من ثباتِ الدّاخلِ قبل أن يظهرَ على الأرضِ؛ فالقلبُ المؤمنُ يصنعُ الخطوةَ الأولى نحو الفتحِ مهما اشتدّ الظلامُ.

15. أنَّ الصِّراعَ بين الحقِّ والباطلِ ثابتٌ؛ الجنودُ هم الذين يتغيّرون، أمّا السننُ فواحدةٌ؛ وكم من أحزابٍ اجتمعوا بعد ذلك، وكم من قلّةٍ مؤمنةٍ حوصرت، واللّهُ بالِغٌ أمرَهُ.

غزوةُ بني قريظة!
عَلَى الباغي تَدُورُ الدَّوائِرُ!

أحاطَ الأحزابُ بالمدينةِ إحاطةَ السِّوارِ بالمعصمِ، ضربوا حصارًا خانقًا، ولو استطاعوا أن يمنعوا الهواءَ عن المسلمينَ لَمَنَعوه! ووقف رسولُ اللّهِ ﷺ بين أصحابِه باسقًا، صبرُ الأنبياءِ في عينيهِ، ويقينُ السَّماء في صدرِه. هناك، في تلك اللحظاتِ الفاصلةِ، كُشِف وجهُ الخيانةِ في بَني قُريظة كشفًا لا يحتملُ التأويل.

كان بينهم وبين رسولِ اللّهِ ﷺ عهدٌ موثَّق، كُتِب بالعدلِ، وخُطَّ بالأمان، وأُبرِم على أن تبقى المدينةُ حَرَمًا آمنًا يحميهِ الجميع، لكنَّ النُّفوسَ التي أَلِفَتِ الغَدْرَ لم تستطع صبرًا على الوفاءِ. فلمَّا اشتدَّ الخَطْبُ، وجاءت الأحزابُ من كلِّ صوبٍ، تزلزلت قلوبُ بني قريظة، ومالت نفوسُهم إلى الغدرِ ميلَ الرِّيحِ لورقٍ ضعيف. فتحت الخيانةُ أوَّلَ بابِها هَمْسًا، ثمَّ كَبِرَت حتَّى صارت فعلاً مُعْلَنًا، فمزَّقوا صحائفَ العهدِ كما تُمَزَّقُ الثِّيابُ البالية، وتهيّؤوا ليغرِسوا خناجِرَهُم في خاصرةِ المدينة.

كانت تلك الخيانةُ أشدَّ على المسلمين من وقعِ السيوفِ، فالعهدُ حُرْمَة، ونقضُه جريمة، فإذا طُعِن المرءُ من خلفِهِ، فمن أين يأتيهِ الحذر؟ ومع ذلك ظلَّ النبيُّ ﷺ حَكيمًا، ينظر بعينِ

العدلِ لا بعينِ الغضب، وينتظر انقضاءَ حصارِ الأحزاب قبل أن يلتفتَ إلى هؤلاء الذين خانوا.

ثمَّ جاء الفرجُ، وانصرف الأحزابُ بريحٍ أرسلها اللّٰهُ، وقلوبٍ قُذِف فيها الرُّعب، وما إن عاد النبيُّ ﷺ إلى المدينة ووضع سلاحَه، حتَّى جاءه جبريلُ عليه السلام يقول: إنَّ اللّٰه يأمركَ بالسيرِ إلى بني قريظة، فإنّي لم أضع السِّلاح بعد!

فنهض النبيُّ ﷺ نهوضَ الأَسَدِ إذا طُعِنَ عرينُه. ونادى في النَّاس: لا يُصَلِّيَنَّ أحدُكم العصرَ إلا في بني قريظة!
فانطلقت الجموعُ، تُهروِلُ بين الرمالِ كأنّها سَيْلٌ جارٍ، وقد علموا أن الحُكمَ هنا ليس نصرًا للسيفِ، بل للعدل، وأنَّ المدينةَ لا تُبْنَى على حجرِ الغدر.

حوصِرَ بنو قريظة في حصنهم أيامًا، وكلُّ يوم يزداد يقينُهم بأنَّ الغدرَ لا يورِّثُ عزًّا، ولا يُنقِذُ صاحبَه ساعةَ الشدة. فلمَّا أيقنوا بالهزيمةِ، نزلوا على حكمِ رسولِ اللّٰه ﷺ، ففوّض الحكمَ إلى سعدِ بنِ مُعاذٍ رضي اللّٰه عنه، الرجلِ الذي عرفوه دهرًا، وعرفوا في قلبِهِ العدلَ لا الهوى.

وكان حكمُ سعدٍ حكمًا من نورِ السَّماء، لا من غضبِ الأرض: أن تُقْتَلَ مقاتلتُهم، وتُسْبَى نساؤُهم وذراريُّهم، ويُقسَم مالُهم.

فقـال لـه النبـيُّ ﷺ: لقـد حكمـتَ بحُكـمِ اللّهِ مـن فـوقِ سـبعةِ أَرْقِعَـة!

ولـم يكـن ذلـك انتقامًـا أجـوفَ، ولا حَمِيَّـةً عميـاء، بـل كان تأديبًـا لدولـةٍ خانـت عهدَهـا فـي سـاعةِ الخطـر، وقـد كاد غدرُهـا أن يُسـقِطَ المدينـةَ كلَّهـا فـي يدِ المشـركين. وكانـت تلـك الخاتمـةُ درسًـا للتاريـخ: أن الوفـاءَ حصـنٌ، وأن الغـدرَ لا يبنـي أُمّـة، وأن النبـيَّ ﷺ كان يُقيـم الحـدودَ والعـدلَ لتقـوم الحيـاةُ، لا لتهدمَهـا!

تِلكَ كانَتِ الحِكايةُ مُوجَزَةً تَتَّكِئُ على عُكّازِ البَيانِ، أمّـا السَّـردُ فَـلا مَنـاصَ مِنـهُ، فَإلَيـكَ الَّـذي حَـدَثَ!

لَمّـا أَصبَـحَ رَسـولُ اللّهِ ﷺ وَقَـد ذَهَـبَ الأَحـزابُ رَجَعَ إلـى المَدينَـةِ، وَوَضَـعَ المُسـلِمونَ سِـلاحَهُم، فَأَتـاهُ جِبريـلُ عليه السلام فـي صُـورَةِ دِحيَـةَ بـنِ خَليفَـةَ الكَلبـيِّ، علـى بَغلـةٍ عَلَيهـا قَطيبَـةُ دِيبـاجٍ، فَقـالَ لَـهُ: يـا محمَّـد، إن كُنتُـم قَـد وَضَعتُـم سِـلاحَكُم فَمـا وَضَعَـتِ المَلائِكَـةُ سِـلاحَها، إنَّ اللّه يَأمُـرك أَن تَخـرُجَ إلـى بَنـي قُرَيظَـةَ، وَإنّـي مُتَقَـدِّمٌ إليهِـم فَمُزَلـزِلٌ بِهِـم.

فَأمَـرَ رَسـولُ اللّهِ ﷺ مُنادِيـاً يُنـادي فـي النّـاس: لا يُصَلِّيَـنَّ أَحَدُكُـمُ العَصـرَ إلّا فـي بَنـي قُرَيظَـةَ.

وَكانَ سَعدُ بنُ مُعاذٍ ـ إذ أَصابَهُ السَّهمُ ـ دَعا ربَّه، فَقالَ:

اللَّهُمَّ إن كُنتَ أبقَيتَ مِن حَربِ قُرَيشٍ شَيئاً فَأبقِني لَها، فَإنَّهُ لا قَومَ أحَبُّ إلَيَّ أن أُجاهِدَهُم مِن قَومٍ كَذَّبوا رَسولَكَ وَأخرَجوهُ، اللَّهُمَّ إن كُنتَ وَضَعتَ الحَربَ بَينَنا وَبَينَهُم فَاجعَلها لي شَهادَةً، وَلا تُمِتني حتَّى تُقِرَّ عَيني مِن بَني قُرَيظَةَ!

فَخَرَجَ المُسلِمونَ مُبادِرينَ إلى بَني قُرَيظَةَ، فَطائِفَةٌ خافوا فَواتَ الوَقتِ فَصَلَّوا، وَطائِفَةٌ قالوا: وَاللّهِ لا نُصَلِّيَنَّ العَصرَ إلّا في بَني قُرَيظَةَ، فَبِذَلِكَ أمَرَنا رَسولُ اللّهِ ﷺ. ثمَّ عَلِمَ ﷺ باجتِهادِهِم، فَلَم يُعَنِّف واحِداً مِنهُم.

وَأعطى رَسولُ اللّهِ ﷺ الرّايَةَ عَلِيَّ بنَ أبي طالِبٍ، وَاستَخلَفَ على المَدينَةِ ابنَ أُمِّ مَكتوم. وَنَهَضَ عَلِيٌّ وَطائِفَةٌ مَعَهُ حتَّى أتَوا بَني قُرَيظَةَ وَنازَلوهُم، وَسَمِعوا سَبَّ رَسولِ اللّهِ ﷺ، فَانصَرَفَ عَلِيٌّ إلى رَسولِ اللّهِ ﷺ، فَقالَ لَهُ: يا رَسولَ اللّهِ، لا تَبلُغ إلَيهِم - وَعَرَضَ لَهُ.
فَقالَ لَهُ: أظُنُّكَ سَمِعتَ مِنهُم شَتمي، لَو رَأَوني لَكَفّوا عَن ذَلِك.
وَنَهَضَ إلَيهِم، فلمَّا رَأَوهُ أمسَكوا!
فَقالَ لَهُم: نَقَضتُمُ العَهدَ يا إخوَةَ القُرودِ، أخزاكُمُ اللّهُ وَأنزَلَ بِكُم نِقمَتَهُ!
فَقالوا: ما كُنتَ جاهِلاً يا محمَّد، فَلا تَجهَل عَلَينا.

وَنَزَلَ رَسولُ اللّهِ ﷺ فَحاصَرَهُم بُضعاً وَعِشرينَ لَيلَةً، وَعَرَضَ عَلَيهِم سَيِّدُهُم كَعبُ بنُ أسَدٍ ثَلاثَ خِصالٍ لِيَختاروا أيَّها شاؤوا:

إمّا أَن يُسلِموا وَيَتَّبِعوا محمَّداً على ما جاءَ بِهِ فَيَسلَموا، قالَ: وَتُحَرِّزوا أَموالَكُم وَنِساءَكُم وَأَبناءَكُم، فَوَاللّهِ إِنَّكُم لَتَعلَمونَ أَنَّهُ الَّذي تَجِدونَهُ في كِتابِكُم.

وَإِمّا أَن يَقتُلوا أَبناءَهُم وَنِساءَهُم ثُمَّ يَتَقَدَّموا فَيُقاتِلوا حتَّى يَموتوا عَن آخِرِهِم.

وَإِمّا أَن يُبَيِّتوا المُسلِمينَ لَيلَةَ السَّبتِ في حينِ طُمَأنينَتِهِم فَيَقتُلوهُم قَتلاً.

فَقالوا لَهُ: أَمّا الإِسلامُ فَلا نُسلِمُ وَلا نُخالِفُ حُكمَ التَّوراةِ، وَأَمّا قَتلُ أَبنائِنا وَنِسائِنا فَما جَزاؤُهُمُ المَساكينُ مِنّا أَن نَقتُلَهُم، وَنَحنُ لا نَتَعَدّى في السَّبتِ!

ثُمَّ بَعَثوا إِلى أَبي لُبابَةَ، وَكانوا حُلَفاءَ بَني عَمرِو بنِ عَوفٍ وَسائِرِ الأَوسِ، فَأَتاهُم، فَجَمَعوا إِلَيهِ أَبناءَهُم وَرِجالَهُم وَنِساءَهُم، وَقالوا لَهُ: يا أَبا لُبابَةَ، أَتَرى أَن نَنزِلَ على حُكمِ محمَّد؟

فَقالَ: نَعَم، وَأَشارَ بِيَدِهِ إلى حَلقِهِ: إِنَّهُ الذَّبحُ إِن فَعَلتُم.

ثُمَّ نَدِمَ أَبو لُبابَةَ في الحالِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ خانَ اللّه وَرَسولَهُ، وَأَنَّهُ أَمرٌ لا يَستُرُهُ اللّهُ عَن نَبِيِّهِ ﷺ. فَانطَلَقَ إِلى المَدينَةِ، فَرَبَطَ نَفسَهُ في سارِيَةٍ، وَأَقسَمَ لا يَبرَحُ مَكانَهُ حتَّى يَتوبَ اللّهُ عَلَيهِ. فَكانَتِ امرَأَتُهُ تُحِلُّهُ لِوَقتِ كُلِّ صَلاةٍ.

وَفيهِ نَزَلَت: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا لا تَخونوا اللهَ وَالرَّسولَ وَتَخونوا أَماناتِكُم﴾.

وَأَقسَـمَ أَن لا يَدخُـلَ أَرضَ بَنـي قُرَيظَـةَ أَبَـداً، مَكانـاً أَصـابَ فيـهِ الـذَّمَّ. فلمَّـا بَلَـغَ النَّبـيَّ ﷺ فِعلُـهُ قـالَ: أَمّـا إِنَّـهُ لَـو أَتانـي لَاسـتَغفَرتُ لَـهُ، وَأَمّـا إذا فَعَـلَ فَلَسـتُ أُطلِقُـهُ حتَّـى يُطلِقَـهُ اللّٰه. فَأَنـزَلَ اللّٰه تَعالـى: ﴿وَآخَــرونَ اعتَرَفـوا بِذُنوبِهِــم﴾. فلمَّـا نَـزَلَ فيـهِ القُـرآنُ أَمَـرَ رَسـولُ اللّٰهِﷺ بِإطلاقِـهِ.

وَنَـزَلَ في تِلكَ اللَّيلـة الَّتـي فـي صَبيحَتِهـا نَزَلَـت بَنو قُرَيظَـةُ علـى حُكـم رَسـولِ اللّٰهِ ﷺ، ثَعلَبَـةُ وَأُسَـيدٌ ابنَـا سُـعيَّةَ، وَأَسَـدُ بـنُ عُبَيـدٍ، وَهُـم نَفَـرٌ مِـن هَـدلٍ بَنـي عَـمِّ قُرَيظَـةَ وَالنَّضيـرِ، وَلَيسـوا مِنهُـم، نَزَلـوا مُسـلِمينَ، فَأَحـرَزوا أَموالَهُـم وَأَنفُسَـهُم.

وَخَـرَجَ فـي تِلـكَ اللَّيلـة عَمـرُو بـنُ سَـعدى القُرَظـيُّ، وَمَـرَّ بِحَـرَسِ رَسـولِ اللّٰهِ ﷺ وَعَلَيـهِ محمَّـد بـنُ مَسـلَمَةَ، وَكانَ عَمـرُو قَـد أَبـى أَن يَدخُـلَ فيمـا دَخَـلَ فيـهِ بَنـو قُرَيظَـةَ، وَقـالَ: لا أَغـدِرُ بِمحمَّـد أَبَـداً!

فَقـالَ لَـهُ محمَّـد بـنُ مَسـلَمَةَ إذ عَرَفَـهُ: اللَّهُـمَّ لا تَحرِمْنـي إقالَـةَ عَثَـراتِ الكِـرام.

فَخَـرَجَ علـى وَجهِـهِ حتَّـى بـاتَ فـي مَسـجِدِ النَّبـيِّ ﷺ ثـمَّ ذَهَـبَ فَلَـم يُـرَ بَعـدُ.

وَذُكِرَ لِرَسولِ اللّٰهِ ﷺ أَمرُهُ، فَقالَ: ذَلِكَ رَجُلٌ نَجّاهُ اللّٰه بِوَفائِهِ.

فلمَّـا أَصبَحَ بَنـو قُرَيظَـةَ نَزَلـوا علـى حُكـم رَسـولِ اللّٰهِ ﷺ، فَتَواثَـبَ الأَوسُ إلـى رَسـولِ اللّٰهِ ﷺ، فَقالـوا: يـا رَسـولَ اللّٰهِ، قَـد عَلِمـتَ أَنَّهُـم

حُلَفاؤُنا، وَقَد شَفَعَ عَبدُ اللّهِ بنُ أُبَيٍّ في بَني قَينُقاعَ حُلَفاءِ الخَزرَجِ، فَلا يَكُن حَظُّنا أَوكَسَ عِندَكَ مِن غَيرِنا، فَهُم مَوالِينا.

فَقالَ لَهُم رَسولُ اللّهِ ﷺ: يا مَعشَرَ الأَوسِ، أَلا تَرضَونَ أَن يَحكُمَ فيهِم رَجُلٌ مِنكُم؟

قالوا: بَلى.

قالَ: فَذَلِكَ إلى سَعدِ بنِ مُعاذٍ.

وَكانَ رَسولُ اللّهِ ﷺ قَد ضَرَبَ لَهُ خَيمَةً في المَسجِدِ يَعودُهُ مِن قَريبٍ في مَرضِهِ مِن جُرحِهِ في الخَندَقِ. فلمَّا حَكَّمَهُ رَسولُ اللّهِﷺ في بَني قُرَيظَةَ، أَتاهُ قَومُهُ فَاحتَمَلوهُ على حِمارٍ، وَقَد وَطَّؤوا لَهُ بِوِسادَةٍ مِن أَدَمٍ وَكانَ رَجُلاً جَسيماً. ثُمَّ أَقبَلوا بِهِ إلى رَسولِ اللّهِﷺ، وَأَحاطوا بِهِ في طَريقِهِم يَقولونَ: يا أَبا عَمرٍو، أَحسِن في مَوالِيكَ، فَإِنَّما وَلاكَ رَسولُ اللّهِ ﷺ ذَلِكَ لِتُحسِنَ إِلَيهِم!

فَقالَ لَهُم: قَد آنَ لِسَعدٍ أَلّا تَأخُذَهُ في اللّهِ لَومَةُ لائِمٍ.

فلمَّا أَطلَّ سَعدٌ على النَّبيِّ ﷺ قالَ لِلأَنصارِ: قوموا إِلى سَيِّدِكُم!

فَقَامَ المُسلِمونَ، فَقالوا: يا أَبا عَمرٍو، إِنَّ رَسولَ اللّهِ ﷺ قَد وَلاكَ أَمرَ مَوالِيكَ لِتَحكُمَ فيهِم!

فَقالَ سَعدٌ: عَلَيكُم بِذَلِكَ عَهدُ اللّهِ وَميثاقُهُ: أَنَّ الحُكمَ فيهِم ما حَكَمْتُ؟

قالوا: نَعَمْ.

قالَ: وَعَلى مَن هاهُنا؟ ـ مِنَ النّاحِيَةِ الَّتي فيها رَسولُ اللّهِ ﷺ، وَهو مُعرِضٌ عَنهُ إجلالاً لَهُ.

فَقالَ لَهُ رَسولُ اللّهِ ﷺ: نَعَمْ.

قالَ سَعدٌ: فَإِنّي أَحكُمُ فيهِم أَن يُقتَلَ الرِّجالُ، وَتُسبى الذَّراري وَالنِّساءُ، وَتُقسَمَ الأَموالُ!

فَقالَ لَهُ رَسولُ اللّهِ ﷺ: لَقَد حَكَمْتَ فيهِم بِحُكمِ اللّهِ تَعالى مِن فَوقِ سَبعَةِ أَرقِعَةٍ!

وَأَمَرَ بِهِم رَسولُ اللّهِ ﷺ، فَأُخرِجوا إِلى مَوضِعِ سوقِ المَدينَةِ، فَخَنَدَقَ بِها خَنادِقَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِم، فَضُرِبَت أَعناقُهُم في تِلكَ الخَنادِقِ، وَقُتِلَ يَومَئِذٍ حُيَيُّ بنُ أُخطَبَ وَكَعبُ بنُ أَسَدٍ. وَكانوا مِنَ السِّتِّمِئَةِ إِلى السَّبعِمِئَةِ. وَقُتِلَ مِن نِسائِهِم امرَأَةٌ، وَهيَ بَنانَةُ امرَأَةُ الحَكَمِ القُرَظِيِّ الَّتي طَرَحَتِ الرَّحى على خَلّادِ بنِ سُوَيدٍ فَقَتَلَتهُ.

وَأَمَرَ رَسولُ اللّهِ ﷺ بِقَتلِ كُلِّ مَن أَنبَتَ مِنهُم، وَتَركَ كُلَّ مَن لَم يُنبِت، أَي لَم يَظهَر لَهُ شَعرُ عانَةٍ وَلَم يَبلُغ، وَكانَ عَطِيَّةُ القُرَظِيُّ مِن جُملَةِ مَن لَم يُنبِت، فَاستَبقاهُ رَسولُ اللّهِ ﷺ، وَهوَ مَذكورٌ في الصَّحابَةِ.

وَقَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ أَموالَ بَني قُرَيظَةَ، فَأَسهَمَ لِلفارِسِ ثَلاثَةَ أَسهُمٍ وَلِلرّاجِلِ سَهماً، وَقَد قيلَ: لِلفارِسِ سَهمانِ وَلِلرّاجِلِ سَهمٌ. وَكانَتِ

الخَيلُ لِلمُسلِمينَ يَومَئِذٍ سِتَّةً وَثَلاثينَ فَرَساً. وَوَقَعَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِن سَبيهِم رَيحانَةُ بنتُ عَمرِو بنِ خَناقَةَ إِحدَى بَني عَمرٍو بنِ قُرَيظَةَ، فَلَم تَزَلْ عِندَهُ حتَّى ماتَ ﷺ.

فلمَّا تَمَّ أَمرُ بَني قُرَيظَةَ، أُجيبَت دَعوَةُ الرَّجُلِ الصّالِحِ سَعدِ بنِ مُعاذٍ، فَانفَجَرَ جُرحُهُ، وَانفَتَحَ عِرقُهُ، فَجرى دَمُهُ وَماتَ رَضِيَ اللّٰه عَنهُ. وَهوَ الَّذي أَتَى الحَديثُ فيهِ: أَنَّهُ اهتَزَّ لِمَوتِهِ عَرشُ الرَّحمٰنِ!

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُكتب، هذه هي أهمُّ الدُّروس المستفادة من غزوة بني قريظة:

1. أَنَّ العُهُودَ مِيثاقُ أَرْواحٍ قبل أن تكونَ حروفًا مكتوبة؛ فمن خانَ العهدَ خانَ نفسَه، وسقطَ من عينِ التاريخِ قبل أن يسقطَ من عينِ الرجال.

2. وأنَّ الأزماتِ العُظْمَى تُظْهِرُ مَعادِنَ النُّفوسِ؛ فما إن هدأ غبارُ الأحزابِ حتَّى انكشفَ وجهُ الغدرِ بين جدرانِ بني قريظة، كخنجرٍ يُسَلُّ حين يطمئنُّ الصدر.

3. وأنَّ القِيادَةَ الرَّبَّانِيَّةَ لا تعرف التردّد؛ يمشي النبيُّ ﷺ بخطواتٍ كالنور، يضع الحقَّ في موضعه، والعدلَ في كفِّه.

4. وأنَّ العَدالَةَ تُوزَنُ بميزانٍ لا يَميلُ؛ ميزانٍ يُقيمُ الحقَّ ولو على رقابِ المعتدين.

5. وأنَّ الأمَنَ نِعْمَةٌ لا تُصانُ إلا بالحَزْمِ؛ فمدينةُ الوحي لا تليق بها أن تُفْتَحَ لأنيابِ الخيانة.

6. وأنَّ المنافقينَ هُم هَمَسُ الجُبْنِ؛ يختبئون وراء الكلام، فإذا جاءت ساعةُ العملِ انكمشوا.

7. وأنَّ اللّه يُمْهِل ولا يُهْمِل؛ والغادرُ مهما طال نومُه على وسادةِ الخديعةِ، فسيستيقظ على حسابٍ لا يُؤَجَّل.

8. وأنَّ الأُمَّةَ تُبْنَى بالقُوَّةِ وَالحِكْمَةِ والإيمانِ، لا بالعاطفةِ وحدها!

9. وأنَّ النَّصْرَ الحقيقيَّ نَصْرُ المَبْدَأ قبل نصر السيف.

10. وأنَّ التاريخَ لا يحفظُ الخائنينَ إلا عِبْرَةً، ويحفظُ الأوفياءَ سُواري نورٍ في سفرِ الخلود.

11. وأنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ جَمَعَ بين الحَزْمِ والرَّحْمَةِ، فلا يُغَلِّبُ عاطفةً على حكم.

12. وأنَّ الغَزَواتِ مَدارِسُ تَرْبِيَةٍ إلهيّة؛ تُنقّي الصفَّ وتُقيم القلوبَ على محاريبِ اليقظة.

صُلْحُ الحُديبية! الصُّلْحُ الَّذي أورثَ فَتْحًا!

صُلْحُ الحُديبيَةِ ليسَ معاهدةً تُقرأ، بل دَرْسًا من دُروسِ السَّماء، أنّ النَّصر لا يُقاسُ بصوتِ السُّيوف، بل بثباتِ الرُّوح. وأنَّ التَّراجُعَ خُطوةً في الظاهر، قد يكونُ صعودًا في سُلَّمِ القَدَرِ.

وأنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ كان يمشي إلى الفَتْحِ ولو بدا أنّه يعودُ أَدْراجَه. فما عادَ يومَ الحُديبيَةِ، بل تَقَدَّمَ إلى مكَّة من حيثُ لم تَدْرِ مكَّة!

خرجَ النبيُّ ﷺ من المدينةِ لا يُريدُ حَرْبًا، إنما يُريدُ عُمْرَةً يَزِفُّ بها القلوبَ إلى البيتِ العَتيق. خرجَ ومن حولِه ألفٌ وأربعمائةٍ، ما في أيديهم إلا سُيوفُ المسافر، وما في صدورِهم إلا شوقٌ يوشِك أن يَنْفَلِقَ من حَنينِه. كانتِ القوافلُ تمشي على الرَّمْلِ كأنَّ الأرضَ تُفرشُ لهم طُرُقًا من نور، والقلوبُ تملأُ السَّماء تكبيرًا وتهليلًا.

فما إن بلغوا الحُديبيَةَ حتَّى اعترضتهم قُرَيْش؛ جاءتْ بعِنادِها القديم، تقفُ كجبلٍ أصَمٍّ في وجهِ الوحي، تَمنَعُ الطريقَ إلى بيتٍ ما وُضِعَ إلّا ليُزار. ومع ذلك، ما اهتزَّ للرسولِ ﷺ رِمش، بل قال: إنّا لم نأتِ لِقِتال.

كان يمشي بين أصحابِه يمسحُ من على أرواحِهم غبارَ اليأس، ويزرعُ مكانَه رَوْحَ الرَّجاء.

وبعثَ السُّفَرَاء، وتناوبتِ الرُّسُل، وتكسَّرتِ الكلّماتُ بين الخوفِ والرَّجاء، حتَّى جاء سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو؛ فجاء معه الفَرَج، إذ قال النبيُّ ﷺ: سَهُلَ أمرُكم.

وفي تلك اللحظةِ بدأتِ المعركةُ الكُبرى؛ ليست معركةَ سيوفٍ، بل معركةَ ضبطِ الغَضَب، وحبسِ القُوّة، وإمضاءِ الصَّبْرِ.

وكتبوا الصُّلْحَ بُنودًا بدتْ للصحابةِ كأنَّها أمطارٌ مالحةٌ تُطفِئُ جَمْرَ قلوبِهم ولا تُنْبِتُ شيئًا. لكن النبيَّ ﷺ كان يرى ما وراءَ الغَيْب، يرى فَتْحًا ينزلُ من السَّماء ببطء، كغُصْنِ زيتونٍ يميلُ على زمنٍ مُتْعَب.

رَجَعَ المسلمون بلا عُمْرَة، لكنهم رَجَعوا بإذنٍ سماويٍّ لِفَتْحِ الأرض؛ رَجَعوا وقد عَلَّمهم النبيُّ ﷺ أنّ الهزيمةَ أحيانًا قِشْرَةٌ تُخفي لُبَّ النَّصر، وأنَّ الصُّلْحَ جِسْرٌ تُعبر فوقه الفُتُوحات.

وهناك، عند أشجارِ الحُديبِيَةِ الصّامتة، كتب التاريخُ أعظمَ دَرْس: أنَّ النَّصر ليس في حَدِّ السَّيف، بل في حَدِّ البَصيرة، وأنَّ قلبًا مُطمئنًّا بالله قد يصنعُ من التَّنازلِ انتصارًا، ومن الصَّبرِ أُمّة، ومن الحِلْمِ دولةً تفتحُ القلوبَ قبل المدن.

وهكذا عاد النبيُّ ﷺ إلى المدينة، وعاد معه وَعْدٌ يلمع كفجرٍ قريب:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾.

ذاكَ كان موجزُ النَّشْرَةِ، وإليك الآن تفاصيلَها!

فـي شـهر ذِي القَعْدَةِ مـن السـنةِ السادسـةِ للهجـرة، عَـزَمَ رسـولُ اللّٰهِ ﷺ علـى الخـروجِ إلـى مكّـة معتمـرًا لا يُريـدُ حَرْبًـا، واسـتعملَ علـى المدينـةِ نُمَيْلَـةَ بـنَ عبـدِ اللّٰهِ اللَّيْثِـيَّ.

ثـمَّ دعـا الرسـولُ ﷺ العـربَ ومَـن حولَهُـم مـن أهـلِ الباديـة؛ ليخرجـوا معه، وقـد أخبرهـم أنَّـه يريـدُ الخـروجَ للعُمـرة، وهـو يخشـى مـن قُريـشٍ أن يعرِضـوا لـه بحـربٍ أو يصـدُّوه عـن الكعبـة، فأبطَـؤوا عليـه، فخـرج بمـن معـه مـن المهاجريـن والأنصـار، وكانـوا حوالـي ألفٍ وأربعمائـة، وسـاق معـه الهَـدْيَ سـبعين ناقـةً، وأحـرمَ بالعُمـرة؛ ليأمَـنَ النَّـاس مـن حربِـه، وليعلمـوا أنـه خـرج زائـرًا لبيـتِ اللّٰهِ ومُعَظِّمًـا إيّـاه، وقـد جعـل الهـديَ سـبعين بَدَنَـة، فكانـت كلُّ بدنـةٍ عـن عشـرةِ نفـر.

وأمرَ النبيُّ ﷺ أن لا يكون معهم سـلاحٌ غيرُ السيوفِ في القِرَب، ولمـا رأى عمـرُ بـنُ الخطـابِ ذلـك، ظنَّ فـي هـذا المظهـرِ ضعفًـا أمـامَ قُريـش، ولـم يَفطُـنْ إلـى أنَّ غايـةَ الرسـولِ مـن بدايـةِ الأمـر أن يُثبِـتَ للمـلأ أنَّـه خـارجٌ للعُمـرة لا للحـرب، فقـال للرسـولِ: أتخشـى يـا رسـولَ اللّٰهِ مـن أبـي سـفيانَ وأصحابِـه؟! ولـم تأخـذْ للحـربِ عُدَّتَهـا.

فقال الرسـولُ ﷺ: لستُ أحبُّ أن أحملَ السِّلاح مُعْتَمِرًا.

ومـا زال النبـيُّ ﷺ وصحبُـهُ سـائرين حتَّـى كانـوا بعُسْـفان، وهـو مـكانٌ قريـبٌ مـن مكَّـة، فتقـدَّم إليـه بُسْـرُ بـنُ سـفيانَ الكعبـيُّ، وقـال لـه: يـا رسـولَ اللّٰه، هـذه قُريـشٌ سـمعتْ بمسـيرِك، فخرجـوا معهـم

العوذُ المطافيل، وقد لبسوا جلودَ النمور، وقد نزلوا بذي طُوَى يُعاهدون اللهَ لا تدخلُها عليهم أبدًا عَنْوَةً، وهذا خالدُ بنُ الوليدِ في خيلِهم قدَّموها إلى كُراعِ الغَمِيم، وكلاهما مكانٌ قريبٌ من الحديبية.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: يا ويحَ قُريشٍ! لقد أكلَتْهُم الحربُ! ماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبينَ سائرِ العرب؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرَني اللهُ عليهم دخلوا في الإسلامِ وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوّة.

فما تظنُّ قريشٌ؟! فواللهِ لا أزالُ أُجاهِدُ على الذي بعثني اللهُ به حتَّى يُظهِرَهُ اللهُ أو تنفردَ هذه السالفةُ.

ثمَّ قال: مَن رجلٌ يخرجُ بنا على طريقٍ غيرِ طريقِهم التي هم بها؟

فتقدَّم رجلٌ ممّن أسلم، وسلك بالنبيِّ ﷺ ومن معه طريقًا وِعْرًا بين الشِّعاب حتَّى بلغوا ثنيّةَ المُرار، فبركتْ ناقةُ الرسولِ ﷺ.

فقال بعضُ ذوي الألسنةِ الطويلة الذين ينتظرون العثرات: لقد خَلَأَتِ الناقةُ!

فردَّ عليهم الرسولُ ﷺ وهو أبدًا حاضرُ البديهةِ: ما خَلَأَتِ الناقةُ، وما هو لها بخُلُق، ولكنْ حَبَسَها حابسُ الفيل عن مكَّة، فلا يدخلُها قهرًا.

ثمَّ قال مُسَالِمًا: لا تدعوني قُريشٌ اليومَ إلى خُطّةٍ يسألونني فيها صِلَةَ الرَّحِمِ إلا أعطيتُهم إيّاها.

ثمَّ زجَرَ ناقته فقامت.

ثمَّ أمرَ النَّبيُّ ﷺ النَّاس بالنُّزولِ في الوادي، ولما اطمأنَّ، جاءه بَدِيلُ بنُ وَرْقاءَ الخُزاعيُّ، وكانت خُزاعةُ مُصادِقةً لرسولِ اللّهِ ﷺ، مسلمُها ومُشركُها، لا يَخفونَ عنه شيئًا كان بمكَّة، ورُبَّما فطِنت قريشٌ لذلك.

فقال له بَدِيلٌ: ما الذي جاءَ بك؟

فقال النَّبيُّ ﷺ: ما جئتُ أُريدُ حَرْبًا، وإنّما جئتُ زائرًا لِلبيتِ ومُعظِّمًا لِحُرمته.

وهو مِثلُ ما قاله لِبُسْرِ بنِ سُفيان، فعاد بَدِيلٌ إلى قريشٍ وقال لهم ما سمعه مِن رسولِ اللّهِ ﷺ، فاتهموه وجَبهوه هو ومَن معه، وقال أحدُ رجالِ قريشٍ: وإن كان لا يريدُ قتالًا، فواللّه لا يدخلها علينا عَنْوَةً أبدًا، ولا تتحدّثُ العربُ عنّا بذلك، وبيننا مِن الحربِ ما بيننا!

ولا بُدَّ من ذكرِ المبعوثينَ مِن قريشٍ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ لِغَرابةِ أخلاقِ بعضِهم، وكأنَّ دُهاةَ قريشٍ أرادوا أن يقفوا على الحقيقةِ مِن اختلافِ مَشارِبِ رُسُلِهم؛

فقد بعثوا أوّلًا بَدِيلًا الخُزاعيَّ - وهم يعلمون موالاةَ خُزاعةَ للنَّبيِّ ﷺ - فهو أقربُ إلى المسلمين وأحبّ، وكان مِن أمره ما كان.

ثمَّ أرسلوا الحُلَيْسَ بنَ عَلْقَمةَ، وكان يومئذٍ سيدَ الأحابيش.

فلمَّا عاد برأيٍ يُؤيِّدُ المبعوثَ الأوّل -وهو بَدِيلٌ الخُزاعيُّ- ويُعَظِّم لهم من شأنِ رسول اللّهِ ﷺ، سَخِروا منه وقالوا له: اجلس، فإنّما أنتَ أعرابيٌّ لا عِلمَ لك!

فغضب الحُلَيْسُ لِكرامتِه وقال: يا معشرَ قريشٍ، واللّهِ ما على هذا حالفناكُم، ولا على هذا عاقدناكُم!

أَيُصَدُّ عن بيتِ اللّهِ مَن جاء مُعظِّمًا له؟ والذي نفسُ الحليسِ بيده لَتُخَلُّنَّ بين محمَّد وبين ما جاء له، أو لأُنْفِرَنَّ بالأحابيشِ نَفْرةَ رجلٍ واحد!

فقالوا له: مَه! كُفَّ عنَّا يا حُلَيْسُ حتَّى نأخذ لأنفسِنا ما تَرضى به!

فسكت وصبر على مَضَض.

وكانت غايةُ قريشٍ أن يتأكّدوا من غايةِ النبيِّ ﷺ من مجيئه، فاستعملوا هذه الطريقة التي تدلُّ على الدهاءِ والسياسةِ وبُعدِ النظر.

وذلك بعد أن أرسلوا بُسْرَ بنَ سُفيان يصف للنبيِّ ﷺ استعداد قريشٍ للحرب: بخَيْلِهم ورجِلهم وجنودِهم المُدجَّجةِ بالحديد.

ثمَّ أرسلوا مَكْرَزَ بنَ حَفصٍ بنِ الأحنف، وكان رجلًا غادرًا، فعلم من رسول اللّه ﷺ ما علِم السابقون.

ثـمَّ اختـارت قريـشٌ عُـرْوَةَ بـنَ مَسـعودٍ الثَّقفـيَّ، وكلّفـوه بمقابلـةِ الرسـول ﷺ.

فقـال لهم-بعـد أن سـمع توبيـخَ المفاوضيـن السـابقين-: يـا معشـرَ قريـشٍ، إنـي قـد رأيـتُ مـا يلقـى منكـم مَـن بعثتمـوه إلـى محمَّـد إذا عـاد إليكـم مـن التعنيـفِ وسـوءِ اللفـظ؛ وقـد سـمعتُ بالـذي أصابكـم، فجمعـتُ مـن أطاعنـي مـن قومـي ثـمَّ جئتُكـم حتَّـى آسـيتُكم بنفسـي.

فقالوا له: صدقتَ، ما أنت عندنا بمتَّهَم!

ووعـدوه أن يأخـذوا برأيـه وأن لا يُغلِّظـوا لـه القـول مهمـا كانـت نتيجـةُ بَعثتـه.

ثـمَّ سـار حتَّـى أتـى النبـيَّ ﷺ وجلـس بيـن يديـه، ثـمَّ قـال فـي وقاحـةٍ وغِلظة-وقـد تخيّـل أنـه لا يـرى فـي أصحـاب الرسـول ﷺ عظمـاء- بـل رأى أوباشًـا يفـرّون ويتركـون رسـولهم:

يـا محمَّـد! أجمعـتَ أوشـابَ النَّـاس ثـمَّ جئـتَ بهـم إلـى بيضتـك لتفضَّهـا بهـم!

إنهـا قريـشٌ قـد خرجـت معهـا العـوذُ المُطافيـل، قـد لَبِسـوا جلودَ النمـور، وأَيْمُ اللّهِ لكأنـي بهـؤلاء قـد انكشـفوا عنـك غـدًا!

وكان أبـو بكـرٍ رضـي اللّه عنـه قاعـدًا خلـف النبـي ﷺ، فغاظتـه كلمـةُ عـروة -وهـو رسـولُ صُلـح- فانقلـب مُهـدّدًا وقـال لـه:

امْصُصْ بَظْرَ اللاتِ! أنحن ننكشف عنه؟!

وهذه أكبرُ مَسبةٍ تصدر من مسلمٍ لمشرك.

فقال عروة: من هذا يا محمَّد؟

فقال له ﷺ: هذا ابنُ أبي قُحافة.

فقال عروة: أما واللّهِ لولا يدٌ كانت لك عندي لكافأتُك بها، ولكن هذه بها.

ثمَّ جعل يتناول لِحيةَ رسولِ اللّه ﷺ وهو يكلمه.

وكان المُغِيرةُ بنُ شُعبةَ واقفًا على رأس النبي ﷺ مُدَجَّجًا بالسِّلاح، فجعل يقرع يدَ عروة إذا تناول لِحيةَ رسول اللّه ﷺ ويقول:

اِكْفُفْ يدَك عن وجهِ الرسولِ ﷺ قبل ألا تصلَ إليك!

فيقول عروة: ما أفظَّك وأغلظك!

فيتبسّم رسولُ اللّه ﷺ.

فقال له عروة: من هذا يا محمَّد؟

فقال ﷺ: هذا ابنُ أخيك؛ المغيرةُ بن شعبة.

فقال عروة: أَيْ غُدَرُ!

فقَامَ عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ وعادَ إلى قُرَيْشٍ وقالَ لهم:

يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنّي قد جِئْتُ كَسْرَى في مُلْكِهِ، وقَيْصَرَ في مُلْكِهِ، والنَّجاشِيَّ في مُلْكِهِ، وإنّي واللّهِ ما رأيتُ مَلِكًا في قومٍ قطُّ مثل محمَّد ﷺ في أصحابه، ولقد رأيتُ قومًا لا يُسْلِمُونَه لشيءٍ أبدًا، فَرَوا رأيَكُم؛ فقد عَرَضَ عليكم خُطَّةَ رُشْدٍ فاقْبَلُوها.

فكان كلامُ عُرْوَةَ بنِ مَسْعودٍ الثَّقَفِيِّ لِقُرَيْشٍ دليلَ مَكْرِهِ ودَهائِهِ؛ فإنّه لم يَنصَحْهُم بشيءٍ، واكتفى بتفويضِ الأمرِ لهم، بعد أن وصف استِقْتالَ أصحابِ محمَّد ﷺ في سبيله.

وكان النبيُّ ﷺ إذا بَعَثَ لهم رَسولًا أهانوهُ وفعلوا به الأفاعيلَ، كما حدثَ لِـ خُرَاشِ بنِ أُمَيّةَ الخُزاعِيِّ ليبلّغ أشراف قريشٍ عن الرسول ﷺ ما جاء له، فَعَقَروا جمله، وأرادوا قتله لولا أن مَنَعَتْهُ الأحابيشُ، وهم رجالُ الحُلَيْسِ بنِ عَلْقَمَةَ.

وترسل قريشٌ كَتِيبَةً من الجُند فترمي الكتيبةُ أصحابَ النبيِّ ﷺ بالنَّبْلِ والحِجارةِ، وهذا سببٌ صريحٌ للحرب، فيَعْفُو عنهم النبيُّ ﷺ ويُخَلِّي سبيلهم.

وأخيرًا وقع اختيارُ الرسول ﷺ على عُمَرَ بنِ الخَطّابِ ليبعثه مُفَاوِضًا.

فقال عُمَرُ: يا رسولَ اللّهِ، إنّي أخافُ قريشًا على نفسي، وليس بمكَّة أحدٌ يمنعني، وقد عرفتْ قريشٌ عداوتي لها، ولكني أدلّك على رجلٍ أعزُّ بها مني: عُثمَّانُ بنُ عَفّانَ.

فدعا رسولُ اللّه ﷺ عثمَّانَ بنَ عفّانَ فبعثه إلى أبي سُفْيان وأشراف قريش.

فخرج عثمَان إلى مكَّة، فلقِيَه أبانُ بنُ سَعْدِ بنِ العاصِ، فحمله بين يديه، ثمَّ أجاره حتَّى بلغ رسالةَ رسولِ اللّه ﷺ، وهي:
إنّ محمَّدا لم يأتِ لحربٍ، وإنّما جاء زائرًا لهذا البيت، مُعَظِّمًا لحُرمته.

فلمَّا أدّى أمانته قالوا له: إن شئتَ أن تطوف بالبيت فَطُفْ.
فقال: ما كنتُ لأفعل حتَّى يطوفَ به رسولُ اللّه ﷺ.

فاحتبسته قريش عندها، فشاع أنه قُتِل، فقال الرسول ﷺ:
لا نَبْرَحُ حتَّى نُناجِزَ القَوْمَ!

فكانت بَيْعَةُ الرِّضْوانِ تحت الشجرة، بايعه العربُ على الموت أو على عدم الفرار، وأوّل من بايعه سِنانُ بنُ أبي سِنانٍ الأسَدِيُّ على الحرب إلى النهاية.
ولم يتخلّف أحدٌ من المسلمين عنها إلا الجَدُّ بنُ قَيْسٍ؛ فقد رأَوْه لاصقًا بإبط ناقته يستتر بها من النَّاس، وهو نفسه الذي اعتذر عن غزوة تبوك بشهوته لنساء الروم!

وظهر أن نَعْيَ عثمَّانَ كان سابقًا لأوانه، وأنّ قريشًا خجلت وخشيت عاقبةَ الإصرار على الرفض، فأرسلوا سُهَيْلَ بنَ عَمْرٍو.
فلمَّا رآه النبي ﷺ قال:
قد أراد القومُ الصُّلحَ حين بعثوا هذا الرجل!

وكان نظـرُه صائبًـا، فـإن سـهيلًا كان يحمـل شـروطَ الصُّلـحِ؛ وأهمّهـا:

أن يرجـع الرسـول ﷺ هـذا العـام كـي لا يُقـال إنـه دخـل مكَّـة عَنْـوَةً.

ولكـن سـهيلًا كان كثيـرَ الإلحـاحِ والتهجُّـم، وقـد أطـال الـكلام، حتَّـى غضـب عمـرُ ووثـب، فأتـى أبـا بكـر، ودار بينهما الحـوار:

يا أبا بكر، أليس رسولَ اللّهِ؟

قال أبو بكرٍ: بلى.

قال: أولسنا المسلمين؟

قال: بلى.

قال: أوليسوا بالمشركين؟

قال: بلى.

قال: فعلامَ نُعطي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا؟!

فقال أبو بكر: يا عمرُ، الزَمْ غَرْزَهُ؛ فإنّي أشهدُ أنه رسولُ اللّه.

ثمَّ تقدّم عمر إلى النبي ﷺ وقال:

يا رسولَ اللّه، ألستَ برسولِ اللّهِ؟

قال ﷺ: بلى.

قال: أولسنا بالمسلمين؟

قال: بلى.

قال: أوليسوا بالمشركين؟

قال: بلى.

قال: فعلامَ نُعطي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا؟!

فقال النبي ﷺ:

أنا عبدُ اللّهِ ورَسولُه! لن أُخالِفَ أمرَه، ولن يُضَيِّعَني.

فهدأ روعُ عُمَرَ، وعاد إليه حِلْمُه.

وكان يقول بعد ذلك:

ما زلتُ أتصدّق وأصوم وأصلّي وأعتقُ ممّا صنعتُ يومئذٍ؛ مخافةَ كلامي حتَّى رجوتُ أن يكون خيرًا.

فَلْنَنْظُرِ الآنَ في عقدِ الهُدنةِ الذي تمَّ بينَ الرَّسولِ ﷺ وقريشٍ.

فإنَّه بعدَ أن تمَّتِ المفاوضةُ الشفويّةُ اتفقوا على تدوينِها بالكتابةِ، وكان الكاتبُ لها عليُّ بنِ أبي طالبٍ.

أملى الرسولُ ﷺ: اكتبْ بسمِ اللّهِ الرَّحمنِ الرَّحيم.

فقال سُهيلٌ: لا أعرفُ هذا، يقصدُ الرَّحمنَ! اكتبْ: باسمِكَ اللهمَّ، وهي صيغةُ الجاهليّةِ.

فقال النبيُّ ﷺ: اكتبْ باسمِكَ اللهمَّ. فكتبَها.

ثمَّ قال: اكتبْ هذا ما صالحَ عليه محمَّد رسولُ اللّهِ ﷺ سُهيلَ بنَ عمرو.

فقال سُهيلٌ: لو شهدتُ أنّكَ رسولُ اللّهِ لم أقاتلْكَ، ولكن اكتبْ اسمكَ واسمَ أبيكَ!

فقـال الرسـولُ ﷺ: اكتـبْ هـذا مـا صالـحَ عليـه محمَّـد بـنُ عبـدِ اللّهِ سُـهيلَ بـنَ عمـرو.

وجاءت بنودُ صُلحِ الحُديبيةِ في أربعِ نقاطٍ:

1- وضـعُ الحـربِ عشـرَ سـنينَ يأمـنُ فيهـا النَّـاس ويكـفُّ بعضُهـم عـن بعـضٍ.

2- وأنَّـه مـن أتـى محمَّـدا مـن قريشٍ بغيـرِ إذنِ وليِّـه ردَّه عليهـم، ومـن جـاءَ قريشًـا ممـن مـع محمَّـد لـم يـردّوه!

3- وأنَّ بينهـم عيبـةً مكفوفـةً، وأنـه لا إسـلالَ ولا إغـلالَ، ومـن أحـبَّ أن يدخـلَ فـي عقـدِ محمَّـد وعهـدِه دخـل فيـه، ومـن أحـبَّ أن يدخـلَ فـي عقـدِ قريـشٍ وعهدِهـم دخـل فيـه.

4- يرجعُ النبـيُّ ﷺ عـن قريـشٍ عامَـه هـذا فـلا يدخـلُ مكَّـة، وأنَّـه إذا كان عـامٌ قابـلٌ خرجـوا عنهـا فيدخلُهـا بأصحابـه فيقيـمُ ثلاثًـا، معـه سـلاحُ الراكـبِ: السـيوفُ فـي القِـرَب، لا يدخلونهـا بغيرِهـا.

فلمَّـا فرغـوا مـن الكتابـةِ والتوقيـعِ مـن الطرفيـن أُشْـهِدَ علـى الصلـحِ رجـالٌ مـن المسـلمين ورجـالٌ مـن المشـركين، وهـم:

أبـو بكـرٍ الصِّدِّيقُ، وعمـرُ بـنُ الخطـابِ، وعبـدُ الرحمـنِ بـنُ عـوفٍ، وعبـدُ اللّهِ بـنُ سُـهيلٍ، وسـعدُ بـنُ أبـي وقّـاصٍ، ومحمـودُ بـنُ مسـلمةَ، ومكـرزُ بـنُ حفـصٍ.

وكان سُهيلٌ يشترطُ شروطَ القويِّ، بل كان يُملِي شروطًا؛ فقد أبى أن يكتبَ العهدَ أحدٌ سوى عليٍّ أو عثمَّانَ، وحذفَ صفةَ رسولِ اللّهِ واسَم الرَّحمنِ الرَّحيمِ، ونصَّ على التزامِ الرسولِ ﷺ بتسليمِ المسلمين الذين يفرّون من مكَّة.

وكان المسلمون كلَّما سمعوا شرطًا ضجّوا، ولا سيّما بعد أن علموا أنهم سيرجعون أدراجهم خائبين، لا حربًا ولا عمرةً، وكان الرسولُ ﷺ وعدَهم بالنصرِ والفتحِ القريبِ، فكانوا يرفعون أصواتَهم ويهُزّون أسيافَهم، واتخذوا احتجاجَ عمرَ شعارًا لهم فصاروا يقولون:

لِمَ نُعطي هذه الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا؟!

فجعل الرسولُ ﷺ يُخفِضُهم ويومئُ بيده: اسكتوا!

ولم يكن أبو بكرٍ أقلَّ حبًّا بالحربِ من عمرَ، فإن رسولَ اللّهِ ﷺ لما تأكّد أن قريشًا تريد منعه من البيت قال:

أشيروا عليَّ أيها النَّاس، أتريدون أن نؤمَّ البيتَ فمن صدَّنا عنه قاتلناه؟

فقال أبو بكرٍ: يا رسولَ اللّه، خرجتَ عامدًا لهذا البيتِ لا تريدُ قتلَ أحدٍ ولا حربًا، فتوجَّهْ له، فمن صدَّنا عنه قاتلناه.

وحدثتْ حادثتانِ عندَ تدوينِ هذهِ الصَّحيفةِ:

الأولى: أنَّ خُزاعةَ تواثبت، فقالوا: نحنُ في عقدِ محمَّد وعهدِهِ.

وتواثبت بنو بكرٍ فقالت: نحنُ في عقدِ قريشٍ وعهدِهِم.

وأثناءَ الكتابِ جاء أبو جندلٍ بنُ سُهيلِ بنِ عمرو، وكان مُسلمًا مُقيمًا بمكَّة، وهو يرسفُ في الحديد، وقد انفلتَ إلى رسولِ اللّه ﷺ!

وكان المسلمونَ القادمونَ مع النبيِّ ﷺ وقد تكلّفوا المشاقَّ والانتظارَ الطويل، فلمَّا رأوا الصُّلحَ والرُّجوعَ وما تحمّلهُ الرسولُ ﷺ، دخلَ عليهم أمرٌ عظيمٌ من الغمِّ والغيظِ وخيبةِ الأمل؛ ممّا يدلّنا على أنَّ عُمَرَ كان معذورًا في غضبه.

فكاد المسلمونَ يهلِكون من الألمِ والحسرة، وليسوا كلُّهُم في مكانةِ النبيِّ ﷺ ولا في قوةِ عقلِهِ وخُلُقِهِ، ولكنّهم كظموا غيظَهُم، وأطاعوا، ولم يخرجوا على النظام، ولم يتسرّبْ إليهم الفشل.

فلمَّا رأى سُهيلٌ ابنَه قادمًا يلجأ إلى النبيِّ، قام إليه، فضرب وجههُ، وأخذ بتلابيبه، ثمَّ قال: يا محمَّد، قد تمتِ القضيةُ بيني وبينكَ قبل أن يأتيكَ هذا!

فقال له: صدقتَ.

وأغربُ ما في الأمر أن يكون اللاجئُ ابنَ المفاوضِ نفسهُ!

ولعلّه لو كان غيرَه لسلك سُهيلٌ مسلكًا ليّنًا، ولكنه رأى في إسلامِ ابنِه، وفرارِهِ، والتجائهِ إلى النبيِّ في الوقتِ نفسه الذي يتمّ فيه الصُّلح، إهانةً لكرامته، وهو ممثّلُ قريشٍ ولسانُ حالِها وصاحبُ كلمتِها.

ثـمَّ جعـل سُـهيلٌ ينثـرُ ابنَـه بتلابيبـه ويجـرّه ليـردَّه إلـى قريـشٍ، وجعـل أبـو جنـدلٍ يصـرخُ بأعلـى صوتِـهِ:

يا معشرَ المسلمينَ! أأُرَدُّ إلى المشركينَ يفتنونني في ديني؟!

فزادَ هذا النداءُ نارَ المسلمينَ اشتعالاً.

ولكن النبيَّ ﷺ نظرَ إليه وقال:

يـا أبـا جنـدلٍ، اصبِرْ واحتسِبْ؛ فـإنَّ اللّهَ جاعـلٌ لـكَ ولمـن معـكَ مـن المسـتضعفينَ فَرَجًـا ومَخرجًـا! إنّـا قـد عقدنـا بيننـا وبيـن القـوم صُلحًـا، وأعطيناهـم علـى ذلـك، وأعطونـا عهـدَ اللّهِ، وإنّـا لا نَغـدرُ بهـم.

هذا الصُّلْحُ الذي أعقبهُ خيرٌ كثيرٌ.

فـإنّ هـذه الهدنـة - وقـد أُطلـق عليهـا اسـم «صُلـحُ الحُديبيـةِ» - كانـت مـن أحكـم الأعمـال.

وقـال الزُّهـريُّ: إنـه مـا فُتـح فـي الإسـلامِ فتـحٌ قبلَـه كان أعظـمَ منـه!

ذلـك أن القتـالَ كان بيـن المسـلمينَ والكفـارِ فـي كلِّ مـكان، فلمَّـا كانـت الهدنـةُ وضعـتِ الحـربُ أوزارَهـا، وأمِـنَ النَّـاس؛ كلّـم بعضُهـم بعضًـا، والتقَـوا، فتفاوضـوا فـي الحديـثِ والمنازعـة؛ فلـم يُكلَّـمْ أحـدٌ فـي الإسـلامِ وهـو يعقـلُ شـيئًا إلا دخـل فيـه.

ولقد دخل في الإسلامِ في سنتين مثلُ من كان فيه قبلَ ذلك وأكثرُ.

والدليلُ على قولِ الزهريّ: أنّ الرسولَ خرج إلى الحديبيةِ في ألفٍ وأربعِمِئةٍ مسلم، ثمَّ خرج عامَ فتحِ مكَّة - بعد ذلك بعامين - في عشرةِ آلافٍ!

ولمّا فَرَغَ النَّبيُّ ﷺ من تَدْوينِ وَثيقَةِ الهُدْنَةِ مِن صُورَتَيْن، أَمَرَ أَصْحابَهُ بِالنَّحْرِ والحَلْقِ ثَلاثَ مَرّات، فَلَم يَقُمْ مِنهُم أَحَدٌ؛ لِشِدَّةِ سَخَطِهِم وَأَلَمِهِم مِمّا وَقَع، وَهُم لا يَعلَمونَ ما انْطَوَى عَلَيْهِ هذا العَهْدُ مِن المَنافِعِ لِلإِسْلام.

فَدَخَلَ الرَّسولُ ﷺ عَلى زَوْجَتِهِ أُمِّ سَلَمَةَ وَهُو شَديدُ الغَضَبِ، فَاضْطَجَعَ، فَسَأَلَتْهُ عَن حالِهِ مَرّاتٍ وَهُو لا يُجيبُها، ثُمَّ ذَكَرَ لَها ما لَقِي مِن النَّاس وقالَ لَها: «هَلَكَ المُسْلِمونَ؛ أَمَرْتُهُم أَنْ يَنْحَروا ويَحْلِقوا فَلَم يَفْعَلوا؛ وَهُم يَسْمَعُونَ كَلامي وَيَنْظُرونَ وَجْهي!»

فَقالَتْ: يا رَسولَ اللّه، لا تَلُمْهُم؛ فَإِنَّهُم قَد دَخَلَهُم أَمْرٌ عَظيمٌ مِمّا أَدْخَلْتَ عَلى نَفْسِكَ مِن المَشَقَّةِ في أَمْرِ الصُّلْحِ وَرُجوعِهِم بِغَيرِ فَتْح.

ثُمَّ أَشارَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ ولا يُكَلِّمَ أَحَدًا مِنهُم وَيَنْحَرَ بَدَنَتَهُ وَيَحْلِقَ رَأْسَهُ.

فَفَعَلَ ذٰلِكَ، فلمَّا رَأَوْهُ قاموا فَنَحَروا وَحَلَقوا، وَانْصَرَفَ إِلى المَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ أَقامَ بِالحُدَيْبِيَةِ تِسْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا، وَكانَ المُسْلِمونَ

مَعْذورينَ حَقًّا؛ فَقَد تَعِبوا في السَّفَرِ وَفي الانْتِظارِ عِشْرينَ يَوْمًا، وَقَد تَقَذَّرَتْ أَبْدانُهُم وَثِيابُهُم وَأَصابَتْهُم عَدْوَى الهَوامِّ وَالطُّفَيْلِيّات، فَامْتَلأَ شَعْرُهُم بِها، حتَّى إنَّ كَعْبَ بنَ عُجْرَةَ قالَ: كان القَمْلُ يَتَساقَطُ عَلى وَجْهي، فَمَرَّ بي رَسولُ اللّه ﷺ فَقالَ لي: «احْلِقْ!»

ولا عَجَبَ إذا انْتَشَرَ هذا التَّذَمُّرُ في جَيْشِ الرَّسولِ ﷺ، وَلكنَّ العَجَبَ لِتَأْثيرِهِ فيهم؛ فَإنَّ مُجَرَّدَ ظُهورِهِ في النَّاس وَأَخْذِه بِنَحْرِ ضَحِيَّتِه وَحَلْقِ رَأْسِهِ جَعَلَ المُتَذَمِّرينَ وَالسّاخِطينَ وَالمُنْتَقِدينَ وَالمُتَأَفِّفينَ يَعودونَ إلى عادَتِهِم مِن طاعَتِه وَتَقْليدِهِ في سُنَّتِه، فَأَقْبَلوا يَحْلِقونَ وَيَنْحَرونَ، ثمَّ عادوا أَدْراجَهُم إلى المَدينَةِ في صُفوفٍ مُنْتَظِمَةٍ.

وبَعْدَ الصُّلْحِ وَعَوْدَةِ النَّبيِّ ﷺ إلى المَدينَةِ فَرَّ مِن سُجونِ مكَّة مُسْلِمٌ مَحْبوسٌ اسْمُهُ أَبو بَصيرٍ عُتْبَةُ بنُ أَسيد، وَقَدِمَ عَلى رَسولِ اللّه ﷺ مُسْتَغيثًا مِثْلَ ما فَعَلَ أَبو جَنْدَلٍ، فَرَدَّهُ رَسولُ اللّه تَنْفيذًا لِمُعاهَدَةِ الحُدَيْبِيَة، وَسَلَّمَهُ إلى رَسولِ قُرَيْشٍ، وَهُوَ رَجُلٌ مِن بَني عامِرٍ أَوْفَدَهُ المَكِّيّونَ؛ لِيَتَسَلَّمَ الأَسيرَ المُسْلِمَ الفارَّ مِن المَدينَةِ وَيَعودَ بِهِ إلى سِجْنِه.

فَخَرَجا، وَاسْتَغْفَلَ أَبو بَصيرٍ حارِسَهُ وَخَطَفَ سَيْفَهُ وَقَتَلَهُ، فلمَّا سَمِعَ الرَّسولُ ﷺ بهذا النَّبَإِ قالَ: «وَيْلَ أُمِّهِ! مِسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كانَ مَعَهُ رِجالٌ.»

ثُمَّ جاءَ أَبو بَصيرٍ بِنَفْسِهِ إلى النَّبيِّ ﷺ بَعْدَ قَتْلِهِ الحارِسَ وَنَجاتِهِ، وَقالَ لَهُ: يا رَسولَ اللّه، وَفَّتْ ذِمَّتُكَ وَأَدّى اللّهُ عَنْكَ، أَسْلَمْتَني لِيَدِ القَوْمِ وَقَدِ امْتَنَعْتُ بِديني أَنْ أُفْتَتَنَ فيهِ أَوْ يُعْبَثَ بي.

ثمَّ خَرَجَ أَبو بَصيرٍ هائِمًا عَلى وَجْهِهِ، وَقَد عَزَمَ عَلى أَنْ يَعيشَ عيشَةَ الغَزْوِ وَالمُعاكَسَةِ لِقُرَيْشٍ وَيُعْلِنَ عَلَيْهِم حَرْبًا بِمُفرَدِهِ، فَنَزَلَ مَكانًا اسْمُهُ «العِيصُ» مِن ناحِيَةِ ذي المَرْوَةِ عَلى ساحِلِ البَحْرِ بِطَريقِ قُرَيْشٍ إِلى الشّامِ.

وَعَلِمَ المُسْلِمونَ المَحْبوسونَ بِمكَّة بِخَبَرِهِ فَفَرّوا وَانْضَمّوا إِلَيْهِ، فَاجْتَمَعَ مِنهُم قَريبٌ مِن سَبْعينَ رَجُلًا، وَتَرَبَّصوا بِتِجارَةِ قُرَيْشٍ وَقَوافِلِها حتَّى ضَيَّقوا عَلَيْها، فَكانوا لا يَظْفَرونَ بِأَحَدٍ مِنهُم إِلّا قَتَلوهُ، ولا تَمُرُّ بِهِم عِيرٌ إِلّا اقْتَطَعوها.

فلمَّا ضاقَت قُرَيْشٌ ذَرْعًا بهؤلاء العُصاةِ الَّذينَ لا يُطيقونَ الإقامَةَ في مكَّة، وَلا يُقْبَلونَ في المَدينَةِ؛ تَنْفيذًا لِلمُعاهَدَةِ الَّتي خَرَقَتْها نَخْوَةُ رَجُلٍ مُغامِرٍ بِقُوَّةِ إيمانِهِ، فَخَرَجَ عَلى قانونٍ لا يَعْتَرِفُ بِهِ، وَخالَفَ صُلْحًا لَم يَكُن فيهِ طَرَفًا؛ لِأَنَّهُ عَلى الحالَيْنِ مِن بَعْضِ الرَّعايا، فَلَيْسَ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ حُجَّةً عَلى أَحَدٍ سِوى النَّبيِّ ﷺ، وَقَد قالَ لَهُ: «يا أَبا بَصيرٍ، إِنّا قَد أَعْطَيْنا هؤلاء القَوْمَ ما قَد عَلِمْتَ، وَلا يَصْلُحُ لَنا في دينِنا الغَدْرُ، وَإِنَّ اللّه جاعِلٌ لَكَ وَلِمَن مَعَكَ مِن المُسْتَضْعَفينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، فَانْطَلِقْ إِلى قَوْمِكَ.»

ثمَّ سَلَّمَهُ إِلى رَسولِ قُرَيْشٍ يَدًا بِيَدٍ، وَلَم يَكُنِ الرَّسولُ وَحْدَهُ، بَل كانَ مَعَهُ أَحَدُ المَوالي، فَذِمَّةُ محمَّد بَرِيئَةٌ، وَقَد وَفّى بِعَهْدِهِ كما قالَ لَهُ أَبو بَصيرٍ بَعْدَ قَتْلِهِ الحارِسَ.

وَكانَت قُرَيْشٌ قَبيلَةَ تِجارَةٍ وَأَسْفارٍ، وَلَم يَقْدِروا عَلى هذا العَدَدِ مِن قُطّاعِ الطَّريقِ المُؤمِنينَ، الَّذينَ يَدْفَعُهُم إيمانُهُم إِلى التَّرَبُّصِ

وَالقَتْلِ وَالغَنيمَـةِ؛ فَإِنَّهُـم لَـم يَكونـوا مُجْرِميـنَ، بَـل كانـوا آبِقيـنَ لا وَطَـنَ لَهُـم ولا مَلْجَـأَ، فَهُـم يَقْتُلونَ قُرَيْشًـا وَيَنْهَبونَهـا انْتِقامًـا لِحُرِّيَّتِهِـم وَحَياتِهِـم، فلمَّـا عَجَـزَت قُرَيْـشٌ عَـن مُقاوَمَتِهِـم، كَتَبـوا إِلـى الرَّسـولِ ﷺ يَسْـأَلونَهُ بِأَرْحامِهِـم أَنْ يُؤْوِيَهُـم، فَـلا حاجَـةَ لِقُرَيْـشٍ بِهِـم!

فَآواهُـم رَسـولُ اللّه ﷺ، فَقَدِمـوا عَلَيْـهِ إِلـى المَدِينَـةِ، وَاسْـتَراحَ مِنهُـم القُرَشِـيّونَ.

وهـذا خَـرْقٌ فـي المُعاهـدةِ لـم يتكَهَّـنْ بـه سُـهَيْلُ بـنُ عَمْـرو، خَلَقَتْـهُ الحَـوادِثُ وطَبيعـةُ الأشـياءِ، وحيلَـةٌ فَتَقَهـا ذِهْـنُ الزَّمـانِ وتَمَخَّـضَ بهـا فِكْـرُ المُصادَفَـةِ، وحَـلٌّ لـم يَخْطُـرْ بِبـالِ عُمَـرَ حيـنَ غَضِـبَ؛ لأَنَّـه رَأى فـي النَّـصِّ إجْحافًـا بِحَـقِّ المُسْـلِمينَ، وقـد جَعَـلَ أبـو بَصيـرٍ وأَصْحابُـهُ قاعِـدَةً ثابِتَـةً؛ وهـي أنَّ كُلَّ مَـن يَسْـتَطيعُ مِـن المُسْـلِمينَ الفارِّيـنَ أنْ يَجْعَـلَ نَفْسَـهُ مَرْغوبًـا عنـه لَـدَى قُرَيْـشٍ يَدْخُـلُ المَدينَـةَ بِرَجـاءِ مِـن قُرَيْـشٍ نَفْسِـها!

وهـا نَحْـنُ نَـرى الحَـوادِثَ قـد أَنْتَجَـتِ العَـدْلَ فـي المُعاهَـدَةِ؛ فإنَّهـا نَصَّـتْ علـى التِـزامِ النَّبِـيِّ ﷺ بِـرَدِّ مَـن يَفِـرُّ إِلَيْـهِ مِـن مُسْـلِمي قُرَيْـشٍ، وليـسَ علـى قُرَيْـشٍ أنْ تَفْعَـلَ مِثْـلَ ذلـك إذا فَـرَّ إِلَيْهـا أحَـدٌ مِـنَ المَدينَـة، وكانَ فـي هـذا النَّـصِّ أَكْثَـرُ مِـن عَـدَمِ المُسـاواةِ؛ لأَنَّ المُنْتَظَـرَ أنْ يَفِـرَّ إلـى المَدينَـةِ أَكْثَـرُ ممَّـن يَفِـرُّونَ إلـى مكَّـة؛ لأنَّ كُلَّ مَـن جـاءَ المَدينَـةَ مُهاجِـرًا جاءَهـا مُخْتـارًا مُتَشَـوِّقًا لِيُقيـمَ، فـلا يُنْتَظَـرُ أنْ يَعـودَ إلـى مكَّـة، فجـاءَ أبـو بَصيـرٍ وأعـادَ بِبَأْسِـهِ واسْتِبْسـالِهِ الحَـقَّ إلـى نِصابِـهِ،

وصَحَّحَ خَيْطَ الميـزانِ، وجَعَلَ أَهْلَ مكَّة يَتَوَسَّلونَ إلى النَّبِيِّ ﷺ بِأَرْحامِهِم أنْ يَكُفَّ عنْهُمْ أَذى الهارِبينَ الذينَ انْقَلَبوا عليهِم حَرْبًا.

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ يُعاش وليس تاريخاً يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدروس المستفادة من صُلح الحُديبية:

1 ـ إنَّ السَّلامَ حينَ يُوقَّعُ بيَدِ القُوَّةِ لا بيَدِ الضَّعفِ، يكونُ فَتحًا خَفيًّا. فقد علَّمَتْنا الحُديبيَةُ أنَّ اليَدَ التي تُمسكُ السَّيفَ قادِرَةٌ على أن تُمسكَ القَلَمَ، وأنَّ المَهابَةَ لا تُنقِصُها غَمامَةُ حِلْمٍ، وأنَّ الرِّفقَ حينَ يجيءُ من موضِعِ قُوَّةٍ يُصبِحُ أشدَّ مَضاءً مِن السَّيفِ.

2 ـ أنَّ النَّصرَ ليسَ صَليلَ حَديدٍ، بل بَصيرَةٌ تَتَقَدَّمُ إلى الأمامِ وإن بَدا أنَّها تَعودُ إلى الوَراءِ.

رأى الصَّحابةُ التَّنازُلَ هَزيمَةً، ورآهُ النَّبيُّ ﷺ سُلَّمًا يَرقى بهم نحوَ فَتحٍ مُبينٍ، فالعِبرَةُ ليستْ بما تَراهُ العَينُ، بل بما تَراهُ القُلوبُ حينَ تُضيئُها الثِّقَةُ باللهِ.

3 ـ أنَّ الحِلْمَ سِلاحٌ يَهزِمُ أُمَمًا. فلو شاءَ النَّبيُّ ﷺ لاقتحمَ مكَّة، ولكنَّه آثَرَ الحِوارَ على الحَربِ، والصَّبرَ على الغَضَبِ، فجعَلَ مِن الحُديبيَةِ مَدرَسَةً تُدَرِّسُ للأجيالِ أنَّ الانتصارَ على الغَضَبِ أعظَمُ مِن الانتصارِ على الأعداءِ.

4 ـ أنَّ التَّنازُلَ الحَكيمَ قد يكونُ أعمقَ مِن الانتصارِ السَّريع. فالحُديبيَةُ مَنحَتِ الإسلامَ زَمانًا يَتَنَفَّسُ فيه، وانفَتَحَتِ القُلوبُ التي أغلَقَتْها السُّيوفُ، فدخَلَ النَّاس في دينِ اللهِ أَفواجًا حينَ وَضَعَتِ الحَربُ أوزارَها.

5 ـ أنَّ الطَّاعَـة أصـلُ الفَتـح، وأنَّ مُخالَفَـةَ الهَـوى مِفتـاحُ النُّـورِ. غَضِـبَ الصَّحابـةُ، وتـأذَّى بعضُهـم ممّـا رأَوهُ تَنـازُلًا، لكنَّهُـم عـادوا يُقَدِّمـونَ الطَّاعَـةَ فَـوقَ العاطِفَـةِ، فكانـتِ النَّتيجَـةُ فَتـحَ مكَّـة بعـدَ عاميـنِ فَقَـط، وكأنَّ السَّـماء تقـولُ: لا يُضيـعُ اللّٰه مِثقـالَ طاعَـةٍ.

6 ـ أنَّ القِيـادَةَ ليسـتْ صُراخًـا ولا ادِّعـاءً، بـل سَـكينَةٌ تَمشِـي بيـنَ الرِّجـالِ فَتُطفِـئُ حَريـقَ قُلوبِهِـم.

كان ﷺ ثابِتًـا، هادِئًـا، يَـزرَعُ الطُّمَأنينَـةَ فـي كُلِّ نَظـرةٍ، ويجعَـلُ مِـن صَبـرِهِ جِسـرًا لِعُبـورِ الأُمَّـةِ مِن ضِيـقِ اللَّحظَـةِ إلـى سَـعَةِ القَـدَرِ.

7 ـ أنَّ الوَفـاءَ بِالعَهـدِ ديـنٌ قبـلَ أن يكـونَ خُلُقًـا. ثبَـتَ النَّبـيُّ ﷺ علـى بُنـودِ الصُّلـح كُلِّهـا، حتَّـى تلـك التـي جَرَحَـتْ قُلـوبَ أصحابِـهِ، لِيُرَسِّـخَ فيهـم أنَّ القُـوَّةَ بـلا وَفـاءٍ غَطرَسَـةٌ، وأنَّ العَـدلَ فَـوقَ الانفِعـالِ.

8 ـ أنَّ القُلوبَ إن خُلِّـيَ بينها وبيـنَ كَلِمَـةِ الحَـقِّ دَخَلَـتْ فيهـا. حيـنَ هَـدَأتِ السُّـيوفُ وتفرَّقَـتِ الجيـوشُ، بَقِـيَ كَلامُ اللّٰهِ يَتَسَـرَّبُ كالمـاءِ، فأسـلَمَ يـومَ الحُديبيَـةِ مَـن لـم يُسـلِمْ فـي كُلِّ مَعـارِكِ الإسـلامِ قبلَهـا.

9 ـ أنَّ الفَتـحَ الحَقيقِـيَّ هـو فَتـحُ القُلـوبِ قبـلَ فَتـحِ المُـدُنِ. فالحُديبيَـةُ لـم تُسـقِطْ حِصنًـا ولـم ترفـع رايـةً علـى قَلعـةٍ، لكنهـا فَتَحَـت طَريقًـا فـي الأرواحِ، وأعـادَت صِياغَـةَ الخَريطَـةِ مِـن جديـد.

10 ـ أنَّ اللّٰه يُرَبِّي هِـذهِ الأُمَّـة بالابتـلاءِ كما يُرَبِّيها بالنَّصـر. تألَّـمَ المسـلمون، واضطَرَبَـت نُفوسُـهم، لكـنَّ اللّٰه أرادَ لهـم أن يَتَعَلَّمـوا أنَّ الطَّريـقَ إلـى الفَتـحِ يَمُـرُّ أحيانًـا عبـرَ مـا يكرَهُـهُ القَلـبُ ويَثقُـلُ علـى النَّفـسِ.

رسائلُ النَّبيِّ ﷺ إلى ملوكِ الأرض!
الإسلامُ من غارِ حراءٍ إلى قصورِ الملوك!

لمَّا استقامَ الإسلامُ في المدينةِ، وقامت دولتُه على أعمدةِ الإيمانِ والعَدلِ، وأصبح للمسلمين رايةٌ تُهابُ وصوتٌ يُسمَع، أدركَ النبيُّ ﷺ أنَّ زمنَ الاستضعافِ قد انقضى، وأنَّ الدعوةَ التي نزل بها جِبريلُ عليه السلام لا يليقُ بها أن تبقى محصورةً بين نَخيلِ المدينة، بل خُلِقَت لِتَبلُغَ الآفاقَ وتطرُقَ أبوابَ القلوبِ في كلِّ أرضٍ. فقد انتقلتِ الرسالةُ من طورِ الاضطهادِ إلى طورِ البناء، ومن مرحلةِ النَّجاةِ الفرديّةِ إلى مرحلةِ الهدايةِ العامَّة، وبات على الأمّةِ أن تحملَ نورَها إلى العالَمِ كما تحملُ السُّحُبُ ماءَها إلى كلِّ مكانٍ.

وعَزَمَ النبيُّ ﷺ على أن يُعرِّفَ مُلوكَ الأرضِ بخبرِ السَّماء، وأن يُنذِرَهم بما بين أيديهم ويَدعوهم إلى ما بعدَه، فأملى كُتُبًا موجزةً مُحكَمةً، تبدأ باسمه الكريم: «من محمَّد رسولِ اللّهِ إلى ....»، وتدعوهم بالأمرِ الإلهي: «أَسلِمْ تَسلَمْ»، وتُذكِّرهم بأنَّه ﷺ لم يُبعَثْ إلى العربِ وحدَهم، بل إلى النَّاس كافّةً. وكانت تلك الرسائلُ علامةً على انتقالِ الإسلامِ من دائرةِ الجزيرةِ إلى سعةِ الدُّنيا.

فكاتَبَ النبيُّ ﷺ هرقلَ عظيمَ الروم، فقرأ الكتابَ وتأمَّل معانيه، وكاد قلبُهُ يميلُ إلى الحقِّ لولا رهبةُ العرشِ وخوفُ النَّاس.

وراسَلَ النَّبيُّ ﷺ كِسرى مَلِكَ فارسَ، فاعتملَ الكِبرُ في صدرِه، فمزّقَ الكتابَ، فدعا عليه النبيُّ ﷺ فمُزِّقَ مُلكُه كما مزَّق رسالةَ رسولِ اللّهِ ﷺ.

وكتب النَّبيُّ ﷺ إلى النَّجاشيِّ مَلِكِ الحَبشةِ، الرجلِ العادلِ الذي لم يُعرَفْ عنه جورٌ قطُّ، فقرأ الكتابَ بقلبٍ سليمٍ، فآمنَ وصدَّق، وكان إيمانُهُ بشارةً بنصرةِ اللّهِ لعبده.

ووجَّه النَّبيُّ ﷺ رسائلَ إلى ملوكِ العربِ وقبائلِهم: إلى هَوذةَ بن عليٍّ في اليمامة، وإلى المُقوْقسِ في مِصرَ، وإلى المُنذِرِ بنِ ساوى في البحرين، يدعوهم جميعًا إلى نورِ اللّهِ.

وحَمَلَ هذه الكتبَ رجالٌ من خِيرةِ الصَّحابةِ، انتقاهم النَّبيُّ ﷺ لِمهابةِ الموقفِ وجلالِ المهمة:

فبعث دِحيَةَ الكَلبيَّ إلى هرقلَ، وعمرو بن أميَّةَ الضَّمريّ إلى النَّجاشيِّ، وعبدَ اللّهِ بن حُذافةَ السَّهْميّ إلى كِسرى، وحاطِبَ بنَ أبي بَلْتَعَةَ إلى المُقوْقس، وسُلَيطَ بن عمرو إلى هَوذة، والعَلاءَ بن الحَضْرَميّ إلى البحرين.

كانوا يخرجون من المدينةِ بقلوبٍ يملؤها اليقينُ، يحمل كلٌّ منهم رُقعةً صغيرةً، لكنَّها تحمل وزنَ الرِّسالةِ كلِّها وبصمةَ خاتَم النُّبوّةِ.

وهكذا انطلقت رسائلُ النَّبيِّ ﷺ من مدينةٍ متواضعةٍ إلى عروشٍ عظيمةٍ، تحمل بين سطورِها نورًا يُوقِظُ القلوبَ، وحُجّةً

تُقيمُ الدليل، ودعوةً تُخاطبُ الإنسانَ قبل السُّلطانِ. وكانت تلك المكاتباتُ أوّلَ إعلانٍ بأنَّ الإسلامَ لم يَعُدْ دينَ قبيلةٍ، بل رسالةَ أُمّةٍ، بل دعوةَ ربِّ العالمين للعالَمين.

أوَّلاً: إلى النَّجاشيِّ ملكِ الحَبَشة!

كان النَّجاشيُّ أصحَمَةُ بن أبجَرَ مَلِكَ الحَبَشَةِ، رجلًا جَبَلَهُ اللّٰه على العَدلِ جَبْلًا؛ لا يُظلَمُ عندهُ أحدٌ، ولا تُرَدُّ في مجلسِهِ خَصْلَةُ إنصافٍ. وكان يُحسِنُ السَّماعَ، ويقفُ مع الحقِّ ولو خالفَ أهواءَ الملوك. ولِهَذا اختارَهُ النبيُّ ﷺ ملجأً للمُستضعَفين، فأمِنَ عندهُ المُهاجِرون، وبقُوا في ظلِّ رِقَّتِهِ وعدلِ سُلطانِهِ آمنين.

ولمّا قامت دولةُ الإسلام في المدينةِ، واستقام أمرُها على أُسُسِ الإيمانِ والعَدلِ، ورأى النَّبيُّ ﷺ أنَّ الرِّسالةَ قد انتقلت مِن ضيقِ الاستضعافِ إلى سَعةِ التمكينِ، وأنَّ نورَ الوحي لا يليقُ به أن يُحبس بين نخيلِ المدينة، كتب إلى الملوك يدعوهم إلى هُدى اللّٰهِ، وكان مِن أعظمِ كتبِهِ كِتابُهُ إلى ملكِ الحَبشةِ العادلِ.

وكان نصُّ رسالتِهِ ﷺ إلى النَّجاشيِّ:

«بِسْمِ اللّٰهِ الرحمن الرَّحيم

مِن محمَّد رسولِ اللّٰهِ، إِلَى النَّجاشيِّ الأَصْحَمةِ مَلِكِ الحَبَشَةِ.

سَلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدى.

أمّـا بعـدُ: فإنـي أحمَـدُ إليـكَ اللّهَ الَّـذي لا إلـهَ إلّا هـو، المَلِـكُ القُـدُّوسُ السَّـلامُ المُؤمِـنُ المُهيمِـنُ.

وأشـهَدُ أنَّ عيسـى ابـنَ مريـمَ رُوحُ اللّهِ وكَلِمَتُـهُ ألقاهـا إلـى مريـمَ البَتـولِ الطَّيِّبَـةِ الحَصـانِ، فحَمَلَـتْ بعيسـى، فخَلَقَـهُ اللّهُ مِـن رُوحِـهِ ونَفْخَتِـهِ.

وإنـي أدعـوكَ إلـى اللّهِ وحدَهُ لا شـريكَ لـهُ، علـى الطّاعـةِ واتِّباعي، وأن تُؤمِـنَ بـي وبالـذي جِئتُ بـه؛ فإنـي رسـولُ اللّهِ.

وقد بَلَغَكَ بعضُ ما بُعِثتُ به.

وقـد بَعَثْـتُ إليـكَ ابـنَ عَمِّـي جَعْفَـرَ بـنَ أبـي طالِـبٍ ونَفَـرًا مِـنَ المُسـلمين، فـإذا جـاءوكَ فأقْرِهِـمْ، ودَعِ التَّكبُّـرَ.

والسَّلامُ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدى.»

وأمّـا الـذي حَمَـلَ الرِّسـالةَ إلـى النَّجاشـي فهـو عَمـرو بـنُ أميَّـةَ الضَّـمْـريّ ﵁، وكان مِـن رجـالِ النَّبـيِّ ﷺ الذيـن عُرِفـوا بالأمانـةِ والنَّجـدةِ وحُسـنِ السـفارة، سـبق لـهُ أن قـدمَ علـى النَّجاشـيِّ قبـل ذلـك، فـكان الملـكُ يعـرفُ صدقَـهُ وثباتَـه.

ولمَّـا قُرِئَـت الرِّسـالةُ على النَّجاشـي، اهتـزَّ لهـا قلبُـهُ اهتـزازَ مـن يعـرفُ الحقَّ سـاعةَ يـراه؛ فوجد فـي ذِكـرِ عيسـى ﵇ حقيقـةً توافـقُ مـا فـي صـدره، ولـم يَجِـد فـي كلامِ النَّبـيِّ ﷺ مـا يُخالِـفُ العـدلَ ولا العقـلَ ولا مـا بقـي فـي كتبـهِ مـن نـورٍ. فأخـذ الكتـابَ فوضعَـهُ

على عَيْنَيْـهِ تَعظيمًـا، ثـمَّ نـزل مِـن سـريرِ مُلكِـهِ تواضعًـا، وقـال قولتَـهُ المشـهورة: «واللّهِ مـا زادَ عيسـى ابـنُ مريـم علـى مـا تقولـون هـذا النَّفَس!».

ثمَّ كتب إلـى النَّبـيِّ ﷺ يعلنُ إيمانـه، وقـال: «أَشـهَدُ أن لا إلـهَ إلا اللّه، وأنَّـك رسـولُ اللّهِ صِدقًـا»، وكان إسـلامُهُ سـرًّا مخافـةَ قومِـهِ.

أسـلمَ النَّجاشـيُّ، وكان أوّلَ مَلِـكٍ يدخـلُ فـي الإسـلام. وثَبَـت المسـلمونَ فـي أرضِـهِ آمنيـنَ لا يُـؤذَون. وانكسـرت محاولـةُ قريـشٍ لإرجـاعِ المهاجريـن إليهـا. وصـار النَّجاشـيُّ نُصـرةً للمسـتضعَفين، حتَّـى صلّـى عليـه النبـيُّ ﷺ صـلاةَ الغائـب يـوم مـات، وعـدَّهُ مِـن الأخيـار.

ثانياً: إلى كسرى عظيم الفُرس!

كان كِسـرى أبرويـز مَلِـكَ فـارسَ يومئـذٍ، مَلِـكًا جَبّـارًا تَربَّـى فـي حِجـرِ الاسـتعلاءِ، ونشـأ علـى سـلطانٍ يَـرى فيـه أنَّ الأرضَ ومـا عليهـا مُلـكٌ ليـده، وأنّ النَّـاس خَـدَمٌ لعرشـه. وكان مُلـكُ الفـرسِ يومهـا مـن أعظـمِ مُلكٍ فـي الدُّنيـا، يَمـدّ ظلالَـهُ علـى البـلادِ شـرقًا وغربًـا، وفيـه مـن البَطـشِ والظُّلـمِ مـا تُطأطِـئُ لـه الرِّقـابُ صاغـرةً. وقـد عـرف التَّاريـخُ عنـه شِـدّةً لا رِقَّـةَ فيهـا، واسـتكبارًا يجعلُـهُ لا يـرى فوقـه سـلطانًا ولا معـه نـدًّا، فكان مَثَـلًا للجبـروتِ الدُّنيـويِّ الـذي لا يعـرفُ للّهِ قَـدرًا ولا للحـقِّ وزنًـا.

ولمَّا قامت دولةُ الإسلامِ في المدينة، ورأى النَّبيُّ ﷺ أنَّ وقتَ تبليغِ دعوةِ السَّماء قد آن، كتب إلى الملوك، ومنهم كِسرى ملك الفرسِ، يدعوه إلى الإسلام كما دعا غيره، ويُقيم عليه الحُجَّة قبل لقاء اللّه.

وكان نصُّ رسالةِ النَّبيِّ ﷺ إلى كِسرى:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم.

مِن محمَّد رسولِ اللّهِ إلى كِسرى عظيمِ فارسَ.

سَلَامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدى، وآمَنَ باللّهِ ورَسولِهِ، وأشهَدُ أن لا إلهَ إلا اللّه وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأنَّ محمَّدا عبدُهُ ورسولُهُ.

وإنِّي أدعوكَ بدعاءِ اللّهِ، فإنِّي أنا رسولُ اللّهِ إلى النَّاس كافّةً، لِأُنذرَ مَن كان حيًّا، ويَحِقَّ القولُ على الكافرين.

فأسلِمْ تَسلَمْ، فإن أبيتَ فإنَّ عليكَ إثمَ المَجوسِ.»

وقد حمل هذه الرِّسالةَ عبدُ اللّهِ بن حُذافةَ السَّهْميُّ رضي الله عنه، وهو من أشجعِ أصحاب رسولِ اللّه ﷺ وأشدِّهم ثباتًا، بعثَهُ النَّبيُّ إلى قلبِ الفُرسِ مع علمه بما في تلك البلادِ من الخطرِ والبطش، فخرج مطيعًا، مؤيَّدًا بإيمانٍ لا يَخور.

فلمَّا وصل الكتابُ إلى كِسرى، وعُرِضَ عليه، استشاطَ غضبًا، إذ لم يحتمل أن يُكتب إلى اسمه على هذا النحو، ولا أن يُؤمَر

بدينٍ يخالفُ دينَ آبائه. فأخذ الرِّسالةَ بيده، ومزَّقها أمام مَن حوله، يُمزِّقُ الورقَ تمزيقَ المتكبِّر الذي يرى أنَّ دعوةَ الحقِّ إساءةٌ لعرشه، وقال في تعالٍ: يكتبُ إليَّ عبدُهُ؟!

فلمَّا بلغ ذلك النَّبيَّ ﷺ قال: اللهمَّ مَزِّقْ مُلكَهُ كما مزَّقَ كتابي.

فكان كما دعا؛ فلم تَمضِ سنواتٌ حتَّى تصدَّعَ مُلكُ الفُرسِ تصدُّعًا عجيبًا، فقُتِل كِسرى على يدِ ابنه، وتتابعت الهزائمُ عليهم حتَّى سقطت دولتُهم سقوطَ الجبالِ إذا هَوَت، وانفرطت منظومتهم كالعِقدِ إذا انقطع سلكُه، وكان ذلك أوَّلَ آياتِ زوالِ سلطانِ فارس إلى الأبد.

وهكذا كانت رسالةُ النَّبيِّ ﷺ إلى كِسرى آيةً من آياتِ اللّٰه:

آيةٌ في ثباتِ الدَّاعي، وآيةٌ في كِبرِ المُعانِد،

وآيةٌ في انتصار الحقِّ ولو بعد حين.

رسالةٌ مزَّقها الجبروتُ بيده، لكنَّ الدَّعوةَ التي حملتها شقَّت التَّاريخَ شقًّا، وبقي أثرُها شاهدًا أنَّ كلمةَ اللّٰهِ إذا خرجت من فمِ نبيِّهِ ﷺ لا تُغلَبُ، ولا تُبطَل، ولا يردُّها مَلِكٌ مَهْمَا عَظُم سلطانُه!

ثالثاً: إلى هرقل عظيم الرُّوم!

كان هِرقلُ مَلِكَ الرومِ يومئذٍ، صاحبَ مُلكٍ عريضٍ يمتدُّ من أنطاكية إلى نواحي القسطنطينيَّة، رجلًا ذكيًّا، متتبِّعًا لأخبار

الأديان، عالمًا بما في كُتب النَّصارى من بشاراتٍ بالأنبياء. وكان جالسًا على عرشٍ راسخ تهابُهُ الأمم، ومع ذلك كان في قلبه ميلٌ خفيٌّ للبحث عن الحقِّ، ولكن منعه كبرياءُ المُلكِ من أن يُصغي لصوتِ البشارة إذ لامس سمعَه.

ولمَّا استقرَّتْ دولةُ الإسلامِ في المدينةِ، ورأى النَّبيُّ ﷺ أنَّ الدعوةَ قد آن أن تخرج إلى العالم، كتب إلى الملوك، وكان مِن بينهم هرقلُ عظيمُ الروم.

وكان نصُّ رسالةِ النَّبيِّ ﷺ إلى هرقل:

«بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم.

مِن محمَّد عبدِ اللّٰهِ ورسولِهِ، إِلَى هَرقلَ عظيمِ الرومِ.

سَلَامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدى.

أمّا بعدُ، فإني أَدعوكَ بدِعاءِ الإسلام:

أسلِمْ تَسلَمْ، يُؤتِكَ اللّٰهُ أجرَكَ مرَّتَيْن.

فإن تولَّيتَ فإنَّ عليكَ إثمَّ الأريسيِّين.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

وقد حمل هذه الرِّسالةَ الشَّريفة دِحْيَةُ الكَلْبيُّ ﷺ، لما كان معروفًا بهيئته ووسامتِه وحِكمته، فبعثه النَّبيُّ ﷺ حتَّى بلغ بلاطَ هرقلَ في بيتِ المقدس، فسلَّمهُ الرِّسالة، فقُرِئتْ على الملِكِ

وأعاظِم دولته.

فلمَّا قرأ هرقلُ الكتابَ، ظهر عليه من الهَيبةِ ما لا يُخفى؛ فقد تبيَّن له أنَّ هذا الخِطاب ليس كالخطابات التي يكتبها الملوك، بل فيه نفَسُ النُّبوّةِ وهيبةُ الحقِّ. فأمر بإحضار قومٍ من العرب ليسألهم عن نسبِ محمَّد ﷺ وصفاتِه. وكان في الشام يومها رَهطٌ من قريش في تجارة، على رأسهم أبو سفيان قبل إسلامه. فأُدخِلوا على هَرقل، وجعل أبو سفيان أمامَهم، ودونَهُ صاحِبُهُ يضربه إن كذب، فدار بينهما الحوارُ العظيمُ الذي حفظه الزمان.

قال هَرقلُ: أيُّكم أقربُ نَسَبًا بهذا الرجلِ الذي يزعُم أنَّه نبيٌّ؟

فقال أبو سفيان: أنا أقربُهم نسبًا.

فقال هَرقلُ: ادنُ مِنِّي.

ثمَّ قال لأصحابِه: إنِّي سائِلٌ هذا عن الرجلِ، فإن كَذَبَ فكذِّبوه.

ثمَّ سأل هرقلُ أبا سفيان: كيف نَسَبُهُ فيكم؟

فقال أبو سفيان: هو فينا ذو نَسَبٍ.

فقال: هل كان مِن آبائِهِ مَلِكٌ؟

فقال أبو سفيان: لا.

فقال هرقلُ: هل قال هذا القولَ أحدٌ منكم قبله؟

قال أبو سفيان: لا.

فقال هرقلُ: أكان مِن أجدادِه أو آبائه مَن يُتَّهَمُ بالكذب؟

قال أبو سفيان: لا.

فقال هرقلُ: أشرافُ النَّاس أم ضعفاؤُهم الذين يتَّبعونه؟

قال أبو سفيان: بل ضعفاؤُهم.

فقال هرقلُ: يزدادون أم ينقصون؟

قال أبو سفيان: بل يزدادون.

فقال هرقلُ: هل يرتدُّ أحدٌ منهم سَخْطَةً لدينِه بعد أن يدخلَ فيه؟

قال أبو سفيان: لا.

فقال هرقلُ: هل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قال أبو سفيان: لا.

فقال هرقلُ: فهل يغدر؟

قال أبو سفيان: لا، ونحن منه في مُدّةٍ لا ندري ما هو فاعلٌ فيها.

قال أبو سفيان: إلَّا أنَّني لم أجد كلمةً أُدخل بها عيبًا إلَّا هذه!

فقال هرقلُ: فهل قاتلتُموه؟

قال أبو سفيان: نعم.

فقال هرقلُ: كيف كان قتالُكم له؟

قال أبو سفيان: الحربُ بيننا وبينه سِجالٌ، ينال منَّا وننالُ منه.

فلمَّا فرغ هرقلُ من الأسئلة، قال:

إن كان ما تقولُ حقًّا فسيملِكُ موضِعَ قدميَّ هاتين. وقد كنتُ أعلمُ أنَّه خارجٌ، لم أُكن أظنُّ أنَّه منكم. ولو أنِّي أعلَمُ أنِّي أبلُغُهُ لتجشَّمتُ لقاءَه، ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدمه.

ثمَّ دعا بالكتاب، فقرأه مرةً أخرى، وازداد إعجابًا به، وأراد أن يُظهر إيمانه لقومه، فجمع بطارقته في قصره، وأغلق الأبواب، ثمَّ قال لهم: يا معشرَ الرُّوم، هل لكم في الفلاحِ والرُّشدِ، وأن يَثبتَ مُلكُكم؟ تُتابِعوا هذا النَّبيَّ.

فثارت الرومُ عليه ثورةً عظيمة، ففزع هرقلُ وخاف على مُلكه، وقال لهم: إنّما أردتُ اختبارَكم، قد رأيتُ شدَّةَ تمسُّكِكم بدينكم.

فهدأوا ورضوا، فعاد الملِكُ إلى صمتِ قلبِه، ولم يُعلن إسلامه وإن كان قد علِم الحقَّ.

أمَّا النتيجةُ فقد كانت بليغة:

– بلغ هرقلُ علمًا يقينًا بصدق النَّبيِّ ﷺ.

– ولم يدخل في الإسلام مخافةَ ضياع مُلكه.

– وانتشر خبر الرِّسالة في بلاد الروم، فكان ذلك مبدأً لزمنٍ جديدٍ من سماع النَّاس بأمر الإسلام.

– وأُقيمَت الحُجَّة على عظيمِ الرُّوم، كما أُقيمت على غيره من الملوك.

وهكذا بقي كتابُ النَّبيِّ ﷺ إلى هرقل شاهدًا على أنَّ الحقَّ إذا بَلَغ الملوكَ لا يُبقي لهم عذرًا، وأنَّ الكلمة التي خرجت من المدينة كانت نورًا يمشي في الأرض، يوقظُ العقولَ وإن أعرضت، ويهزُّ العروشَ وإن قاومت، ويكتبُ للتَّاريخ أنَّ دعوةَ النَّبيِّ ﷺ بلغت قلوبَ الملوك كما بلغت قلوبَ الفقراء!

رابعاً: إلى المقوقس عظيم القِبط!

كان المُقوْقِسُ جُرَيْجُ بنُ مِينَاء صاحبَ الإسكندريَّة ومَلِكَ القِبْط تحت سلطان الرُّوم، رجلًا حليمًا في سياسته، ليِّنَ الجانب، مُحبًّا للمعرفة، لا يَهجُم على الأمور هجومَ الجبابرة، بل يتأنَّى ويتأمَّل. وكان على مِلَّة النَّصرانيَّة، يقرأ بعض كتبهم، ويعرف ما فيها من البشارات، خصوصًا ما يتعلَّق بالنَّبيِّ الذي بشَّر به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولذلك كان قلبُهُ أميلَ إلى الإنصاف من قلوب غيره من الملوك.

فلمَّا استقام أمرُ الإسلام في المدينة، وأرسلَ النَّبيُّ ﷺ كُتُبَه إلى الملوك، بعث إلى المُقوْقِس كتابًا يدعوه فيه إلى اللّٰه وإلى اتِّباع الحقِّ قبل أن تُغلَق أبواب الفرص.

وكان نصُّ رسالة النَّبيِّ ﷺ إلى المُقوْقِسِ:

«بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ.

مِن محمَّد عبدِ اللّٰهِ ورسولِهِ، إِلَى المُقوْقِسِ عظيمِ القِبْطِ.

سَلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدى.

أمَّا بعدُ: فإني أَدعوكَ بدِعاءِ الإسلام، أسلِمْ تَسلَمْ، يُؤتِكَ اللّٰهُ أجرَكَ مرّتَيْن.

فإن تولَّيتَ فإنَّ عليكَ إثمَ القِبْطِ.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا

أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

وقد حمل هذه الرِّسالةَ حاطِبُ بنُ أبي بَلْتَعَةَ ﵁، وهو رجلٌ ذكيٌّ لبِقٌ، صاحب لسانٍ حَسَنٍ، اختاره النَّبيُّ ﷺ لما عُرِف عنه من فطنةٍ ولُطفٍ وحكمةٍ في مخاطبة أهل المُلْك. فسار حتَّى بلغ الإسكندريَّة، ودخل على المُقَوقِس، وسلَّمه الكتاب.

فلمَّا قُرِئَ الكتابُ على المقوقس، لم يستكبر كما استكبر غيره من الملوك، بل نظر إلى حاطب نظرةَ المتأمِّل، ثمَّ دار بينهما الحِوار المشهور الذي رَوَتْهُ كتبُ السِّيَر، وفيه شيءٌ من الأسلوب الأدبيِّ، لكنَّه يُمثِّل ما كان في ذلك المجلس من حِكمةٍ ورِقَّة:

قال المُقَوقِس لحاطب: لقد بقِيَ من النُّبوَّة شيءٌ يسير، وقد كنتُ أعلم أن نبيًّا قد بقِيَ، وكنتُ أظنّ أنه يخرج بالشام.

فقال حاطبٌ: كان هناك نبيٌّ، وهو عيسى ابنُ مريم، فمن أين يكون نبيٌّ في قومٍ قد كفروا به؟ بل هذا نبيٌّ من العرب، بُعث في حرمٍ، وهاجر إلى دارٍ لها حجارةٌ سوداء، يعلو فيها الصوت بالقرآن.

فقال المقوقس: إنّ لنا نبيًّا ننتظره، يظهر من ناحية الشام، وهذا الذي تذكره غير الذي عندنا.

فقال حاطب: إنّ عيسى ابنَ مريم بشّر بالنبيّ الذي بين يديك كتابُهُ، وإنّا ندعوك إلى الله، فإن أسلمتَ فلك ما للمسلمين، وإن أبيتَ فإنّ عليكَ إثمَ القِبْط.

فمَال المُقوقِسُ إلى حُسن الكلام، وقال: إنِّي أرى في صاحبِكم

أمـرًا، وهـو لا يدعـو إلـى رذيلـةٍ ولا سـوءٍ، وليـس بكاهـنٍ ولا مجنـون، وسـأنظر فـي أمـره.

وكـرِه المُقوقِـسُ أن يُعلـن إسـلامه مخافـةَ الـرُّوم، فإنَّهـم أهـلُ بطـشٍ وجبـروت، لكنَّـه لـم يمـزِّق الكتـابَ ولـم يُهِنْـه كمـا فَعَـل كِسـرى، بـل وضعـه فـي خزانـةٍ مـن عـاج، وقـال لحاطـب: قَدِمْـتَ مِـن عنـدِ نبـيٍّ كريـم.

ثـمَّ كتـبَ إلـى النَّبـيِّ ﷺ كتابًـا يُجِلّـه فيـه، واعتـذر عـن عـدم إظهـار الإسـلام خوفًـا مـن قومـه، وبعـث معـه هدايـا عظيمـة، منهـا: ماريـة القِبطيَّـة رضـي اللّه عنهـا، وأختهـا سـيرين، ومركـبٌ مـن الخيـل، وكسـوةٌ نفيسـة، وبغلـةٌ بيضـاء كانـت تُسـمَّى دُلْـدُل.

أمَّا النَّتيجة، فكانت لها آثارٌ جليلة:

وصلـت رسـالة النَّبـيِّ ﷺ إلـى عظيـم مصـر دون امتهـانٍ، وأكـرمَ المُقوقِسُ مبعوثَ الإسـلام، وأسـلمت ماريـة رضـي اللّه عنهـا وحظِيَتْ بمنزلـةٍ عظيمـة، وصـار موقـف المُقَوقِـس إعلانًـا غيـر صريـحٍ بأنَّـه وجـدَ الحـقَّ ولـم يجـرؤ علـى اتِّباعـه خوفًـا مـن الـرُّوم، وانتشـر خبـر الرِّسـالة فـي أرض القِبْـط، فسـمع النَّـاس بالإسـلام لأول مـرَّةٍ سـماعًا واسـعًا.

وهكـذا ظلَّـت رسـالة النَّبـيِّ ﷺ إلـى المُقوْقِـس آيـةً مـن آيـاتِ حِكمـة الدَّعـوة؛ لـم يُمزِّقهـا الملِـكُ كمـا فعـل كِسـرى، ولـم يُسـلِم كمـا فعـل النَّجاشـيُّ، لكنَّـه أنصـفَ، وعَـرَف، وقَـرَّب، وأكـرَمَ، فـكان فـي

موقفه دليلٌ على أنَّ نور النُّبوَّة يمسُّ القلوب ولو حالت بينها وبين الهداية أسوارُ المُلْك.

خامساً: إلى المُنذِر بن سَاوَى ملك البحرين!

كان المُنذِرُ بن ساوى العبديُّ مَلِكَ البحرين، واليًا عليها من قِبَل الفرس، وكان رجلًا حليمًا حسنَ السِّياسة، لا يُعرَف بالظُّلم، ويميلُ إلى أهل الدِّين، ويكره سَفَهَ الجاهليَّة. وكان أهل البحرين يومها بين مجوسيَّةٍ وعبادةِ أوثان، وفيهم نصارى قليلون، وكان المُنذِرُ قادرًا على الإصغاء، لا يُغلِق قلبه عن فكرةٍ إذا لاحَ فيها نورٌ، ولا يتعجَّل في ردِّ القول قبل فهمه.

فلمَّا استقام أمرُ الإسلام في المدينة، ورأى النَّبيُّ ﷺ أنَّ رسالته قد بلغت أوان الانتشار، كتب إلى ملوك العرب والعجم يدعوهم إلى اللّه، وكان ممَّن كتب إليهم المُنذِرُ بنُ ساوى.

وكان نصُّ رسالة النَّبيِّ ﷺ إلى المنذر:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم.

مِن محمَّد رسولِ اللّهِ، إِلَى المُنذِرِ بنِ ساوى.

سَلامٌ عليكَ.

فإنِّي أحمَدُ إليكَ اللّه الذي لا إلهَ إلا هو.

أمّا بعدُ: فإنَّ مَن يُصلِّي صلاتَنا، ويستقبلُ قِبلتَنا، ويأكلُ ذبيحتَنا، فذلكَ المُسلمُ، لهُ ما للمسلمينَ وعليهِ ما عليهم.

ومَن أبى فعليهِ الجِزْيَةُ.

وإنِّي كتبتُ إلى أهلِ البحرين أدعوهم إلى اللّهِ، فإن أجابوا

فحَسَـنٌ، وإن أبَـوا فعليهـم الجِزْيَـةُ.

والسّلام.»

وقـد حمـل هـذه الرِّسـالةَ العَـلاءُ بـن الحَضْرَمـيُّ ﵁، أحـدُ بُلغـاء الصَّحابـة، معـروفٌ بحكمتـه وسَـمْتِه، اختـاره النَّبـيُّ ﷺ لمـا فيـه مـن عقـلٍ ورِقَّـةٍ وقـدرةٍ علـى الدُّخـول علـى المُلـوك بـلا رهبـة. فسـار حتَّـى بلـغ البحريـن، ودخـل علـى المُنـذِر، فسَـلَّمه كتـاب رسـول اللّه ﷺ.

فقـرأ المُنـذِرُ الرِّسـالةَ، فأعجبتـه هيبـةُ ألفاظهـا ووضـوحُ حجَّتِهـا، فمـال قلبُـه إلـى الحـقِّ ميـلًا. ثـمَّ دار بينـه وبيـن العـلاءِ حـوارٌ رقيـقٌ تتفجَّـرُ مـن ثنايـاه الحكمـة:

قـال المُنـذِرُ: يـا عـلاء، واللّهِ لقـد نظـرتُ فـي هـذا الدِّيـن، فرأيتُـه لا يأمـرُ إلَّا بخيـرٍ ولا ينهـى إلَّا عـن شـرٍّ.

فقـال العـلاءُ ﵁: هـو ديـنُ اللّهِ الـذي ارتضـاه لخلقِـه، أرسـلَهُ نبـيٌّ كريـم، يدعـو إلـى مـا يدعـو إليـه الأنبيـاء.

فقـال المُنـذِرُ: إنِّـي لأرى صاحِبَكـم نبيًّـا، ولـولا أنِّـي ملِـكٌ فـي قـومٍ أخـافُ فِتنتَهـم لاتّبعتُـهُ علانيـةً.

فقـال العـلاءُ: يكفيـكَ أن تُقيـمَ العـدلَ فيمـا وُلِّيـتَ، وأن تُجيـبَ دعـوةَ الحـقِّ فـي نفسِـك، فـإنَّ اللّه يهـدي مـن يشـاء.

ثـمَّ قـال المُنـذِرُ: سـأنظر فـي أمـرِ قومـي، فمـا كانـوا عليـه مـن خيـرٍ أثبتُّـه، ومـا كان مـن شـرٍّ أنكرتُـه؛ فـإن أسـلموا اتَّبعتُهـم، وإن أبَـوا رضيـتُ منهـم بالجِزْيَـة.

فكتب المُنذِرُ إلى النَّبيِّ ﷺ جوابًا يقول فيه:

يا رسولَ اللّه، إنِّي قد قرأتُ كتابَك، وفهمتُ ما دعوتَ إليه. وقد وجدتُ دينَك خيرَ الأديان، فأنا على الإسلام، ومن قبلي من النَّاس.

فكانت النتيجة عظيمة:

- أسلم المُنذِرُ بنُ ساوى، وأعلن خضوعَه للّه.
- وأسلمت قبائلُ كثيرة من أهلِ البحرين، وانتشر نورُ الإسلام بينهم بسرعةٍ.
- وأمَّا من أبى فقد قبل ودفع الجِزية كما أمر النَّبيُّ ﷺ.
- وصارت البحرين أوَّلَ أرضٍ من بلاد العرب يدخل أكثرُها في الإسلام برسالةٍ واحدة.

وهكذا كانت رسالةُ النَّبيِّ ﷺ إلى مَلِكِ البحرين صفحةً مشرقةً من صفحات الدعوة، لم تُواجَه بتكبّرٍ، ولم تُهَنْ كما فُعِل بكتاب كِسرى، بل وجدت قلبًا واعيًا، فحرَّكت فيه نورَ الفطرة، وكانت بابًا لانتشار الإسلام في الخليج، ودليلًا على أنّ الكلمةَ إذا خرجت من فمِ النَّبيِّ ﷺ تفتح من القلوب ما لا تفتحه الجيوش.

سادساً: إلى هوذة بن عليٍّ صاحب اليمامة!

كان هَوذةُ بن عليٍّ الحَنَفيُّ صاحبَ اليمامة، ورئيسَ بني حنيفة، رجلًا له مكانةٌ وسيادة، يتَّصف بالحِلم والدَّهاءِ، وكان شاعرًا خطيبًا، يُعجب بنفسه، ويرى أنَّه أهلٌ للمُلك، وكان قومُه يعظِّمونه تعظيمًا كبيرًا. وكان هَوذةُ يميل إلى السِّياسة أكثر من الميل إلى الحقِّ، فيَزِنُ الأمور بميزان المصلحة، لا بميزان الهداية، وكانت اليمامة يومئذٍ من أعظم أقاليم الجزيرة، لها حصونٌ وزروع، وفيها قوةٌ ومَنعة، فكان صدى الكلمة يصل إلى هَوذة متأخِّرًا، ويصل إليها ضوء الحقِّ محجوبًا بطبقاتٍ من الكبرياء.

فلمَّا كتب النَّبيُّ ﷺ إلى الملوك والأمراء بعد صُلح الحديبية، بعث إلى هَوذة صاحب اليمامة يدعوه إلى الإسلام، كما دعا غيره من السَّادة والملوك.

وكان نصُّ رسالة النَّبيِّ ﷺ إلى هوذة:

«بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ.

مِن محمَّد رسولِ اللّٰهِ، إِلَى هَوذةَ بن عليٍّ.

سَلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدى.

أمّا بعدُ: فاعلَمْ أنَّ ديني سيَظهَرُ إلى مُنتَهى الخُفِّ والحافرِ.

فأسلِمْ تَسلَمْ، وأَجعَلْ لكَ ما تحتَ يديكَ.»

وقد حمل هذه الرِّسالةَ سُليطُ بن عمرو العامريُّ ﵁، رجلٌ فصيحٌ حصيفٌ، من أذكى رُسُلِ النَّبيِّ ﷺ، اختاره لما يعرف من حُسن منطقه وثبات قلبه أمام أهل المُلك.

فلمَّا دخل سُليطٌ على هَوذة، وسلَّمه الكتاب، قرأه هَوذةُ طويلًا، ثمَّ رفع بصره إلى المبعوث، ودار بينهما حوار:

قال هَوذةُ لسُليط: ما هذا الذي تدعون إليه؟ وما شأنُ صاحبِكم؟

فقال سُليطٌ ﵁: ندعو إلى اللّهِ وحده، لا شريك له، وندعو إلى الصِّدق، وإلى ترك عبادة الحجارةِ والطواغيت، وصاحبُنا رسولُ اللّهِ، جاء بالهدى ودين الحقِّ.

فقال هَوذة، وقد راودَهُ حبُّ المُلك: إن أعطاني صاحبُكم بعضَ المُلك، أُسلم له، وأتبعه.

فقال سُليطٌ بوضوح لا مهابة فيه: ما بهذا بعثَنا رسولُ اللّهِ، ولا هذا يُعطى لك. إنَّما المُلكُ للّهِ، يورِّثُهُ من يشاءُ من عبادِه.

فقال هَوذةُ ساخطًا: أعلِم صاحبَكم بما قلتُ.

فخرج سُليط إلى المدينة، فأخبر النَّبيُّ ﷺ بما قال هَوذة، فقال النَّبيُّ ﷺ: لو سألني قِطعَةً من الأرضِ ما فَعَلتُ. بادَ مُلكُه.»

أمَّا تعاملُ هَوذةِ مع الرِّسالة، فلم يكن تعامل مكابرةٍ كتمزيق كِسرى، ولا تعامل إنصافٍ كموقف المُقوقِس، بل تعامل حسابٍ

سياسيٍّ ومساومة؛ فقد أعجبه خطاب النَّبيِّ ﷺ، ورأى قوَّته، لكنَّه طمِع أن يأخذ نصيبًا من المُلك مقابل الإسلام، فامتنع، وفضل البقاء على جاهليته.

ثمَّ كتب هَوذة إلى النَّبيِّ ﷺ معتذرًا: ما أحسنَ ما تدعو إليه وتُحبِّب فيه! ولولا أن قومي يرون عليَّ ضَعفًا لاتبعتُك.

لكنَّه لم يُسلم، وظلَّ ينتظر الأيام.

فلمَّا تُوفِّيَ النَّبيُّ ﷺ، وخرج مُسيلمة الكذَّاب في اليمامة، أرسل إلى هَوذة يدعوه لمناصرته، فمال إليه هَوذةُ ميلًا تافهًا، ثمَّ مات بعد ذلك بقليل، فانطفأ ذكره، وسقطت مكانته، وزال مُلكُه كما أخبر النَّبيُّ ﷺ.

وهكذا كانت رسالةُ النَّبيِّ ﷺ إلى هَوذةِ بن عليٍّ آيةً من آياتِ الدعوة، أقامت الحُجَّة على رجلٍ فتح له الحقُّ البابَ فأبى، وبيَّنتْ أنَّ الهدايةَ لا تنفعُ من يطلب الدُّنيا فوق الآخرة، وأنَّ الكلمة التي خرجتْ من المدينة بلغت اليمامة، ولكن لم يجد قلبُ هَوذةٍ لها موضعًا غير طمعٍ قصيرٍ زال بزوال حياته.

سابعاً: إلى الحارثِ بن أبي شَمِرٍ الغسَّانيِّ!

كان الحارثُ بن أبي شَمِرٍ الغَسَّانيُّ أميرَ دمشق وما حولها من بلاد الشَّام، تابعًا للرُّوم، وكان من أعظم ملوك العرب نفوذًا في ذلك الإقليم، مُهابًا في قومه، شديدَ التعلُّق بمَلِكِ الرُّوم هرقل.

وكان الحارثُ معروفًا بالأنَفةِ والفخر، لا يُقيم وزنًا لغير الملوك، ويرى أنَّه من سادات العرب الذين لا يُخاطَبون إلَّا بما يليق بسلطانهم. وكانت له قلعةُ جابِيَة المشهورة، يجلس فيها مجلسَ المُلك، فلا يدخل عليه أحدٌ إلا أذلَّهُ شدَّةُ هيبته، ولا يتكلَّم عنده إلَّا أهل الرَّأي والحكمة.

فلمَّا أرسل النَّبيُّ ﷺ كُتُبَه إلى الملوك بعد صلح الحديبية، بعث كتابًا إلى الحارثِ بن أبي شَمِرٍ يدعوه فيه إلى الإسلام، كما دعا غيره من الملوك والأمراء.

وكان نصُّ كتاب النَّبيِّ ﷺ إلى الحارث:

«بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم.

مِن محمَّد رسولِ اللّٰهِ، إلَى الحارِثِ بنِ أبي شَمِرٍ.

سَلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدى، وآمَنَ به وصدق، وإني أدعوكَ إلى أن تؤمن باللّٰه وحده لا شريكَ له، يُبقي لك ملكك"!

وقد حمل هذه الرِّسالةَ شُجاعُ بن وَهْبٍ الأسديُّ رضي الله عنه، وكان من فرسان النَّبيِّ ﷺ ومن أهل الجرأة والمهابة، فخرج حتَّى بلغ دمشق، ودخل على الحارث في قصره، ووقف بين يديه بلا ارتجاف.

فلمَّا قُرِئَ الكتابُ على الحارث، ظهرت على وجهه علاماتُ الغضب، واشتدَّ انقباضُه، ثمَّ التفت إلى شجاع، ودار بينهما الحوارُ الذي حفظته كُتبُ السِّيَر.

قال الحارث لشجاع: ما يقول صاحبُكم؟ يدعوني إلى دينه؟!

فقال شجاعٌ ﵁ بكل ثباتٍ: هو داعٍ إلى اللّهِ، يأمُرُ بالحقِّ، وينهى عن الظُّلمِ، ويدعو إلى عبادةِ اللّهِ وحدَه.

فقال الحارث مستنكِرًا: أترانـي أتركُ مُلكي وأتَّبِعُه؟! وما لي إن أسلمتُ؟

فقال شجاع: لَكَ ما للمسلمين، وعليكَ ما عليهم.

فقال الحارث غاضبًا: بل أُخْبِرُ هرقلَ بما كتب صاحبُكم. لا أقدِرُ أن أخرجَ من طاعته.

ثمَّ قال قولته التي شاع ذكرُها: لأَحنقِنَّهُ أي لأُثِيرَنَّ غضبَه، ولأُثِيرنَّ غضبَه على النَّبيِّ ﷺ.

فأكرم شجاعًا في الظاهر، وودَّعه، ثمَّ كتب إلى هرقل يخبره بمجيء رسول النَّبيِّ ﷺ، وبما جاء في الكتاب، ويستأذنه في الأمر. فاشتدَّ غضبُ هرقل وقال لخدمه: أراد صاحبُ يثربَ أن يَنزِعَني من مُلكي!

وأمر ألَّا يُظهر الحارث شيئًا من طاعة لرسول اللّه ﷺ.

أمَّا النَّتيجة فقد كانت كما أخبر النَّبيُّ ﷺ: لم يُسلم الحارث، ولم يجب الدَّعوة، وأغلق قلبه دون الهدى، وتشبَّث بمُلْكِ الرُّوم وتسلُّطهم.

وقيل إنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر أصحابه بقوله: بادَ مُلكُه!

فلم يمضِ زمنٌ طويلٌ حتَّى أكلتِ الحروبُ نفوذَ الغَسَاسِنَة، وسقطتْ دولتُهم، وتلاشى مُلْكُ الحارث كما يتلاشى السَّراب، وكان ذلك من دلائل صِدق الإخبار.

وهكذا كانت رسالة النَّبيِّ ﷺ إلى الحارث صفحةً من صفحات الدَّعوة التي بلغت القِلاع والقصور، فلم تُقابَل عنده بقبولٍ ولا إنصاف، لكنَّها أقامت عليه الحُجَّة، وأظهرت أنَّ نور النُّبوَّة يصل إلى الملوك كما يصل إلى الضُّعفاء، وأنَّ من صدَّ عنه خسر الدُّنيا والآخرة.

ثامناً: إلى جَيْفَرَ وعبدِ ابني الجُلَنْدَى مَلِكَيْ عُمَان!

لم تكن رسائلُ النبيِّ ﷺ إلى الملوكِ استعراضَ قوّةٍ، بل بلاغَ هدايةٍ، ولا فرضَ سلطانٍ، بل دعوةَ عدلٍ تُخيِّر قبل أن تُحاصِر، وفي رسالته إلى مَلِكي عُمان تتجلّى حكمةُ النبوّة: كلمةٌ واضحة، ووعدٌ صادق، وإنذارٌ عادل، ثم تركُ الخيار لأصحابه، فكان الإيمانُ جوابًا، والسلامُ ثمرةً، وبقاءُ المُلكِ جزاءَ مَن اختار الهُدى!

وهذا نصُّ رسالة النّبيِّ ﷺ إليهما:

بسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم، من مُحَمَّدٍ رسولِ اللّهِ: إلى جَيْفَرَ وعبدِ ابني الجُلَنْدَى، سَلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدى، أمّا بعدُ، فإنِّي أَدعوكُما بدِعايةِ الإسلام، أَسلِما تَسلَما، فإنِّي رسولُ اللّهِ إلى النّاسِ كافّةً، لأُنذِرَ مَن كانَ حيًّا ويَحِقَّ القولُ على الكافِرين، وإنَّكُما

إن أَقْرَرتُما بالإسلام وَلِيَّتُكُما، وإن أَبَيْتُما فإنَّ مُلكَكُما زائلٌ، وخَيلي تَطَأُ ساحتَكُما، وتَظْهَرُ نُبوَّتي على مُلكِكُما، والسَّلامُ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدى!

فكان جوابُ مَلِكي عُمان إيمانًا بلا حرب، ودخولًا في الإسلام بلا دم، وبقاءً في المُلكِ بلا خديعة، ليكون ذلك شاهدًا على أنّ الكلمةَ الصادقةَ إذا خرجت من قلبِ نبيٍّ فتحت القلوبَ قبل الحصون!

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروس والعِبر من مراسلة النَّبيِّ ﷺ للمُلوك والحُكَّام:

1 ـ عالَمِيَّةُ الرِّسالةِ وامتدادُ نُورِها، أي إنَّ الإسلامَ خرجَ من حُدودِ الجزيرةِ ليُخاطِبَ العالَمين، لا يَستثني أُمَّةً ولا يَخصُّ قَوْمًا، بل يَحمِلُ نُورًا يَسَعُ البَشَرَ جميعًا مهما اختلَفَت ألسِنَتُهم وديارُهم.

2 ـ أنَّ القُوَّةَ ليست بِالسَّيفِ، بل بالكَلِمَةِ الصَّادِقَةِ، فالحقُّ إذا نَطَقَ به القلبُ الصَّادِقُ كان أبلَغَ مِن حَدِّ الحَديد، وتِلكَ الرِّقاعُ اليسيرةُ التي خرجَت مِن المدينةِ هَزَّت عُروشَ الملوكِ لأنَّها خرجَت مِن روحٍ صادِقَةٍ مُوحِّدة.

3 ـ شَجاعَةُ الدَّعوةِ وثَباتُ الدَّاعي، مُراسَلَةُ الملوكِ إعلانٌ أنَّ الدَّعوةَ لا تَخشَى سُلطانًا، وأنَّ صاحِبَها ثابِتٌ كَالطَّوْدِ، واثِقٌ بأنَّ اللَّه ناصِرُه ولوِ اجتَمَعَت عليه قُوى الأرضِ.

4 ـ الحِكمَـةُ فـي اختيـارِ الرُّسُـلِ، فالرِّسـالةُ لا تَبلُـغُ إلّا بِلِسـانٍ حَسَنٍ ووجـهٍ صَبوحٍ وسلوكٍ رَفيع، ولذلـك اختيـرَ لَهـا رِجالٌ يَجمعونَ بيـن الفِطنَـةِ والوَقـارِ، ليكونـوا صـورةً ناطِقَـةً عـن أخـلاقِ الإسـلام.

5 ـ أنَّ الهِدايَـةَ لا تُكـرَه، بـل تُعـرَضُ بنُـورٍ، فالرَّسـائِلُ ناعِمَـةٌ كالمَطَـر، رَقيقَـةٌ كَنَسـيمِ الفَجـر، تأتـي بالخيـرِ وتَدعـوه دونَ جَبْـرٍ أو عُنـفٍ، لأنَّ الإيمـانَ إذا لـم يَدخُـلِ القلـبَ طائعًـا لـم يَثبُـتْ فيـه يومًـا.

6 ـ إقامـةُ الحُجَّـةِ قبـلَ المُواجَهَـةِ، فـاللّٰه لا يُعاقِـبُ قَومًـا إلّا بعـدَ أنْ تقـومَ عليهـمُ البَيِّنَـةُ، والنَّبـيُّ ﷺ لا يُحـارِبُ إلّا مَـن سَـمِعَ الحَـقَّ ثـمَّ أعْـرَضَ عنـه، وهـذا قِمَّـةُ العَـدلِ والإنصـافِ.

7 ـ أنَّ الفِطـرَةَ تَعـرِفُ الحَـقَّ ولـو حَجَبَـهُ المُلـكُ، فقـد عَـرَفَ النَّجاشـيُّ الحقيقـةَ حيـن لامَسَـتْها روحُـه، وكاد هَرقـلُ يَبلُغُهـا لـولا هَيْبَـةُ العَـرْشِ، وفـي هـذا دَرسٌ أنَّ القلـبَ قـد يُبصِـرُ مـا تَعمـى عنـه العُيـونُ المُزدانَـةُ بالسُّـلْطانِ.

8 ـ أنَّ الكِبْـرَ يَحجُـبُ الهُـدى، كِسْـرَى لـم يَرفُـضِ الرسـالَةَ لأنَّهـا غيـرُ بَيِّنَـةٍ، بـل لأنَّ الكِبْـرَ غَطّـى سَـمعَهُ وبَصَـرَه، فـكان سُـقوطُ مُلكِـهِ آيـةً علـى أنَّ الاسـتِعلاءَ يُطفِـئُ نُـورَ الهِدايَـةِ.

9 ـ أنَّ الدَّعـوةَ قُـوَّةٌ ناعِمَـةٌ تُمهِّـدُ لِلقُـوَّةِ الخَشِـنَةِ، فمـا دَخَـلَ المسـلمونَ بَلَدًا إلّا بعـدَ أنْ دَخَلَتْـهُ الكَلِمَـةُ، ومـا فُتِحَـتْ مَدينَـةٌ إلّا بعـدَ أنْ فُتِحَـتِ القُلـوبُ، وهـذا أعظَـمُ فِقْـهٍ فـي إدارةِ الدَّعـواتِ.

10 ـ تَفـاوُتُ النَّـاس فـي اسـتِقبالِ النُّـورِ، منهـم مَـن تُشـرِقُ روحُـهُ مـع أوَّلِ كَلِمَـةٍ، ومِنهـم مَـن يَقِـفُ فـي مُنتَصَـفِ الطَّـريقِ، ومِنهـم مَـن يُعانِـدُ

حتَّى تَنطَفِئَ في قلبِهِ آخِرُ شَمعَةٍ لِلخيرِ.

11 ـ أنَّ الدَّعوةَ تَحتاجُ إلى الصَّبرِ وطولِ النَّفَسِ، فلم تَظهَرْ آثارُ الرسائِلِ في لَيلَةٍ، بل كانت بَذْرًا يَتَفَتَّحُ على مَهَلٍ، وثمَّارًا تُقطَفُ بعدَ سِنينَ.

12 ـ القِيادَةُ النَّبَوِيَّةُ بَعيدَةُ النَّظَرِ، إذ لم يَحصُرِ النبيُّ ﷺ رسالَتَهُ في قَومِهِ، بل رَأى ما وراءَ البَحرِ والجِبالِ، ورأى أُمَّةً تَحمِلُ نُورَهُ قُرونًا بعدَه.

13 ـ أنَّ الدَّعوةَ مَسؤولِيَّةٌ لا حُدودَ لَها، فالمُؤمِنُ ليس ابنَ بِيئَتِهِ وَحدَها، بل ابنُ الرِّسالَةِ، يَحمِلُها إلى مَن يَعرِفُ ومَن لا يَعرِفُ، ويُسمِعُ بها البَعيدَ والقَريبَ.

14. الدَّعوةُ بلا عُقدَةِ نَقصٍ ولا عُقدَةِ عَظَمَةٍ، فالنبيُّ ﷺ حينَ كتبَ لِلمُلوكِ لم يكتُبْ كطالِبِ فَضلٍ ولا كمتكبِّرٍ، بل كتبَ مِن مَقامِ الرِّسالَةِ التي تَستوي عندَها التِّيجانُ والرُّؤوسُ.

15 ـ الدَّوْلَةُ التي تُؤمِنُ بِرسالَتِها تَجرُؤُ على المُبادَرَةِ، فلا تَنتظِرُ العالَمَ لِيأتيَ إليها، بل تُبادِرُهُ بِسَلامِها ونُورِها، لأنَّها واثِقَةٌ مِن أنَّ رِسالَتَها تَحمِلُ ما يُغني ويَهدي.

16 ـ السِّياسَةُ إذا انفَصَلَت عن الأخلاقِ تَفسُدُ، أمّا سِياسَةُ النبيِّ ﷺ فكانت أخلاقًا تَمشي على الأرضِ؛ لا خِداعَ فيها، ولا مَكرَ، بل صِدقٌ يُضيءُ الدَّربَ لِمَن أرادَ الحَقَّ.

17 ـ الخِطابُ يُفَصَّلُ بِحَسَبِ عَقلِ المُتَلَقِّي، فخِطابُ النَّجاشيِّ رَقيقٌ لَيِّنٌ، وخِطابُ كِسرى قويٌّ حازِمٌ، وكُلُّ رِسالَةٍ نُسِجَتْ بما يُناسِبُ عَقلَ المُخاطَبِ وحالَه.

18 ـ الرَّحمَـةُ سـابِقَةٌ عنـدَ النبـيِّ ﷺ علـى الفَتـحِ، كان يُريـدُ أنْ يَهـديَ القُلـوبَ قبـلَ أنْ يَفتَـحَ المُـدُنَ، ويُحـرِّرَ الأرواحَ قبـلَ أنْ يُحـرِّرَ الأرضَ.

19 ـ المَبـدأُ لا يُسـاوَمُ، فلـم يَـرضَ النبـيُّ ﷺ أنْ يَمنَـحَ هَـوذَةَ شـيئًا مِـن المُلـكِ مُقابِـلَ الإسـلامِ، لأنَّ الحقيقـةَ أعلـى مِـن أنْ تُشـتَرى أو تُسـاوَمَ.

20 ـ سُـنَنُ اللهِ تَجـري على الجميعِ، فالـذي يَعـرِفُ الحَـقَّ ويتبعُـه يرفعُـه اللهُ، والـذي يَعرِفُـهُ ويعـرضُ عنـهُ يَهْـوِي كمـا هَـوَتْ عُـروشُ كِسـرى والغَسّـانِيِّينَ.

21 ـ البُعـدُ الحَقيقـيُّ ليس بُعـدَ المـكانِ بل بُعـدَ القَلْـبِ، فالرسـائِلُ بَلَغَـتِ القُصـورَ، لكـنَّ بَعـضَ القُلـوبِ كانـت أبعَـدَ مِـن القُصـورِ نَفسِـها.

22 ـ الدَّعـوةُ واجِبَـةٌ فـي كُلِّ الظُّـروفِ، فالنبـيُّ ﷺ دَعـا وهـو مُحاصَـرٌ، ودَعـا وهـو مُنتَصِـرٌ... لأنَّ البَـلاغَ أكبَـرُ مِـن الضِّيـقِ والرَّخـاءِ.

23 ـ العَلاقـاتُ بيـنَ الشُّـعوبِ تَبـدأُ بِالكَلِمَـةِ، فحيـن يَصِـلُ صـوتُ الإسـلام أوَّلًا، تَصِـلُ أخلاقُـه ثانيًـا، ثـمَّ تَصِـلُ جُيوشُـه ثالثًـا، فَتكـونَ الأرضُ مُهَيَّـأةً لِلقَبـولِ.

24 ـ الحَـقُّ قـد لا يُقبَـلُ اليـومَ لكِنَّـهُ يُثمِّـرُ غَـدًا، كَـم مِـن مَلِـكٍ أعـرَضَ... ثـمَّ جاء أبنـاؤُهُ وأحفـادُهُ يَفتَحـونَ قُلوبَهـم لِنفسِ الحَـقِّ الَّـذي رَفَضَـهُ آباؤُهـم.

25 ـ القِيـادَةُ النَّبَوِيَّـةُ جَمَعَـتْ بيـنَ الرُّوحانِيَّـةِ والسِّياسَـةِ، فهـي قِيـادَةٌ تَـرى بالغَيْـبِ كمـا تَـرى بالعيـنِ، وتَجمَـعُ بيـنَ عِبـادَةِ اللَّيـل وحِكمَـةِ النَّهـارِ.

26 ـ الإسـلامُ لا يَخشَـى الحِوارَ، بل يَدعـو إليـهِ بثِقَـةٍ، لأنَّـه يَملِـكُ بَراهيـنَ تُنيرُ الطَّريقَ لِمَـن أرادَ الحقيقـةَ.

27 ـ أعظَـمُ الانتصـاراتِ مـا كانَ علـى القُلـوبِ لا علـى المُـدُنِ، فإسـلامُ النَّجاشـيِّ، وهِدايَـةُ البَحرَيـنِ، ومَيـلُ قُلـوبِ الشُّـعوبِ قبـلَ وُصـولِ الجُيـوشِ... كانـت انتِصـاراتٍ لا تَقـلُّ شـأنًا عـن فَتـحِ مكَّـة!

28 ـ أنَّ الدَّعـوةَ ليسـت رَدَّ فِعلٍ، بـل فِعلٌ مُؤَسِّسٌ يَقـودُ المُسـتقبَلَ، فالنبـيُّ ﷺ بَـدَأ العالَـمَ بالكَلِمَـةِ قبـلَ الصِّـدامِ، ليُثبِـتَ أنَّ الرِّسـالَةَ صانِعَـةٌ لـلأحـداثِ لا مُنفعِلَـةٌ بهـا.

29 ـ أنَّ الرِّسـالَةَ التـي تُخاطِـبُ العُقـولَ تَحتـاجُ لِلُغَـةٍ تُخاطِـبُ الأرواحَ أيضًـا، فقـد جَمَعَـتْ كُتُبُـه ﷺ بيـنَ الحُجَّـةِ والنُّـورِ، تُقيـمُ الدَّليـلَ وتُرقِّـقُ القلـبَ، لأنَّ الهِدايَـةَ تُولَـدُ مِـن مَـزْجِ العقـلِ والـرُّوحِ معًـا.

30 ـ أنَّ الدَّعـوةَ إذا خرجَـتْ مِـن قلـبٍ مُوقِـنٍ تَتجـاوَزُ الزَّمـانَ، فتَبقَـى الكَلِمَـةُ حيَّـةً ولـو مـاتَ صاحِبُهـا، وتنتشِـرُ وتُثمِّـرُ لأنَّهـا خرجَـتْ مِـن نَفْـسٍ صادِقَـةٍ مُخلِصَـةٍ للّٰهِ.

فَتْحُ خَيْبَر!
إنَّا إذا نَزَلْنا بساحَةِ قَوْمٍ فَساءَ صَباحُ المُنْذَرِينَ!

لَمْ تَكُن خَيْبَرُ مجرّدَ واحَةٍ مترفةٍ بالثمَّرِ والماءِ والحُصون، بل كانت مَعْقِلَ الغَدْرِ الَّذي ما بَرِحَ يَنْسِجُ لَيْلًا خُيوطَ الفِتنةِ.

فمِن هُناك انطلقَ تَحريضُ الأَحزابِ، ومِن هُناك خرجَ المالُ والسِّلاح والوعودُ، تَجرُّ خلفها ريحَ الخيانةِ إلى يومِ الخندقِ.

وبعدَ صُلحِ الحُديبيةِ لم تَزَلْ يَدُ خَيْبَرَ تتحرّك في الظلام، تُعِدُّ لليلٍ آخرَ من الغدرِ.

فكان خروجُ النبيِّ ﷺ إليهم دفعًا لشَوْكَةِ الغَدْرِ، لا طمعًا في أرضٍ ولا ثمَّرٍ.

خرجَ الجَيْشُ الإسلاميُّ يَشُقُّ الطريقَ بين المدينةِ وخيبر، وكان النبيُّ ﷺ بينهم كقمرٍ توسَّطَ نجومه!

بلغوا خيبرَ ليلًا، فلمَّا انشقَّ الصبحُ وخرجَ أهلُ المزارعِ إلى حقولهم، رأوا الأرضَ تموجُ بِرَايَاتِ الإيمانِ.

فصاحوا من فوق الأسوار: جاءَ محمَّد وَالخَمِيسُ!

فطالعَهم النَّبيُّ ﷺ بصوتٍ كأنَّه زئيرُ أسدٍ إذا أرادَ أن يثِبَ: خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إنَّا إذا نَزَلْنا بساحَةِ قَوْمٍ فَساءَ صَباحُ المُنْذَرِينَ!

تحصّنَ اليهودُ في قلاعٍ تشبهُ قممَ الجبال، ظنُّوا أنَّها مانعتهم من اللّه!

جمع النبيُّ ﷺ أصحابَهُ وقال: لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُه!

فبات القومُ لا ينامون إلا على ظنٍّ ورجاء.

فلمَّا أشرقتِ الشَّمس، دعا النبيُّ ﷺ عليًّا، وكان أرمَدَ العينين، فمسحَ عليهما، فبرأتا كَضَوْءٍ وُلِدَ مِن جَدِيدٍ.

ثمَّ دفعَ إليه الرّايةَ، فارتفعت في الهواء كأنها إعلانُ نصرٍ قادم!

تتابعتِ الحصونُ تتساقطُ، وكان كلُّ حصنٍ يرى في سقوطِ الذي قَبلَه نَعْيًا يقتربُ من بابِه، وكأنَّ الريحَ تكتبُ على جُدرانِه: انتهى زمنُ الخيانةِ!

فلمَّا سقطت خيبرُ، لم يرفعِ النبيُّ ﷺ يدَه انتقامًا، بل رفعَها صُلْحًا.

أبقى أهلَ خيبرَ على أرضِهم، على أن يكون نصفُ الثمَّارِ للمسلمين.

فصار الفتحُ شاهدًا أنَّ القوّةَ إذا لَبِسَها العَدْلُ صارَتْ رَحْمَةً، وأنَّ يدَ النبيِّ ﷺ ما امتدّت يومًا لظلمٍ!

هكذا فُتِحَتْ خَيْبَر، لا بثأرِ غاضبٍ، ولا بحقدِ طامعٍ، بل بِخُطَى نُبُوَّةٍ أرادت أن تُطَهِّرَ ظهرَ الدولةِ من شوكةٍ طال أذاها.

وبقي الفتحُ شاهدًا أنَّ السَّيْفَ إذا حَمَلَهُ نَبِيٌّ صَارَ نُورًا، وأنَّ العَدْلَ إذا مشى على قَدَمَيْ رسولٍ أَنْبَتَ السلامَ في الأرض!

تلـكَ كانـتْ حكايـة خيبـرٍ إذا مـا رواهـا الإيجـاز، أمـا التَّاريـخُ فتفاصيـلٌ ومحطـاتٌ، ومواقـفٌ تبـركُ عندهـا مطايا السَّـرد مُفصَّـلاً!

لـم يُظهِـرْ يهـودُ خيبـرَ العـداءَ للمسـلمين حتَّـى نـزلَ فيهـم زعمـاءُ بنـي النَّضيـر، الّذيـن حَزَّ فـي نفوسِـهم إجلاؤُهـم عن ديارِهـم، ولم يكنِ الإجـلاءُ كافيًـا لكسـرِ شـوكتِهم، فقـد غـادروا المدينـةَ ومعهـم النسـاءُ، والأبنـاءُ، والأمـوالُ، وخلفَهـم القِيـانُ يضرِبـنَ الدفـوفَ والمزاميـرَ بزَهـاءٍ وفخـرٍ مـا رُئـيَ مثلُـه فـي حـيٍّ مـن النَّـاس فـي زمانِهـم.

وكان مـن أبـرزِ زعمـاءِ بنـي النضيـرِ الّذيـن نزلـوا فـي خيبـر سَـلّامُ بـنُ أبـي الحُقَيـق، وكِنانـةُ بـنُ أبـي الحُقيـق، وحُيَـيُّ بـنُ أَخطـب، فلمَّـا نزلـوا دانَ لهـم أهلُهـا.

وكان تَزَعُّـمُ هـؤلاءِ ليهـودِ خيبـرَ كافيًـا فـي جرِّهـا إلـى الصـراعِ، والتصـدّي، والانتقـامِ مـن المسـلمين؛ فقـد كان يدفعُهـم حِقـدٌ دفيـنٌ، ورغبـةٌ قويّـةٌ فـي العـودةِ إلـى ديارِهـم داخـلَ المدينـة.

وكان أوّلَ تحـرّكٍ قـويٍّ مـا حـدثَ فـي غـزوةِ الأحـزابِ، حيـث كان لخيبـرَ وعلـى رأسِـها زعمـاءُ بنـي النضيـر دورٌ كبيـرٌ في حشـدِ قريـشٍ والأعـرابِ ضـدّ المسـلمين، وتسـخيرِ أموالِهـم فـي ذلـك، ثـمَّ سـعيِهم فـي إقنـاعِ بنـي قريظـة بالغـدرِ والتعـاونِ مـع الأحـزاب، بـل إنّهـم أنفقـوا أموالَهـم واسـتغلّوا علاقاتِهـم مـع يهـودِ بنـي قريظـة لنُصـرةِ الأحـزابِ وطعـنِ المسـلمين فـي ظهورِهـم، وهكـذا أصبحـت خيبـرُ مَصـدرَ خَطـرٍ كبيـرٍ علـى المسـلمين ودولتِهـم الناميـة!

سارَ الجيشُ إلى خيبرَ بروحٍ إيمانيَّةٍ عاليةٍ، على الرَّغمِ من علمِهم بمنعةِ حصونِ خيبرَ، وشدَّةِ بأسِ رجالِها، وعتادِها الحربيِّ. وكانوا يُكبِّرون ويُهلِّلون بأصواتٍ مرتفعةٍ، فطلبَ منهم النَّبيُّ ﷺ أن يرفُقوا بأنفسِهم قائلاً: أيُّها النَّاس، ارْبَعُوا على أنفُسِكم، فإنَّكم لا تدعونَ أصمَّ، ولا غائبًا، ولكنْ تدعونَ سميعًا بصيرًا!

وكان سيرُ النَّبيِّ ﷺ بالجنودِ ليلًا.

وبعثَ النَّبيُّ ﷺ عُبّادَ بنَ بِشْرٍ في سريَّةٍ استطلاعيَّةٍ يتلقَّطُ أخبارَ العدوِّ، ويستطلعُ إنْ كان هناك كمائن. فلقي في الطريقِ عينًا لليهودِ من أشجَعَ، فقال: من أنتَ؟

قال: باغٍ أبتغي أبعُرةً ضلَّت لي، أنا على إثْرِها.

قال عُبّاد: أَلَكَ علمٌ بخيبرَ؟

قال: عهدي بها حديثٌ، فيمَ تسألني عنه؟

قال: عن اليهودِ؟

قال: نعم، كان كِنانةُ بنُ أبي الحُقيقِ، وهَوْذةُ بنُ قَيْسٍ ساروا في حُلفائِهم من غَطَفانَ، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمَّرَ خيبرَ سنةً، فجاؤوا مُعَدِّين، مُؤيَّدين بالكُراعِ والسِّلاح، يقودُهم عُتبةُ بنُ بَدرٍ، ودخلوا معهم في حصونِهم، وفيهم عشرةُ آلافِ مقاتلٍ، وهم أهلُ الحصونِ الَّتي لا تُرام، وسلاحٌ وطعامٌ كثيرٌ، لو حوصِروا لسنينَ لكفاهم، وماءٌ يشربونَه في حصونِهم، ما أرى لأحدٍ بهم طاقةً!

فرفعَ عُبّادُ بنُ بِشْرٍ السَّوطَ، فضربَّه ضرباتٍ، وقال: ما أنتَ إلّا عينٌ لهم، اصدقني، وإلّا ضربتُ عنقَك!

فقـال الأعرابـيُّ: القـومُ مرعوبـونَ منكـم، خائفـون، وَجِلـون؛ لمـا صنعتم بمـن كان بيثـربَ مـن اليهود. وقـال لـي كِنانـةُ: اذهـبْ معترضًـا للطريـقِ، فإنهـم لا يَسـتنكرونَ مكانَـك، واحزِرْهـم لنـا، وادنُ منهـم كالسَّـائلِ لهـم مـا تَقـوّى بـه، ثـمَّ أَلْـقِ إليهـم كثـرةَ عددِنـا، ومَدَدِنـا، فإنَّهـم لـن يَدَعـوا سُـؤْلَك، وعَجِّـلِ الرَّجعـةَ إلينـا بخبرِهـم!

وعندمـا وصـلَ جيشُ المسلمينَ إلـى مشـارفِ خيبـرَ، قـال رسـولُ اللّهِ ﷺ لأصحابِـه: قِفـوا!

ثـمَّ قـال: اللّهُـمَّ ربَّ السَّـمواتِ ومـا أظلَلـنَ، وربَّ الأرضيـنَ ومـا أقلَلـنَ، وربَّ الشَّـياطينِ ومـا أضلَلـنَ، وربَّ الرِّيـاحِ ومـا ذرَيْـنَ، فإنَّـا نسـألُك خيـرَ هـذهِ القريـةِ، وخيـرَ أهلِهـا، وخيـرَ مـا فيهـا، ونعـوذُ بـكَ مـن شـرِّها، وشـرِّ أهلِهـا، وشـرِّ مـا فيهـا، أقدمـوا باسـمِ اللّه!

سـارَ رسـولُ اللّهِ ﷺ إلـى خيبـرَ ليـلًا، ووصلَهـا ليـلًا، وأمَـرَ الجيـشَ بالنَّـومِ علـى مشـارفِها، ثـمَّ اسـتيقظوا مُبكِّريـن، وضربـوا خيامَهـم، ومعسـكرَهم.

ولمّـا أصبـحَ الصُّبـحُ خرجـتِ اليهـودُ بمسـاحيهم ومكاتِلِهـم، فلمَّـا رأوا جيـشَ المسـلمين قالـوا: محمَّـد واللّه! محمَّـد والخَميـس!

فقـال النبـيُّ ﷺ: اللّهُ أكبـر! اللّهُ أكبـر! خَرِبَـتْ خيبـرُ، إنّـا إذا نزلْنـا بسـاحةِ قـومٍ، فسـاءَ صبـاحُ المُنذَريـن!

هـربَ اليهـودُ إلـى حصونِهـم، وحاصرَهـم المسـلمون، وأخـذوا فـي فتـحِ حصونِهـم واحـدًا تلـوَ الآخـر، وكان أوّلَ مـا سـقطَ مـن حصونِهـم ناعِـمٌ، والصَّعـبُ بمنطقـةِ النَّطـاة، وأبـو النِّـزارِ بمنطقـةِ الشِّـقِّ، وكانـت هاتـانِ المنطقتـانِ فـي الشـمالِ الشـرقيِّ مـن خيبـرَ، ثـمَّ حصـنُ القَمُوصِ المنيعِ فـي منطقـةِ الكتيبـة، وهـو حصـنُ ابـنِ أبـي الحُقَيـق، ثـمَّ أسـقطوا حصنَـي منطقـةِ الوَطيـحِ والسَّـلالِم.

وقـد واجـهَ المسـلمونَ مقاومـةً شـديدةً وصعوبـةً كبيـرةً عنـد فتـحِ بعـضِ هـذه الحصـون، منهـا حصـنُ ناعِـم؛ الّـذي استُشـهِد تحتـه محمـودُ بـنُ مَسْـلَمَةَ الأنصـاريُّ، حيـث ألقـى عليـه مِرحَـبُ رَحـىً مـن أعلـى الحصـن، والّـذي اسـتغرقَ فتحُـه عشـرةَ أيـام. وعندمـا جَهَـدَ النَّـاس قـال رسـولُ اللّه ﷺ إنّـه سـيدفعُ اللِّـواءَ غـدًا إلـى رجـلٍ يحبُّـه اللّهُ ورسـولُه، ويحـبُّ اللّه ورسـولَه، لا يرجـعُ حتَّـى يُفتَـحَ لـه، فطابـت نفـوسُ المسـلمين. فلمَّـا صلّـى الفجـرَ دعـا علـيَّ بنَ أبـي طالـبٍ، ودفـعَ إليـه اللِّـواءَ، فحملَـه، فتـمَّ فتـحُ الحصـنِ علـى يديـهِ.

وكان علـيٌّ يشـتكي مـن رَمَـدٍ فـي عينيـهِ عندمـا دعـاه الرسـولُ ﷺ، فبصـقَ فـي عينيـهِ ودعـا لـه، فبَـرَأَ.

ولقـد أوصـى الرسـولُ ﷺ عليًّـا بـأن يدعـوَ اليهـودَ إلـى الإسـلام قبـل أن يداهمَهـم، وقـال لـه: فواللّه، لأن يهـديَ اللّهُ بـك رجـلًا واحـدًا خيـرٌ لـكَ مـن أن تكـونَ لـك حُمُـرُ النَّعَـمِ.

وعندما سأله عليٌّ: يا رسولَ اللّه، على ماذا أُقاتلُ النَّاس؟
قال: قاتِلْهم حتَّى يشهدوا أن لا إلهَ إلّا اللّه، وأنَّ محمَّدا رسولُ اللّه، فإذا فعلوا ذلك؛ منعوا منك دماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّها، وحسابُهم على اللّه.

وعندما حاصرَ المسلمون هذا الحصنَ برزَ لهم سيّدُه وبطلُهم مِرحَبٌ، وكان سببًا في استشهادِ عامرِ بنِ الأَكْوَعِ، ثمَّ بارزه عليٌّ فقتلَه، ممّا أثّر سلبيًّا في معنويّاتِ اليهود، ومن ثمَّ هزيمتِهم.

توجَّهَ المسلمونَ إلى حصنِ الصَّعبِ بنِ مُعاذٍ بعد فتحِ حصنِ ناعِمٍ، وأبلى حاملُ رايتِهم الحُبابُ بنُ المُنذِرِ بلاءً حسنًا، حتَّى افتتحوه بعد ثلاثةِ أيّامٍ، ووجدوا فيه الكثيرَ من الطعامِ والمتاعِ يومَ كانوا في ضائقةٍ من قلّةِ الطعام. ثمَّ توجّهوا بعده إلى حصنِ قلعةِ الزُّبيرِ، الّذي اجتمعَ فيه الفارّون من حصنِ ناعِمٍ، والصَّعبِ، وبقيّةِ ما فُتِح من حصونِ يهودَ، فحاصروه، وقطعوا عنه مجرى الماءِ الّذي يُغذّيه، فاضطرّوهم إلى النزولِ للقتال، فهزموهم بعدَ ثلاثةِ أيّامٍ، وبذلك تمّت السيطرةُ على آخرِ حصونِ منطقةِ النَّطاة؛ الّتي كان فيها أشدُّ اليهود.

ثمَّ توجّهوا إلى حصونِ منطقةِ الشِّقِّ وبدؤوا بحصنِ أُبَيٍّ، فاقتحموه، وأفلتَ بعضُ مقاتِلَته إلى حصنِ نِزارٍ، وتوجّهَ إليهم المسلمون فحاصروهم، ثمَّ افتتحوا الحصن، وفرّ بقيّةُ أهلِ الشِّقِّ

مـن حصونِهـم، وتجمّعـوا فـي حصـنِ القَمُـوصِ المنيـع، وحصـنِ الوَطِيـح، وحصـنِ السَّـلالِم، فحاصرهـم المسـلمونَ لمـدّةِ أربعـةَ عشـرَ يومًـا حتَّـى طلبـوا الصُّلـح.

وبذلـك سـقطتْ سـائرُ خيبـرَ بيـدِ المسـلمين، وسـارعَ أهـلُ فَدَكٍ فـي شـمالِ خيبـرَ إلـى طلـبِ الصُّلـحِ، وطلبـوا منـه أن يحقـنَ دماءَهـم، وبذلـوا لـه الأمـوالَ فوافـقَ علـى طلبِهـم، فكانـت فَدَكٌ خالصـةً لرسـولِ اللّهِ ﷺ لأنّـه لـم يُوجَـف عليهـا بخيـلٍ ولا ركاب.

وحاصـرَ المسـلمون وادي القُـرى، وهـي مجموعـةُ قـرى بيـن خيبـرَ وتيمـاء، ليالـيَ، ثـمَّ استسـلمت، فغنـمَ المسـلمون أمـوالًا كثيـرةً، وتركـوا الأرضَ والنَّخـلَ بيـدِ اليهـودِ، وعاملَهـم عليهـا مثـلَ خيبـر، وصالحـت تيمـاءُ علـى مثـلِ صلـحِ خيبـرَ ووادي القُـرى!

تسـاقطتْ سـائرُ الحصـونِ اليهوديّـةِ أمـامَ قـوّاتِ المسـلمين، وقـد بلـغَ قتلـى اليهـودِ فـي معـاركِ خيبـرَ ثلاثـةً وتسـعينَ رجـلًا، وسُـبِيَتِ النِّسـاءُ والـذَّراري، منهـنَّ صَفيّـةُ بنـتُ حُيَـيٍّ بـنِ أَخْطَـبَ، فأعتقَهـا رسـولُ اللّهِ ﷺ وتزوَّجَهـا.

واستُشهِدَ من المسلمين عشرونَ رجلًا.

وحدثتْ في غزوةِ خيبر أحداثٌ فيها عبرة، يجب التَّوقف عندها:

جـاءَ رجـلٌ مـن الأعـرابِ إلـى النبـيِّ ﷺ فآمـنَ بـه واتَّبَعَـه، فقـال: أُهاجـرُ معـكَ.

فأوصى به بعضَ أصحابِه، فلمَّا كانت غزوةُ خيبرَ غَنِمَ رسولُ اللّهِ ﷺ شيئًا، فقَسَمَه، وقَسَمَ للأعرابيِّ، فأعطى أصحابَه ما قُسِمَ له، وكان يرعى ظهرَهم. فلمَّا جاء؛ دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟

قالوا: قَسْمٌ قَسَمَه لكَ رسولُ اللّهِ ﷺ.

فأخذه، وجاءَ به إلى النبيِّ ﷺ، فقال: ما هذا يا رسولَ اللّه؟

قال: قَسْمٌ قَسَمْتُه لك.

قال: ما على هذا اتَّبَعْتُكَ، ولكنِ اتَّبَعْتُكَ على أن أُرمى هاهنا، وأشارَ إلى حَلقِه، بسهمٍ فأموتَ، فأدخلَ الجنَّة.

فقال له النبيُّ ﷺ: إنْ تَصدُقِ اللّه يَصدُقْكَ.

ثمَّ نهضَ إلى قتالِ العدوِّ، فأُتيَ به إلى النبيِّ ﷺ وهو مَقتولٌ، فقال: أهو هو؟

قالوا: نعم.

قال: صَدَقَ اللّه فَصَدَقَه.

فكَفَّنَه النبيُّ ﷺ في جُبَّتِه، ثمَّ قدَّمَه، فصلّى عليه، وكان من دعائِه له: اللهمَّ هذا عبدُكَ خرجَ مهاجرًا في سبيلِكَ، قُتِلَ شهيدًا، وأنا عليهِ شهيدٌ!

وجاءَ عبدٌ أسودُ حَبَشيٌّ من أهلِ خيبرَ، كان في غنمٍ لسيِّده، فلمَّا رأى أهلَ خيبرَ قد أخذوا السِّلاح، سألهم: ما تريدون؟

قالوا: نُقاتلُ هذا الّذي يَزْعُمُ أنَّه نبيٌّ.

فوقعَ في نفسِه ذِكرُ النبيِّ، فأقبلَ بغنمِه إلى رسولِ اللّهِ ﷺ، فقال: ماذا تقول؟ وما تدعو إليه؟

قال: أدعو إلى الإسلام، وأن تشهدَ أن لا إلهَ إلّا اللّه، وأنّي رسولُ اللّه، وألّا تعبدَ إلّا اللّه.

قال: فما لي إن شهدتُ وآمنتُ باللّه؟

قال: لكَ الجنَّة إنْ متَّ على ذلك.

فأسلمَ، ثمَّ قال: يا نبيَّ اللّه، إنّ هذه الغنمَ عندي أمانةٌ.

فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: أخرجْها من عندكَ وارمِها بالحصباءِ، فإنّ اللّه سيُؤدّي عنكَ أمانتَكَ.

ففعل، فرجعتِ الغنمُ إلى سيّدِها، فعلمَ اليهوديُّ أنَّ غلامَه قد أسلم.

وقام رسولُ اللّهِ ﷺ في النَّاس، فوعظَهم، وحضَّهم على الجهاد، فلمَّا التقى المسلمونَ واليهودُ قُتِلَ فيمَن قُتِلَ العبدُ الأسودُ، واحتملَه المسلمونَ إلى معسكرِهم.

فنظرَ رسولُ اللّهِ ﷺ إليه، ثمَّ أقبلَ على أصحابِه، وقال: لقد أكرمَ اللّه هذا العبدَ، وساقَه إلى خيبرَ، ولقد رأيتُ عندَ رأسِه اثنتينِ من الحورِ العينِ، ولم يُصَلِّ للّهِ سَجْدةً قطّ!

وكان في جيشِ المسلمينَ بخيبرَ رجلٌ لا يدعُ للمشركينَ شاذَّةً ولا فاذَّةً إلّا اتَّبَعَها يضربُها بسيفِه، فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: أمّا إنَّه من أهلِ النَّار.

فقالوا: أيُّنا من أهلِ الجنَّة إنْ كان هذا من أهلِ النَّار؟

فقال رجلٌ: واللّهِ لا يموتُ على هذه الحالِ أبدًا.

فاتَّبَعَه حتَّى جُرِح، فاشتدَّت جِراحَتُه، واستعجلَ الموتَ، فوضعَ سيفَهُ بالأرضِ وذُبابَه بينَ ثدييه، ثمَّ تَحامَلَ عليه فقتلَ نفسَه.

فجاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ فقال: أشهدُ إنّكَ رسولُ اللّه.

قال: وما ذاك؟

فأخبرَه، فقال النبيُّ ﷺ: إنَّ الرَّجلَ ليعملُ بعملِ أهلِ الجنَّة فيما يبدو للنّاس، وإنّه من أهلِ النَّار، وإنَّه ليعملُ بعملِ أهلِ النَّار فيما يبدو للنّاس، وإنّه لمن أهلِ الجنَّة.

وقَدِمَ جَعْفَرُ بنُ أبي طالبٍ وصَحْبُه من مُهاجِري الحَبَشَةِ على رسولِ اللّهِ ﷺ يومَ فتحِ خيبرَ، فقبَّلَهُ رسولُ اللّهِ ﷺ بينَ عَيْنَيْه، والتزَمَه، وقال: ما أدري بأيِّهما أنا أَسَرُّ، بفتحِ خيبرَ، أم بقدومِ جعفرَ.

ولمّا فُتِحَتْ خيبر، وسكنتِ الأرضُ بعد ضجيجِ السيوف، وألقتِ الحربُ أوزارَها، ظنّ بعضُ القلوبِ أنَّ الحسابَ قد انتهى، وأنَّ العداوةَ وضعتْ آخرَ أنفاسِها... لكنَّ الحِقدَ لا يعرفُ الهُدنة، ولا يُسلِّمُ بسهولة.

قُدِّمَ للنبيِّ ﷺ شاةٌ مَشويّة، ظاهرُها الإكرامُ وباطنُها الغدر، أعدَّتها امرأةٌ يهوديّة، وقد سألتْ من قبلُ عن أحبِّ اللحمِ إليه ﷺ، فدلّوها على الذِّراع، فوضعتِ السُّمَّ حيثُ يلتقي الحبُّ بالجوع، وحيثُ يطمئنُّ الإنسانُ إذا اطمأنَّ.

أخذَ النبيُّ ﷺ لقمةً، فما إنْ مضغَها حتّى قال: «إنَّ هذا العظمَ ليُخبرُني أنّه مسموم».

لفظَها، ونجا اللّه نبيَّه، غيرَ أنّ بِشْرَ بنَ البراءِ رضي الله عنه، كان قد ابتلعَ لُقمتَه، فماتَ شهيدًا بالسُّمِّ.

جيءَ بالمرأة، فلم تُنكر، ولم تُراوغ، قالتْ ببرودٍ يليقُ بالقلوبِ الميّتة: أردتُ أن أقتلك، فإنْ كنتَ نبيًّا فلن يضرّك، وإنْ كنتَ مَلِكًا استرحنا منك!

وهنا تجلّى الفارقُ الهائلُ بين منطقِ السُّمِّ ومنطقِ النبوّة؛ لم ينتقمْ ﷺ لنفسِه، ولم يَثْرْ لذاته، بل عفا عنها أوّلًا، ثمّ لمّا ماتَ بشرٌ رضي الله عنه، أُقيمَ الحدُّ لا انتقامًا، بل عدلًا.

وظلَّ أثرُ ذلك السُّمِّ يسري في جسدِه الشريف، لا كضعفٍ، بل كشهادةٍ مُؤَجَّلة، حتى قال في مرضِ موتِه ﷺ: «ما زلتُ أجدُ من الأكلةِ التي أكلتُ بخيبر، فهذا أوانُ وجدتُ انقطاعَ أبهري».

هكذا مضى ﷺ، نبيًّا جُرِحَ ولم يَقسُ، وسُمَّ ولم يَغدر، وأُوذيَ فلم يَنتقِم، ليبقى درسُ خيبر خالدًا:

أنَّ النبوّةَ تُواجِهُ السُّمَّ بالصِّدق، والغدرَ بالعفو، والحقدَ بالعدل.

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروسِ المُستفادة من فتح خيبر:

1 ـ أَنَّ الخَطَرَ الفِكْرِيَّ وَالأَمْنِيَّ لا يُواجَهُ عِندَ لَحْظَتِهِ، بَل عِندَ جُذورِهِ، فخيبرُ لم تُحارَب لأنها حصونٌ، بل لأنها صارت مركزًا يُعيدُ إنتاجَ الخيانة، ويُمَوِّلُها، ويُخطِّطُ لها، ويبحثُ لها عن شركاء. وهذا يُعلّم أنّ علاجَ المشكلة يبدأ قبل انفجارها، لا بعده.

2 ـ أنَّ تركَ أهلِ الغدر يُعيدون تنظيم أنفسهم، خطأٌ استراتيجيٌّ قاتل، ما فعله زعماءُ بني النضير في خيبر يوضّح قاعدة: المهزومُ إذا لم تُغلق أمامه منافذُ النفوذ، عاد من بابٍ آخر أشدّ خطرًا.

3 ـ أنَّ القيادةَ الحكيمة تلتقط لحظات الضعف السياسي وتحوّلها إلى فرصٍ إصلاحيّة، فبعد الحديبية هدأت جبهة قريش، فاستثمَّرها النبيُّ ﷺ لإغلاق جبهة خيبر. هذا درسٌ سياسيٌّ خالص: زمنُ الهدوء ليس للنوم، بل لترميم الثغرات.

4 ـ أنَّ الحماسةَ إذا لم تُضبط تصبح عائقًا عن الرشد، حين قال ﷺ: «ارْبَعُوا على أَنْفُسِكُم»، كان يؤسّس لمبدأ: الانتصار يحتاج وعيًا لا ضوضاء، وطمأنينةً لا انفلاتًا.

5 ـ أنَّ المعلومةَ الدقيقة قد تمنح النصر قبل بدء المعركة، سريّةُ عُبَّادِ بنِ بِشْرَ، وتحقيقُه مع عينِ اليهود، تبرهن أنَّ جمع المعلومات ليس تفصيلًا عسكريًّا، بل هو أساس القرار. لقد انتصرت «المعلومة» قبل أن ينتصر «السيف».

6 ـ أنَّ الخوفَ الداخلي أخطرُ من سلاحِ الخصم، اعترافُ عينِ اليهود بارتعابِ قومِه رغم كثرة طعامهم وسلاحهم، درسٌ عميق: النفسُ المهزومة لا تمنح حصنًا منعة، ولو كان مبنيًّا بالحجارة.

7 ـ أنَّ صلاحَ الجنود يبدأ من صلاح المبادئ التي يحملونها، لذلك لم يُباشر النبيُّ ﷺ توزيع الخطط قبل إصلاح المقاصد؛ فذكّر بدعاء دخول القرية، وعلّم معنى التوكّل، وغرس الطمأنينة في القلوب.

8 ـ أنَّ ترتيبَ الأولويات بين «الفكرة» و«المعركة» ضرورةٌ لا ترف، قصةُ الأعرابيّ الذي جاء للنبي ﷺ يريد الهجرة، فبيّن له معنى الإسلام قبل أن يبيّن له دوره في القتال، تقول: هويّةُ الجنديّ أهمّ من سيفه.

9 ـ أنَّ قيمةَ الإنسان تُقاس بوضوحِ هدفِه لا بطولِ تاريخه، الأعرابيُّ الذي استُشهد من أول يومٍ، وقد سبقَه آخرون بسنوات، دليلٌ على أنَّ اللحظة الصادقة قد تتقدّم على أعمارٍ طويلة من العمل المضطرب.

10 ـ أنَّ الموتَ في الطريق الصحيح فوزٌ، وإن قلّت فيه الأعمال، قولُ النبي ﷺ عن الأعرابيّ: «صَدَقَ اللَّه فَصَدَقَهُ»، يعلّم أنَّ الخلاصة ليست كمْ فعلْتَ، بل لِمَ فعلْتَ، وبأيّ قلبٍ فعلتَ.

11 ـ أنَّ الأمانَة لا يرفعها مقامٌ ولا يُسقِطها ظرف، قصةُ العبدِ الحَبَشيّ الذي ردَّ غنمَه إلى سيّده اليهوديّ قبل دخوله الإسلام، تُظهر أنَّ الأمانة امتحانٌ حقيقيّ، لا يتعلّق بالحرب ولا السِّلم.

12 ـ أنَّ الهداية قد تُكتب لإنسانٍ من موقفٍ واحد إذا صحّت نيّته، ذلك العبدُ الذي لم يُصلِّ للّهِ سَجْدةً واحدة، ثمَّ صار من أهل الجنَّة، يجعلنا نفهم: اللّه ينظر إلى صفاء القلب أكثر مما ينظر إلى طول الطريق.

13 ـ أنَّ البطولـةَ الظاهـرة قـد تخفـي خلـلًا عميقًـا فـي الداخـل، الرجلُ الـذي قاتـل قتـالًا شـديدًا ثـمَّ ألقـى بنفسـه هاربًـا مـن ألَمِـه، درسٌ مـرّ: القـوّة الخارجيـة بـلا صبـرٍ داخلـي قشـرةٌ تلمـع قبـل أن تسـقط.

14 ـ أنَّ الإعجـابَ بـأداء النَّـاس ليـس معيـارًا لمعرفـة حقيقتهـم، قـولُ النبـي ﷺ: «إِنَّـهُ مِـن أَهْـلِ النَّـار»، يُرسّـخ أنَّ الأعمـال تُـوزَن بميـزان السَّـماء لا بميـزان التصفيـق.

15 ـ أنَّ إصـلاح النوايا يحتـاج تذكيـرًا دائمًـا، ولو في قلب المعركة، خطـبُ النبـي ﷺ لأصحابه، وتأكيـده علـى الإخـلاص، وبراءتـه ممّـن يقاتـل ريـاءً، تبيّـن أنَّ القائـد لا يتـرك نفسًـا بـلا تهذيـب.

16 ـ أنَّ القـوّة إذا لـم تُؤطّـر بمعيـارٍ أخلاقـيّ صـارت خطـرًا جديـدًا، وصيّـةُ النبـي ﷺ لعلـيّ: «اُدْعُهُـم قبـل أن تُقاتِلَهُـم»، تُثبـت أنَّ السـيف لا يُرفَـعُ قبـل تمـام الحجّـة.

17 ـ أنَّ المعركـةَ تبـدأ بالدعـوة قبـل السـيف، وبالحجّـة قبـل الضربـة، إلـزامُ علـيٍّ بعـرض الإسـلام قبـل القتـال يثبـت أنَّ الإسـلام ليـس حربًـا تُفـرض، بـل حـقٌّ يُعـرَض، فـإن رُفـض، كان القتـال إجـراءً لحمايـة البيئـة لا غايـةً ذاتيـة.

18 ـ أنَّ أخطـر مـا يصيـب الأمـم أن تعيـش علـى «انطباعـات» بـدل أن تعيـش علـى «حقائـق»، اليهـودُ ظنّـوا أن حصونهـم تمنعهـم، وأنّ كثـرة طعامهـم تطيـل صمودهـم، لكـنّ الخـوفَ ابتلـع قوّتهـم ابتلاعًـا.

19 ـ أنَّ الصبـر لا يعنـي الانتظـار السـلبي، بـل يعنـي الثبـات مـع إدارة حكيمـة، طـول حصـار بعـض الحصـون لـم يكـن دليـلَ ضعـف،

بل دليلَ وعي: كثيرٌ من الملفات تحتاج وقتًا لتُحسم، لا اندفاعًا يُفسد النتيجة.

20 ـ أنَّ الإنسان لا يُعرَف عند الرخاء، بل عند ضيق الخيارات، ولذلك ظهر معدن الصحابة الحقيقيّ عند ناعم والقَمُوص، حين اجتمع الجهدُ والجوعُ، وبقي الثبات أصلب من الحاجة.

21 ـ أنَّ التقدّم خطوة صغيرة صحيحة خيرٌ من القفز خطواتٍ فوضويّة، فتحُ الحصون واحدًا بعد آخر، بدقّة ومرحليّة، درسٌ في إدارة المشاريع: ليس المهمّ السرعة، بل الإحكام.

22 ـ أنَّ انتصار الفرد قد يصنع تحوّلًا جماعيًّا، مبارزةُ عليٍّ لمرحب لم تكن موقفًا فرديًا، بل لحظةً غيّرت ميزان الصفّين.

23 ـ أنَّ القائدَ يجب أن يُظهر قوّته حين يحتاج النَّاس الثبات، ورحمته حين تهدأ الفتنة، قول النبي ﷺ: «خَرِبَتْ خَيْبَرُ» كان رسالةَ قوّة، ومصالحته لهم بعد الفتح كانت رسالةَ رحمة، والقيادة مزيجٌ من الاثنين.

24 ـ أنَّ إدارة الموارد بعد النصر اختبارٌ أخلاقيّ كبير، إبقاءُ اليهود على الأرض، وأخذ نصف الثَّمَر، نموذجٌ لاقتصادٍ يحفظ المصلحة ويمنع الفوضى.

25 ـ أنَّ أعظم ما في خيبر أنّها علّمت الأمّة كيف تُميّز بين الحرب الواجبة... والحرب العابثة.

خيبر لم تكن توسّعًا، ولا عدواً يُراد سحقُه، بل كانت ضرورةً لحماية المدينة.

وهذا يمنحنا ميزانًا خالدًا:

الحربُ التي تُصان بها حياة النَّاس وحقوقهم... عدل.

والحربُ التي تُشعلها الأهواء... ظلم.

26 ـ أنَّ الأمن لا يتحقق بإسكات الخطر، بل بمنع ظهوره من جديد، مصالحات وادي القرى وتيماء تُظهر أنَّ تأمين الجبهة لا يعتمد على القوة وحدها، بل على إدارة الأطراف المتوترة إدارةً حكيمة.

27 ـ أنَّ النصر الذي يُخلّف وراءه حقدًا نصرٌ ناقص، أما النصرُ الذي يخلّف استقرارًا فهو نصرٌ مكتمل؛ لأنَّه ينزع بذور الفتنة من جذورها.

28 ـ أنَّ القيم العسكرية لا تُغني عن القيم الإنسانية، فإحسان النبي ﷺ في المعاملة بعد الفتح كان مكمّلًا للقوّة العسكرية قبله، فالعمران لا يقوم بالسيف وحده.

29 ـ أنَّ كلّ مجتمع يملك «خيبره» الخاصّة به، مركزُ خطرٍ صغير، إن تُرك تمدّد... وإن أُهمل تحالف... وإن تُسامح معه تجرّأ...

والحكمة أن تُعالَج المراكز التي تُنتج الأزمة لا مظاهر الأزمة!

30 ـ أنَّ خيبر تُعلّمنا أن الحرب الواجبة هي التي تُدافِع عن حقّ، لا التي تُخاضُ لهوى، بهذا الميزان يعرف النَّاس الحروب العادلة من الحروب العبثية، وبذلك تُقاس شرعيّة السعي العسكري في كل زمان.

عُمْرَةُ القَضَاء!
النَّبيُّ ﷺ والصَّحابةُ في مكَّة!

فـي المَدينـةِ قـامَ النَّبـيُّ ﷺ، وقامت مَعَـهُ قُلـوبٌ تَتُـوقُ إلـى البَيْـتِ العَتيـقِ تَـوَقَ الظَّمـآنِ إلـى أَوَّلِ قَطْـرَةٍ مِـن مـاءٍ. سَـنَةٌ كامِلَـةٌ مَـرَّت بعـدَ الحُدَيْبِيَـةِ، سَـنَةٌ كانـت أَطْـوَلَ مِـن العُمْـرِ نَفْسِـهِ، لأنَّ الشَّـوْقَ إذا طـالَ صـارَ دَهْـراً.

خَرَجـوا لا يَجُـرّون وراءَهُـم غُبـارَ حَـرْبٍ، بـل يَسـوقُهُم وَعْـدٌ سَـماوِيٌّ نُقِـشَ فـي أَعماقِهِـم: أَنْ يَعـودوا إلـى مكَّـة مُعْتَمِريـنَ لا مُقاتِليـنَ، وأَنْ يُـرِيَ اللّه العالَـمَ كُلَّـهُ أنَّ السُّـيوفَ لَيْسَـت الطَّـريقَ الوَحيـدَ إلـى الفَتْـحِ، وأنَّ القُلـوبَ العامِـرَةَ باليَقيـنِ تَفْتَـحُ مـا لا تَفْتَحُـهُ الجُيـوشُ.

كانَ الطَّريـقُ إلـى مكَّـة أَحَـدَّ مِـن الشُّـعورِ، وأَرْهَـفَ مِـن الذّاكـرَةِ؛ تَسـيرُ الإبِـلُ علـى الرَّمْـلِ، ويَسـيرُ الحَنيـنُ علـى الأَرْواحِ.
كُلُّ خُطْـوَةٍ تَرْفَـعُ غُبـاراً يُشْـبِهُ دَمْعـاً خَفِيّـاً، وكُلُّ أَنيـنِ رَحْـلٍ يُذَكِّرُهُـم بِمَـرارَةِ العَـامِ الماضِـي حيـن صُـدّوا عـن الحَـرَم. ومـعَ ذلـكَ، كانَ الإيمـانُ فـي صُدورِهِـم أَقْـوَى مِـن أن يُهْـزَمَ، وأَكْبَـرَ مِـن أن يَضيقَـهُ الزَّمَـنُ.

وحيـنَ لاحَـت مكَّـة مِـن بَعيـدٍ، ارْتَجَفَـتِ القُلـوبُ ارْتِجـافَ طائِـرٍ عـادَ إلـى عُشِّـهِ بعـدَ ضَيـاعٍ طَويـلٍ؛

وبَدا البَيْتُ الحَرامُ كأنَّهُ يَفْتَحُ ذِراعَيْهِ لِاسْتِقْبالِ أَبناءٍ طالَ فِراقُهُم، وبَدا الهَواءُ نَفْسُهُ يَتَطَيَّبُ بِذِكْرٍ لا يُنْسَى.

دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وصَحْبُهُ في صَمْتٍ مُهَيْبٍ، لَيْسَ صَمْتَ الضَّعْفِ، بل صَمْتَ مَن يَعْرِفُ أنَّ النَّصْرَ حينَ يَتَنَزَّلُ بلا قِتالٍ يَكونُ أَبْهى، وأَعْمَقَ، وأَشَدَّ بَقاءً.

كانَت مكَّة تَنْظُرُ إلَيْهِم، وكانَ التّارِيخُ يُصْغي، وكانتِ الكَعْبَةُ تَشْهَدُ أنَّ القُوَّةَ لَيْسَت في الحَديدِ، بل في الثَّباتِ، والصَّبْرِ، ووَعْدٍ لا يُخْلِفُهُ اللّه.

تِلكَ هي عُمْرَةُ القَضاءِ، عِطْرُ صَبْرٍ امْتَدَّ عاماً كامِلًا، وفَتْحٌ جاءَ على هَيْئَةِ خُشوعٍ، وعَوْدَةٌ تُعَلِّمُ الدُّنيا أنَّ الطَّريقَ إلى الحَقِّ قد يَتَأَخَّرُ، لكنه لا يَضيعُ أَبَداً.

وتلكَ حكايَتُها موجزةً، فإليكَ التَّفاصيل:

لما رجع رسولُ اللّهِ ﷺ من الحديبية، وقد كُتب بينه وبين قريشٍ صلحٌ اشتمل على شروطٍ ثقيلةٍ في أعين طائفةٍ من الصحابة، بقي في قلوب المؤمنين يقينٌ أن ما وعد اللّه به رسولَه سيتم لا محالة. فلمَّا دخل العام الذي يلي الحديبية خرج رسولُ اللّه ﷺ في ألفٍ وأربعِ مئةٍ من الصحابة لعمرة القضاء، تماماً لما اشترط عليه في السنة التي مضت.

وبلغ قريشاً خبرُ خروج المسلمين، فخرج أكابرهم من البلد، ونزلوا فوق الثنيّات ينظرون من عَلٍ، يتفقدون حال القوم الذين أُشيع أنهم أُضعفوا بالحمّى في المدينة. فلمَّا اقترب المسلمون ودخلوا المسجد، أمر رسولُ اللّه ﷺ أصحابه فقال: ارملوا في الثلاثةِ الأشواطِ الأُوَل!

وكان القصد أن تُري هذه الحركةُ قريشاً أن الوهن الذي تحدثوا به لا أصل له. فرمل الصحابةُ يتحركون حركة القوم الأقوياء حتَّى قال بعض المشركين: هؤلاء أقوى مما بلغنا!

وفيما هم يطوفون بالبيت، كان عبدُ اللّهِ بنُ رواحةَ ﷺ يمشي بين يدي رسولِ اللّه ﷺ، ينشد من شعره:

خلّوا بني الكفار عن سبيله
اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويُذهل الخليل عن خليله

فلمَّا سمع عمرُ ﷺ ذلك قال لابن رواحة: يا ابنَ رواحة! بين يدي رسول اللّه ﷺ وفي مكانٍ محرّم تقول الشعر؟!

فأراد أن ينهاه، فقال النبي ﷺ: خَلِّ عنه يا عمرُ، فلهيَ أسرعُ فيهم من نضحِ النبل!

فكانت كلمته ﷺ دليلاً على فقه مواضع الكلمة، وأن بعض الشعر في موضعه سهمٌ نافذ.

وبينما المسلمون يقيمون مناسكَ العمرة في الأيام الثلاثة التي نُصّ عليها في الصلح، جِيء بأمامةَ بنتِ حمزة ﵁، يتنازع القوم في كفالتها!

فعليٌّ يقول: ابنةُ عمي!

وزاد جعفرٌ: ابنةُ عمي، وخالتُها تحتي!

وقال زيدٌ: ابنةُ أخي، وقد كان أوصاني بها!

فحكم النبي ﷺ حكماً عادلاً جامعاً فقال: الخالةُ بمنزلةِ الأم!

فقضى بها لجعفر، وأرضى القلوب كلها بكلمة واحدة.

ولما انقضت الأيام الثلاثة، بعثت قريش إلى رسولِ الله ﷺ أن يخرج عنهم، فأمر أصحابه بذلك، فخرجوا كما دخلوا، آمنين مطمئنين.

وفي طريق العودة تزوّج رسولُ الله ﷺ ميمونةَ بنتَ الحارث رضي الله عنها، وكانت من خيار نساء قريش، فصار زواجه منها رباطاً آخر يصل ما بينه وبين أهل مكّة قبل الفتح الأعظم.

وهكذا تمت عمرةُ القضاء، فما كانت عمرةً فقط، بل إعلاناً لقوة المؤمنين، ودلالةً على أن الطريق الذي مُنعوا منه أمس، سيمشون فيه غداً، لأن الله إذا وعد لم يُخلف وعده، ولأن الفتح قد يسبقه صلحٌ، لكنه لا يتأخر عن قلبٍ يوقن.

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروسِ المُستفادةِ من عُمرةِ القَضَاءِ:

1 ـ وَعْدُ اللّهِ لا يَتَخَلَّف، عُمْرَةُ القَضاءِ كانت الدليلَ الواضحَ على أن ما وَعَدَ اللّهُ به يتحقّقُ ولو اعترضته قُوَى الأرض كلّها. فالمسلمون رأوْا المنعَ بأعينهم في الحديبية، لكنّهم رأوْا الإذنَ بعد عام بقلوبٍ تَعرِفُ أن التأخيرَ ليس إنكاراً، بل ترتيبٌ لفتحٍ أعظم، ودَرْسٌ يَعيشُ في الوجدان.

2 ـ الصَّبْرُ جِسْرُ الفَتْحِ، لم يكن العامُ بين الحديبيةِ وعمرةِ القضاءِ سنةَ رُكود، بل سنةَ إعدادٍ للنصر، تذوَّق فيها المؤمنون مرارةَ الانتظار حتَّى تنضجَ في نفوسهم حكمةُ الفتح. فالصبرُ لم يكن تحمّلاً سلبياً، بل تهيئةً للروح كي تستقبلَ الزيادةَ التي يمنحها اللّهُ للصابرين.

3 ـ السِّلْمُ إذا جاءَ مِن مقامِ القوّةِ كان أبلغَ مِن السَّيْفِ، لقد دخل المسلمون مكَّة آمنين، لا خائفين، وكان هذا الأمنُ هو أعظمَ رسالة. فالسِّلمُ حين يَصدُر عن قوّةٍ تملكُ القتال لكنها تختاره هدايةً وتواضعاً، يكون أوقعَ في القلوب من ألفِ نزال. ولهذا اضطربتْ قريشٌ وهي ترى المسلمين بلا حربٍ ومع ذلك منتصرين.

4 ـ الوفاءُ بالعقودِ خُلُقُ الرجالِ، التزم النبيُّ ﷺ بالشروط كاملةً رغم قسوتها، وأظهر للأمّة أن الثباتَ على العهد ليس ضعفاً، بل قوةٌ تَنهضُ صاحبَها إلى مكانةٍ أخلاقيةٍ تعلو على مكانة السيف. وهكذا تعلّم المسلمون أن الوفاءَ يرفعُ صاحبَه حتَّى في نظر أعدائه.

5 ـ الحِكمـةُ فـي إدارةِ الصـراعِ أعظـمُ مِن حماسِ السـيفِ، فالحربُ تحتـاجُ شـجاعة، لكـن السِّـلم يحتـاجُ بصيـرة. وصبـرُ النبـيِّ ﷺ علـى صلـحِ الحديبيـة، ثـمَّ التزامـه بموعـد العمـرة، كشـف أن الانتصـارَ الأكبـر هـو ضبـطُ ردودِ الأفعـال، واختيـارُ الوقـتِ المناسـب للخطـوةِ المناسـبة، وأن الحماسـةَ وحدهـا لا تصنـعُ النصـر.

6 ـ الإظهـارُ المـدروسُ للقـوّةِ سياسـةٌ مؤثّـرة، حيـن أمـر النبـيُّ ﷺ أصحابـهُ بالرمـل فـي الطـواف، كان يعلـم أنّ الصـورةَ قـد تكـون أبلـغَ مـن البيـان. لقـد أراد أن يـرى المشـركون قـوّةً فـي مشـهدٍ عبـاديّ، فيدركـوا أنّ المسـلمين لـم تضعفهـم الحُمّـى ولا الصـدّ، وأن جسـدَ الأمـة أقـوى مـن أن ينكسـر.

7 ـ القـوّةُ الحقيقيـةُ فـي الانضبـاطِ لا فـي العـددِ، لـم تكـن عمـرةُ القضـاءِ اسـتعراضاً عددياً، بـل درسـاً فـي الانضبـاط العظيم؛ صفوفٌ تسـيرُ كأنهـا جسـدٌ واحـد، لا يلتفـتُ أحـدٌ منهـم إلـى الاسـتفزاز، ولا يتجـاوزون حـدودَ العهـد، وهـذا الانضبـاطُ كان أقـوى مـن أي جيـشٍ يمـلأ الطرقـات.

8 ـ العبـادةُ تُهـذّبُ السياسـةَ، دخـل النبـيُّ ﷺ مكّـة عابـداً قبـل أن يكـون قائـداً، وأدّى المناسـكَ بخشـوعٍ يعلّـم أنّ الروحانيـةَ ليسـت نقيـضَ السياسـة، بـل قوتهـا الخفيـة. فالرجـلُ الـذي يقـف بيـن يـدي اللّه بصـدق، يقـف أمـام البشـر بثبـاتٍ لا تُزعزعـه ريـاحُ المصالـح.

9 ـ الهويـةُ الإيمانيـةُ أثبـتُ مـن الضغـوطِ كلّهـا، رغـم نظـراتِ قريـش الحـادّة، لـم يُغيّـر المسـلمون هيئـةً ولا نُسُـكاً، بـل أدّوا العبـادة

كما أمر اللّه. وهذا الثباتُ على الشعائر وسط العيون الراصدة يعلّم أنّ الهويةَ التي لا تصمد في لحظات الضغط ليست هوية، وأن العبادةَ في المحنة أصدقُ منها في الرخاء.

10 ـ الحِكمةُ في توجيهِ الانفعالاتِ واستثمَارها، موقفُ عمرَ ﵁ مع عبدِ اللّهِ بنِ رواحة، حين أراد أن يمنعَه من قول الشعر، ثمَّ قولُ النبيِّ ﷺ: «خَلِّ عنه، فَلَهِيَ أسرعُ فيهم من نضحِ النبل»، يكشف جانباً بديعاً من فقهِ النفس عند القائد. فليس المطلوبُ دائماً إخمادُ الانفعال أو إسكاتُ الكلمةِ الحارّة، بل توجيهُها في الطريق الذي يخدمُ الحق. لقد رأى عمرُ المشهدَ بعين التحفّظ، ورآه النبيُّ ﷺ بعين البصيرة؛ فعرف أن حرارةَ الشعر في تلك اللحظة أبلغُ أثراً في قلوب المشركين من وقعِ السهام، وأن الكلمةَ إذا صدرت من قلبٍ صادقٍ في موضعها، كانت سهماً نافذاً في ميدان الدعوة لا يقلّ خطراً عن السِّلاح في ميدان القتال.

11 ـ المعاهداتُ ليست هزيمةً دائماً، صلحُ الحديبية بدا لبعض الصحابةِ تواضعاً، لكنه كان في الحقيقة طريقاً إلى فتح مكَّة. وهكذا تعلّمت الأمةُ أنّ بعض الاتفاقيات ليست تراجعاً، بل خطوةً إلى الأمام تخفي وراءَها نصراً ينتظرُ وقته.

12 ـ التواضعُ في لحظةِ النصرِ يرفعُ الهيبةَ لا ينقصها، دخل النبيُّ ﷺ مكَّة متواضعاً، لا شامخاً بكِبر، فأظهر أن المنتصرَ الحق هو من يحفظُ نقاءَ قلبه بعد النصر. فالهَيبةُ التي تصنعُها الأخلاقُ تدوم، أمّا التي يصنعُها العناد فتزولُ سريعاً.

13 ـ أن النصـرَ يتـدرّجُ، لـم يتحقّـق الفتـحُ دفعـةً واحـدة، بـل علـى مراحـلَ تتوالـى كحلقـاتٍ مـن النـور: صـدّ، ثـمَّ صلـح، ثـمَّ عمـرة، ثـمَّ فتـحٌ كامـل. وهـذا التـدرّجُ يعلّـم أن اللّه يُديـرُ الأمـورَ برحمـة، وأن كلّ خطـوةٍ تُهيّـئُ لمـا بعدهـا وإن لـم يـره النَّـاس حينهـا.

14 ـ المشـاهدُ الإيمانيـةُ تُغيّـرُ صـورَ السياسـة، لـم يكـن الطـوافُ حـول الكعبـةِ فعـلاً عباديـاً فحسـب، بـل خطابـاً صامتـاً للعالـم: هكـذا يكـونُ المؤمنـون حيـن يعبـدون ربَّهـم بصـدق. تلـك الصـورةُ غيّـرت نظـرةَ قريـش أكثـر مـن الحـروب، فالقلـوبُ تُفتـحُ أحيانـاً بمـا تـراه، لا بمـا تُكـره عليـه.

15 ـ ثبـاتُ القلـوبِ يغيّـرُ مسـارَ التاريـخ، مـا كان فتـحُ مكَّـة ليحـدث لـولا ثبـاتُ المؤمنيـن فـي عمـرةِ القضـاء؛ فقـد رأوا الخشـوعَ والقـوةَ معـاً، فعرفـوا أن هـذا الديـن لا يُقهَـر، وأن الرسـالةَ التـي تـزرع الثبـات فـي الأرواح لا بـد أن تنتصـر فـي النهايـة.

16 ـ الوحـدةُ أعظـمُ سـرٍّ للهيبـة، لـم يظهـر مـن الصحابـة خـلافٌ ولا اضطـراب، وكانـوا فـي مكَّـة كمـا كانـوا فـي المدينـة: قلبـاً واحـداً. والوحـدةُ حيـن تُـرى مـن العـدو تتحـوّل إلـى قـوةٍ سياسـية وروحيـةٍ لا يمكـن كسـرُها.

17 ـ المبـادئُ تُقـوّي السـلطة، التـزامُ النبـيِّ ﷺ بالعهـد رفـع مكانتَـه حتَّـى فـي نظـر قريـش، ولـو لـم يعلنـوا ذلـك. فالعـدوُّ نفسـه يحتـرم خصمـاً يَثبُـتُ علـى مبادئـه، ويـزداد يقينُـه بـأن قـوةَ المسـلمين ليسـت سـيفاً فحسـب، بـل قيمـاً لا تتغيّـر.

18 ـ المكانُ الحرامُ يتهذّبُ فيه الطبع، رغم جراح الماضي، دخل المسلمون مكَّة بقلوبٍ فيها سكينةُ المكان، لا غضبَ الانتقام. فالحرمُ يُطفئُ شرارةَ الغضب حتَّى في قلب الشجاع، ويذكّر النَّاس أنّ الأرضَ التي جعلها اللّٰه آمنة لا تُدنّسها نزعاتُ الثأر.

19 ـ العبادةُ امتحانٌ لنفسِ المؤمن، أن تطوف أمام عدوّك بثبات، وأن تعبدَ ربّك تحت أعينِ من يكرهك، امتحانٌ لا يثبت له إلا قلبٌ مملوءٌ باليقين. وهذا النوعُ من العبادة يرفعُ صاحبَه درجاتٍ لا يصل إليها إلا من عرف قيمةَ الثبات.

20 ـ الرسالةُ إذا قويتّ، سقطتِ الحواجزُ قبل أن تسقطَ الجدران، عمرةُ القضاء لم تُسقط صنماً واحداً، لكنها أسقطت خوفَ قريش، وفتحت في قلوبهم ثغرةً دخل منها نورُ الحق. فحين تقوى الرسالة، تبدأ الهزيمةُ الحقيقيةُ للباطل قبل أن تقعَ الضربةُ الأولى!

غَزْوَةُ مُؤتةَ!
أوَّلُ مواجهةٍ معَ الإمبراطوريَّات!

كانت غزوةُ مُؤتةَ من الأَيّام الَّتي شَهِدَتْ فيها الأَرضُ ميلادَ هَيْبَةٍ جديدةٍ، كأنَّ التَّاريخَ انشَقَّ عن صفحةٍ من نورٍ لِيُلْقِيَها في قلبِ الزَّمانِ، فتقومَ الدَّولةُ النَّبَوِيَّةُ، وهي بَعْدُ في مَهْدِها، كأنَّها جَبَلٌ خَرَجَ من باطِنِ الأَرضِ على حينِ غَفْلَةٍ، فيتجلّى مَعْدِنُها الصّافي، ويبدو الحَقُّ فيها صغيرًا في عُيونِ الخَلْقِ، عظيمًا في ميزانِ الخالِقِ، حتَّى صارَ قادرًا أن يُزاحِمَ عُروشًا طالَ قِيامُها، ويثبُتَ في وَجْهِ إمبراطورِيّاتٍ خَرَّتْ لها الأُمَمُ سُجَّدًا قُرونًا.

وكان بَدءُ الأَمْرِ أن بَعَثَ رسولُ اللّهِ ﷺ الحارثَ بنَ عُميرٍ الأزديَّ، يَحمِلُ رسالةً كُتِبَتْ على نورٍ، ويَرفعُ دعوةً خَرَجَتْ من حَضْرةِ النبوّةِ كما تخرُجُ الأرواحُ مِن أجسادِ الطاهرينَ، رسالةُ سلامٍ لا تَقِفُ عند حُدودِ الأرضِ، بل تتجاوزُها إلى قلوبِ البَشَرِ. فإذا يدٌ غاشِمَةٌ مِن الغساسنةِ تَمتدُّ إليه قَتلاً، فكأنما قتلت حُرمةَ الرسالةِ، وأطفأت سراجًا أُوقِدَ في مسجدِ السَّماء، وكانت تلك الفِعْلَةُ إعلانًا بأنَّ القُوى الكُبرى قد اسْتَشْعَرَت أن هذا النورَ الصغيرَ آخذٌ في الامتدادِ، وأنَّ الرسالةَ الَّتي وُلدت في مكَّة بدأت تُحرِّكُ قلوبَ العالَمِ.

فاضطربتِ المدينةُ لِنَبَأ الحادثةِ، ولكن اضطرابَها كان اضطرابَ القلبِ الحَيِّ إذا مَسَّهُ الأَلَمُ، لا اضطرابَ الضعيفِ إذا نَزَلَ به الخَوْفُ. وعَلِمَ الصحابةُ أنَّ الجُرْحَ لم يُصِبِ الحارثَ وحدَهُ، بل أصابَ حُرمةَ مقامٍ لا يَعلو عليه مقامٌ، وأنَّ اليدَ التي امتدَّت إلى رسولِ النبيِّ ﷺ إنما امتدَّت إلى ظِلِّ اللّٰهِ في أرضِهِ.

فقام النبيُّ ﷺ في النَّاس قيامًا لا يقومُهُ إلّا نبيٌّ، وجهُهُ يُشبهُ صفحةَ الفجرِ إذا صَدَعَ اللَّيل، وصوتُهُ يَمشي في القلوبِ كما يَمشي القَدَرُ في الوَرَقِ، يُخبرُهم بالخبرِ، ويُعظِّمُ شأنَهُ، ثمَّ يَدعوهم إلى جيشٍ ليس جيشًا من الرجالِ فقط، بل جيشًا من اليقينِ، ومن العهدِ، ومن نورِ العقيدةِ. جيشًا ينهضُ لِيَرُدَّ عن الرسالةِ إهانةً لم يسبقْ لها مثيلٌ، ويُعيدَ للدعوةِ هيبتَها في عيونِ الأرضِ.

ثمَّ سلَّمهم الرايةَ البيضاءَ، التي كانت في يدِ النبيِّ ﷺ كأنها جَناحٌ من نورٍ انشقَّ عن سَحابةٍ، وجعلَ إمارتَها لِزيدِ بنِ حارثةَ، ثمَّ لِجعفرِ بنِ أبي طالبٍ، ثمَّ لِعبدِ اللّٰهِ بنِ رَواحَةَ؛ ثلاثةٌ لا يُختارونَ بالصُّدْفَةِ، بل اختارَتْهُمُ السَّماء كما تختارُ الملائكةُ مواضعَ سُجودِها، رجالٌ ثَبَتَتْ قلوبُهم قبل أن تثبُتَ أقدامُهم، وأشرقَتْ أرواحُهم قبل أن تَرتَفِعَ سيوفُهم. وكان هذا الترتيبُ وحدَهُ كتابًا في الحِكْمَةِ، إذ عَلَّمَ الأُمَّةَ أنَّ القيادةَ ليست جَسَدًا، بل روحٌ تتوارثُها الأرواحُ، وأنَّ الهدفَ يَبقى ثابتًا ولو تغيَّر الحاملُ واحدًا بعد واحدٍ.

ثمَّ خرج الجيشُ من المدينةِ، يَحمِلُ وصايا النبيِّ ﷺ التي هي خلاصةُ الخلاصةِ:

أَلّا تَغْدِروا... أَلّا تَظْلِموا... أَلّا تَقْتُلوا امرأةً ولا وَلِيدًا... أَلّا تَمَسُّوا مَن لَمْ يُقاتِلْكم.

وصايا لو قِيلَت في مجلسٍ من مجالسِ الملوكِ لكانت دستورًا، ولو قِيلَت في معركةٍ من معارِكِ الدُّنيا لكانت فَرقًا بين الحَقِّ والباطلِ. فكأنَّ النبيَّ ﷺ أراد أن يقولَ للعالَمينَ: "نحن لا نُقاتِلُ لِنَسودَ، بل لِنُقيمَ ميزانَ العَدْلِ."

وسار الرجالُ يَشُقّون طريقَ الحِجازِ، حتَّى بَلَغوا أرضَ مُؤْتَة، فارتسمَ أمامَهُم مشهدٌ يَخلَعُ القلبَ: جُيوشٌ جَرّارةٌ، راياتٌ تعلوها هيبةُ الرومِ، وأصواتُ السِّلاح كأنها زئيرُ الجبالِ. ومع ذلك لم تَضْعُفْ في صدرٍ منهم خفقةٌ، كأنَّ قلوبَهم صُبَّتْ من صخرٍ لا يَنكسِرُ، أو كأنَّ جبريلَ عليه السلام مَرَّ على صدورِهم فمَسَحَها بِطُمأنينةٍ من عندِ اللّهِ.

هناك في تلك السهولِ التي شهدت رقصَةَ الرياحِ على حِرابِ الرومِ، وقف المسلمونَ وقفةً لا تُجارى، وقفوا وفي أرواحِهم نورٌ لو صُبَّ في ليلِ الدُّنيا لَغَلَبَ سوادُهُ، وفي صدورِهم يقينٌ لو اقتسمته الجيوشُ لانهارَتْ صفوفُ الباطلِ قبل أن يلتقيَ السيفانِ.

وهكذا دخلت مُؤْتَةُ التاريخَ، لا كمعركةٍ فحسب، بل كآيةٍ من آياتِ اللّهِ في صبرِ المجاهدينَ، وكشهادةٍ أنَّ الدولةَ الإسلاميةَ لم تولدْ ضعيفةً، ولا قامت على عددٍ أو عُدّةٍ، بل قامت على قلوبٍ صافيةٍ، وأرواحٍ راضيةٍ، ونفوسٍ إذا دُعيت إلى اللّهِ سَبَقَتِ السيوفَ قبل أن تَرتَفِعَ.

وكان سقوطُ زيدٍ وجعفرٍ وابنِ رواحةَ ليس سقوطًا بل صعودًا، ولا موتًا بل حياةً، وحين ارتفعت أرواحُهم إلى السَّماء، ارتفعت الأُمّةُ معهم، حتّى بدا وكأنَّ مُؤْتَةَ لم تكن معركةً بين جيشينِ، بل كانت لحظةً كتبَ اللّهُ فيها أنَّ الحقَّ إذا قام له رجالٌ صادقونَ، فلن تهزِمَهُ جيوشُ الأرضِ كُلّها!

هذِهِ كانتِ الحكايةُ بِرُؤوسِ أَقلامِها، أَمّا التّاريخُ فَلَهُ تَفاصيلُهُ.

كانت غزوةُ مُؤْتَةَ أوّلَ لِقاءٍ بين المسلمينَ وقُوّةٍ مِن قُوَى الرّوم، وسَبَبُها أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ بَعَثَ الحارثَ بنَ عُميرٍ الأَزْدِيَّ بكتابٍ إلى مَلِكِ بُصْرَى، فَتَعَرَّضَ له شُرَحبيلُ بنُ عَمرو الغَسّانيُّ، وهو مِن عُمّالِ الرّوم على تلك النّاحيةِ، فأوثقَهُ ثمَّ قَتَلَهُ، ولم تَكُنِ العربُ تَفعَلُ ذلكَ بِرُسُلِ الملوكِ. فشقَّ ذلكَ على النبيِّ ﷺ، فندبَ النَّاس إلى الخروجِ، فتجهَّزوا، واجتمعَ منهم ثلاثةُ آلافٍ.

وأسندَ رسولُ اللّهِ ﷺ إمارةَ الجيشِ إلى زَيْدِ بنِ حارِثَةَ، ثمَّ قالَ: فَإِنْ أُصيبَ فجعفرُ بنُ أبي طالِبٍ، فإن أُصيبَ فعبدُ اللّهِ بنُ رَواحَةَ!

ثـمَّ أوصاهـم فقـالَ: اُغـزوا باسـمِ اللّهِ، قاتِلـوا مَـن كَفَـرَ بـاللّهِ، ولا تَغْـدِروا، ولا تَغُلّـوا، ولا تَقتُلـوا وَلِيـدًا ولا امـرأةً، ولا شـيخًا فانِيًـا، ولا تَهْدِمـوا بنـاءً.

وخرجوا والنَّاس يُشَيِّعونَهُم، والنبيُّ ﷺ يَدعو لهم.

وسـارَ الجيـشُ حتَّـى نَزَلـوا مَعـانَ مِـن أرضِ الشّـام، فبلغهـم أنَّ هِرَقْـلَ قـد نَـزَل مـآبَ فـي مائتـي ألـفٍ مِـن الـرّومِ ومَـن تَبِعَهُـم مِـن نَصـارى العـربِ، فلبـثَ المسـلمونَ ليلتَيـنِ يشـاورونَ بعضَهـم. وقـالَ عبـدُ اللّهِ بـنُ رَواحَـةَ: يـا قـومُ، واللّهِ إنَّ الَّتـي تَكرهـونَ لَهِـيَ الَّتـي خَرَجْتُـم لهـا، ومـا نُقاتِـلُ النَّـاس بعـددٍ ولا عُـدّةٍ، إنَّمـا نُقاتِلُهُـم بهـذا الدِّيـنِ الَّـذي أكرمَنـا اللّه بـه، فانطلقـوا!

فمَضَوْا إلى مُؤْتَةَ.

فلمَّـا التقـى الجمعـانِ هنـاكَ، حَمَـلَ زَيْـدٌ بالرّايـةِ، فقاتـلَ حتَّـى قُتِـلَ. ثـمَّ أخذَهـا جَعفـرُ بـنُ أبـي طالِـبٍ، فقاتـلَ قتـالًا شـديدًا، فقُطِعَـتْ يَمِينُـهُ، فأخـذَ الرّايـةَ بيسـارِه، فقُطِعَـتْ، فضمّهـا إلـى صـدرِهِ بعضُدَيْـهِ حتَّـى استُشـهِد. ثـمَّ أخـذَ الرّايـةَ عبـدُ اللّهِ بـنُ رَواحَـةَ، فقاتـلَ حتَّـى استُشـهِد.

فلمَّـا قُتِـلَ القـادةُ الثّلاثـةُ، اختَلَـفَ المسـلمونَ مَـن يتولّـى الرّايـةَ، فقـالَ ثابـتُ بـنُ أقـرمَ: يـا مَعشـرَ المسـلمينَ، اصطَلِحـوا علـى رجـلٍ منكـم!

فقالوا: أنت.

قالَ: ما أنا بفاعلٍ؛ هذا خالدُ بنُ الوليدِ، فأمِّروه!

فدَفَعَها المسلمونَ إلى خالدٍ، وكانَ أعلَمَ القومِ بالحربِ، فأخذَ الرّايةَ، وجمعَ النَّاس، ورتّبَ صفوفَهُم، وقاتلَ قتالًا شديدًا.

ودخلَ خالدٌ في ذلكَ اليومِ في أشدِّ ما دخلَ فيه من القتالِ، فانكَسَرَ في يدِهِ تسعةُ أسيافٍ. ثمَّ رأى أنَّ بقاءَ المسلمينَ في مَوضعِهِم هَلَكَةٌ، فبدَّلَ الميمنةَ ميسرةً، وقدَّمَ مَن كانَ وراءَهم، فظنَّ الرّومُ أنَّ مددًا قد جاءَ. ثمَّ أخذَ بالانسحابِ المُنَظَّمِ حتَّى انحازَ بالنَّاس سالمينَ.

وفي المدينةِ، والجيشُ ما يزالُ في أرضِ الشّامِ، صَعِدَ رسولُ اللّه ﷺ المنبَر، وجعلَ يُخبرُ أصحابَه بما يجري في ساحةِ القتالِ، كأنّهُ يراهُ رأيَ العينِ. فقالَ ﷺ: أَخَذَ الرّايةَ زَيْدٌ فأُصيبَ ورُفِعَ، ثمَّ أَخَذَها جَعفرٌ فأُصيبَ ورُفِعَ، ثمَّ أَخَذَها ابنُ رَواحَةَ فأُصيبَ ورُفِعَ!

فبكى المسلمونَ لبكاءِ النبيِّ ﷺ.

ثمَّ قالَ: ثمَّ أَخَذَ الرّايةَ سَيْفٌ مِن سُيُوفِ اللّهِ ففَتَحَ اللّهُ عليه!

فلمَّا قَدِمَ الجيشُ إلى المدينةِ، خرجَ النَّاس يتلقّونَهُم، فجعلَ بعضُهم يقولُ: يا فُرّارُ!

وهم لا يَعلمونَ ما كانَ مِن شأنِ خالدٍ ومَن معهُ.

فقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: لَيْسوا بالفُرّارِ، ولكنَّهُمُ الكُرَّارُ إن شاءَ اللّه!

ثمَّ عزّى أهلَ الشهداءِ، ومسحَ رُؤوسَ يتامى جعفرٍ، وقالَ: لقد عُوِّضَ جعفرٌ جَناحَيْنِ يطيرُ بهما في الجنَّة حيثُ يشاءُ!

وهكذا كانت مُؤْتَةُ أوّلَ وقعةٍ التقى فيها المسلمونَ بالرّومِ، وأوّلَ يومٍ ظهرَ فيه سيفُ اللّهِ المسلولُ، وكانت مُمهِّدةً لفتوحاتِ الشّامِ واليرموكِ وما بعدَ ذلكَ مِن أيّامِ اللّهِ.

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروس المُستفادة من غزوة مُؤتة:

1 ـ إنَّ الدَّوْلَة التي تُهينُ رُسُلَ غيرِها تُعلِنُ الحربَ على ذاتِها قبلَ غيرِها، فقتلُ الحارثِ بنِ عميرٍ لَم يَكُنْ مُجرَّدَ اعتداءٍ على رجلٍ واحدٍ، بل كان هدمًا لعرفٍ دوليٍّ ثابتٍ عند العربِ والملوكِ. ومَن يَهدمُ حُرمةَ المراسلاتِ يَهدمُ آخِرَ جِسرٍ يَحولُ دونَ الحربِ، وكأنَّ الغساسِنةَ قالوا بفِعلِهم إنَّهُم لا يَعترفونَ بحُرمةٍ ولا عَهْدٍ، فجاءت مُؤْتَةُ لِتُعيدَ الميزانَ إلى مَوْضِعِه.

2 ـ أنَّ للمبادئِ ثمَّنًا، وأنَّ الدَّولةَ التي لا تُدافِعُ عن رِسالَتِها تَفقِدُ شَرعِيَّتَها، فلم يُرسِلِ النبيُّ ﷺ جيشًا انتقامًا لقتلِ رجلٍ، بل دِفاعًا عن مَقامِ الرِّسالةِ الَّتي جاءَ بها، لِيقولَ للعالَمِ إنَّ الأُمَّةَ التي تَسكُتُ عن إهانةِ مَبعوثِها تُهمِلُ أساسَ وُجودِها. ومن هُنا كان إرسالُ ثلاثةِ آلافٍ رِسالةً صامِتةً: أنَّ مبدأَ الأُمَّةِ أغلى مِن أرواحِها.

3 ـ إعدادُ القِيادَةِ قبلَ القِتالِ جُزءٌ مِن النَّصرِ، فترتيبُ النبيِّ ﷺ أُمَراءَ الجيشِ على هذا النَّحوِ كان دَرسًا في أنَّ القِيادَةَ لا تُتْرَكُ للصُّدفةِ، وأنَّ سُقوطَ القائدِ الأوَّلِ لا يَعني سُقوطَ المعرَكةِ. إنَّها وصيَّةٌ بأنَّ الجماعاتِ تُنتَصَرُ بالمَنهجِ لا بالأفرادِ.

4 ـ أنَّ الحَرْبَ لا تُقاسُ بالعَدَدِ وإنَّما بثَباتِ مَن يَحمِلُ الفِكرةَ، فالفَرْقُ شاسعٌ بين جيشٍ كَبيرٍ بلا رِسالَةٍ، وجيشٍ صغيرٍ يَحملُ يَقينًا. وثلاثةُ آلافٍ كانوا أمامَ قُوَّةٍ هائِلةٍ، لكنَّهُم لَم يَروا الكثرةَ إلّا امتحانًا لثَباتِهم.

5 ـ شَجاعَةُ زَيْدٍ وجَعفرٍ وابنِ رَواحَةَ لَيْسَتْ بُطولةً فرديَّةً، بل شاهِدٌ على صِدقِ العَقيدةِ، فكُلٌّ منهم تَقدَّمَ ليُكمِلَ رِسالةَ مَن قَبْلَهُ، لا طَلَبًا لِمَجْدٍ، بل لأنَّ الرّايَةَ لا يَنبَغي أنْ تَقَعَ ما دامَ في الصُّدورِ نَفَسٌ.

6 ـ القِيادَةُ الحَقَّةُ لا تُطلَبُ، بل تُدْفَعُ إلى صاحِبِها دَفْعًا، فخالدٌ لَم يَطلُبِ الإمْرَةَ، وإنَّما دُفِعَتْ إليهِ حينَ رأى النَّاس أنَّهُ أصلحُهم للحربِ. وهذه علامةُ القائدِ الصادقِ.

7 ـ الخِبرَةُ العَسكَريَّةُ نِعْمَةٌ تُساقُ لأهلِ الإيمانِ ولو كانوا حديثي عَهْدٍ بالإسلام، فالفضلُ في مُؤْتَةَ لَم يَكُن لِطولِ الصُّحبةِ بقدرِ ما كان لِحِكمةِ الرَّأي. وقد يُؤتي اللّه رَجلًا واحدًا مِن الفَهمِ ما لا يُؤتي جَماعةً.

8 ـ أنَّ المعرَكةَ لَيْسَتْ دائمًا مَجالًا للقِتالِ، بل قد تَكونُ مَجالًا لإنقاذِ الأُمَّةِ، فانسحابُ خالدٍ لَم يَكُنْ تراجُعًا، بل حِفظًا لحياةِ الجيشِ. والبُطولةُ أحيانًا في تَجَنُّبِ الفَناءِ لا في الاقتحامِ.

9 ـ تَثبيتُ الصُّفوفِ عندَ الاضطرابِ أعظَمُ مِن تَثبيتِ الرِّماحِ، فلو اضطربَ الجيشُ لحظةَ سُقوطِ الأُمَراءِ لفُنيَ كلُّه. ولكنَّ الثَّباتَ ساعةَ الصَّدمةِ هو مِقياسُ القُوَّةِ الحقيقيَّةِ.

10 ـ اللّٰه يَرفَعُ أقوامًا بصِدقِهم، ولو لَم يكونوا مِن أوائلِ الدّاخلينَ في الإسلامِ، فخالدٌ كان حديثَ العهدِ بالإسلامِ، لكنَّ اللّٰه رَفَعَهُ يوم مُؤْتَةَ فوقَ كثيرٍ ممّن سَبَقَهُ. والعِبرةُ بعمقِ الإيمانِ لا بِطولِه.

11 ـ أنَّ الهَيْبَةَ الحقيقيَّةَ لَيْسَتْ في السُّيوفِ، بل في القُدرةِ على اتِّخاذِ القرارِ الصَّعبِ، فالانسحابُ المُنَظَّمُ الَّذي قامَ بهِ خالدٌ كان أصعَبَ مِن القِتالِ نفسِهِ، لكنَّه كان الأبركَ للأُمَّةِ.

12 ـ أنَّ القائدَ العظيمَ يَرى ما لا يراهُ النَّاس، فبدَّلَ خالدٌ مواقعَ الجيشِ لِيَزرَعَ الوَهْمَ في صفوفِ الرّومِ، فأنقذَ بذلكَ آلافًا مِن المسلمينَ.

13 ـ أنَّ الأُمَّةَ تحتاجُ إلى العُيونِ اليَقِظَةِ في الدّاخلِ كما تحتاجُ السُّيوفَ في الخارجِ، فالنبيُّ ﷺ في المدينةِ كان يُخبِرُ النَّاس وقائعَ المعرَكةِ حينَ تَقَعُ، ليُثبِّتَ القلوبَ ويَجمعَ الصُّفوفَ.

14 ـ النَّاس قد يَلومونَ القادةَ قبلَ أنْ يَعرِفوا الحقيقةَ، فالذينَ استقبلوا الجيشَ بالترابِ ظنّوا أنَّهُم فَرُّوا، وما علِموا ما فعَلَهُ خالدٌ ومَن معهُ في ساحةِ الحربِ.

15 ـ كلامُ النبيِّ ﷺ يَرُدُّ الأُمورَ إلى نِصابِها، فلولا قولُهُ ﷺ: «بل هُمُ الكرّارُ» لظلَّ اللَّوْمُ مُعلَّقًا على الجيشِ. ويرفعُ الكَلِمُ أحيانًا ما لا يرفعهُ السَّيفُ.

16 ـ أنَّ البُكاءَ لا يُنافِي البُطولةَ، فالنبيُّ ﷺ بَكى زَيْدًا وجَعفرًا وابنَ رَواحَةَ، ولم يَزِدهُ ذٰلكَ إلّا رِقَّةً وثِقَلًا في القيادةِ.

17 ـ أنَّ الشَّهادةَ لا تُنهي أثَرَ صاحِبِها، بل تَبدَأه، فجَعفرٌ ورفاقُهُ أضْحَوا رموزًا للتَّضحيةِ، وبقي ذِكرُهُم على مدى العصورِ.

18 ـ أنَّ أعظَمَ الانتصاراتِ ما كان بلا فَتحٍ أرضيٍّ، بل بفَتحِ المَعنى، ومُؤْتَةُ لَم تُفتَحْ فيها مَدينَةٌ، ولكنَّها فَتَحَت بابَ الصِّراعِ مع الرّومِ، وبيَّنت أنَّ الأُمَّةَ قادِرةٌ على الوقوفِ أمامَ أعتى القُوَى.

19 ـ أنَّ أوّلَ المواجهةِ مع الرّومِ كان امتحانًا لمَعادِنِ الرِّجالِ، فمَن ثَبَت يوم مُؤْتَةَ ثَبَت يومَ اليرموكِ وما بَعدَها. وكانت مُؤْتَةُ مِرآةً لِمُستقبلِ الفُتوحِ.

20 ـ أنَّ الأُمَّةَ التي تَصنَعُ رِجالَ مُؤْتَةَ قادِرَةٌ على أنْ تَصنَعَ دولتَها ولو وَقَفَ العالَمُ كُلُّهُ في وجهِها، فمُؤْتَةُ كانت شَرارَةَ الوعي بالقُوَّةِ، ومِن بَعدِها تتابَعَتِ الفُتوحُ حتَّى تغيَّرَ وَجهُ التّاريخِ.

غَزْوَةُ ذاتِ السَّلاسل!
عائشةُ، ومن الرِّجالِ أبوها!

هَبَّتْ نُذُرُ الخطرِ من أقصى أطرافِ الجزيرةِ؛ فقد اضطربت ديارُ قضاعةَ عند تخومِ الشامِ، وتجمّعت بطونُها في حِلفٍ مُريبٍ، تتلمّسُ في حركةِ الرومِ ظلًّا تستندُ إليه، وتطلّ على المدينةِ بعينٍ تحملُ ما يحملُ وجهُ اللَّيل من غيبٍ وخفاءٍ.

وكانت الدولةُ النبويّةُ يومئذٍ تتقدّمُ في خطواتِها الأولى نحو رسمِ حدودِ وجودِها، تمسكُ بالأمنِ من أطرافِه، وتراقبُ كلَّ رعشةٍ تُثيرها القبائلُ على مقربةٍ من الشمالِ؛ فليس في تلك المرحلةِ أخطرُ من شرارةٍ قد تُشعلُ البابين معًا: بابِ العربِ، وبابِ الرومِ.

وفي هذا الجوِّ الملبّدِ، نظر النبيُّ ﷺ نظرةَ القائدِ الذي يرى ما وراء الآفاقِ، فبدا له أنّ الأمرَ ليس مناوشةً عابرةً، بل بوادرُ تحالفٍ إن تُرك على حالِه فتح على المسلمينَ بابًا لا تُغلقه الأيّامُ. فانتدب جيشًا صغيرًا لا ليُثيرَ حربًا، بل ليطويَ فتيلَها قبل أن يشتعلَ، وليقطعَ الطريقَ على كلِّ عينٍ تتربّصُ بالدعوةِ من جهةِ الشمالِ.

وأمَّرَ على ذلك الجيشِ عمرو بن العاص، الرجلَ الحازمَ صاحبَ البصيرةِ البعيدةِ، الذي عرف أرضَ الشامِ وخبِر قبائلَها من قبلُ،

فكانت القدرةُ على قراءةِ الميدانِ إحدى عُدّته قبل وصولِه إليه. فخرج عمرو بجيشِه إلى وادٍ تُسمّيه العربُ السلاسلَ، لكثرةِ ما يُسمعُ فيه من صليلِ السِّلاح حين تتهيّأُ القبائلُ للحربِ.

وكانت تلك الغزوةُ امتحانًا جديدًا لولادةِ الدولةِ الإسلاميّةِ في وجهِ التحدّياتِ البعيدةِ، تُثبتُ به المدينةُ أنّها حاضرةٌ للأحداثِ قبل وقوعِها، قادرةٌ على أن تُطفئَ الشرّ في أطرافِ الأرضِ قبل أن يصلَ شررُه إلى أبوابِها، وأنّ القيادةَ النبويّةَ لا تنتظرُ الخطرَ، بل تتقدّمُ إليه!

هذِهِ كانتِ الحِكايةُ بِرُؤوسِ أَقلامِها، أَمّا التّاريخُ فَلَهُ تَفاصيلُهُ.

كانت غزوةُ ذاتِ السلاسلِ من أوائلِ السرايا التي خرجت إلى جهةِ الشامِ، وسببُها أنَّ قبائلَ قُضاعةَ تحرّكت عند أطرافِ البلقاءِ، وتجمّعت بطونُها على أمرٍ يكرهونَ بهِ المسلمينَ!

وبلغَ النبيَّ ﷺ أنَّ الرومَ يحرّضونَهم ويُمدّونَهم، فخشي أن يفتحَ ذلك بابًا من الشرِّ على أطرافِ المدينةِ، فدعا إلى بعثٍ يكفيهِ اللّهُ به أمرَ تلك القبائلِ.

وسُمّيت الغزوةُ ذاتَ السلاسلِ لوادٍ هناكَ يُقالُ له هذا الاسمُ، وقيلَ لأنَّ العربَ إذا اجتمعت للقتالِ تشدّ بعضَها إلى بعضٍ بالسلاسلِ لئلّا يفرّوا، فغلبَ الاسمُ على الموضعِ. وقيل نسبةً إلى ماءٍ هناك، وهذا أرجحُ الأقوال برأيي، وإن كانت كلها معتبرة!

فدعا رسولُ اللّهِ ﷺ عمرو بنَ العاصِ، وكان قد أسلمَ قريبًا، فقال له: يا عمرو، إني أريد أن أبعثك وجهًا، فيُسلِّمك اللّه ويُغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة!

فقال عمرو: يا رسولَ اللّهِ، ما أسلمتُ رغبةً في المالِ، وإنما أسلمتُ رغبةً في اللّهِ ورسولِهِ!

فتبسّمَ النبيُّ ﷺ وقال: نِعْمَ المالُ الصالحُ للرجلِ الصالحِ!

وخرجَ عمرو في ثلاثمَائة من المهاجرينَ والأنصارِ، حتَّى بلغَ أرضَ السلاسلِ، فلقي من أمرِ قضاعةَ ما رأى أنه أكبرُ من أن يقوى عليهِ بمن معهُ، فبعثَ إلى النبيِّ ﷺ يستمدُّه. فأرسل النبيُّ ﷺ أبا عبيدةَ بنَ الجرّاحِ في جيشٍ من المهاجرينَ والأنصارِ، فيهم أبو بكرٍ وعمرُ، وقال له: «لا تختلفا»، يريد أبا عبيدةَ وعمرو.

فلمَّا وصلَ أبو عبيدةَ إلى عمرو بنِ العاصِ لم يُرد النزولَ تحت رايتهِ، وقال له: أنتَ أمير من معك، وأنا أميرُ من معي!

فأبى عمرو وقال: إنما أنتَ رجلٌ جئتَ مددًا لي وأنا الأميرُ!

فراجعه أبو عبيدةَ، ثمَّ سكتَ وقال قولتهُ المشهورةَ: يا عمرو، إنما أنتَ أميرُ أصحابِك، وأنا أميرُ أصحابي، ولكنّ أمرني رسولُ اللّهِ ﷺ ألا أختلَف معك، وقد أطعتُ!

فثبتت الإمارةُ لعمرو، وصلّى بالنَّاس، واجتمع الجيشانِ تحت رايتِه.

ثـمَّ مضـوا إلـى ديـارِ قضاعـةَ، فحمـلَ عليهـم عمـرو، وجعـلَ لهـم كمائـنَ، وسـارَ بجيشـه علـى تعبئـةٍ، فلمَّـا رأت قضاعـةُ كثـرةَ جيـشِ المسـلمينَ انهزمـوا قبـل أن يشـتدَّ القتـالُ، وقيـل: بـل كان قتـالٌ يسـيرٌ، ثمَّ كتبَ اللّٰهُ النصـرَ للمسـلمينَ، وتفـرّق جمـعُ قضاعـةَ، ورجـعَ الجيـشُ ولـم يُقتـل مـن المسـلمينَ أحـدٌ.

ورجـعَ عمـرو بـنُ العـاصِ إلـى المدينـةِ وقـد سُـرَّ بالنصـرِ وانقيـادِ النَّـاس لـه، حتَّـى إنـه سـألَ النبـيَّ ﷺ حيـن جلس بيـن يديـه: يـا رسـولَ اللّٰهِ، مـن أحـبُّ النَّـاس إليـكَ؟

فقـال: عائشةُ!

فقال عمرو: ومن الرِّجال؟

قال: أبوها!

قال: ثمَّ منْ؟

قال: عمر!

فعدّ رجـالًا، فسـكتَ عمـرو، وعـرفَ أنَّ للنبـيِّ ﷺ رجـالًا هـم أحـبُّ إليـهِ منـهُ، وإن كان عمـرو صاحـبَ فضـلٍ.

ومـن أحـداثِ تلـك السـريّةِ أنَّ عمـروًا أمَّ النَّـاس فـي الصَّـلاة وهـو جُنُـبٌ، وقـد تيمّـمَ مـن شـدّةِ البـردِ، فلمَّـا قـدمَ علـى النبـيِّ ﷺ سـأله: يـا عمـرو، أأممـتَ أصحابَـكَ وأنـتَ جنـبٌ؟

فقـال: يـا رسـولَ اللّٰهِ، مـا حملنـي علـى ذلـكَ إلا خـوفُ البـردِ، وإنـي سـمعتُ اللّٰه يقـول: ﴿وَلَا تَقْتُلُـوا أَنْفُسَـكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُـمْ رَحِيمًـا﴾

فتبسّم النبيُّ ﷺ ولم يُنكر عليه، ورأى له عذرَه.

فكانت ذاتُ السلاسلِ غزوةً ثبتت فيها هيبةُ الدولةِ النبويّةِ عند أطرافِ الشام، وعُرف بها فضلُ عمرو، ورأى فيها النَّاس حكمةَ رسولِ اللّهِ ﷺ في جمعِ القلوبِ، ومنع الاختلافِ، وإطفاءِ الفتنةِ قبل أن تستعرَ.

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروس المُستفادة من غزوة ذات السَّلاسل:

1 ـ اليقظةُ الاستباقيّةُ سرُّ بقاءِ الدولةِ، فقد كان تحرّكُ النبيِّ ﷺ قبل ظهورِ الخطرِ حقيقةً دليلًا على أنَّ الدولةَ الناشئةَ لم تكن تنتظرُ الأحداثَ لِتتفاعلَ معها، بل كانت تسبقُها بخُطواتٍ. فإرسالُ السريّةِ إلى قُضاعةَ قبل تحالُفِهم مَع الرومِ أثبتَ أنَّ القِيادةَ النبويّةَ ترى ما وراءَ اللحظةِ، وتَحمي حدودَها قبل أنْ تُمسَّ.

2 ـ أنَّ الوقايةَ قد تكونُ غزوةً، فما خرجَ عمرو بنُ العاصِ لِيُقاتِلَ، وإنّما لِيَمنعَ القتالَ قبل وقوعه. وفي هذا درسٌ عظيمٌ في أنَّ بعضَ المعارِكِ لا يهدفُ إلى النصرِ العسكريِّ، بل إلى مَنعِ الحربِ ذاتِها، وهو نَهجٌ يدلُّ على حِكمةِ الدولةِ وقُدرةِ تقديرِها.

3 ـ القِيادةُ تُمنَحُ لأهلِ الخِبرةِ، لا لأهلِ السَّبقِ وحدَهُ، فمَع أنَّ عمروًا كان حديثَ الإسلام، إلّا أنّ النبيَّ ﷺ اختارَه لِعلمه بأرضِ الشّامِ وببطونِ قُضاعةَ. وهذا يُثبِتُ أنَّ القِيادةَ ليست امتيازًا زمنيًّا، بل مسؤوليّةً تُعطى لِمَن يَملِكُ أدواتَها.

4 ـ تَكريمُ النبيِّ ﷺ لِلكفاءاتِ درسٌ في بناءِ الدولةِ، إذ لم يُقصِ النبيُّ عمروًا لحداثةِ عَهدِهِ، بل قربَّه وأمّره، لِيعلَمَ النَّاس أنَّ الدولةَ لا تُبنى على العصبيّةِ، بل على القُدرةِ. فالمعيارُ في الإسلامِ فضلٌ وخِبرةٌ وإخلاصٌ.

5 ـ أنَّ الإخلاصَ يُعلو على المالِ، حينَ عرضَ النبيُّ ﷺ لعمرو نَصيبًا مِن الغنيمةِ، قالَ عمرو: «ما أسلمتُ رغبةً في المالِ». فتبسّمَ النبيُّ ﷺ إقرارًا له، لِيكونَ الموقفُ شاهدًا أنَّ النِّيّةَ أساسُ العملِ.

6 ـ أنَّ القائدَ قد يَحتاجُ إلى الاستمدادِ، ولا يَنقُصُ ذلكَ مِن قدرِهِ، فقدّرَ عمرو حجمَ الخطرِ فاستنجَدَ، وهذا في ذاته شجاعةٌ، لأنَّ القائدَ الحَكيمَ يعرفُ مَتى يَطلُبُ العونَ، ولا يَغترُّ بنفسِه.

7 ـ طاعةُ القلوبِ أعظمُ مِن طاعةِ الأجسادِ، فحينَ قالَ النبيُّ ﷺ: «لا تَختلفا»، كان يعلمُ أنَّ وحدةَ عمرو وأبي عبيدةَ أهمُّ مِن عددِ جنودِهِم. فطاعةُ القلبِ هي السَّبيلُ إلى النصرِ.

8 ـ الكِبارُ يعرفونَ مَتى يَتَنازلونَ، وتجلّى ذلك حينَ قدّمَ أبو عبيدةَ عمروًا، مع أنَّه أسبقُ منهُ في الإسلامِ. لكنَّه آثرَ طاعةَ النبيِّ ﷺ على رأيِهِ الشخصيِّ، فصارَ مِثالًا للقائدِ النّاضجِ الذي يُقدِّمُ الجماعةَ على النَّفسِ.

9 ـ القائدُ ليس مَن يرفعُ الرّايةَ، بل مَن يرفعُ النّفوسَ، فقدرةُ عمرو على جَمعِ الجيشَيْنِ تحتَ رايةٍ واحدةٍ كانت دليلًا على أنَّ القيادةَ الحقّةَ هي جمعُ القلوبِ قبل جمعِ السيوفِ.

10 ـ أنَّ النصرَ لا يكونُ دائمًا بالسيفِ، فانهيارُ قُضاعةَ قبلَ اشتدادِ القتالِ يُشيرُ إلى أنَّ رهبةَ الجيشِ وثباتَه قد تهزمُ العدوَّ قبلَ الالتحام. فالمعاركُ تُحسَمُ في القلوبِ كما تُحسَمُ في الميدانِ.

11 ـ السريّةُ إذا أُحسِنَ إدارتُها تَكْفي عن جُيوشٍ كاملةٍ، فبِسريّةٍ صغيرةٍ ثَبَّتت الدولةُ حدودَ الشمالِ، وأرسلت للعربِ والرومِ معًا رِسالةً أنَّ المدينةَ لا تُؤخَذُ على غِرّةٍ.

12ـ أنَّ القائدَ قد يفتّشُ عن مكانِه الطبيعيِّ دون أن يُنقِصَ ذلك من قدرِه، فقد سألَ عمروٌ النبيَّ ﷺ عن أحبِّ النَّاس إليهِ، لا خُيلاءً ولا إعجابًا، بل رغبةً في معرفةِ مراتبِ الرجالِ عند رسولِ اللّهِ ﷺ لِيقتديَ بهم، وليضعَ نفسَه في السُّلَّمِ الصحيحِ بينهم. فجاء جوابُ النبيِّ ﷺ حكيمًا، يُبيّن الفضائلَ دون أن يجرحَ أحدًا، ويهدي القلوبَ إلى أنَّ التفاضلَ عند اللّهِ بالأعمالِ والسبقِ، وأنَّ كلَّ امرئٍ له مقامٌ يبلغه بما يُقدّمه لدينِه. وفي هذا درسٌ للقادةِ أن يسألوا عن مراتبِ الحقِّ، لا عن مراتبِ أنفسهم، وأنَّ السؤالَ إذا صَحَّ قصدُه كان بابًا من أبوابِ التهذيبِ والرفعةِ.

13 ـ الحِكمةُ في الجوابِ تُهذِّبُ النفوسَ، فجوابُ النبيِّ ﷺ لعمرو حينَ سألَه عن أحبِّ النَّاس إليهِ كان تربيةً راقيةً تُعطي الحقيقةَ بلا جرحٍ، وتُعيدُ للقلبِ توازنَه.

14 ـ أنَّ الاجتهادَ مقبولٌ ما دامَ مَبنيًّا على خوفِ اللّهِ، فإمامةُ عمرو للناسِ وهو جُنُبٌ بعدَ التيمُّم كانت اجتهادًا دفعه إليه البردُ، وتبسّمُ النبيِّ ﷺ دليلُ قبولِ ذلكَ الاجتهادِ.

15 ـ أنَّ السرايا قد تبني للدولةِ أكثرَ ممّا تبنيهِ الغزواتُ الكُبرى، فذاتُ السلاسلِ لم تكن معركةً كبيرةً، لكنها ثبّتت هيبةَ الدولةِ على حدودِ الشمالِ، ومنعت تحالفًا خطيرًا قبلَ وُقوعِه، وكانت درسًا في أنَّ الضرباتِ الصغيرةَ في الوقتِ المناسبِ تَصنعُ نَتائجَ عظيمةً!

فَتْحُ مكَّة!

لا غَالِبَ إلا اللّٰه!

ثمَانِـي سـنواتٍ مضـتْ مُـذ خـرجَ مهاجـراً تحـت جنـحِ الظَّـلام، ثمَانِـي سـنواتٍ تَمـورُ بالأحـداثِ، جـراحٌ فـي بـدرٍ، وثبـاتٌ فـي أُحُـدٍ، وصمـودٌ فـي الأحـزابِ، وعهـودٌ فـي الحديبيـةِ، وكلُّ ذلـك كان يُمهِّـدُ لطريقٍ واحدٍ: الطريقِ الـذي يبـدأُ مـن المدينـةِ، وينتهـي عنـد أسـتارِ البيـتِ الحـرامِ!

كان الزمـانُ يومَهـا يَمشـي علـى أطـرافِ قدميـه، كأنَّـهُ يَخشَـى أن يُحـدِثَ جَلبـةً تُفسِـدُ مهابـةَ اللحظـةِ. والجزيـرةُ كلُّهـا تترقّـبُ خبـراً تُوشِـكُ أن تُضـاءَ بـه الأرضُ بعـدَ طـولِ ظـلام؛ فليـس كلُّ يـوم تُطـوَى صفحـةٌ داميـةٌ مـن صفحـاتِ الجاهليّـةِ، ولا كلُّ يـومٍ تتهيّـأُ مكَّـةُ لتعـودَ إلـى قلـبِ النـورِ الأوّلِ.

ومنـذ خـرجَ النَّبـيُّ ﷺ مـن ربوعِهـا مُكرهـاً، والسَّـماء تُـدوِّنُ فـي السِّـجِلّاتِ وعـداً لا يُخلَـفُ: أنَّـهُ سـيعودُ إليهـا، لا تحـت جنـحِ الظـلامِ كمـا خـرجَ، بل فـي وَضَـحِ الظَّهيـرة! ولـن يدخـلَ مـن بـابٍ صغيـرٍ كالذي خـرجَ منـه يـومَ وقـفَ فرسـان قريـشٍ ينتظـرون خروجـه ليسـفكوا دمـه، وإنمـا سـيدخلُ مـن أبـواب مكَّـة الأربعـة!

وفـي ذلـك العـامِ المشـهودِ، بـدا المشـهدُ كأنَّ الأرضَ تتنفَّسُ الصُّبـحَ، وكأنَّ قريشـاً تشـعرُ، أنَّ القـوّةَ التـي طالمـا حاربتْها تعـودُ اليـومَ ولكـن بوجـهٍ آخـرَ؛ وجـهِ الرَّحمـةِ، لا وجـهِ الانتقـامِ.

فالفتـحُ حيـن جـاءَ، لـم يـأتِ علـى صليـلِ سـيوفٍ جائعـةٍ، بـل جـاءَ علـى خُطـى نبـيٍّ كريـمٍ يطـوي سِـجِلّاتِ الماضـي ليكتـبَ صفحـةً تُقـرأُ إلـى قيـامِ السـاعةِ.

دخـلَ النَّبـيُّ ﷺ مكَّـة ورأسُـهُ مُطأطـأٌ تَواضُعـاً، كأنَّمـا النصـرُ نفسُـه يخجـلُ مـن أن يُـرى أمـامَ تَواضُـعِ صاحبِـه.

ورأى النَّـاس جيشـاً يمتـدُّ كأنَّـهُ السَّـيلُ، لكنَّهـم رأوا فـي قلـبِ ذلـك الجيـشِ قلبـاً واحـداً لا يَحمِـلُ إلّا العفـوَ.

تسـاقطت الأصنـامُ مـن حـولِ الكعبـةِ كمـا تتسـاقطُ أوراقُ الخريـفِ أمـامَ ريـحٍ مُسـلطة؛ لحظـةٌ لـو قِيسَـت فيهـا أعمـارُ الأمـمِ لكانـت بدايـةَ التاريـخِ الحقيقـيِّ لهـذه الأمـةِ.

وكان المشـهدُ مزيجـاً مـن خُشـوعٍ وهيبـةٍ وانتصـارٍ لا يُشـبهُ أيَّ انتصـارٍ آخـرَ:

مهاجـرونَ يعـودونَ إلـى ديـارٍ طُـرِدوا منهـا، وأنصـارٌ يَشـهدونَ ثمَّـارَ وَفَـاءٍ تاريخـيٍّ، وأعـداءٌ يَتحوّلـونَ إلـى أشـبهَ بالطـلّابِ فـي حضـرةِ مُعلِّـمٍ كريـمٍ.

ذلك اليومُ لم يكن فتحاً لمدينةٍ وحسبُ؛ بل كان فتحاً للقلوبِ قبلَ الحصونِ، وللضمائرِ قبلَ الدُّورِ، وكان إعلاناً أنَّ مملكةَ الظلام قد انتهى عهدُها، وأنَّ البيتَ الذي بُنِيَ على التوحيدِ لن يُظلِّله شِركٌ بعدَ اليومِ.

وهكذا، وقفَ التاريخُ على بابِ مكَّة يُدوِّنُ:
أنَّ الفتحَ الأعظمَ لم يكن سيفاً يلمعُ، بل كان رحمةً تَتهَمِرُ!
وأنَّ أعظمَ انتصارٍ هو ذاك الذي يَنحني فيه المنتصرُ تَواضُعاً!
وتَنحني فيه القلوبُ كلُّها أمامَ نورِ اللّهِ.

تلك كانتْ حكايةُ نصرِ اللّهِ والفتحِ مقتضبةً إذا ما حفَّها البيان، ولكن إن لم تُسرج صهوة الكلامِ لفتحِ مكَّة فلأيِّ حديثٍ تُسرج؟! وإن لم يُروَ حديثُ الفتحِ مُسهباً فلا كان الإسهاب لغيره!

كان صُلحُ الحُديبيّةِ قد وُقِّعَ بينَ النبيِّ ﷺ وقُريشٍ على وضعِ الحربِ عشرَ سنين، وأنَّهُ من أحبَّ أن يدخلَ في عهدِ النبيِّ ﷺ دخل، ومن أحبَّ أن يدخلَ في عهدِ قُريشٍ دخل. فاختارت خُزاعةُ الدخولَ في عهدِ النبيِّ ﷺ، ودخلت بنو بكرٍ، وهم أعداءُ خُزاعةَ التاريخيّون، في عهدِ قُريش.

لكنَّ العداوةَ القديمةَ بين القبيلتَين لم تَخمُد، حتَّى جاءت ليلةٌ باغتت فيها بنو بكرٍ خُزاعةَ عند ماءِ الوَتير، يُعاوِنُهم رجالٌ من قُريشٍ في الظَّلام، فيهم صَفوانُ بنُ أميّةَ وعِكرمةُ بنُ أبي جهلٍ ونوفلُ بنُ مُعاويةَ.

قُتِلَ من خُزاعةَ رجالٌ، وفَرَّ من استطاع الفِرارَ حتَّى وصل زعيمُهم عمرو بنُ سالمٍ الخُزاعيُّ إلى المدينة، فوقف أمامَ رسولِ اللّه ﷺ وقال أبياتَه المشهورة:

يا ربِّ إنِّي ناشدٌ محمَّداً

حِلفَ أبينا وأبيهِ الأتلدا

فقال النبيُّ ﷺ: نُصِرتَ يا عمروُ بنَ سالم!

وعَلِم أنَّ قُريشًا قد نقضتِ العهدَ نقضًا لا شُبهةَ فيه.

وحين شاع خبرُ ما فعلته بنو بكرٍ وقُريش، دبَّ الخوفُ في نُفوسِ مكَّة، فأرسلت قُريشٌ أبا سُفيان إلى المدينةِ يرجو تجديدَ العهدِ وزيادةَ المدّة.

دخل أبو سفيان على ابنتِه أمِّ حبيبةَ رضي اللّهُ عنها، فلمَّا أراد الجلوسَ على فراشِ النبيِّ ﷺ طوَتْهُ عنه، وقالت: هو فِراشُ رسولِ اللّه ﷺ، وأنتَ رجلٌ نجِسٌ مُشرِك!

فقال: لقد أصابكِ بعدي شرٌّ!

ثمَّ خرج إلى أبي بكرٍ يسأله أن يَشفَع له عندَ رسولِ اللّه ﷺ، فقال أبو بكر: ليسَ ذلك إليَّ!

ثمَّ قصد عُمرَ، فقال عمر: واللّهِ لو لم أجد إلّا الذَّرَّ لَجاهَدْتُكم به!

ثمَّ قصد عليًّا، فقال: ما أجدُ لكَ شيئًا!

فقال: دلَّني على أحدٍ أشفعُ عنده.

فقال عليٌّ: اذهبْ إلى النَّاس فاجعَلْ نفسكَ جارًا للمسلمين!

ففعل، لكنَّ أحدًا لم يعبأ بجِواره.

فرجع إلى مكَّة خائبًا، وقد عَلِم أنَّ الحربَ آتيةٌ لا محالة!

أمرَ رسولَ اللّهِ ﷺ عائشةَ، قبلَ أن يأتيَه خبرُ نَقضِ الميثاقِ بثلاثةِ أيّام، أن تُجَهِّزَه، ولا يعلمُ أحدٌ. فدخل عليها أبو بكرٍ، فقال: يا بُنيّة، ما هذا الجهازُ؟

قالت: واللّهِ ما أدري.

فقال: واللّهِ ما هذا زمانُ غزوِ بني الأصفر، فأينَ يريدُ رسولُ اللّهِ؟

قالت: واللّهِ لا علمَ لي.

وفي صباحِ الثالثة جاء عمرو بنُ سالمٍ الخُزاعيُّ في أربعينَ راكبًا، وارتجز: يا ربِّ إنِّي ناشدٌ محمَّدا.

فَعَلِم النَّاس بنَقضِ الميثاق، وبعدَ عمرو جاء بديلٌ ثمَّ أبو سفيان، وتأكد عند النَّاس الخبر، فأمرهم رسولُ اللّهِ ﷺ بالجهاز، وأعلمهم أنّه سائرٌ إلى مكَّة. وقال: اللهمَّ خُذِ العيونَ والأخبارَ عن قريشٍ حتَّى نَبْغَتَها في بلادها!

وزيادةً في الإخفاءِ والتعمية، بعث رسولُ اللّهِ ﷺ سريّةً قوامُها ثمَّانيةُ رجالٍ تحت قيادة أبي قتادةَ بنِ ربعيٍّ إلى بطنِ أُضُم، فيما بين ذِي خَشَبٍ وذِي المَرْوَة على ثلاثةِ بُرُدٍ من المدينة، ليظنَّ الظّانُّ أنّه ﷺ يتوجّه إلى تلك الناحية، ولتذهبَ بذلك الأخبار. وواصلت هذه السريّةُ سيرَها، حتَّى إذا وصلت حيثمَّا أُمِرَت، بلغها أنّ رسولَ اللّه ﷺ خرج إلى مكّة، فسارت إليه حتَّى لحقته.

وكتب حاطبُ بنُ أبي بَلْتَعَة إلى قريش كتابًا يُخبِرهم بمسيرِ رسولِ اللّه ﷺ إليهم، ثمَّ أعطاه امرأةً، وجعل لها جعلاً على أن تُبلّغه قريشًا، فجعلته في قُرونِ رأسِها، ثمَّ خرجت به. وأتى رسولَ اللّه ﷺ الخبُر من السَّماء بما صنع حاطبٌ، فبعث عليًّا والمِقداد، فقال: انطلِقا حتَّى تأتيا روضةَ خاخٍ، فإنَّ بها ظَعِينَةً معها كتابٌ إلى قريش!

فانطلقا تعادي بهما خيلَهما حتَّى وجدا المرأةَ بذلك المكان، فاستنزلاها، وقالا: معكِ كتابٌ؟

فقالت: ما معي كتاب.

ففتّشا رَحلَها فلم يجدا شيئًا، فقال لها عليٌّ: أَحْلِفُ باللّه، ما كَذَبَ رسولُ اللّهِ ﷺ ولا كَذَبْنا، واللّهِ لَتُخرِجَنَّ الكتابَ أو لَنُجَرِّدَنَّكِ.

فلمَّا رأتِ الجِدَّ منه، قالت: أَعْرِض.

فأعرض، فحلّت قُرونَ رأسِها، فاستخرجتِ الكتابَ منها، فدفعتْه إليهما، فأتيا به رسولَ اللّهِ ﷺ، فإذا فيه: من حاطبِ بنِ أبي بَلْتَعَة إلى قريشٍ يُخبرُهم بمسيرِ رسولِ اللّه ﷺ إليهم.

فدعا رسولُ اللّه ﷺ حاطبًا، فقال: ما هذا يا حاطب؟

فقال: لا تَعْجَل عليّ يا رسولَ اللّه، واللّهِ إنّي لَمُؤمِنٌ باللّهِ ورسولِه، وما ارتددتُ ولا بدَّلتُ، ولكني كنتُ امرأً مُلْصَقًا في قريشٍ، لستُ من أنفسِهم، ولي فيهم أهلٌ وعَشيرةٌ ووَلَد، وليس لي فيهم قَرابةٌ يَحْمُونهم، وكان من معك لهم قَراباتٌ يحمونهم، فأحببتُ، إذ فاتني ذلك، أن أتّخذَ عندهم يدًا يحمون بها قَرابتي.

فقال عمرُ بنُ الخطّاب: دَعْني يا رسولَ اللّه أضربْ عنقَه، فإنّه قد خانَ اللّه ورسولَه، وقد نافق!

فقال رسولُ اللّه ﷺ: إنّه قد شَهِدَ بدرًا، وما يُدريك يا عُمر، لعلّ اللّه قد اطَّلع على أهلِ بدرٍ فقال: اعملوا ما شِئتم فقد غفرتُ لكم!

فذَرَفَت عينا عمر، وقال: اللّهُ ورسولُه أعلم.

وفي العاشرِ من رمضان غادر رسولُ اللّه ﷺ المدينةَ متوجّهًا إلى مكَّة، في عشرةِ آلافٍ من الصّحابة رضي اللّه عنهم، واستخلف على المدينة أبا رُهْمٍ الغِفاريَّ.

ولمّا كان بالجُحفة أو فوقَ ذلك، لقيه عمُّه العبّاسُ بنُ عبدِ المُطَّلِب، وكان قد خرج بأهله وعياله مُسلمًا مُهاجرًا.

ثمَّ لمّا كان رسولُ اللّه ﷺ بالأبواء، لقيه ابنُ عمّه أبو سفيانَ بنُ الحارث وابنُ عمّتِه عبدُ اللّهِ بنُ أبي أُميّةَ، فأعرَض عنهما، لِما كان يلقاه منهما من شدّة الأذى والهَجْو.

فقالت له أمُّ سلمةَ:

لا يَكُنْ ابنُ عمّكَ وابنُ عمّتِكَ أشقَى النَّاس بك.

وقال عليٌّ لأبي سفيان بن الحارث: ائتِ رسولَ اللّهِ ﷺ من قِبَلِ وجهه، فقلْ له ما قال إخوةُ يوسفَ ليوسف: "قالُوا تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ"

فإنّه لا يرضى أن يكون أحدٌ أحسنَ منه قولًا.

ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسولُ اللّه ﷺ: "لا تَثْرِيبَ عليكم الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"

وواصل رسولُ اللّهِ ﷺ سيرَه وهو صائم، والنَّاس صيام، حتَّى بلغ الكُدَيد، وهو ماءٌ بين عُسفان وقُديد، فأفطر، وأفطر النَّاس معه، ثمَّ واصل سيرَه حتَّى نزل بمرِّ الظَّهْران نزلَه عِشاءً، فأمر الجيش، فأوقدوا النِّيران، فأوقدت عشرةُ آلافِ نار، وجعل رسولُ اللّهِ ﷺ على الحرس عُمرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه.

وركب العبّاس، بعد نزولِ المسلمين بمرِّ الظَّهْران، بغلةَ رسولِ اللّهِ ﷺ البيضاء، وخرج يَلتَمِس، لعلّه يجد بعض الحطّابة أو أحدًا يُخبِر قريشًا، ليخرجوا يَستأمنون رسولَ اللّهِ ﷺ قبل أن يدخلها.

وكان اللّهُ قد عَمّى الأخبارَ عن قريش، فهم على وَجَلٍ وتَرَقُّب، وكان أبو سفيان يخرج يتجسّس الأخبار، فكان قد خرج هو وحكيمُ بنُ حِزام وبديلُ بنُ ورقاء يتجسّسون.

قال العبّاس: واللّهِ إنّي لأسيرُ عليها، أي على بغلةِ رسولِ اللّهِﷺ، إذ سمعتُ كلامَ أبي سفيان وبديلِ بنِ ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيتُ كاللَّيلة نِيرانًا قطّ، ولا عَسْكَرًا!

قال بديل: هذه واللّهِ خُزاعة، خَمَشَتْها الحرب.

فيقول أبو سفيان: خُزاعةُ أقلُّ وأذلُّ من أن تكون هذه نِيرانُها وعسكرُها.

قال العبّاس: فعرفتُ صوتَه، فقلت: أبا حنظلة؟

فعرف صوتي، فقال: أبا الفضل؟

قلتُ: نعم.

قال: ما لك؟ فِداكَ أبي وأمّي.

قلت: هذا رسولُ اللّهِ ﷺ في النَّاس، وَا صَباحَ قُريشٍ واللّهِ.

قال: فما الحيلةُ؟ فِداكَ أبي وأمّي.

قلت: واللّهِ لَئِن ظَفِرَ بك ليَضرِبَنَّ عُنقَك، فاركبْ في عَجْزِ هذه البغلةِ حتَّى آتيَ بك رسولَ اللّهِ ﷺ فأستأمنَه لك.

فركب خلفي، ورجع صاحباه.

قال: فجئتُ به، فكلَّما مررتُ به على نارٍ من نيرانِ المسلمين، قالوا: مَن هذا؟

فإذا رأوا بغلةَ رسولِ اللّهِ ﷺ وأنا عليها، قالوا: عمُّ رسولِ اللّهِﷺ على بَغْلَتِه.

حتَّى مررتُ بنارِ عمرَ بنِ الخطّاب، فقال: مَن هذا؟ وقام إليَّ، فلمَّا رأى أبا سفيان على عَجْزِ الدّابة، قال: أبو سفيان؟ عدوُّ اللّه؟ الحمدُ للّهِ الذي أمكنَ منك بغيرِ عقدٍ ولا عهد!

ثـمَّ خـرج يشـتدُّ نحـو رسـولِ اللّهِ ﷺ، ورَكَضـتُ البغلـة فسـبقتُه، فاقتحمـتُ عـن البغلـة، فدخلـتُ علـى رسـولِ اللّهِ ﷺ، ودخـل عليـه عمـر، فقـال: يـا رسـولَ اللّه، هـذا أبـو سـفيان، فدعنـي أضـرِبْ عنقَـه.

قلتُ: يا رسولَ اللّه، إنّي قد أَجَرْتُه.

ثمَّ جلسـتُ إلـى رسـولِ اللّهِ ﷺ، فأخـذتُ برأسِـه، فقلـت: واللّهِ لا يُناجيـهِ اللَّيلـة أحدٌ دونـي.

فلمَّـا أكثـر عمـرُ فـي شـأنه، قلـت: مَهْـلًا يـا عمـر، فـواللّهِ لـو كان مـن رجـالِ بنـي عَـدِيٍّ بـنِ كَعْـبٍ مـا قلـتَ مثـلَ هـذا.

قـال: مَهْـلًا يـا عبّـاس، فـواللّهِ لإسـلامُكَ كان أحبَّ إلـيَّ مـن إسـلامِ الخَطّـاب لـو أسـلم، ومـا بـي إلّا أنّـي قـد علمـتُ أنَّ إسـلامَكَ كان أحـبَّ إلـى رسـولِ اللّهِ ﷺ مـن إسـلامِ الخَطّـاب.

فقـال رسـولُ اللّهِ ﷺ: اذهـبْ بـه يـا عبّـاسُ إلـى رَحْلِـكَ، فـإذا أصبحـتَ فَأْتِنـي بـه.

فذهبـتُ بـه، فلمَّـا أصبحـتُ غَـدَوْتُ بـه إلـى رسـولِ اللّهِ ﷺ، فلمَّـا رآه قـال: وَيْحَـكَ يـا أبـا سـفيان، أَلَـم يَـأْنِ لـك أن تعلـمَ أن لا إلـهَ إلّا اللّه؟

قـال: بأبـي أنـت وأمّـي، مـا أحلمَـكَ وأكرمَـكَ وأوصَلَـكَ! لقـد ظننـتُ أنّـه لـو كان مـع اللّهِ إلـهٌ غيـرُه لقـد أغنـى عنّـي شـيئًا بعدُ.

قال: وَيْحَكَ يا أبا سفيان، أَلَم يَأْنِ لكَ أن تعلمَ أنّي رسولُ اللّه؟

قـال: بأبـي أنـت وأمّـي، مـا أحلمَـكَ وأكرمَـكَ وأوصلَـكَ، أمّـا هـذه فـإنّ فـي النفـسِ حتّـى الآن منهـا شـيئًا.

فقال له العبّاس: وَيْحَكَ! أَسلِم، واشهد أن لا إلهَ إلّا اللّه، وأنّ محمَّدا رسولُ اللّه، قبل أن تُضرَبَ عُنُقُك.

فأسلم، وشهد شهادةَ الحقّ.

قال العبّاس: يا رسولَ اللّه، إنّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفخرَ، فاجعلْ له شيئًا.

قال: نعم. مَن دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن، ومَن أغلق عليه بابَه فهو آمن، ومَن دخل المسجدَ الحرام فهو آمن.

وفي صباحِ يومِ الأربعاء للسَّابعِ عشرَ من شهرِ رمضانَ، غادر رسولُ اللّهِ ﷺ مرَّ الظَّهْران إلى مكَّة، وأمر العبّاس أن يَحبِسَ أبا سفيان بمضيقِ الوادي عند خَطْمِ الجبل حتَّى تمرَّ به جنودُ اللّه فيراها، ففعل. فمرّت القبائلُ على راياتِها، كلَّما مرّت به قبيلةٌ قال: يا عبّاس، من هذه؟

فيقول: سُليم.

فيقول: ما لي ولسُليم؟

ثمَّ تمرّ قبيلةٌ فيقول: يا عبّاس، من هؤلاء؟

فيقول: مُزَيْنة.

فيقول: ما لي ولمُزَيْنة؟

حتَّى نَفِدَتِ القبائل، ما تمرّ به قبيلةٌ إلّا سأل العبّاس عنها، فإذا أخبره قال: ما لي ولبني فُلان؟

حتَّى مرَّ به رسولُ اللّه ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى منهم إلّا الحَدَقُ من الحديد، فقال أبو سفيان من دهشته: سبحانَ اللّهِ يا عبّاس، من هؤلاء؟

قال: هذا رسولُ اللّهِ ﷺ في المهاجرين والأنصار.

قال: ما لأحدٍ بهؤلاءِ قِبَلٌ ولا طاقة!

ثمَّ قال: واللّهِ يا أبا الفضل لقد أصبح ابنُ أخيك اليوم عظيمًا.

فقال العبّاس: يا أبا سفيان، إنها النبوّة.

قال: فنِعْم إذن.

وكانت رايةُ الأنصار مع سعدِ بنِ عُبادة، فلمَّا مرَّ بأبي سفيان قال: اليومُ يومُ المَلْحَمَة، اليومُ تُستَحَلُّ الحُرْمَة، اليومَ أذلَّ اللّهُ قريشًا!

فلمَّا حاذى رسولُ اللّهِ ﷺ أبا سفيان قال الأخير: يا رسولَ اللّه، ألم تَسمع ما قال سعد؟

قال: وما قال؟

فأخبره.

فقال عثمَّان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسولَ اللّه، ما نأمن أن يكون له في قريشٍ صَوْلَة.

فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: بل اليومَ يومٌ تُعَظَّمُ فيه الكعبة، اليومَ يومٌ أعزَّ اللّهُ فيه قريشًا!

ثمَّ أرسل إلى سعد، فنزع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد.

ولمّا مرّ رسولُ اللّهِ ﷺ بأبي سفيان، قال له العبّاس: النَّجاءَ إلى قومِك!

فأسرع أبو سفيان حتَّى دخل مكَّة، وصرخ بأعلى صوته: يا معشرَ قريش، هذا محمَّد، قد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به، فمَن دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن!

فقامت إليه زوجته هندُ بنتُ عُتْبَة، فأخذت بشاربيه وقالت: اقتُلوا الحَميتَ الدَّسَمَ الأَخْمَشَ الساقين! قُبِّحَ من طليعةِ قوم!

فقال أبو سفيان: ويلَكم! لا يَغُرَّنَّكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به! فمَن دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن.

فقالوا ساخرين: قاتلك اللّٰه! وما تُغني عنك دارُك؟

فقال: ومن أغلقَ عليه بابَه فهو آمن، ومن دخل المسجدَ فهو آمن.

فتفرّق النَّاس إلى دورِهم وإلى المسجد، وبَشَوْا أوباشًا لهم، قالوا: نقدّمُ هؤلاء، فإن كان لقريشٍ شيءٌ كنا معهم، وإن أُصيبوا أعطينا الذي سُئِلْنا.

فتجمّع سُفَهاءُ قريشٍ وأَخِفّاؤها مع عِكرمةَ بنِ أبي جهل، وصَفوانَ بنِ أميّة، وسُهيلِ بنِ عمرو بالخَندمةِ ليقاتلوا المسلمين.

وكان فيهم رجلٌ من بني بُكير اسمه حَمّاسُ بنُ قيس، كان يُعِدُّ قبل ذلك سلاحًا، فقالت له امرأتُه: لِماذا تُعِدُّ ما أرى؟

قال: لمحمَّد وأصحابه.

قالت: واللّٰهِ ما يقومُ لمحمَّد وأصحابه شيءٌ!

قال: إنّي واللّٰهِ لأرجو أن أَخْدِمَكِ بعضَهم.

فكان هذا الرجلُ فيمَن اجتمعوا في الخَندمة.

أمّا رسولُ اللّهِ ﷺ فمضى حتَّى انتهى إلى ذِي طُوَى، وكان يضعُ رأسَهُ تواضعًا للّهِ حين رأى ما أكرمَ اللّهُ به من الفتح، حتَّى إنَّ شَعْرَ لحيته ليكادُ يمسُّ واسطةَ الرَّحْل، وهناك وزّع جيشَه.

وكان خالدُ بنُ الوليد على المَجَنَّبَةِ اليُمنى، وفيها: أَسْلَمُ، وسُليم، وغِفار، ومُزَيْنة، وجُهَيْنة، وقبائل من قبائل العرب، فأمره أن يدخل مكَّة من أسفلِها، وقال: إنْ عَرَضَ لكم أحدٌ من قريشٍ فاحصُدوه حَصْدًا، حتَّى تُوافوني على الصَّفا!

وكان الزُّبيرُ بنُ العوّام على المَجَنَّبَةِ اليُسرى، ومعه رايةُ رسولِ اللّهِ ﷺ، فأمره أن يدخل مكَّة من أعلاها، من كُداء، وأن يَغرِزَ رايتَه بالحَجُون، ولا يبرح حتَّى يأتيه.

وكان أبو عبيدةَ على الرَّجّالةِ والحُسَر الذين لا سلاحَ معهم، فأمره أن يأخذ بطنَ الوادي حتَّى يَنصِبَ لمكَّة بين يدي رسولِ اللّهِ ﷺ.

وتحرّكت كلُّ كتيبةٍ من الجيش الإسلامي على الطريق التي كُلِّفَت الدخولَ منها.

فأمّا خالدٌ وأصحابُه، فلم يلقَهم أحدٌ من المشركين إلّا أَناموه، وقُتِلَ من أصحابِه من المسلمين كُرْزُ بنُ جابرٍ الفِهْريّ وخُنَيْسُ بنُ خالدِ بنِ ربيعة، كانا قد شذّا عن الجيش، فسلكا طريقًا غيرَ طريقِه فَقُتِلا جميعًا، وأمّا سُفَهاءُ قريشٍ فلقِيَهم خالدٌ وأصحابُه بالخَندمةِ، فَناوَشوهم شيئًا من قتال، فأصابوا من المشركين اثنَي

عَشَـرَ رجـلًا، فانهـزم المشـركون، وانهـزم حَمّـاسُ بـنُ قيـس الـذي كان يُعِـدُّ السِّـلاح لقتـال المسـلمين حتَّـى دخـل بيتَـه، فقـال لامرأتِـه: أغلِقـي علـيَّ بابـي.

فقالت: وأين ما كنتَ تقول؟

وأقبـل خالـدٌ يجـوسُ مكَّـة، حتَّـى وافـى رسـولَ اللّهِ ﷺ علـى الصَّفـا.

وأمّـا الزُّبيـرُ فتقـدّم حتَّـى نصَـبَ رايـةَ رسـولِ اللّهِ ﷺ بالحَجُـون عنـد مسـجدِ الفتـح، وضـرب لـه هنـاك قُبّـة، فلـم يبـرح حتَّـى جـاءه رسـولُ اللّهِ ﷺ.

ثـمَّ نهض رسـولُ اللّهِ ﷺ، والمهاجـرون والأنصـارُ بيـن يديـه وخلفَه وحولَـه، حتَّـى دخـل المسـجد، فأقبـل إلـى الحَجَـرِ الأسـود، فاسـتلَمَه، ثـمَّ طـاف بالبيـت، وفـي يـده قَـوس، وحـول البيـت، وعليـه ثلاثمَّـائـةٍ وسـتّونَ صَنمًـا، فجعـل يطعنهـا بالقـوس، ويقـول:

﴿جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقًا﴾

﴿جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ﴾

والأصنامُ تتساقط على وجوهِها.

وكان طوافُـه علـى راحلتـه، ولـم يكـن مُحرِمًـا يومئـذٍ، فاقتصـر علـى الطواف.

فلمَّـا أكملـه دعـا عثمَـان بـنَ طلحـة، فأخـذ منـه مفتـاحَ الكعبـة، فأمـر بهـا ففُتحـت، فدخلهـا، فـرأى فيهـا الصُّـوَر، ورأى فيهـا صـورةَ

إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام يَستقسِمان بالأزلام، فقال: قاتلهم اللّه، واللّهِ ما استقسما بها قطّ!

ورأى في الكعبة حمامةً من عيدان، فكسرها بيده، وأمر بالصور فمُحِيَت.

ثمَّ أُغلِق عليه الباب، وعلى أسامةَ وبِلالٍ، فاستقبل الجدارَ الذي يُقابل الباب، حتَّى إذا كان بينه وبينه ثلاثةَ أذرعٍ وقف، ثمَّ صلى هناك، ثمَّ دار في البيت، وكبر في نواحيه، ووحّد اللّه، ثمَّ فتح الباب، وقريش قد َلأَتِ المسجدَ صفوفًا ينتظرون: ماذا يَصنع؟

فأخذ بعضادتي الباب، وهم تحته، فقال: لا إلهَ إلّا اللّهُ وحدَه، لا شريكَ له، صَدَقَ وعدَه، ونَصَرَ عبدَه، وهَزَمَ الأحزابَ وحدَه.

ألا كلُّ مَأثُرةٍ أو مالٍ أو دمٍ فهو تحتَ قدَمَيَّ هاتَين، إلّا سِدانةَ البيتِ وسِقايةَ الحاجّ.

ألا وقَتيلُ الخَطأ شِبهُ العمد، السَّوْطُ والعَصا، ففيه الدِّيَةُ مُغَلَّظَة، مائةٌ من الإبل، أربعون منها في بُطونها أولادُها.

يا معشرَ قريش، إنَّ اللّه قد أذهَبَ عنكم نَخْوَةَ الجاهليّةِ وتَعَظُّمَها بالآباء. النَّاس من آدم، وآدمُ من تُراب!

ثمَّ قال: يا معشرَ قريش، ما ترون أنّي فاعلٌ بكم؟

قالوا: خيرًا، أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم.

قال: فإني أقولُ لكم كما قال يوسفُ لإخوته: "لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ"

اذهبوا فأنتمُ الطُّلَقاء!

ثـمَّ جلـس رسـولُ اللّهِ ﷺ فـي المسـجد، فقـام إليـه العبَّـاسُ، ومفتـاحُ الكعبـة فـي يـدِه، فقـال: يـا رسـولَ اللّه، اجمـعْ لنـا الحِجابـة مـع السِّـقاية، صلّـى اللّه عليـك.

فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: أين عثمَان بنُ طلحة؟

فدُعـي لـه، فقـال لـه: هـاكَ مفتاحَـك يـا عثمَـان، اليـومَ يـومُ بَـرٍّ ووَفـاء! خُذوهـا خالـدةً تالـدةً، لا يَنزِعُهـا منكـم إلّا ظالـم. يـا عثمَـان، إنّ اللّه اسـتأمنَكم علـى بيتِـه، فكُلـوا ممّـا يصـلُ إليكـم مـن هـذا البيـتِ بالمعـروف!

وحانـت الصَّـلاة، فأمـر رسـولُ اللّهِ ﷺ بـلالًا أن يَصعَـد فيُـؤذِّن علـى الكعبـة.

وكان أبـو سـفيان بـنُ حـرب، وعِتـابُ بـنُ أُسَـيد، والحـارثُ بـنُ هشـام جُلوسًـا بفِنـاء الكعبـة.

فقـال عِتـاب: لقـد أكـرمَ اللّه أُسَـيدًا ألا يكـونَ سَـمِعَ هـذا، فيسـمع منـه مـا يُغِيظُـه.

فقال الحارث: أمَا واللّهِ لو أعلَمُ أنه حقٌّ لاتَّبَعْتُه.

فقـال أبـو سـفيان: أمّـا واللّهِ لا أقـولُ شـيئًا، لـو تكلّمـتُ لأخبـرتْ عنّـي هـذه الحَصْبـاء.

فخرج عليهم النبيُّ ﷺ فقال لهم: قد عَلِمتُ الذي قُلتم!

ثمَّ ذَكَر ذلك لهم.

فقـال الحـارثُ وعتّـاب: نَشـهَدُ أنـك رسـولُ اللّه، واللّهِ مـا اطّلَـعَ علـى هـذا أحـدٌ كان معنـا فنقـول: أخبـرَك.

ودخل رسولُ اللّهِ ﷺ يومئذٍ دارَ أمِّ هانئٍ بنتِ أبي طالب، فاغتسل وصلّى ثمَّاني ركعاتٍ في بيتها، وكان ضُحى، فظنّها مَن ظنّها صلاةَ الضُّحى، وإنما هذه صلاةُ الفتح.

وأجارت أمُّ هانئ حَمَوَيْنِ لها، فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: قد أجرْنا مَن أجرتِ يا أمَّ هانئ!

وقد كان أخوها عليّ بنُ أبي طالب أراد أن يقتلهما، فأغلقت عليهما بابَ بيتها، وسألتِ النبيَّ ﷺ فأعطاها الأمانَ لهما.

وأهدر رسولُ اللّهِ ﷺ يومئذٍ دماءَ تِسعةِ نفرٍ من أكابرِ المجرمين، وأمر بقتلهم وإن وُجِدوا تحت أستارِ الكعبة، وهم: عبدُ العُزّى بنُ خَطَل، وعبدُ اللّهِ بنُ أبي سَرْح، وعِكرمةُ بنُ أبي جهل، والحارثُ بنُ نُفَيْلِ بنِ وَهْب، ومَقِيسُ بنُ صُبابَة، وهَبّارُ بنُ الأسود، وقِينَتان كانتا لابنِ خَطَلٍ تغنّيان بهِجاءِ النبيِّ ﷺ، وسارةُ مولاةٌ لبعضِ بني عبدِ المُطَّلب، وهي التي وُجِد معها كتابُ حاطب.

فأمّا ابنُ أبي سَرْح، فجاء به عثمَان إلى النبيِّ ﷺ، فشفَع فيه، فحَقَنَ دمَه وقَبِل إسلامَه، بعد أن أمسك عنه، رجاءَ أن يقومَ إليه بعضُ الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر، ثمَّ ارتدّ ورجع إلى مكَّة.

وأمّا عِكرمةُ بنُ أبي جهل، ففرَّ إلى اليمن، فاستأمنت له امرأتُه، فأمنه النبيُّ ﷺ، فتَبِعَتْه فرجع معها، وأسلم، وحَسُن إسلامه.

وأمّا ابنُ خَطَل، فكان متعلِّقًا بأستارِ الكعبة، فجاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فأخبره، فقال: اقتلوه! فقتلوه.

وأمّا مَقِيسُ بنُ صُبابَة، فقتله نُمَيْلَةُ بنُ عبدِ اللّه، وكان قد أسلم قبل ذلك، ثمَّ عدا على رجلٍ من الأنصار فقتله، ثمَّ ارتدّ، ولحق بالمشركين.

وأمّا الحارث، فكان شديدَ الأذى لرسولِ اللّهِ ﷺ بمكَّة، فقتله عليٌّ.

وأمّا هَبّارُ بنُ الأسود، فهو الذي كان قد عرَضَ لزينبَ بنتِ رسولِ اللّه ﷺ حين هاجرت، فَنَخَسَ بها حتَّى سقطت على صخرةٍ وأسقطت جنينَها، ففرَّ هَبّارُ يومَ مكَّة، ثمَّ أسلم وحَسُن إسلامه.

وأمّا القَيْنَتان فَقُتِلَت إحداهما، واستُؤمِنَ للأخرى فأسلمت، كما استُؤمِنَ لسارة فأسلمت.

ولمّا كان الغدُ من يومِ الفتح، قام رسولُ اللّه ﷺ في النَّاس خطيبًا، فحَمِد اللّهَ، وأثنى عليه، ومَجَّدَه بما هو أهلُه، ثمَّ قال: أيها النَّاس، إنّ اللّهَ حرّم مكَّة يومَ خلق السمواتِ والأرض، فهي حرامٌ بحرمةِ اللّه إلى يومِ القيامة.

فلا يَحِلُّ لأمرئٍ يؤمنُ باللّه واليومِ الآخرِ أن يَسفِكَ فيها دمًا، أو يَعضُدَ بها شجرة.

فإن أحدٌ تَرَخَّصَ لقتالِ رسولِ اللّه ﷺ فقولوا: إنّ اللّهَ أذِنَ لرسوله ولم يأذنْ لكم.

وإنما حَلَّتْ لي ساعةً من نهار.

وقد عادت حرمتُها اليومَ كحرمتِها بالأمس.

فليُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ!

ولمّا تمَّ فتحُ مكَّة على رسولِ اللّه ﷺ، وهي بلدُه ووطنُه ومولِدُه، قال الأنصار فيما بينهم:

أتـرَونَ رسولَ اللّهِ ﷺ إذا فتح اللّهُ عليه أرضَه وبلدَه أن يُقيم بها؟

وكان ﷺ يدعو على الصَّفا رافعًا يديه.

فلمَّا فرغ من دعائه قال: ماذا قُلتم؟

قالوا: لا شيء يا رسولَ اللّه.

فلم يزل بهم حتَّى أخبروه، فقال رسولُ اللّه ﷺ: مَعاذَ اللّه، المَحيا مَحياكم، والمماتُ مَماتُكم!

وحين فتح اللّهُ مكَّة على رسولِ اللّه ﷺ والمسلمين، تبيّن لأهلِ مكَّة الحقّ، وعَلِموا أنّه لا سبيل إلى النجاح إلّا الإسلام، فأذعنوا له، واجتمعوا للبيعة.

فجلس رسولُ اللّهِ ﷺ على الصَّفا يُبايع النَّاس، وعمرُ بنُ الخطّاب أسفلَ منه يأخذ على النَّاس، فبايعوه على السَّمع والطاعة فيما استطاعوا.

فجاءت هندُ بنتُ عُتبة، امرأةُ أبي سفيان، مُتنكّرةً خوفًا من رسولِ اللّه ﷺ أن يعرِفَها، لما صنعتْ بِحَمزة.

فقال رسولُ اللّه ﷺ: أُبايِعُكُنَّ على ألّا تُشرِكْنَ باللّه شيئًا!

فبايع عمرُ النساءَ على ألّا يُشرِكن باللّهِ شيئًا.

فقال رسولُ اللّه ﷺ: ولا تَسرِقن!

فقالت هند: إنّ أبا سفيان رجلٌ شحيح، فإن أنا أصبتُ من مالِه هَناتٍ؟

فقال أبو سفيان: وما أصبتِ فهو لكِ حلال.

فضحك رسولُ اللّه ﷺ، وعَرَفها، فقال: وإنّكِ لهِند؟

قالت: نعم، فاعفُ عمّا سَلَف يا نبيَّ اللّه، عفا اللّهُ عنك.

فقال: ولا يَزْنِينَ!

فقالت: أو تَزني الحُرّة؟

فقال: ولا يَقتُلْنَ أولادَهُنَّ!

فقالت: ربَّيْناهُم صِغارًا، وقَتَلْتموهُم كِبارًا، فأنتم وهم أعلم.

وكان ابنُها حَنظلةُ بنُ أبي سفيان قد قُتل يوم بدر، فضحكَ عمر حتَّى استلقى، فتبسّم رسولُ اللّه ﷺ.

فقال: ولا يَأتِينَ ببُهتان!

فقالت: واللّهِ إنَّ البُهتانَ لأمرٌ قبيح، وما تأمرُنا إلّا بالرُّشدِ ومكارمِ الأخلاق.

فقال: ولا يعصينَ في معروف.

فقالت: واللّهِ ما جلسنا مجلسَنا هذا وفي أنفسِنا أن نَعْصِيَك.

ولمّا رجعت جعلتْ تَكسِرُ صنمَها وتقول: كُنّا منكَ في غُرور.

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروسِ المُستفادة من فتحِ مكَّة:

1 ـ أنَّ العهودَ ميثاقُ شرفٍ، فنقضُ قريشٍ للعهد لم يكن مجرّد خطأ سياسي، بل سقوطٌ أخلاقيّ أزال عنهم آخر ما يمكن أن يُعتذر به. وجاء الفتحُ ليبيّن أنَّ الأمم تُمحى قيمتُها يوم تخون عهدها، وأنَّ الوفاء أساسُ قيامِ المجتمعات المُستقرّة.

2 ـ أنَّ حمايةَ المظلومِ واجبٌ شرعيّ، فلم يترك النبيُّ ﷺ خُزاعةَ تستغيث عبثاً، بل جعل نصرتَهم واجباً دينيّاً وسياسيّاً. وفي هذا تعليمٌ بأنَّ قوّةَ الدولة تُقاس بقدرتها على نصرة المقهورين وردّ الظُّلمِ عنهم.

3 ـ حكمةُ السِّرّيةِ في التخطيط، إخفاءُ النبيِّ ﷺ للوجهة حتَّى عن بعض خاصّته كان صمّامَ أمانٍ للخطة كلّها. فالنصرُ يحتاج إلى إعدادِ الظاهرِ والباطن، وإلى ثقةٍ تامّة بأنَّ السِّرَّ كالسيف، إنِ انكشفَ انكَسَر.

4 ـ أنَّ ضبطَ الجبهة الداخليّة جزءٌ من النصر، حادثةُ حاطبٍ لم تُهمَل، بل وُضِعت في ميزانِ العدلِ والتحقيق، مع فهم للنيّات والظروف. فالدولةُ الراشدة لا تُحاكمُ النَّاس بالشبهات، ولا تتركُ الثَّغَراتِ مفتوحة.

5 ـ أنَّ القيادةَ لا تتردّد عند ساعة القرار، لمّا تبيّن نقضُ العهد، لم يتردّد النبيُّ ﷺ لحظةً في إعداد الجيش. فالتردّدُ في لحظاتِ المصير يهدمُ الجيوش قبل أن تلتقي بالسيوف.

6 ـ أنَّ النصرَ يبدأ من الإيمان، كان دعاءُ النبيِّ ﷺ بإخفاء الأخبار عن قريش عملاً إيمانيّاً بقدر ما هو عسكري. فالنصرُ هِبةٌ من السَّماء قبل أن يكون خطوةً من الأرض.

7 ـ أنَّ الفتحَ الحقيقيَّ يسبقُه فتحُ القلوب، إسلامُ العبّاس ثمَّ أبي سفيان قبل دخولِ مكَّة كان إيذاناً بأنَّ القلوبَ بدأت تلينُ للحق. فالهدايةُ أعظمُ من الغلبة، والفتحُ الأعظم هو فتحُ النفوس.

8 ـ أنَّ الهيبةَ جزءٌ من النصر، رؤيةُ أبي سفيان للكتائب تمرّ أمامه كتلةً واحدة زرعت في قلبه اليقين بأنَّ المقاومة عبث. فالهيبةُ سلاحٌ صامتٌ يُنجز ما لا تُنجزه السيوف.

9 ـ أنَّ العفوَ يهزمُ قلوباً ما هزمتها السيوف، جملة اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء لم تكن إعفاءً فقط، بل نقطةَ تحوّلٍ تاريخيّة. فقد وُلدت بها أمّةٌ جديدة، وذابت بها نارُ الانتقام من صدور المهزومين.

10 ـ أنَّ الفتحَ بلا قتالٍ أكرمُ من الفتح بالسِّلاح، دخولُ مكَّة بلا دماء تقريباً كان نصراً من طرازٍ خاص. ففيه بيانٌ أنَّ الهدف ليس الهدم، بل إصلاحٌ يفتح صفحةً جديدة مع التاريخ.

11 ـ أنَّ تكسيرَ الأصنام يبدأ بتكسير الأوهام، سقوطُ ثلاثمَّائةٍ وستّين صنماً كان سقوطاً للأفكارِ التي كبّلت العقول. فالأصنامُ ليست حجارةً فقط، بل تصوّراتٌ فاسدة تحتاجُ شجاعةً لتحطيمها.

12 ـ أنَّ الشجاعةَ ليست قتلاً، بل قدرةٌ على كظم الغيظ، العفوُ عن المؤذين مع القدرةِ على القصاص درسٌ في ضبطِ النفس. فالقوّةُ الحقيقيّة هي أن تملك العقوبة ثمَّ تختار الصفح.

13 ـ أنَّ الكعبةَ لها أهلُها، إعادةُ المفتاح إلى بني شيبة رغم تغيّر الظروف احترامٌ للحقوقِ التاريخيّة. وجملة خالدة تالدة إعلانٌ لثباتِ العدل فوق المصالح السياسيّة.

14 ـ أنَّ رفعَ بلالٍ للأذان انتصارٌ للإنسان، كان الأذانُ من فوق الكعبة لحظةَ انتصارٍ للفقراء والمقهورين. فالإسلامُ يرفعُ من قدر المرء بما يحملُه لا بما يملك.

15 ـ أنَّ المجرمين الكبار لا يُعفى عنهم باسم التسامح، إهدارُ دماءِ كبار المجرمين رغم العفو العام رسالةٌ بأنَّ الجرائمَ الكبرى لا تُغتفر. فالتسامحُ لا يعني الإفلاتَ من العقاب.

16 ـ أنَّ الرحمةَ لا تُلغي العدل، العفوُ كان واسعاً، لكن الحدودَ بقيت كما هي. فالرحمةُ إطارٌ، والعدلُ أساس.

17 ـ أنَّ اختلافَ النفوس طبيعيّ في الأزمات، خوفُ الأنصار من بقاء النبيِّ ﷺ بمكَّة لم يكن جحوداً، بل بشريّةً صادقة. فجاء الردّ النبويّ ليحتضن قلوبهم.

18 ـ أنَّ القيادة تُسكِنُ القلوب بكلمةٍ واحدة، قوله ﷺ المحيا محياكم أنهى حيرةً كانت تكبرُ في الصدور. فالكلمةُ العادلةُ تعدلُ جيشاً في أثرها.

19 ـ أنَّ الحلمَ فوق الغضب منهجٌ نبويّ، عفا النبيُّ ﷺ عمّن آذَوه وهو قادرٌ على الانتقام. وهذا ذروةُ السموّ الأخلاقي.

20 ـ أنَّ الدولة القويّة لا تُصادر التاريخ، لم ينتزع النبيُّ ﷺ السدانةَ والسقاية ليُكرِّم نفسه، بل أعادها لأهلها. فالسّلطةُ ليست فرصةً للغنيمة.

21 ـ أنَّ الضعيفَ قد يصبح قويّاً بالإيمان، كان بلالٌ عبداً بالأمس، فإذا هو فوق الكعبة اليوم. فالإيمانُ بابُ الارتقاء الحقيقي.

22ـ أنَّ زوالَ الجاهليّة يعني زوالَ العصبيّة، تحويلُ معيارِ الشرفِ إلى التقوى بدلاً من النسب تغييرٌ جذريّ للعقل العربي.

23 ـ أنَّ النجاح لا يكون إلا بوحدة الصفّ، تحركُ عشرة آلاف رجل كأنهم جسدٌ واحد أعطى الفتح قوّته ورهبته. فالوحدةُ روحُ النصر.

24 ـ أنَّ الدولة الإسلامية دولةُ عهودٍ لا انتقام، لم يُقتل أحدٌ لأنّه مشرك، بل فقط أصحابُ الجرائم المحدّدة. وهذا ميزانٌ يُعلي قيمة العدالة.

25 ـ أنَّ المهابة ليست قسوة، بل مهابةُ الحقّ، الكتيبةُ الخضراء كانت رمزَ قوّة، لكنّها لم تكن قمعاً، بل جيشاً يفتحُ القلوب قبل الدور.

26 ـ أنَّ العودةَ إلى الوطن ليست انتصاراً للمكان، لم يجعل النبيُّ ﷺ مكَّة عاصمةً رغم أنّها أحبُّ البلاد إليه. فالرسالةُ فوق العاطفة.

27 ـ أنَّ القيادة حين تتواضع ترتفع، دخل النبيُّ ﷺ مكَّة مطأطئَ الرأس، فكان تواضعُه فتحاً آخرَ للقلوب.

28 ـ أنَّ إصلاحَ المجتمع يبدأ بإصلاح المرأة، بيعةُ النساء كانت مشروعاً لإعادة بناء الضمير الأسريّ والاجتماعيّ.

29 ـ أنَّ الإسلام مشروعُ أخلاقٍ لا مجرّد طقوس، بُنودُ البيعة كلّها أخلاقيّة قبل أن تكون عبادية. فالأخلاقُ روحُ الدين.

30 ـ أنَّ فتحَ مكَّة النموذجُ الخالد للفتحِ النظيف، فتحٌ لا دماءَ فيه إلا بحق، ولا إذلالَ فيه لأحد. فتحٌ يُعيدُ النَّاس إلى اللّه قبل أن يُعيدَ الأرضَ إلى أهلها.

غَزْوَةُ حُنَين!
إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ!

فـي الصَّبـاحِ الـذي أعقَبَ فتحَ مكَّة، كانتِ الجزيـرةُ العربيّـةُ كلُّها تُصغـي لنبضِ خُطـوةٍ واحـدة؛ خُطـوةِ محمَّد ﷺ وهـو يطـوي صفحـةَ الجاهليَّـةِ ليكتـبَ مجـدَ الرِّسـالةِ فـي السُّـطورِ الأخيـرةِ مـن أرضِ الحَـرَمِ. وبينمـا انطفـأت نـارُ قريـشٍ، كانـت شَـرارةُ هَـوازِن وثَقيـف تتَّقِـدُ، تأبـى أن تـرى سُـلطانَ الإسـلامِ يمتـدُّ إلـى ديارِهـا بـلا نِـزالٍ.

خرجـت هَـوازِن وثَقيـف طَوْعًـا للقتـال، لا دِفاعًـا عـن دارٍ، بـل ظنًّـا أنَّهـم قـادرون علـى ردِّ موجـةِ التَّوحيـدِ قبـل أن تكتمـل. جَمَعـوا السِّـلاح والرِّجـالَ، واصطحبـوا معهـم النِّسـاءَ والـذَّراريَّ والأمـوالَ، ليُعلنـوا أنَّ المعركـةَ ليسـت معركـةَ أرضٍ فحسـب، بـل معركـةَ بقـاءٍ لكِبريـاءِ القبيلـةِ.

وفـي المقابـل، كان جيـشُ المسـلمينَ فـي ذلـك اليـومِ أعظـمَ مـا كان عـددًا، اثنَـي عَشَـرَ ألفًـا؛ فقـال قائـلٌ منهـم، ونَطقـت بـه بعـضُ النُّفـوسِ: «لَـنْ نُغْلَـبَ اليـومَ مِـن قِلّـةٍ». لتظهـرَ الفتنـةُ الأولـى فـي تاريـخِ التَّمكيـنِ: غَفلـةُ النَّصـرِ حيـن يركـنُ القلـبُ إلـى الكثـرةِ، ويَنسـى أنَّ النَّصـرَ لا يُكتـبُ علـى أطـرافِ السُّـيوفِ، بـل علـى صفحـاتِ القلـوبِ.

ثـمَّ كان الامتحـانُ، فمـا إن دخـل المسـلمون وادي حُنيـنٍ بيـن الجبالِ، حتَّـى انطلقت عليهـم السِّـهامُ مِـن كلِّ شِـعبٍ، فارتـدَّ الجيـشُ فـي لحظـةٍ خاطفـةٍ، وتـرَكَ الغـرورُ جـدارًا هشًّـا لا يُسـنِدُ صَفًّـا ولا يَنصـرُ حقًّـا.

هنالـك تقـدَّم النَّبـيُّ ﷺ وحـده فـي قلـبِ العاصفـة، ظَهـرُهُ إلـى الأعداءِ لا يَنثنـي، وثباتُـه كأنَّـه جَبَلٌ يُجاهِـدُ الرِّيـحَ، يُنـادي فـي أَحْلَكِ اللَّحظـاتِ: «أنـا النَّبـيُّ لا كَذِب، أنـا ابـنُ عبـدِ المُطَّلِـب».

ففي تلك الصَّيحةِ انكسرتِ الهزيمةُ قبل أن تَنكسِرَ السُّيوفُ.

فعـاد الجيـشُ إلـى يقظتـه، وظهـر أنَّ اليقيـنَ إذا نَهَـضَ نَهَضَـت معـه الأرضُ والسَّـماء، حتَّـى تَحـوَّل الاضطـرابُ إلـى فَتـحٍ، وتحـوَّلَـتِ العِبـرةُ إلـى عِـزَّةٍ، وتحـوَّل وادي حُنيـنٍ مِـن فَـزَعٍ مُباغَـتٍ إلـى نَصـرٍ مُبيـنٍ!

هـذه كانـتْ حِكايـةُ غَـزوةِ حُنيـنٍ بعناوينهـا العريضـةِ، أمَّـا تفاصيلهـا فكمـا يلـي:

سـقطت قُرَيـشٌ بالضَّربـةِ القاضيـةِ يـومَ الفتـحِ، وكسـر النَّبـيُّ ﷺ أصنـامَ الجاهليّـةِ، وحيـن كان مـن المُفتـرضِ أن تُذعِـنَ هَـوازِنُ وثَقيـفُ ومَـن معهمـا، وهـم يـرونَ أنَّـه لا خيـرَ فـي دينِهـم، ولا آلهتِهـم التـي لـم تسـتطع أن تدفـعَ عـن نفسـها، ولا عـن قُرَيـش!

قـامَ الجمـعُ تُحـرِّكُـهُ حَمِيَّـةُ الجاهليّـةِ، وشـكّلوا جيشًـا كبيـرًا، وجعلوا علـى رأسِـهِ مالـكَ بـنَ عـوفٍ، ومضَـوا إلـى قتـالِ المسـلمينَ!

سارَ مالكُ بنُ عوفٍ إلى حربِ المسلمينَ، وساقَ معَ النَّاس أموالَهم ونِساءَهم وأبناءَهم، حتَّى نزلَ بأوطاسَ، وهو وادٍ قريبٌ من حُنينٍ حيثُ دارت رَحى المعركةِ! فاجتمعَ إليه النَّاس، وفيهم دُريدُ بنُ الصِّمّةِ، وهو شيخٌ كبيرٌ ليسَ فيه إلّا رأيُهُ ومعرفتُهُ بالحربِ، وكان شجاعًا مُجرَّبًا. فقال دُريدٌ: بأيِّ وادٍ أنتم؟

قالوا: بأوطاسَ.

قال: نِعْمَ مجالُ الخيلِ، لا حَزْنٌ ضَرِسٌ، ولا سهلٌ دَهْسٌ. ما لي أسمعُ رُغاءَ البعيرِ، ونُهاقَ الحمارِ، وبكاءَ الصبيِّ، وثُغاءَ الشّاءِ؟

قالوا: ساقَ مالكُ بنُ عوفٍ معَ النَّاس نِساءَهم وأموالَهم وأبناءَهم!

فدعا مالكًا، وسأله عمّا حملهُ على ذلك، فقال: أردتُ أن أجعلَ خلفَ كلِّ رجلٍ أهلَهُ ومالَهُ ليُقاتِلَ عنهم!

فقال: راعي ضأنٍ واللّه! وهل يَرُدُّ المُنهَزِمُ شيئًا؟! إن كانت لك، لم يَنْفَعْكَ إلّا رجلٌ بسيفِه ورُمحِه، وإن كانت عليك، فُضِحْتَ في أهلِكَ ومالِكَ.

ثمَّ سأل عن بعضِ البطونِ والرؤساءِ.

ثمَّ قال: يا مالكَ، إنّكَ لم تَصنَعْ بتقديمِ بيضةِ هَوازِنَ إلى نُحورِ الخيلِ شيئًا. ارفَعْهُم إلى مُمتَنعِ بلادِهم وعَلْياءِ قومِهم، ثمَّ ألْقِ الصِّبْيَةَ على مُتونِ الخيلِ، فإن كانت لك لَحِقَ بك مَنْ وراءَكَ، وإن كانت عليك ألْفاكَ ذلك وقد أحرزتَ أهلَكَ ومالَكَ.

ولكنَّ مالِكًا رفض هذا الطلبَ، وقال: واللّهِ لا أفعلُ! إنَّكَ قد كَبِرْتَ وضاع عقلُكَ! واللّهِ لتُطيعَنِّي هَوازِنُ، أو لأتكِئَنَّ على هذا

السَّيفِ حتَّى يخرجَ من ظهري! وكرِهَ أن يكونَ لدُريدٍ فيها ذِكرٌ أو رأيٌ، فقالوا: أطعناكَ.

فقال دُريدٌ: هذا يومٌ لم أشْهَدْه ولم يَفُتْني!

وجاءت إلى مالكٍ عيونٌ كان قد بعثَهم للاستكشافِ عن المسلمينَ، جاءت هذه العيونُ وقد تفرّقت أوصالُهُم. قال: ويلَكم، ما شأنُكم؟

قالوا: رأينا رجالًا بِيضًا على خيلٍ بُلْقٍ، واللهِ ما تماسَكْنا أن أصابَنا ما ترى!

ونُقلَت الأخبارُ إلى رسولِ الله ﷺ بمسيرِ العدوِّ، فبعثَ أبا حَدْرَدٍ الأسلميَّ، وأمرَه أن يدخلَ في النَّاس، فيقيمَ فيهم حتَّى يَعلمَ علمَهم، ثمَّ يأتيَه بخبرِهم، ففعل.

وخرج رسولُ الله ﷺ في اثنَي عشرَ ألفًا من المسلمينَ؛ عشرةُ آلافٍ ممّن كانوا خرجوا معه لفتحِ مكَّة، وألفان من أهلِ مكَّة، وأكثرُهم حديثو عهدٍ بالإسلام. واستعارَ من صَفْوانَ بنِ أميّةَ مائةَ درعٍ بأداتِها، واستعمَلَ على مكَّة عتّابَ بنَ أُسيدٍ.

ولمّا كان عشيّةً، جاء فارسٌ، فقال: إنّي طلعتُ جبلَ كذا وكذا، فإذا أنا بهَوازنَ على بَكْرَةِ أبيهم بظَعْنِهم ونَعَمِهم وشائِهم!

فابتسم رسولُ الله ﷺ وقال: تلك غنيمةُ المسلمينَ غدًا إن شاءَ اللهُ!

وفـي طريقِهـم إلـى حُنيـنٍ رأَوْا سِـدرةً عظيمـةً خضـراءَ يُقـالُ لهـا: ذاتُ أنـواطٍ، كانـت العـربُ تُعلِّـقُ عليهـا أسـلحتَهم، ويذبَحـون عندَهـا ويعكُفـون. فقـال بعضُ أهـلِ الجيشِ لرسـولِ اللّه ﷺ: اجعلْ لنـا ذاتَ أنـواطٍ، كمـا لهـم أنـواطٌ.

فقـال: اللّه أكبـرُ! قلتـم، والـذي نفـسُ محمَّـد بيـدِه، كمـا قـال قـومُ موسـى: اجعـلْ لنـا إلهًا كمـا لهـم آلهـةٌ! إنّكـم قـومٌ تجهلـون، إنّهـا السُّـنَنُ، لَتَرْكَبُـنَّ سَـنَنَ مـن كان قبلَكـم!

وقد كان بعضُهم قال: لَن نُغلَبَ اليومَ من قِلَّة!

وكان قد شقَّ ذلك على رسولِ اللّه ﷺ.

وصـل الجيـشُ الإسـلاميُّ إلـى حُنيـنٍ، وكان مالـكُ بـنُ عـوفٍ قـد سـبقَهم، فأدخـلَ جيشَـهُ باللَّيـل فـي ذلـك الـوادي، وفَـرَّقَ كُمَنـاءَهُ فـي الطُّـرُقِ والمداخـلِ، والشِّـعابِ والأخبـاءِ والمضايـقِ، وأصـدرَ إليهـم أمـرَه بـأن يرشُـقوا المسـلمينَ أوّلَ مـا طلعـوا، ثـمَّ يشُـدُّوا شَـدَّةَ رجـلٍ واحـدٍ.

وبالسَّـحَرِ عَبَّـأَ رسـولُ اللّه ﷺ جيشَـهُ، وعقـدَ الألويـةَ والرايـاتِ، وفَرَّقَهـا علـى النَّـاس. وفـي عمايـةِ الصبـحِ اسـتقبلَ المسـلمون وادي حُنيـنٍ، وشـرعوا يَنْحـدِرون فيـه، وهـم لا يَـدْرون بوجـودِ كُمَنـاءِ العـدوِّ فـي مضايـقِ هـذا الـوادي. فبينمـا هـم ينحطّـون إذا هـم تُمْطِـرُ عليهـم النِّبـالُ، وإذا كتائـبُ العـدوِّ قـد شـدَّتْ عليهم شَـدَّةَ رجلٍ واحـدٍ، فانشـمرَ المسـلمون راجعيـن، لا يَلْـوِي أحـدٌ علـى أحـدٍ، وكانـت هزيمـةً مُنْكـرةً!

وانحاز رسولُ اللّه ﷺ جهةَ اليمينِ وهو يقول: هَلُمُّوا إليَّ أيُّها النَّاس! أنا رسولُ اللّهِ، أنا محمَّد بن عبدِ اللّهِ!

ولم يَبْقَ معه في موقفِه إلّا عددٌ قليلٌ من المهاجرينَ وأهلِ بيتِه.

وحينئذٍ ظهرتْ شجاعةُ النَّبيِّ ﷺ التي لا نظيرَ لها؛ فقد طَفِقَ يَرْكُزُ بَغْلتَه قبلَ الكفّارِ وهو يقول: أنا النَّبيُّ لا كَذِب، أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِب!

وأخذ أبو سفيانَ بنُ الحارثِ بلِجامِ بَغْلةِ النَّبيِّ ﷺ، والعبّاسُ برِكابِه، يَكُفّانِها أن لا تَسْرَعَ.

ثمَّ نزل رسولُ اللّه ﷺ فاستنصرَ ربَّه قائلًا: اللَّهُمَّ أنزِلْ نصرَكَ!

وأمر رسولُ اللّهِ ﷺ عمَّهُ العبّاسَ، وكان جَهيرَ الصَّوتِ، أن يُنادي الصَّحابةَ!

قال العبّاسُ: فقلتُ بأعلى صوتي: أينَ أصحابُ السَّمُرةِ؟

قال: فواللّهِ لَكَأنَّ عَطَفَتَهُم حينَ سَمِعوا صوتي عَطْفَةَ البقرِ على أولادِها!

فقالوا: يا لبيكَ، يا لبيكَ.

ويذهبُ الرَّجُلُ لِيَثْنِي بعيرَهُ فلا يقدِرُ عليه، فيأخذُ دِرعَهُ فيقذِفُها في عُنُقِه، ويأخذُ سيفَهُ وتُرْسَهُ، ويقتحمُ عن بعيرِه، ويُخلّي سبيلَهُ، فيؤمُّ الصَّوتَ، حتَّى إذا اجتمعَ إليه منهم مائةٌ استقبلوا النَّاس واقتتلوا.

وصُرِفَتِ الدَّعوةُ إلى الأنصارِ: يا معشرَ الأنصارِ، يا معشرَ الأنصارِ، ثمَّ قُصِرَتِ الدَّعوةُ في بني الحارثِ بنِ الخزرجِ، وتلاحقت كتائبُ المسلمينَ واحدةً تلوَ الأخرى ممن كانوا تركوا الموقعةَ.

وتجالدَ الفريقانِ مُجَالدةً شديدةً، ونظر رسولُ اللّهِ ﷺ إلى ساحةِ القتالِ وقد استحرَّ واحتدم، فقال: الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ.

ثمَّ أخذ رسولُ اللّهِ ﷺ قبضةً من ترابِ الأرضِ، فرمى بها في وجوهِ القومِ وقال: شاهَتِ الوجوهُ، فما خلقَ اللّهُ إنسانًا إلّا ملأ عينيهِ ترابًا من تلك القبضةِ، فلم يَزَلْ حَدُّهم كليلًا وأمرُهم مُدبرًا.

وما هي إلّا ساعاتٌ قلائلُ بعدَ رميِ القبضةِ حتَّى انهزم العدوُّ هزيمةً مُنْكَرَةً، وقُتِلَ من ثَقيفٍ وحدَهم نحوَ السَّبعينَ، وحاز المسلمون ما كان مع العدوِّ من مالٍ وسلاحٍ وظَعْنٍ.

ولمّا انهزم العدوُّ صارت طائفةٌ منهم إلى الطَّائف، وطائفةٌ إلى نَخْلَةَ، وطائفةٌ إلى أوطاسَ، فأرسل النبيُّ ﷺ إلى أوطاسَ طائفةً من المطاردينَ يقودهم أبو عامرٍ الأشعريُّ، فَتَنَاوشَ الفريقانِ القتالَ قليلًا، ثمَّ انهزم جيشُ المشركينَ، وفي هذه المناوشةِ قُتِلَ القائدُ أبو عامرٍ الأشعريُّ.

وطاردت طائفةٌ أخرى من فرسانِ المسلمينَ فُلولَ المشركينَ الذين سلكوا نَخْلَةَ، فأدركتْ دُريدَ بنَ الصِّمَّةِ فقتَلَهُ ربيعةُ بنُ رفيعٍ.

وأمّا معظمُ فُلولِ المشركينَ الذين لجؤوا إلى الطَّائف؛ فتوجّهَ إليهم رسولُ اللّهِ ﷺ بنفسِهِ بعدَ أن جمعَ الغنائمَ.

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروسِ المُستفادةِ من غزوةِ حُنين:

1 ـ الغرورُ هو الهزيمةُ قبلَ الهزيمةِ، لقد كان المسلمون يومَ حُنينٍ في ذروةِ القوّةِ، اثنَي عَشَرَ ألفًا لم يجتمع لهم مثلُها من قبلُ، لكنَّ بعضَ القلوبِ تعلَّقت بالكثرةِ، فكان السقوطُ سريعًا ومفاجئًا. يُعلّمنا هذا الدرسُ أنَّ الأمانَ من مكرِ اللّه أخطرُ من الخوفِ من العدوِّ، وأنَّ الغرورَ يُطفِئُ نورَ التَّوفيقِ قبل أن تُرْفَعَ السُّيوفُ.

2 ـ أنَّ النَّصرَ لا يُكتَبُ إلّا بحضورِ القلبِ معَ اللّهِ، لمّا عاد الذِّكرُ إلى القلوبِ، وصحا الإيمانُ من غفلتهِ، تبدَّل المشهدُ من تراجُعٍ مُباغَتٍ إلى نهوضٍ عجيبٍ. وهكذا، لا يَنتصرُ المؤمنُ بعددٍ ولا سلاحٍ، بل بصدقِ توكُّلِه، فمَن انقطع عن قوّةِ السَّماء عَجَزَت عنه قوى الأرضِ.

3 ـ صلابةُ القيادةِ هي آخرُ الحصونِ، حين اضطربَ الصَّفُّ واضطربت النُّفوسُ، بقي النبيُّ ﷺ وحدَه ثابتًا، يُنادي بأعلى صوتِه: «أنا النَّبيُّ لا كَذِب، أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِب» فاطمأنَّ الجنودُ واستعادوا توازُنَهم. القيادةُ التي تثبُت عند العاصفةِ هي التي تحفظُ للأمَّةِ بقيّةَ الرجاءِ، وهي السَّدُّ الأخيرُ قبلَ الهزيمةِ.

4 ـ الابتلاءُ بعدَ النَّصرِ سُنَّةٌ تربويّةٌ، جاءت حُنينٌ بعدَ فتحِ مكَّة مباشرةً، لتزرعَ في قلبِ الأمّةِ أنَّ تمكينَ اللّهِ ليس نهايةَ العملِ، بل

بدايتَه. فالفتنةُ بعدَ النَّصر أشدُّ من الفتنةِ قبلَه، إذ تريدُ النفسُ أن تستريحَ، ويأتي البلاءُ ليصنعَ جيلًا لا يغترُّ ولا يَنكسرُ.

5 ـ أنّ الجيوشَ تُهزَمُ في النُّفوسِ قبلَ أن تُهزَمَ في الساحاتِ، لم يكن تراجعُ المسلمين لقلّةِ سلاحٍ، بل لضعفٍ في القلبِ حين باغتَهم العدوُّ من كلِّ جهةٍ. ومن هنا نتعلّمُ أنَّ أوَّلَ معركةٍ يجبُ أن تُحسَمَ هي معركةُ الداخلِ، فالهزيمةُ حين تُكتَبُ في الوجدانِ تَنسَحبُ على الأقدامِ.

6 ـ أنّ التوبةَ بابٌ مفتوحٌ حتَّى لأعدى الأعداءِ، هَوازِن وثَقيف، اللّتان خرجتا لمُحاربتهِ، عاد خيارُهما إلى الإسلامِ بعدَ الهزيمةِ، فصاروا جنودَ العقيدةِ بدلَ أن يبقَوا أعداءَها. هكذا يفتحُ اللّه للناسِ بابًا إذا رأوا الحقَّ رأيَ العينِ، فلا يُغلَقُ بابُ العودةِ ما دام في القلبِ نَبضٌ يَقِظٌ.

7 ـ أنّ القيادةَ الراشدةَ تُعيدُ ترتيبَ الصفوفِ قبلَ الانتقامِ، لم يَنشغِلِ النبيُّ ﷺ بلَومِ المُنهَزمين وهم ما زالوا في حمّى الصَّدمةِ، بل جَمَعَهم، وأعاد توجيهَهم، حتَّى عادوا إلى القتالِ وانتصروا. فالقائدُ الحكيمُ لا يُحاسِبُ في لحظةِ الانهيارِ، بل يُصلحُ النُّفوسَ أوّلًا، ثمَّ يُقوِّمُ الأخطاءَ بعد عبورِ الخطرِ.

8 ـ أنّ الشدائدَ تصنعُ رجالَها، في وسطِ الاضطرابِ برز الأبطالُ، وانكشفَ المعدنُ الأصيلُ من الزائفِ؛ فبانَ الشجاعُ الذي يثبُتُ، والضَّعيفُ الذي ينهزمُ، والمُنافِقُ الذي يَفرُّ. والشَّدائدُ محكٌّ تكشفُ حقائقَ الرجالِ، وتكتبُ أسماءَهم في صحائفِ التاريخِ.

9 ـ أنّ الأمنَ مِن مكرِ اللّهِ أخطرُ مِن الخوفِ مِن العدوِّ، انشغَلَ بعضُ المسلمين يومَ حُنينٍ بالنَّصرِ المتوقّعِ أكثرَ من انشغالِهم باللّهِ، فكان الدرسُ الإلهيُّ صارخًا: لا تأمَنْ طريقَك وإن رأيتَ الفتحَ قريبًا، فإنَّ لحظةَ الاطمئنانِ المُفرطِ قد تكونُ أوّلَ خطوةٍ في الهاويةِ.

10 ـ أنّ اللّه يُعلِّم الأمَم بالهزيمةِ كما يُعلِّمُها بالنَّصرِ، لو انتصر المسلمون من اللَّحظةِ الأولى لَما شعروا بالخطرِ، ولَما تعلّموا أنَّ القوّةَ قد تتحوَّلُ إلى ضَعفٍ إذا غاب عنها الإيمانُ. فكان هذا الدرسُ الخالدُ: عليك أن تُبذِلَ الأسبابَ، أمَّا النَّصر فبِيَدِ اللّهِ وحدَه، يرفعه إن شاءَ بكلمةٍ، ويُؤَخّره إن شاءَ لحكمةٍ.

حِصَارُ الطَّائف!
إلى دِيارِ ثقيف!

لمَّا اسودَّت سماءُ هَوازِنَ بهزيمتهم في حُنين، وتفرَّقت جموعُهم كأوراقٍ ذَرَتها ريحُ النَّصر بلا رحمة، تَبقّى في قلبِ الزمانِ صخرةٌ صلبةٌ تُقاوم الريحَ وحدَها؛ ثَقيفُ التي آثرت العنادَ على الاعترافِ بالحقّ، واختارت الاحتماءَ بأسوارِ الطَّائف بدلَ أن تُسلّمَ للحقِّ قيادَها.

هناك، ارتفعت الطَّائف كقِلاعٍ شاهقةٍ تُعاند الأقدار، تمتدُّ بحدودها فوق سفوحِ الجبال، وسيوفُها تتربّصُ بكلِّ قادمٍ من سهولِ الفتح. ظنّوا أنَّ ارتفاعَهم عن الأرضِ يحميهم من سطوةِ السَّماء، وأنَّ من ضاقت به المعركةُ في وادي حُنين لن يبلغَ هذه الحصونَ التي نسجت خوفًا في صدرِ كلِّ محاصرٍ.

لكن جاءهم النَّبيُّ ﷺ بجيشٍ يزحفُ وبقلبٍ لا يلين، يحملُ في يمينه رايةً لا تسقط، وفي يساره كتابًا لا تُغلبُ معه أمّةٌ آمنت بأنّ اللّه معها. أقبل من وادي حُنين كالسَّيلِ الذي عرف طريقه أخيرًا، لا يريد غنيمةَ حربٍ، بل يريدُ أن يهديَ مدينةً ضلَّ أهلُها فاستعلَوا بعصبيّةٍ لا تُنجي، وتمرّدٍ لا يدوم.

احتشـدَتْ ثَقيـف خلـفَ أسـوارِها العاليـة، تُخبّـئُ الهزيمـةَ خلـفَ أبـوابٍ مـن حديـدٍ، وترمـي سـهامَ يأسِـها مـن فـوقِ أبـراجٍ مـا طالَـتْ سـموَّ الرّسـالةِ يومًـا. وأقبـل النبـيُّ ﷺ يطـوّقُ الطَّائـف كأنّ الشَّـمس تُحاصـرُ ظـلًّا يحـاولُ الهـربَ مـن ضيائِهـا!

تبدّلـتْ الأدوار: المحاصـرُ أمـسُ أصبـحَ اليـومَ مُحاصـرًا، والقـوّةُ التـي كانـت تتباهـى خلـفَ الجـدارِ باتـت ترتجـفُ فـي انتظـارِ قدرِهـا!

تلـكَ كانـت حِكايـةُ الطَّائـف الأخيـرة قبـل أن تدخـلَ فـي ديـن اللّهِ، ولكـن فـي الحكايـة تفاصيـل، وكلُّ أمـرِ التَّاريـخِ فـي التفاصيـل!

بعـد توزيـعِ الغنائـمِ التـي غنمهـا المسـلمون فـي حُنيـن، أقبـلَ وَفـدُ هَـوازِنَ مُسـلِمًا، وسـألوا رسـولَ اللّهِ ﷺ أن يَـرُدَّ عليهـم سَـبْيَهُم وثَرْوَتَهـم!

فقـالَ لهـم: إنَّ مَعـي مَـن تَـرَونَ، وإنَّ أحَـبَّ الحديـثِ إلَـيَّ أصدَقُـهُ، فأبناؤُكم ونِسـاؤُكم أحـبُّ إلَيكـم أم أموالُكم؟

قالوا: ما كُنّا نَعدِلُ بالأحسابِ شَيئًا.

فقـامَ رسـولُ اللّهِ ﷺ فـي المسـلمينَ، فأثنـى علـى اللّهِ بمـا هـو أَهْلُـه، ثـمَّ قـال: أمّـا بعـدُ، فـإنَّ إخوانَكم هـؤلاءِ قـد جـاءوا تائبيـنَ، وإنّـي قـد رأيـتُ أنْ أَرُدَّ إلَيهـم سَـبْيَهم، فمَـن أحـبَّ أنْ يُطيـبَ ذلـك فليفعَـل، ومَـن أحـبَّ منكم أنْ يكونَ علـى حَظِّـه حتَّـى نُعطيَـهُ إيّـاهُ مـن أوّلِ مـالٍ يَفـيءُ اللّه علينـا فليفعَـل.

فقالَ النَّاس: قد طَيَّبْنا ذلكَ يا رسولَ اللّهِ. فقالَ لهم: إنّا لا ندري مَن أذِنَ منكم مِمَّن لم يأذَن، فارجِعوا حتَّى يرفَعَ إلينا عُرَفاؤُكم أمرَكم.

فرجعَ النَّاس فكلَّمَهُم عُرَفاؤُهم، ثمَّ عادوا إلى رسولِ اللّهِ ﷺ يُخبِرونَهُ أنّهم قد طَيَّبوا وأذِنوا.

أمّا ثَقيفٌ فإنَّها، بعدَ أنْ تراجعت مُنهَزِمَةً، دَخَلَت حُصونَها، وتَهَيَّأَت فيها لِحصارٍ طويلٍ، وعَرَفَ المسلمونَ أنَّ القومَ لا يزالونَ على إصرارِهم والبقاءِ على جاهليَّتِهم، وأنَّ الخسائرَ الّتي لحِقَت بهم لم تَكسِرْ شَوْكَتَهم ولم تُرهِق عزيمتَهم، فقرّروا السَّيرَ إليهم ومُناجَزَتَهم، وللمسلمينَ خِبرةٌ قديمةٌ بهذا الأسلوبِ من القتالِ، فقد حاصَروا وحوصِروا، وعَرَفوا أنجحَ طَرائِقِ الهجوم والدِّفاع.

ونهضَ رسولُ اللّهِ ﷺ بجيشِهِ حتَّى اقْتَرَبَ من الطَّائف، فعَسْكَرَ حولَها، وأخذَتْ ثَقيفٌ من حُصونِها تَقذِفُ النِّبالَ، فأُصيبَ نَفَرٌ من المسلمينَ، واضطُرَّ الجيشُ أنْ يُؤَخِّرَ مواقِعَهُ حتَّى لا تُستَهدَفَ لِقَذائِفِهم.

ويَظهَرُ أنّ النَّبيَّ ﷺ لم يَحرِصْ على اقتحام الحُصونِ واستِنزالِ أهلِها قَسرًا كما فَعَلَ ببني إسرائيلَ، لقد أَمَّلَ فيهم خَيرًا، وأدارَ المعركةَ حولَهم في حدودِ الأُسوارِ. وكانَ هذا مبدأً في جهادِ الرَّسولِ ﷺ، لا يلجأُ إلى القَسوةِ إلّا حينَ تَنسَدُّ الطُّرُقُ إلى الهدايةِ.

وبعـدَ أن طـالَ الحِصـارُ عليهـم، وكثُـرَتِ الجـراحُ بيـن الصفَّيـن، وبَقِيَـتِ الحُصـونُ مُغلَقَـةً ضيِّقـةً، وبضحـايا يَسـيرةٍ، وظـلَّ يُحاصِرُهُـم خَمـسَ عَشْـرَةَ لَيلـةً. ثـمَّ بَـدا لـه أنْ يَدَعَهُـم وشـأنَهُم، وأشـارَ علـى المسـلمينَ بذلـك، فَرَغِبـوا أوَّلًا فـي إطالـةِ حِصارِهـا حتَّـى تُفتَـحَ عليهِـم، ثـمَّ نَزَلـوا أخيـرًا علـى رَأيِـه.

ورُوِيَ أنَّ رسـولَ اللّهِ ﷺ استشـارَ نَوفَـلَ بـنَ مُعاويَـة، فقـال: يـا نَوفَـل! مـا تَـرى فـي المُقـام عليهـم؟

فقـال: يـا رسـولَ اللّه! ثَعلَـبٌ فـي جُحـرٍ، إنْ أَقمـتَ عليـهِ أَخذتَـهُ، وإنْ تَرَكتَـهُ لـم يَضُـرَّكَ!

فأمَرَ النبيُّ ﷺ عُمرَ بنَ الخَطّابِ أنْ يُؤَذِّنَ في النَّاس بالرَّحيلِ.

فلمَّـا قَفَلَـتْ بهـم المطايـا قالـوا: يـا رسـولَ اللّه! أحرَقَتْنـا نِبـالُ ثَقيـفٍ، فـادعُ اللّه عليهـم.

فقال: اللهمَّ اهْدِ ثَقيفًا!

ولـم يَطُـل بقـاءُ ثَقيـفٍ علـى شِـركِها، فمـا هـيَ إلّا شُـهورٌ قَلائـلُ حتَّـى أرسـلوا وَفدَهُـم إلـى المدينـةِ يُخبِـرونَ النبـيَّ ﷺ برَغبَتِهـم فـي الإسـلامِ، وانفِسـاحِ قلوبِهـم لـه.

ولمّـا كانَ أهـلُ مكَّـة حُدَثـاءَ عَهْـدٍ بالإسـلامِ، وفِقْهُهُـم فـي أحكامِـهِ ومَرَاميـهِ قليـلًا، فـإنَّ النبـيَّ ﷺ خَلَّـفَ فيهـم مُعـاذَ بـنَ جَبَـلٍ رضي الله عنه يُعَلِّمُهُـم كِتـابَ ربِّهـم وسُـنَّةَ نَبِيِّهِـم.

وجَعَـلَ عَتَّـابَ بـنَ أُسَـيْدٍ رضي الله عنه أميـرًا علـى مكَّـة، وعُمـرُهُ يومَئـذٍ عِشـرونَ سَـنةً.

وكانَ عَتّابٌ شابًّا ذكيًّا، قَنوعًا، شُجاعًا، وقد تَقَرَّرَ له مِن مالِ المسلمينَ دِرهَمٌ كُلَّ يوم، وهو مُرتَّبُ الإمارةِ، فَقَرَّتْ بذلكَ عَينُهُ، بل إنَّهُ خَطَبَ النَّاس فقال: أيُّها النَّاس، أَجاعَ اللّه كِبدَ مَن جاعَ على دِرهَم، فقد رَزَقَني رسولُ اللّهِ ﷺ دِرهَمًا كُلَّ يومٍ، فليسَتْ بي حاجةٌ إلى أحدٍ.

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروس المستفادة من حصار الطَّائف:

1 ـ الهدايةُ غايةُ الجهادِ قبلَ الغَلَبَةِ، فلم يكن رسولُ اللّهِ ﷺ يطلبُ فتحًا يرفعُ به ذِكرَهُ، بل فتحًا يرفعُ به الضالّينَ إلى نورِ اللّهِ. ولذلك دعا لثَقيفٍ: اللهمَّ اهْدِ ثَقيفًا، لأنَّ القلوبَ إنْ أشرقتْ بالإسلامِ فقد تحقَّق أعظمُ النصرِ، وما قيمةُ أرضٍ تُفتحُ وسكّانُها يرفضون الحقَّ؟

2 ـ النَّصر الحقيقيُّ ما غيَّرَ القلوبَ، لقد هُزِمَتْ ثَقيفٌ في حُنينٍ، لكنَّها لم تُقهَرْ حتَّى أسلمَتْ طوعًا. فالنَّصرُ الذي يكتفي بالأجسادِ هشَّةٌ آثارُهُ، أمّا النَّصر الذي يبلغُ الأرواحَ فهو بقاءٌ وخُلُودٌ. وما أحوجَ الدعواتِ إلى نصرةٍ تُبدِّلُ المواقفَ لا إلى وثوبٍ على الحُصونِ.

3 ـ الحكمةُ تُغلِقُ أبوابَ الدماءِ، كانَ ﷺ قادرًا على اقتحام الطَّائف، ولكنَّهُ قدَّمَ الحكمةَ على الحِرابِ، لأنَّ الدماءَ إذا سالتْ بغيرِ ضرورةٍ أورثتِ الجراحَ حقدًا لا يندملُ. فالإقناعُ إذا أمكنَ، فهو خيرٌ من القهرِ، والفتحُ بالقلوبِ أهنأُ من الفتحِ بالقوّةِ.

4 ـ الصَّبـرُ جُنـدٌ لا يُهـزَمُ، دامَ الحصـارُ خمـسَ عَشْـرَةَ ليلـةً، والمسـلمونَ راسـخونَ لا ينسـحبونَ خوفًـا ولا يندفعـونَ تهـوّرًا. إنَّ الصبـرَ روحُ النَّصـرِ، والسُّـرعةُ فـي المعـاركِ قـد تكونُ هـزيمـةً متنكِّرةً. ومـا انكَسَـرَ قـومٌ صبـروا، ولا انتصـرَ قـومٌ تسـرَّعوا.

5 ـ القسـوةُ ليسـت بطولـةً، ليسَ البطلُ مَن يفتحُ الأبوابَ بالقـوّةِ، بل مَـن يعـرِفُ متـى يَكُـفُّ السيفَ عـنِ الرِّقـابِ. لقـد علَّـمَ النبـيُّ ﷺ الجيـوشَ أنَّ فـي العفـوِ فخـرًا، وفـي الشـدّةِ العميـاءِ سُـقوطًا، وأنَّ البطولـةَ الحقّـةَ أن تكونَ السـيوفُ فـي أغمادِهـا مـا دامَ فـي الإصـلاحِ مُسـتنَدٌ.

6 ـ لـكلِّ حصـنٍ مفتـاحٌ، حصـونُ الطَّائـف كانـتْ حجـارةً تُقـاوِمُ، لكنَّ مفتاحَهـا كان دعـوةَ خيـرٍ، وصبـرًا رفيقًـا، وزمنًـا يُطهِّـرُ القلـوبَ مـن عنادِهـا. فالمفاتيـحُ ليسـت دائمًـا مـن حديـدٍ، ولـرُبَّ بـابٍ لا يفتحـهُ سـيفٌ ويفتحُـهُ حِلْـمٌ.

7 ـ الإيمـانُ أقـوى مـن الحديـدِ، أسـوارُ الطَّائـف ارتفعـتْ، ورجالُهـا اسْـتَعْلَوْا، ولكـنَّ الإيمـانَ حمـلَ الفاتحيـنَ إلـى أبوابِهـا بثقـةٍ لا تعـرفُ الانهـزامَ. وإذا الْتقَـى اليقيـنُ بالحجـارةِ تهاوَتِ الصخـورُ وبقيَ اليقينُ.

8 ـ مـن قاتـلَ مـن أجـلِ الدُّنيـا خسـرَ، ثَقيـفُ خرجَـتْ عَصَبِيَّـةً للقبيلـةِ، والمسـلمونَ خرجـوا نُصـرةً للدِّيـنِ، ولـذا انتصـروا هـم، وانهـزمَ أهـلُ العصبيـةِ. فالحـربُ التـي لا هـدفَ فيهـا إلّا الهـوى، هزيمتُهـا مؤكـدةٌ ولـو عـلا صهيـلُ الخيـلِ.

9 ـ الرجوعُ إلى الوراء تقدُّمٌ أحياناً، حينَ رأى ﷺ أنَّ طولَ الحصارِ لم يعُدْ يخدمُ الهدفَ دعمهُ الرأيُ الرشيدُ، فعدَّلَ المسارَ فورًا. القائدُ الحقُّ ليس مَن يتمسّكُ برأيِهِ مُكابرةً، بل مَن يُراجِعُ نفسَهُ لئلّا يضلَّ الطريقَ.

10 ـ الخوفُ آخرُ معاقلِ الكِبْرِ، تساقطتْ حجارةُ الكبرياءِ مِن صدورِ ثقيفٍ رهبةً من الحقِّ، وإنْ وقفتْ أسوارُهم عاليةً. فالجبالُ تخشى مَن يجيءُ باسمِ اللّهِ أكثرَ ممّا تخشاهُ مِن حاملِ السِّنانِ.

11 ـ الدعوةُ قد تُؤتي ثمَّارَها بعد حينٍ، لم يُسلموا تحتَ الحصارِ، ولكن بعدَهُ بشهورٍ؛ فكأنَّ البذورَ الّتي زُرِعَتْ يومَ الطَّائف أثمَّرتْ هدايةً بعد أن نضجتِ الأرضُ مِن داخلِها. فلا تعجلْ على النَّاس، فَلِلقلوبِ أوقاتٌ تَنْضُجُ فيها.

12 ـ النُّصرةُ ليست دائمًا بفتحٍ عاجلٍ، خرجَ المسلمونَ مِن الطَّائف دونَ اقتحامِها، ومع ذلك عادُوا بالنصرِ. فالهزيمةُ في ظاهِرِ المعركةِ قد تكونُ انتصارًا في ميزانِ السَّماء، والمقياسُ ليس فَتْحُ الحصونِ بل فَتْحُ القلوبِ.

13 ـ أهلُ القرآنِ هم بُناةُ المجتمعِ، لم يُبقِ النبيُّ ﷺ الجندَ فقط، بل أبقى مُعَلِّمًا يُنيرُ الدَّربَ. فبناءُ الأمةِ لا يتمُّ بسيوفِها، بل بكُتُبِها وعلمائِها، ومُعاذُ بنُ جبلٍ دليلٌ على أنَّ الإصلاحَ يبدأُ مِنَ العقولِ.

14 ـ القيادةُ تُوزَّعُ بالكفاءةِ لا بالسّنِّ، عَتّابُ صاحبُ العشرينَ عامًا تولّى مكّة، فالعبرةُ ليست بعددِ السنينِ، بل بصفاءِ القلبِ

وقـوّةِ العقـلِ. وهـل تُقـاسُ القيـادةُ بشـيبٍ فـي الـرأسِ أم بنـورٍ فـي البصيـرةِ؟

15 ـ الرِّسـالةُ أكبـرُ مـن المـكانِ، تـركَ المسـلمونَ مكَّـة بعـدَ فتحِهـا، فعَـرَفَ النَّـاس أنَّ الوطـنَ الحقيقـيَّ ليـس حجـارةً ولا بيوتًـا، بـل مبـادئُ تُولَـدُ بهـا الحيـاةُ. المدينـةُ ليسـت سَـكَنًا فحسـب، بـل سَـكِينَةٌ!

غَزْوَةُ تَبُوك!
إلى عُقْرِ دِيارِ الرُّوم!

كانـتِ الجزيـرةُ يومَئـذٍ كالصَّـدرِ الـذي هاجَـتْ فيـه أنفـاسُ العَواصِـفِ؛ الإسـلامُ يَمتـدُّ كالنَّهـارِ فـي أرضِ العَـرَبِ، وقُلـوبُ الأُمَـمِ حَولَـهُ تَرتجِـفُ خَشـيةً مِـن ضِيـاءٍ لا يَعـرِفُ الانطِفـاءَ.

ومِـن وراءِ الرِّمـالِ البَعيـدَةِ، حيـثُ تُرفـرِفُ رايـاتُ الـرُّومِ علـى ثُغـورِ الشَّـامِ، كانـتِ الأخبـارُ تَتوالـى بـأنَّ عَـرشَ قَيصَـرَ قـدِ انزَعَـجَ لِمـا يَجـري فـي الجَنـوُبِ؛ ديانـةٌ تَتَنَفَّسُ فـي القُلـوبِ، وجُمـوعٌ تُبايِـعُ علـى المـوتِ دونَ أن تَرتـدَّ خُطاهـا.

هُنالِـكَ سَـرَتْ نُـذُرُ الحَـربِ فـي الهَـواءِ، وتَحَدَّثَـتِ الـرُّومُ أنْ قـد حـانَ الوَقـتُ لإطفـاءِ هـذا النُّـورِ قَبْـلَ أنْ يَمـلأَ الدُّنيـا.

فأُبلِـغَ النبـيُّ ﷺ بأنَّهُـم جَمَعـوا الجُمـوعَ واصطَفُّـوا يَسـتعِدّونَ للغَزوِ نحـوَ مدينـةِ الوَحـيِ. فلـم يَكُـن أمـامَ المسـلمينَ إلَّا أن يَحمِلـوا الرِّسـالَةَ إلـى أعدائِهـا قبـلَ أنْ يَطرُقـوا أبْوابَهـا؛ فقـد شـاءَ اللّٰه أنْ تكـونَ كَلِمَـةُ الحَـقِّ هـيَ السّـابِقَةَ لا التّابِعَـةَ، والهُجوميَّـةَ لا المُنفعِلَـةَ.

فدَعـا النبـيُّ ﷺ إلـى النَّفيـرِ العـامِّ، يَـومٌ مِـن أيّـامِ الإيمـانِ العظيـمِ لا يُنـادَى فيـهِ إلّا الصّادِقـونَ. خَـرابُ البُيـوتِ فـي الهَجيـرِ، والنَّفـسُ

عَطشى، والـزّادُ قَليـلٌ، والطَّريـقُ طويـلٌ طويـلٌ إلـى أقصَـى الشَّـمالِ، ولكـنَّ اللّه مـع مَـن خَـرَجَ فـي سـبيلِهِ.

خَـرَجَ جيـشُ العُسْـرَةِ لا يَحمِلـونَ الوَفـرَةَ، بـل يَحمِلـونَ اليَقيـنَ، ولا يَتَّكِئـونَ علـى كَثـرَةِ المـالِ والـزّادِ، بـل علـى وَعـدٍ مِـن السَّـماءِ: أنَّ مَـن سـارَ تَحـتَ رايـةِ محمَّـد ﷺ فلـن يُضَيِّعَـهُ اللّه.

وهكـذا تَحَرَّكَـتِ المدينـةُ خَلـفَ نبيِّهـا كالقَلـبِ الـذي نَبَـضَ دَفعَـةً واحِدَةً نحوَ العُـلَا، تَنتَزِعُ مِن الصَّحـراءِ خُطواتِ مَجدٍ جديدٍ، وتَكتُبُ لِلتّاريخِ صَفحَـةً مِـن نـورٍ فـي لَهيـبِ القيـظِ ومَـرارَةِ الفَقـرِ لكنَّهـا كانَـت صَفحَـةَ عِـزٍّ لا يَطالُـهُ الغُبـارُ.

فَهُنـا تَبـدأُ حِكايَـةُ تَبـوك، آخِـرُ غَـزواتِ الرَّسـولِ ﷺ، وأعظَمُهـا صَبـرًا، وأجلَاهـا صِدقًـا، وأشَـدُّها امتِحانًـا لِلنُّفـوسِ والـوَلاءِ.

مـن كانَ يُصَـدِّقُ أنَّ العَـرَبَ الذيـن كانـوا مجـرَّدَ قَبائِـلَ مُتَناحِـرَةٍ، ليسَ لهم كَيـانٌ يُذكَـرُ، ولا أيُّ قُدرةٍ علـى مُواجهـةِ الأخطـارِ الخارجيّةِ، سيأتي عليهـم يومٌ يَتوحَّـدونَ فيه، وتكونُ لهم دولـةٌ مُسـتقلّةٌ، ويُجابِهونَ أعظَـمَ قُـوّةٍ فـي ذلـكَ الزَّمـانِ، ويَغزونَهـا فـي عُقـرِ دارِهـا؟!

إنَّ ذلـكَ لَـم يَكُـنْ لِيَتَحَقَّـقَ إلّا فـي ظِـلِّ رسـالةِ الإسـلام، والتـي أصبـحَ المسـلمونَ مِـن خلالها قُـوّةً يَحْسِـبُ لها الآخـرونَ ألفَ حِسـابٍ،

حتَّى استطاعوا أنْ يَعودوا إلى مكَّة فاتحينَ خلالَ ثمَّانِ سِنينَ مِن هِجرَتِهم، ليستَقبِلوا أفواجَ النَّاس التي أقبلَتْ للدُّخولِ في دينِ اللّهِ.

فبعدَ استقرارِ الوضعِ الداخليِّ في مكَّة، تَوجَّهَ النبيُّ ﷺ بالنَّظرِ إلى الخارجِ لإكمالِ مَهَمّةِ الدَّعوةِ والبلاغِ، خصوصًا وأنَّ الأنباءَ كانت قد وَصَلَت إليهِ أنَّ الرُّومَ بَدأتْ بِحَشدِ قُوّاتِها لغزوِ المسلمينَ، فأرادَ النَّبيُّ ﷺ أنْ يُبادِرَهم بالخروجِ إليهم، في غزوةٍ عَرَفَها التَّاريخُ باسمِ غزوةِ تَبوكَ.

وقد جاءت تَسميَةُ هذه الغزوةِ من "عينِ تَبوك" التي مَرَّ بها المسلمونَ وهم في طريقِهم إلى أرضِ الرُّومِ، وسُمِّيَتْ أيضًا غزوةَ العُسرةِ لِما اجتمعَ فيها مِن مظاهرِ الشِّدَّةِ والعُسرةِ، حيثُ حَرارةُ الجوِّ، ونُدرةُ الماءِ، وبُعدُ المكانِ، وفوقَ هذا وذاكَ كانَ المسلمونَ يَعيشونَ حالةً مِن الفقرِ وضيقِ الحالِ، وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى تلكَ الحالِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ العُسْرَةِ﴾

ونَظرًا لتلكَ الظُّروفِ الصَّعبةِ، استقرَّ رأيُ النبيِّ ﷺ على التَّصريحِ بِجِهةِ الغزوِ على غيرِ عادتِهِ، وذلكَ لإدراكِهِ بُعدَ المسافةِ وطَبيعةَ العدوِّ وحجمَ إمكاناتِهِ، ممّا يُعطي الجيشَ الفُرصةَ الكاملةَ لإعدادِ ما يَلزَمُ لهذا السَّفرِ الطَّويلِ، إضافةً إلى أنَّ وَضعَ الدَّولةِ

الإسـلاميّةِ قـد اختلـفَ عـن السّـابقِ، حيـثُ تَمكَّـنَ المسـلمونَ مِـن السَّـيطرةِ علـى مسـاحاتٍ كبيـرةٍ مِـن الجزيـرةِ العربيّـةِ، ولَـم يَعُـدْ مِـن الصَّعـبِ معرفـةُ وُجهتِهـم القادمـةِ.

وهكـذا أعلـنَ النَّبـيُّ ﷺ النَّفيـرَ، وحَـثَّ النَّـاس علـى الإنفـاقِ فـي سـبيلِ اللّٰهِ قائـلاً: «مَـن جَهَّـزَ جيـشَ العُسـرةِ فلـهُ الجنَّـة»، فاسـتجابَ الصَّحابـةُ لندائِـهِ، وضربـوا أروعَ الأمثلـةِ فـي البـذلِ والعطـاءِ!

فأمّـا عثمَـان بـن عفّـانَ رضي الله عنه فانطلـقَ مُسـرعًا إلـى بَيتِـهِ، وأخـذَ ألـفَ دينـارٍ ووضعَهـا بيـنَ يـدي رسـولِ اللّٰهِ ﷺ، وتكفّـلَ بثلاثمَائـة بعيـرٍ بكامـلِ عُدَّتِهـا، فاسـتبشَـرَ النَّبـيُّ ﷺ بفعلِـهِ وقـال: مـا ضَـرَّ عثمَّـانَ مـا عَمِـلَ بعـدَ اليـومِ!

وحـاولَ عُمـرُ بـنُ الخطّـابِ رضي الله عنه أنْ يَسـبِقَ أبـا بَكـرٍ رضي الله عنه، فأتَـى بنِصـفِ مالِـهِ، فـإذا بأبـي بكـرٍ رضي الله عنه يأتـي بكلِّ مـا عنـدَهُ دونَ أنْ يُبقِـيَ لأهلِـهِ شـيئًا، فقـالَ عمـرُ رضي الله عنه: واللّٰهِ لا أُسـابِقُكَ إلـى شـيءٍ أبـدًا!

وتصـدَّقَ عبـدُ الرّحمـنِ بـنُ عـوفٍ رضي الله عنه بألفَـي دِرهَـم، إلـى جانـبِ مـا قدّمَـهُ أغنيـاءُ الصَّحابـةِ كالعبّـاسِ بـنِ عبـدِ المُطّلـبِ، وطلحـةَ بـنِ عُبَيـدِ اللّٰهِ، ومحمَّـد بـنِ مَسـلَمةَ، وعاصـمِ بـنِ عَـدِيٍّ رضـيَ اللّٰهُ عنهـم أجمعيـنَ.

وكان لِفُقراءِ المسلمينَ نصيبٌ في الصَّدقةِ، حيثُ قدّموا كلَّ ما يَملكونَ معَ قِلّةِ ذاتِ اليدِ؛ فمنهم مَن أتى بِصاعٍ مِن تَمرٍ، ومَن جاءَ بنِصفِ صاعٍ أو أقلَّ.

ووقفَ عُلبةُ بنُ زيدٍ ﵁ ينظرُ إلى جموعِ المسلمينَ وهيَ تتسابقُ على الإنفاقِ، والحَسرةُ تَملأُ فُؤادَهُ لأنَّهُ لَم يَجِدْ ما يَتصدّقُ به، فلمَّا جاءَ اللَّيل صلّى وبكى، ثمَّ رفعَ يديهِ وقال: اللَّهُمَّ إنَّكَ قد أمَرتَ بالجهادِ ورغّبتَ فيهِ، ثمَّ لَم تجعلْ عندي ما أتقوّى به معَ رسولِكَ، وإنِّي أتصدّقُ على كلِّ مسلمٍ بكلِّ مظلمةٍ أصابَني فيها مِن مالٍ أو جسدٍ أو عِرضٍ!

وفي الصَّباحِ قالَ النَّبيُّ ﷺ: أينَ المُتصدِّقُ هذهِ اللَّيلة؟

فلم يَقُمْ أحدٌ، فأعادَها ثانيةً، فتقدّمَ عُلبةُ وأخبَرَهُ الخبرَ، فقالَ ﷺ: أبْشِر، فوالذي نفسُ محمَّد بيدِهِ لقد كُتِبَتْ في الزَّكاةِ المُتقبَّلةِ!

واستغلَّ المُنافِقونَ هذهِ المواقفَ المُشرِّفةَ للسُّخريةِ مِن فُقراءِ المؤمنينَ، والتَّعريضِ بنيِّاتِ الأغنياءِ، فكشَفَ القرآنُ خَباياهُم قائلًا:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهدَهُم فَيَسخَرونَ مِنهُم سَخِرَ اللَّهُ مِنهُم وَلَهُم عَذابٌ أليمٌ﴾

كما حاولوا صَدَّ النَّاس عن الخروجِ، بالتَّرهيبِ مِن لقاءِ العدوِّ تارةً، وبالتَّرغيبِ في القُعودِ تارةً أخرى، خصوصًا وأنَّ الغزوةَ كانت في شدَّةِ الحرِّ وطيبِ الثَّمرِ.

واجتمعَ معَ النَّبيِّ ﷺ ثلاثونَ ألفَ مُقاتلٍ مِن المهاجرينَ والأنصارِ وغيرِهم، ودفعَ باللِّواءِ إلى أبي بكرٍ ﵁، وقسّمَ الجيشَ إلى ألويةٍ، واستخلفَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ ﵁ على أهلِهِ، فشقَّ عليهِ أن تفوتَهُ الغزوةُ، فجاءَ يستأْذِنُ النَّبيَّ ﷺ، فقالَ له: أمَا تَرضى أن تَكونَ مِنّي بِمَنزلةِ هارونَ مِن موسى؟ غيرَ أنَّهُ لا نبيَّ بعدي!

وجاء الفقرَاءُ إلى النَّبيِّ ﷺ يَطلُبونَ منهُ أن يُعينَهُم ليَحمِلَهُم إلى الجهادِ، والنَّبيُّ ﷺ يعتذرُ بأنَّهُ لا يَجِدُ ما يَحمِلُهُم عليهِ مِن الدَّوابِّ، فانصرَفوا وأعينُهُم تَفيضُ مِن الدَّمعِ حزنًا على ما فاتهُم مِن شرفِ الجهادِ مع رسولِ اللهِ ﷺ، فخلَّدَ اللهُ ذكرَهُم إلى يومِ القيامةِ، وأنزلَ فيهم قولَهُ تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى المَرضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدونَ ما يُنفِقونَ حَرَجٌ إذا نَصَحوا لِلَّهِ وَرَسولِهِ ما عَلَى المُحسِنِينَ مِن سَبيلٍ وَاللَّهُ غَفورٌ رَحيمٌ ولا عَلَى الَّذِينَ إذا ما أَتَوكَ لِتَحْمِلَهُم قُلتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُم عَلَيْهِ تَوَلَّوا وأعينُهُم تَفيضُ مِنَ الدَّمعِ حَزَنًا أَلّا يَجِدوا ما يُنفِقونَ﴾

وقد كَتَبَ اللّهُ لهم الأجرَ كاملًا بنيَّاتهم الصَّادقةِ؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: إنَّ بالمدينةِ أقوامًا ما سِرتُم مَسيرًا ولا قطعتُم واديًا إلَّا كانوا معكم؛ حبسَهُم العُذرُ!

أمّا المُنافقونَ فقد تَخلَّفَ مُعظمُهُم عن الغزوِ بادِّعاءِ الأعذارِ الكاذبةِ؛ فمنهم مَن اعتذرَ بعدمِ القدرةِ على السَّفرِ، ومنهم مَن اعتذرَ بقِلّةِ المتاعِ، ومنهم مَن قال: إنَّ الحرَّ شديدٌ، ومنهم مَن اعتذرَ بإعجابِهِ بالنِّساءِ! وخوفِهِ الفِتنةَ بنساءِ الرُّوم!

فقَبلَ النَّبيُّ ﷺ أعذارَهُم ظاهِرًا، وتركَ سرائرَهُم إلى اللّهِ، وأنزلَ اللّهُ آياتٍ في سورةِ التَّوبةِ تفضحُ كذِبَهُم وتُنذرُهُم بالعذابِ الأليمِ.

وانطلقَ الجيشُ بقيادةِ النَّبيِّ ﷺ نحو الشمالِ، وفي الطَّريقِ مرُّوا على ديارِ ثَمُودَ، فسارعَ بعضُ المسلمينَ ليروا مَساكنَهُم، فبلغَ ذلكَ النَّبيَّ ﷺ فقالَ: لا تَدخُلوا مَساكنَ الَّذينَ ظَلَموا أنفُسَهُم إلَّا أن تَكونوا باكينَ؛ حَذَرًا أن يُصيبَكُم مِثلُ ما أصابَهُم!

وأمرَهُم بالإسراعِ في الرَّحيلِ، وأمرَ بإراقةِ الماءِ الذي أخَذوهُ منها، وإطعامِ العجينِ للدوابِّ، إلّا ما أُخِذَ من بئرِ ناقةِ صالحٍ؛ فقد أذِنَ فيه.

وبدأت المعاناةُ تَشتدُّ بِسببِ نقصِ الماءِ وشِدّةِ الحرارةِ وقِلّةِ الرَّواحلِ؛ حتَّى إنَّ البعيرَ الواحدَ كانَ يَتناوبُ عليهِ جماعةٌ من الرِّجالِ، واضطُرَّ بعضُهُم إلى أكْلِ أوراقِ الشَّجرِ، ونَحرِ الإبلِ

ليشـرَبوا مـا فـي بُطونِهـا!

فشَـكوا ذلـكَ لرسـولِ اللّٰهِ ﷺ، فدعـا ربَّـه بنُـزولِ المطـرِ، فلـم يُكمِلْ دعـاءَهُ إلَّا والسَّـماء قَـد انفَتَحَـتْ، وهطَـلَ الغَيـثُ حتَّـى ارتـوَوا، فكانـت معجـزةً تُثبِّـتُ القلـوبَ وتُخفِّـفُ عـن المؤمنيـنَ.

وكان أبـو ذَرٍّ الغِفـاريُّ رضي الله عنه قـد تأخَّـر عـن الجيـشِ، فبحـثَ عـن راحلـةٍ تُمكِّنـهُ مـن اللحـاقِ بهـم، فلـم يجـد إلّا راحلـةً هزيلـة، فلمَّـا أبطـأت بـه، وأوشـكَ أن يتخلَّـفَ عـن رسـولِ اللّٰهِ ﷺ، أخـذَ متاعَـهُ وحملَـهُ علـى ظهـرِه، وسـارَ ماشـياً علـى قدميـهِ تحـتَ لهيـبِ الشَّـمس، حتَّـى اقتـربَ مـن الجيـشِ.

ورآهُ أحـدُ الصَّحابـةِ مـن بعيـدٍ، فقـال: يـا رسـولَ اللّٰهِ! هـذا رجـلٌ يمشـي علـى الطَّريـق!

فقـال ﷺ: كُنْ أبا ذَرٍّ!

فلمَّا تدقَّقوا فيهِ، قالوا: هو واللّٰهِ أبو ذَرٍّ!

فقـال النَّبـيُّ ﷺ: رَحِـمَ اللّٰه أبـا ذَرٍّ، يَمشـي وحْـدَهُ، ويَمـوتُ وحْـدَهُ، ويُبعـثُ وحْـدَهُ!

وكان مِمَّـن تخلَّـف عـن الغـزوِ فـي أوّلِ الأمـرِ، أبـو خيثمَّـةَ الأنصـاريُّ رضي الله عنه، حيـثُ غلَبَتـهُ نفسُـهُ فتخلَّـف، ودخـلَ فـي يـوم بُسـتانًا لـه، فـرأى زوجَتَيـهِ وقـد أعدَّتـا لـه الظِـلالَ والمـاءِ البـاردَ، فاسـتيقظَ ضميـرُهُ، وقـالَ لنفسـهِ: رسـولُ اللّٰهِ ﷺ فـي الهجيـرِ والصَّحـراءِ، وأبـو

خيثمَّـةَ فـي الظـلِّ والمـاءِ؟! هـذا ليـس عـدلًا!

فأخـذَ سـلاحَهُ، وركـبَ دابّتَـهُ، ولَحِـقَ بالنَّبـيِّ ﷺ فـي تبـوك، واعتـذرَ إليـهِ، فقبِـلَ رسـولُ اللّٰهِ ﷺ عُـذرَهُ ودعـا لـه بخيـرٍ.

ولمَّـا وَصـلَ الجيـشُ إلـى تبـوك، لـم يجـدوا أثـرًا لجيـشِ الـرُّومِ أو القبائـلِ المواليـةِ لَهُـم، فبعـثَ النَّبـيُّ ﷺ سَـرِيّةً بقيـادةِ خالـدِ بـنِ الوليـدِ ﵁ إلـى دومَـةِ الجَنـدَلِ، فغنمـوا أمتعـةً وأنعامًـا، وأسَـروا أكَـدَرَ بـنَ كِنـدةَ ملكَهـا، فجِـيءَ بـهِ إلـى النَّبـيِّ ﷺ، فصالحَـهُ علـى الجِزيـةِ، ثـمَّ أطلـقَ سـراحَهُ.

ومكَـثَ النَّبـيُّ ﷺ فـي تبـوك عشـرينَ يومًـا، يسـتقبلُ الوُفـودَ التـي جـاءت للمصالحـةِ، ودفـعِ الجزيـةِ مـن أهـلِ جَرْبـاءَ وأذْرُح وغيرِهمـا، وكان منهـم وفـدُ مَلِـكِ أَيْلَـةَ الـذي بعـثَ إلـى النَّبـيِّ ﷺ بهديـةٍ مـن كِسـاءٍ وبَغلـةٍ بيضـاءَ، فقبلَهـا النَّبـيُّ ﷺ.

وبعـدَ أن تحقَّـقَ المقصـودُ مـن الغـزوةِ، عـادَ الجيـشُ الإسـلاميُّ إلـى المدينـةِ المباركـةِ، فلمَّـا اقتربـوا، خرجـتِ النِّسـاءُ والأطفـالُ لاسـتقبالِ رسـولِ اللّٰهِ ﷺ، فدخـلَ المسـجدَ وصلَّـى رَكعتَيـنِ شـكرًا للّٰهِ.

ثـمَّ جلـس النَّبـيُّ ﷺ للنَّـاسِ، فجـاءَهُ المُنَافقـونَ يعتـذرونَ إليـهِ، فقبِـلَ أعذارَهُـم ظاهِـرًا وأوكلَ سـرائرَهُم إلـى اللّٰهِ.

وجاءَهُ الثَّلاثةُ الذينَ خُلِّفوا عن المعركةِ:

كَعْبُ بنُ مالكٍ، ومُرارَةُ بنُ الرّبيعِ، وهِلالُ بنُ أُمَيّةَ. فلم يقبل النَّبيُّ ﷺ أعذارَهُم لا لأنَّهم صدقوا، وإنَّما لأنه كان يتوسَّم فيهم خيراً، وما ظنَّ أنَّهم يتخلَّفون عنه، والعتب على قدر العشم! بينما قبِل من المنافقين لأنَّ خروجهم لا يزيد الجيش إلَّا خبالاً. فنهى النَّاس عن مُخالطتِهِم والكلامِ معهم، حتَّى ضاقتْ عليهم الأرضُ بما رحُبَت!

ثمَّ أنزلَ اللهُ توبتَهُم في آياتٍ خالدةٍ، فبشَّرهم النَّبيُّ ﷺ، فسجدوا للّهِ باكينَ مِن الفرحِ، وعادوا إلى الصَّفِّ أنقى ممَّا خرجوا!

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروس المستفادة من غزوةِ تبوك:

1 ـ المبادرةُ أصلُ النَّصرِ، في تبوكَ عَلَّمَنا النبيُّ ﷺ أنْ لا نَنتَظِرَ السِّهامَ حتَّى تَصلَ إلينا؛ بل نَذهَبُ إلى مَكامِنِ الخَطَرِ قَبلَ أنْ يَشتَعِلَ. فالمَوجَةُ التي تُواجهُ مِن بَدايتِها لا تَتحوَّلُ إلى طوفانٍ.

2 ـ الإيمانُ يقودُ في أيّامِ العُسرةِ، في حَرٍّ لا يُطاقُ، وجَدبٍ شَديدٍ، وقِلّةِ راحلةٍ وزادٍ؛ لَم يَتَحرَّكِ الجَيشُ اعتمادًا على وَفرةٍ، بل على يَقينٍ راسِخٍ أنّ مَن خَرَجَ للّهِ فاللّهُ لا يُضَيِّعُهُ، وأنَّ السَّماء تَمدُّ مَن يَسيرُ إليها ولو لَم يَكُنْ في يَدِهِ شيءٌ.

3 ـ الصِّدقُ يُمَيِّزُ الصُّفوفَ، تَميَّزَ الصَّادقونَ بالمُضيِّ معَ الرَّسولِ ﷺ، بينما تَخلَّفَ المُنافِقونَ بِحُجَجٍ واهيةٍ؛ فالغَزوةُ لَم

تَكشِفُ قُوّةَ الإيمانِ فَحسْب، بَل كَشَفَتْ ضَعفَ القُلوبِ التي تُخفي الكَسَلَ تَحتَ ثَوبِ الأعذارِ.

4 ـ مَن ضاقَت يَدُهُ وَسِعَهُ أجرُهُ، القَليلُ الذي قُدِّمَ بإخلاص أعظمُ عِندَ اللّهِ مِن الكَثيرِ الذي قُدِّمَ مُراءاةً؛ فالعَينُ الإلهيّةُ تُسَجِّلُ النِّيّاتِ، لا عَدَدَ الدَّنانيرِ.

5 ـ العطاءُ إنْ قَلَّ عددُه جَلَّ قدرُهُ، حفنةُ تَمراتٍ في تبوك كانت أبهى في ميزانِ السَّماء مِن جَبلِ ذهبٍ؛ لأنَّها فاضَت مِن قلبٍ آمنَ أنَّ الطَّريَق إلى الجنَّة يُمهَّدُ بالتَّضحيةِ مهما صَغُرَت.

6 ـ القائدُ أوَّلُ السَّابقينَ، لم يَقُلِ النبيُّ ﷺ: اذهبوا، بل قال: هَلُمّوا مَعي. فالقائِدُ الذي يَسبِقُ بِجَسَدِهِ يُلقِي في القُلوبِ شَجاعةً لَم تَكُن لتُعطيها ألوفُ الخُطَبِ.

7 ـ الخُطوةُ الأُولى هَزيمةٌ للتهديدِ، ذَهَبَ المسلمونَ إلى تبوكَ قبلَ أنْ يَأتيَهُم الخَطَرُ؛ فأسقَطوا هَيبةَ الرومِ قبلَ اللِّقاءِ. فالموقفُ الصَّلبُ يَكسِرُ العَدوَّ وإنْ لَم تُرفَعْ سيوفٌ.

8 ـ لا مكانَ في الصَّفِّ للمُتثاقِلينَ، الغَربلةُ تُسقِطُ الغُبارَ لِيَبقى الذَّهَبُ وحدَهُ. وكذلكَ الصَّفُّ؛ لا يَحتَمِلُ المُنافِقَ ولا الكسُولَ.

9 ـ النَّصرةُ ليست بعددِ الجُموعِ، القُوّةُ لَم تَكُن في كَثرةِ الزادِ والعُددِ، بل في يَقينِ الأرواحِ أنّ اللّه مَعَهم، ومن كان اللّه معه فلا يَضُرُّهُ قِلّةُ ما في يَدِهِ.

10 ـ الوُعودُ الإلهيّةُ تَسندُ القُلوبَ، كانَ وعدُ اللّهِ هو الزّادَ الحقيقيَّ، فخرجوا وهم يُشاهِدونَ الجنَّة في التَّعب نَفسِهِ؛ فمَن رَأى ثَوابَهُ قَبْلَ وُصولِهِ هانَ عليهِ ألمُ الطَّريقِ.

11 ـ السِّياسـةُ مِـن ثَوابـتِ الرِّسـالةِ، تبـوك لَـم تَكُـن معركـةً فـي السُّـيوفِ، بـل مَعرَكـةُ مواقِـفٍ ورسـائِلَ: أنَّ الإسـلامَ ليـس قُـوّةً مُحاصَـرةً، بـل قُـوّةٌ تُواجِـهُ الخَطَـرَ علـى أبوابِـهِ.

12 ـ الصَّراحةُ دَواءُ المُنافِقينَ، فَضَـحَ القـرآنُ أعذارَهُـم الواهيـةَ، وأبـانَ مـا تُخفيـهِ الألسُـنُ مـن نوايـا؛ فالحقيقـةُ إذا ظَهـرت، لَـم تَبـقَ للأقنِعـةِ مسـاحَةٌ.

13 ـ التَّوبـةُ بـابُ الصّادقيـنَ، الثّلاثـةُ الذيـنَ تَخلَّفـوا صَدقـوا حيـنَ اعترفـوا بالذَّنـبِ؛ فرفَعَهُـم اللّٰه إلـى دَرَجـاتٍ عَلِيّـةٍ؛ إذ الصِّـدقُ مَفتـاحُ الرُّجـوعِ إلـى اللّٰهِ بعدَ الزَّلـلِ.

14 ـ لا فَضلَ على الجيشِ بمـالٍ أو جـاهٍ، فمَـن بَـذلَ مالَـهُ لـم يَمنُـن بـه؛ لأنَّـهُ يَعلَـمُ أنَّ اللّٰه هـو المُنعِـمُ أوَّلًا وآخِـرًا، وأنَّ الأعطِيَـةَ تَرتَفـعُ حيـن تَنـزِلُ فـي مَقـام التَّواضُـعِ.

15 ـ الوَحـدةُ قُـوَّةٌ، إذا اجتَمَعَـتِ القلـوبُ اسـتقامتِ الطَّريـقُ، وصـارَتِ الأمّـةُ أهيَـبَ ممَّـن يَتَفـوَّقُ عليهـا بالسِّـلاح والمـالِ؛ فالوَحـدةُ دِرعُ النصـرِ.

16 ـ الامتِحـانُ طريـقُ التَّمكيـنِ، بغيـرِ تبـوكَ لَـم تتهـذَّبِ الأرواحُ، ولا تَعَـرَّفَ المُؤمنـونَ علـى نقـاطِ قوَّتِهـم وضعفِهـم؛ فالتَّمكيـنُ يُولَـدُ مِـن رَحِـمِ الابتـلاءِ.

17 ـ العِبـرةُ بنهايـةِ الطَّريـقِ، حَـرُّ الشَّـمس يَنقَضـي، ويبقـى فَـرَحُ الطّاعَـةِ، فليسَـتِ المُهِمَّـةُ كَيـفَ بـدأتِ الرِّحلـة، بـل كَيـفَ انتهَـتْ.

18 ـ فـي كلِّ ابتـلاءٍ رِسـالةٌ، جـاءت تبـوكَ تذكيـرًا بـأنَّ النَّصـرَ إذا طَـالَ بـلا مَشَـقَّةٍ، ربّمـا دَخَـلَ الغُـرورُ إلـى القُلـوبِ. فهُنـا جـاءَ التَّهذيـبُ بَـدَلَ العُقوبـةِ.

19 ـ النَّصـرُ أنْ تَرجِـعَ أقـوى ممّـا خَرَجـتَ، عـادوا بـلا قِتـالٍ لكـن بمعنويّـاتٍ تضاعَفَـتْ، ومَكانَـةٍ عَظُمَـتْ فـي أعيُـنِ العالَـمِ. والنَّصـرُ أحيانًـا يُكتَـبُ بـلا قَطـرَةِ دَمٍ.

20 ـ مَـن سـارَ مـعَ الحـقِّ وَصَـلَ، لأنَّ الـدَّربَ الـذي يَبـدأُ مـعَ محمَّـدﷺ لا يُفضـي إلّا إلـى النُّـورِ، ولـو كانَ فـي حرِّ الهَجيـرِ، فالعاقِبَةُ دائِمًـا لِلمُتَّقيـنَ.

مَسْجِدُ الضِّرار!
حَقٌّ يُرادُ به باطل!

كان الفجرُ يُوشِكُ أن يَبسُطَ ضَوءَهُ على المدينةِ، حين انشَقَّتِ الأرضُ عن جُرحٍ خَفيٍّ زرعَهُ المنافِقونَ في خاصِرَةِ المُجتمعِ المُؤمِن، جُرحٍ لم يَكُن سيفًا ولا رُمحًا، بل كان مسجدًا! نعم مسجدًا يعلو سقفُهُ بالنِّفاق، وتستترُ جدرانُه بالغدر، وتختبئُ خلف محرابه نوايا السُّوء.

في الطَّريق بين المدينةِ وتبوك، حيث يسيرُ الإيمانُ على أقدام الصَّادقينَ، وقف البناءُ الجديدُ يلمعُ كخديعةٍ مُحكمة. فلا مآذنَ تُزهرُ نورًا، ولا حيطانٌ تنبضُ خشوعًا، بل جدرانٌ صامتة تُخفي خلفها أصواتَ الغدرِ تُخطِّطُ لمستقبلٍ أسود.

أرادوه أن يكون شَمعةً تُنيرُ لهم دروبَ الفتنةِ، ومأوى تُنسجُ فيه خيوطُ المؤامرةِ، وعلامةً تُذكي نيرانَ الشكِّ في القلوب. قالوا: مسجد! وهو في الحقيقةِ سهمٌ مسمومٌ موجَّهٌ إلى صدر الدَّعوةِ، وطعنةٌ غادرةٌ في ظهر الجماعة.

لكنَّ الوحيَ لا تُخدعُه زينةُ الجدارِ ولا بهرَجُ الأحجار، نزل القرآنُ يمزِّق الحجابَ ويكشفُ المستور، فسقط القناعُ، وبانَ وجهُ الخيانة. وتحوَّل البناءُ من سقفٍ يُظلِّلُ الرأس، إلى شاهدٍ يُدينُ أصحابَه إلى يوم الدِّين.

هكذا أراد اللّه، أن يبقى مسجدُ الضِّرارِ درسًا خالدًا: أنَّ الخطرَ قد يختفي أحيانًا تحت قبابٍ تُشبه الطُّهر!

كان بالمدينةِ قبل مَقدَمِ رسولِ اللّه ﷺ إليها رجلٌ من الخزرج يُقالُ له: أبو عامرٍ الرَّاهبُ، وكان قد تَنصَّر في الجاهليّة وقرأ علمَ أهلِ الكتاب، وكان فيه عبادةٌ في الجاهليّة، وله شرفٌ في الخزرجِ كبيرٌ. فلمَّا قَدِمَ رسولُ اللّه ﷺ مهاجرًا إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلامِ كلمةٌ عاليةٌ، وأظهرهمُ اللّه يومَ بدر، شَرِقَ اللعينُ أبو عامرٍ بريقِه، وبارزَ بالعداوةِ، وظاهرَ بها، وخرج فارًّا إلى كفَّار مكَّة من مشركي قريش، فألَّبهم على حربِ رسولِ اللّه ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياءِ العرب، وقدموا عامَ أُحُد، فكان من أمرِ المسلمين ما كان، وامتحنهمُ اللّه، وكانت العاقبةُ للمتَّقين.

وكان هذا الفاسقُ قد حفر حفائرَ فيما بين الصَّفَّين، فوقع في إحداهنَّ رسولُ اللّه ﷺ، وأُصيبَ ذلك اليوم، فجرح في وجهِه، وكُسِرت رَباعيّتُهُ اليُمنى السُّفلى، وشُجَّ رأسُه ﷺ. وتقدّم أبو عامرٍ في أوّلِ المبارزةِ إلى قومِه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نصرِه وموافقتِه، فلمَّا عرفوا كلامَه قالوا: لا أنعمَ اللّهُ بكَ عينًا يا فاسقَ يا عدوَّ اللّه! ونالوا منه وسبّوه. فرجع وهو يقول: واللّهِ لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ.

وكان رسولُ اللّه ﷺ قد دعاهُ إلى اللّهِ قبل فرارِه، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يُسلِمَ وتمردَ، فدعا عليه رسولُ اللّه ﷺ أن يموتَ بعيدًا طريدًا، فنالته هذه الدعوةُ.

وذلك أنَّه لمَّا فرغ النَّاس من أُحُد، ورأى أمرَ الرسول ﷺ في ارتفاعٍ وظهورٍ، ذهب إلى هرقلَ ملكِ الرُّومِ يستنصرُه على النَّبي ﷺ، فوعده ومَنّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعةٍ من قومه من الأنصار من أهلِ النِّفاقِ والرَّيبِ يعدُهم ويُمَنّيهم أنَّه سيقدمُ بجيشٍ يقاتل به رسولَ اللّه ﷺ ويغلِبُه ويردُّه عمَّا هو فيه، وأمرهم أن يتَّخذوا له مَعقلًا يقدُمُ عليهم فيه مَن يقدُمُ من عنده لأداءِ كتُبِه، ويكونَ مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك. فشرعوا في بناءِ مسجدٍ مجاورٍ لمسجدِ قُباء، فبنَوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروجِ النَّبيِّ ﷺ إلى تبوك. وجاؤوا فسألوا رسولَ اللّه ﷺ أن يأتي إليهم فيُصلّي في مسجدهم، ليحتجُّوا بصلاتِه ﷺ فيه على تقريرِه وإثباتِه، وذكروا أنَّهم إنَّما بنَوه للضُّعفاءِ منهم وأهلِ العِلَّة في اللَّيلة الشَّاتية. فعصمَه اللّهُ من الصَّلاة فيه فقال: إنَّا على سفر، ولكن إذا رجعْنا إن شاء اللّه. فلمَّا قفَلَ ﷺ راجعًا إلى المدينة من تبوك، ولم يَبقَ بينه وبينها إلَّا يومٌ أو بعضُ يوم، نزل عليه الوحيُ بخبرِ مسجدِ الضِّرار، وما اعتمده بانوه من الكفرِ والتَّفريقِ بين جماعةِ المؤمنين في مسجدِهم مسجدِ قُباء الذي أُسسَ من أوّلِ يومٍ على التَّقوى. فبعث رسولُ اللّه ﷺ إلى ذلك المسجدِ من هدمَه قبل مقدِمه المدينة.

أقبل رسولُ اللّه ﷺ من تبوك، وكان أصحابُ مسجدِ الضِّرار قد أتوه وهو يتجهزُ إلى تبوك، فقالوا: يا رسولَ اللّه، إنّا قد بنينا مسجدًا لذي العِلّةِ والحاجةِ واللَّيلة المطيرةِ واللَّيلة الشَّاتية، وإنّا نحبُّ أن تأتينا فتصلّيَ لنا فيه.

فقال: إنّي على جناحِ سفرٍ وحالِ شغلٍ، ولو قد قدمْنا إن شاء اللّه تعالى أتيناكم فصلّينا لكم فيه. فلمَّا نزل بذي أوان أتاه خبرُ المسجد، فدعا رسولُ اللّه ﷺ مالكَ بنَ الدُّخْشُم أخا بني سالمِ بنِ عوف، ومَعنَ بنَ عديٍّ أخا بني العجلان، فقال: انطلقا إلى هذا المسجدِ الظالمِ أهلُه فاهدماهُ وحرِّقاه. فخرجا سريعين حتَّى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهطُ مالكِ بنِ الدُّخشُم، فقال مالكٌ لمعن: أنظرني حتَّى أخرجَ إليك بنارٍ من أهلي. فدخل أهلَه فأخذ سعفًا من النخلِ، فأشعل فيه نارًا، ثمَّ خرجا يشتدَّان حتَّى دخلا المسجدَ وفيه أهلُه، فحرَّقاه وهدماه وتفرَّقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾.

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروس المستفادة من بناءِ مسجدِ الضِّرار:

1 ـ النِّفاقُ عَدُوٌّ داخليٌّ أخطرُ من العَدُوِّ الخارجيّ، فالمنافقُ يعيشُ بينَ المؤمنين، ويأكلُ معهم، ويُظهرُ الولاءَ ظاهراً، بينما يُضمرُ العداءَ في الخفاء، فيطعنُ الصَّفَّ من داخله، حيثُ لا يشعرُ به أحد، ولذلك كان خطرُه أشدَّ من السَّيفِ المرفوعِ مواجهةً.

2 ـ قد يتستَّرُ الباطلُ بلَبوسِ الحقِّ، فالشرُّ لا يأتي دائمًا بوجهٍ قبيحٍ صريحٍ، بل قد يختبئُ خلفَ شعاراتٍ براقةٍ ومساجدَ مزيّفةٍ وادعاءِ الإيمان، ولذلك يحتاجُ المرءُ إلى بصيرةٍ تميّزُ ما وراء الألفاظِ والمظاهر.

3 ـ الوحيُ هو المِعيارُ الأعلى لكشف الحقائق، فالعقولُ مهما بلغتْ قد تنخدعُ أمامَ الخديعةِ المُحكمة، ولكنَّ اللّه تعالى لا يخفى عليه شيء، فكان القرآنُ هو الحكمَ العدلَ الذي كشفَ سريرةَ المنافقين، وهتكَ سترَ افترائهم.

4 ـ لا ولاءَ في الإسلام إلّا للحقِّ وأهله، فمن شابه المنافقين في طريقهم أو نواياهم، ولو نسبَ نفسه إلى الطاعة، فقد خانَ الجماعةَ وطعنَ الإيمان، فلا قيمةَ للّسان إذا خالفهُ الجَنانُ والعمل.

5 ـ الهدمُ قد يكونُ عبادةً، فالرسولُ ﷺ أمرَ بهدمِ مسجدٍ بُني على الفُرقةِ والإثم، لأنَّ بقاءَه كان سيُبقي الشرَّ حيًّا، فهدمُه نصرةٌ للدين، ودليلٌ أنَّ الإسلامَ لا يقبلُ باجتماعِ الحقِّ والباطلِ تحت سقفٍ واحد.

6 ـ الجماعةُ المؤمنةُ هي الهدفُ الأول لأهل الفتنة، فالمنافقون لم يبنوا مسجد الضِّرار للصلاة، بل لضربِ وحدةِ المسلمين، وتشتيتِ صفّهم، وزلزلةِ ثقتهم بقيادتهم، فكان هدفُهم كسرَ الجماعةِ قبلَ كسرِ الجدران.

7 ـ العِبرةُ بالخواتيم لا بالبدايات، فالمسجدُ الذي بدا في أوّلِ أمره مكانًا للعبادة، انتهى خرابًا وحسرةً لأصحابه، وبقي عارُهُ شاهدًا على أنَّ الأعمالَ بمقاصدِها لا بأسمائِها.

8 ـ القائدُ الربانيُّ لا ينخدعُ بالبهرجة، فالرسولُ ﷺ لم يستجبْ لدعوتهم رغمَ زينةِ القول، بل انتظرَ الوحيَ، لأنَّ القائدَ الصَّادقَ لا يحكمُ بعاطفةٍ أو استعجال، وإنَّما بميزانِ الحقِّ والعدل.

9 ـ قلوبُ المؤمنين مرآةٌ للحقِّ، فالمؤمنُ الحقُّ يشمُّ رائحةَ الخداعِ كما يشمُّ العطرَ الزَّكيِّ، فلا ينخدعُ بكثرةِ السَّاجدِين ولا ضخامةِ البناءِ ما دامَ الشكُّ يعصفُ بالنِّيةِ والغاية.

10 ـ ثباتُ الحقِّ يُسقِطُ مشاريعَ الباطل، فما قام على ريح سقط مع أوَّل نفخة، ولذلك انهار مسجد الضِّرار، وبقي المسجدُ الذي أُسِّسَ على التَّقوى شامخًا، لأنَّ قوةَ الحقِّ ليست في حجارتِه بل في نور رسالته.

أبو بكر أميراً على الحَجِّ!
الخَليفَةُ القَادم يتحضَّر!

فـي العـامِ التَّاسـعِ للهجـرةِ، كان الإسـلامُ قـد ارتقـى ذروةَ مجـدِهِ، وتكسَّـرتْ علـى صخرتِـهِ آخـرُ أمـواجِ الوثنيَّـةِ المتهاويـةِ! وفـي تلـك اللَّحظـةِ المهيبـةِ، أرادَ رسـولُ اللّٰهِ ﷺ أن يُقيـمَ للقيـادةِ ميزانَهـا فـي الأمَّـة، وأن يُعـرِّفَ القلـوبَ بالرَّجـلِ الـذي ربّـاهُ علـى عينـهِ، وأغـدقَ عليـهِ مـن صفـاءِ سـريرتِهِ، حتَّـى صـارَ ثانـيَ اثنيـنِ إذ همـا فـي الغـارِ... أبـو بكـرٍ الصِّدِّيـقُ ﷺ.

اختـارَهُ النَّبـيُّ ﷺ أميـراً علـى الحـجِّ، لا لأنَّـهُ أقدمُهـم إسـلاماً فحسـبُ، ولا لأنَّـهُ أقرَبُهُم إلـى روحِـهِ الطَّاهـرةِ فقـط، بل لأنَّـهُ أعرفُهم بمنهـاجِ النُّبـوَّةِ، وأصدقُهـم تقديمـاً للّٰهِ ورسـولِهِ علـى نفسِـهِ وأهلِـهِ ومالِـهِ، ولأنَّ قلبَـهُ مـن شـدَّةِ الإيمـانِ يكـادُ يُضـيءُ ولـو لـم تمسَسْـهُ نـارٌ!

خـرجَ الصِّدِّيـقُ بالنَّـاس إلـى بيـتِ اللّٰهِ الحـرام، يمثِّـلُ فـي هـذا الموكـبِ المهيـبِ ظـلَّ القيـادةِ القـادم، فـإذا وقوفُـهُ فـي المشـاعرِ إيـذانٌ بأنَّـهُ الأمينُ علـى الدِّينِ بعدَ نبيِّـهِ، واليـدُ التـي ستمسـكُ لـواءَ الإسـلامِ حيـنَ تدمـعُ العيـونُ لفـراقِ الحبيـبِ المُصطفـى ﷺ.

كان الصَّحابـةُ ينظـرونَ إليـهِ فـي تلـك الرِّحلـة المباركـةِ نظـرةً جديـدةً: هـذه الإمـارةُ ليسـت مجـرَّدَ تكليـفٍ بحـجٍّ، بـل هـي رسـالةٌ

تُقـرأُ، وإشـارةٌ لا تخفـى علـى لبيـبٍ؛ أنَّ الرَّجـلَ الـذي يَؤمُّهـم فـي المناسـكِ اليـومَ، سـيَؤُمُّهم فـي الدُّنيـا غـداً، فإذا الرِّسـالةُ قد اسـتقرَّتْ فـي القلـبِ، واطمأنَّـتِ الأمَّـةُ أنَّ بناءَهـا لـن يتصـدَّعَ بعـدَ رحيـلِ نبيِّهـا.

فـي ذِي الحِجَّـةِ مـن السَّـنةِ التَّاسـعة للهجـرة، بعـثَ رسـولُ اللّٰهِ ﷺ أبـا بكـرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه أميـراً علـى الحـجِّ؛ ليقيمَ بالمُسـلمينَ المناسِـكَ.

ثـمَّ نزلـتْ أوائـلُ سـورةِ «بـراءةَ» بنقـضِ المواثيـقِ ونبذِها على سـواءٍ، فبعـثَ رسـولُ اللّٰهِ ﷺ علـيَّ بـن أبـي طالـبٍ رضي الله عنه ليـؤدِّيَ عنـهُ ذلـك، وذلـك تمشِّـياً منـهُ علـى عـادةِ العـربِ فـي عهـودِ الدِّمـاءِ والأمـوالِ. فالتقـى علـيٌّ بأبـي بكـرٍ بالعَـرْجِ أو بضَجْنـانَ، فقـال أبـو بكـرٍ: أميـرٌ أو مـأمورٌ؟

قال عليٌّ: لا، بل مـأمورٌ.

ثـمَّ مضيـا، وأقـامَ أبـو بكـرٍ رضي الله عنه للنَّـاسِ حجَّهُـم، حتَّـى إذا كان يـومُ النَّحـرِ، قـامَ علـيُّ بـنُ أبـي طالـبٍ رضي الله عنه عنـد الجمـرةِ، فـأذَّنَ فـي النَّـاس بالـذي أمـرهُ رسـولُ اللّٰهِ ﷺ. ونبـذَ إلـى كلِّ ذي عهـدٍ عهـدَه، وأجّـلَ لهـم أربعـةَ أشـهرٍ، وكذلـك أجّـلَ أربعـةَ أشـهرٍ لمـن لـم يكـنْ لـهُ عهـدٌ. وأمَّـا الذيـنَ لـم ينقُصـوا المسـلمينَ شـيئاً، ولـم يُظاهِـروا عليهـم أحـداً، فـأبقـى عهدَهـم إلـى مُدَّتِهـم.

وبعثَ أبو بكرٍ ﷺ رجالاً يُنادونَ في النَّاس: ألا لا يحجَّ بعد هذا العامِ مشركٌ، ولا يطوفَ بالبيتِ عُريانٌ.

وكان هذا النِّداءُ بمثابةِ إعلانِ نهايةِ الوثنيَّةِ في جزيرةِ العربِ، وأنَّها لا تُبدِئُ ولا تُعيدُ بعد هذا العامِ!

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروس المُستفادة من تعيين أبي بكرٍ ﷺ أميراً على الحجِّ:

1 ـ صناعةُ القادة قبلَ الحوادث، إنَّ القائد لا يُصنعُ لحظةَ الشدّةِ، بل يُبنى عبر السنين، كما بنى النبيُّ ﷺ أبا بكرٍ ﷺ على عينه، حتَّى إذا اشتدَّ عودُ الأمَّةِ وآن أوانُ انتقالِ الرَّاية، وجدوا في الصِّدِّيق قائداً جاهزاً تسطعُ فيه ملامحُ النُّبوّةِ وسمتُها.

2 ـ التدرُّب على الخلافة قبل وقوعها، كان حجُّ الصِّدِّيقِ تدريباً عمليًّا للأمّة على طاعةِ من يقودها بعد رحيلِ النَّبيِّ ﷺ؛ فطاعةُ النَّاس له في أعظم شعيرةٍ إعلانٌ بأنَّ الإسلامَ لا يتوقَّفُ على حياةِ فردٍ ولو كان رسولَ اللهِ ﷺ.

3 ـ الثِّقةُ بالتَّربيَّة النَّبويَّة، اختيارُ النَّبيِّ ﷺ لأبي بكرٍ ﷺ دليلُ ثقة تامَّة بطهرِ قلبه، وصفاءِ عقله، وثباتِ خطوته؛ رسالةٌ مفادُها أنَّ رجالاتِ النُّبوّة لم يتشكَّلوا صدفةً، بل صقلتهم تربيةٌ ربَّانيَّةٌ مباركة.

4 ـ أنَّ المنصبَ يُعطى للأتقى والأقوى في الحقِّ، لم تنظرِ القيادةُ في الإسلام إلى الوجاهاتِ القبليَّةِ أو مظاهرِ النُّفوذ، بل

نُظِـر إلـى صِـدقِ الصِّدِّيـق، وإلـى سـوابقِه التـي لا يدانيـه فيهـا أحـدٌ مـن الصَّحابـة، فاسـتحقَّ الإمـارةَ بجـدارةٍ وعـدل.

5 ـ إعـلانُ هيبـة الإسـلام فـي أعظـم مشـهدٍ تعبّـديّ، وقـوفُ المسـلمين خلـف قائـدٍ منهـم، يحمـلُ رايـةَ التوحيـدِ فـي أرضٍ كانـت تمـوجُ بالشـرك، كان مشـهداً مهيبـاً تُخبـر عظمتُـه أن الإسـلامَ بلـغ قمّـةَ سـلطانِه علـى القلـوبِ والبـلاد.

6 ـ الحكمُ والقيـادة عبـادةٌ قبـل أن تكون سياسـة، الصدِّيـقُ ﷺ لم يكـن فـي الحـجِّ واليـاً يسـتعرضُ قوَّتَـه، بـل عبـداً يصـلُ قلبَـه بالسَّـماء فـي كلِّ خطـوة؛ يرفـعُ النَّـاس وراءه أصواتهـم بالتلبيـة، ويرفـعُ هـو قلبَـه إلـى اللّٰهِ بتجديـدِ العهـدِ علـى الوفـاء.

7 ـ قطـعُ صِـلات الجاهليـة بحسـمٍ لا تـردّد فيـه، إعـلانُ بـراءةٍ علـى مسـامعِ الدُّنيـا بأنَّـه لا شـركَ بعـد اليـوم عنـد بيـتِ اللّٰهِ الحـرام، كان حـدّاً فاصـلاً بيـن ديـنٍ بـاقٍ وديـنٍ فـانٍ، وكأنّ الأمّـةَ تُغلـقُ آخـرَ صفحـةٍ مـن الجاهليّـةِ بـلا رجعـة.

8 ـ الإمـارةُ تُظهـرُ جوهـرَ الرِّجـال، فقـد كشـفت هـذه القيـادةُ عـن نـورِ الصدِّيـقِ الـذي كان فـي قلبـه خافقـاً، فظهـرَ للنـاسِ أنَّ هـذا الرجـلَ ليـس تابعـاً عظيمـاً فقـط، بـل قائـداً إذا تقـدّم، سـكنتْ النفـوسُ خلفـه واطمأنّـت.

9 ـ القيـادةُ ليسـت صوتـاً عاليـاً بـل قلبـاً يطمئـنُّ النَّـاس بـه، كان أبـو بكـرٍ ﷺ هـادئَ الطبـعِ، ليّـنَ الجانـبِ، ومـع ذلـك هابتـهُ النفـوسُ لصفـاءِ نيّتـهِ وقـوّة يقينـه؛ تعليـمٌ بـأنّ القائـدَ الحـقَّ هـو مـن يُلهـمُ الأمـنَ قبـل أن يُلهـمَ الخـوف.

10 ـ أنَّ الدينَ سيبقى ويزهو بعد رحيل النبيِّ ﷺ، كان الحجُّ بقيادةِ الصدِّيقِ وعداً إلهياً أن الرسالةَ لن تُطوى بانقطاعِ الوحي، وأنّ هذا الدينَ له رجالٌ يحملونه، فإذا غابَ النورُ الأولُ بقيتْ أنوارُه تتلألأ في قلوبِ ورثتِه الصَّادقين.

الوُفود عندَ النَّبيِّ ﷺ!
في دِينِ اللّٰهِ أفواجاً!

لمَّا انقشعتْ غشاوةُ الجاهليّةِ عن وجهِ الجزيرةِ، وتهدّمتِ الأصنامُ تحت أقدامِ الفاتحين، وبزغَ نورُ مكَّة من جديدٍ بنورِ التوحيدِ، أيقنتِ القبائلُ أنَّ الرُّشدَ قد ظهر، وأنَّ صوتَ الحقِّ الذي خَفَتُوهُ دهراً عادَ يجلجلُ في السَّماء! فانطلقتْ الرِّحالُ من كلّ حيٍّ، تتسابقُ إلى المدينةِ كما يتسابقُ الظَّمآنُ إلى الموردِ العذب، يبحثون عن كلمةٍ تُصلحُ قلوبهم، وبيعةٍ تُطهِّرُ تاريخهم.

كانت بوّابةُ المدينةِ يومئذٍ تشهدُ موكباً لا ينقطع؛ رُسلٌ من الشَّمالِ والجنوبِ، ومن السَّهلِ والجبلِ، كلُّ وجهٍ يحملُ قصةً، وكلُّ قبيلةٍ تحملُ تاريخاً جديداً تُسلِّمهُ بين يدي رسولِ اللّٰهِ ﷺ. ما كان ذلك قدومَ ضعفٍ يستسلمُ للقوّة، بل قدومَ بصيرةٍ أدركتْ أنّ اللّٰه عزَّ وجلَّ قد أثبتَ كلمته، وعلّق الرُّشدَ بأهدابِ هذا النَّبيِّ الكريم.

جلس سيِّدُ الخلقِ ﷺ يستقبلُهم ببِشْرِ الواثقِ المطمئنِّ، لا يرى في وجوهِهم إلّا إخوةً ضلُّوا الطّريقَ فاهتدوا، ولا في خطواتِهم إلّا قلوباً جاءتْ تبحثُ عن السَّلام. فكانت مجالسُه معهم منابرَ علمٍ وهدايةٍ، فيها تُعلَّمُ العقيدةُ، وتُحفظُ الحقوقُ، وتُكتبُ العهودُ التي أُريدَ لها أن تبقى ما بقيَ الدِّينُ.

وبيـن يديـهِ ﷺ ولـدتْ الأُمّـةُ الكبـرى؛ أُمّـةٌ لا تجمعُهـا عصبيّـةُ دمٍ، بـل يجمعُهـا إيمـانُ قلـبٍ وقِبلـةُ حـقٍّ، حتَّـى سُـمِّي ذلـك العـام عـامَ الوفـود؛ عـامٌ انحنـى فيـه التاريـخُ احترامـاً، وارتفـعَ فيـه شـأنُ المسـلمينَ فـي مشـارقِ الجزيـرةِ ومغَاربِهـا، وانتقـل فيـه الإسـلامُ مـن مرحلـةِ الدّعـوةِ إلـى مرحلـةِ الحضـارةِ والبنـاء.

بعـد فتـحِ مكَّـة فـي العـامِ الثَّامـنِ للهجـرةِ، وانتهـاءِ غـزوةِ تبـوكٍ، وسـقوطِ آخـرِ المعاقـلِ المقاومـةِ لدولـةِ الإسـلام، وظهـورِ نتائـجِ الصـراعِ بيـن الحـقِّ والباطـلِ، وبيـن التَّوحيـدِ والشِّـركِ، بـادرت قبائـلُ العـربِ إلـى الإسـلام، وأقبلـت الوفـودُ إلـى النَّبـيِّ ﷺ مـن كلِّ حـدبٍ وصـوبٍ، كمـا قـال اللّهُ تعالـى فـي كتابِـهِ الكريـمِ: ﴿وَرَأَيْـتَ النَّـاس يَدْخُلُـونَ فِي دِيـنِ اللهِ أَفْوَاجًـا﴾

حتَّـى ازداد عـددُ تلك الوفـودِ فـي ذلـك العـامِ علـى السّـتينَ وفـداً، واهتـمَّ بعـضُ العلمـاءِ بذِكـرِ تفاصيلِهـا وإيـرادِ أخبارِهـا كابـنِ إسـحاقَ فـي سيرتِه وابـنِ سـعدٍ فـي الطَّبقـاتِ، وهـذه لمحـةٌ موجـزةٌ عـن أهـمِّ تلـك الوفـودِ:

أ. وفدُ بني تميمٍ:

يُعَدُّ وفـدُ بنـي تميـمٍ مـن أبـرزِ الوفـودِ التـي جـاءتْ إلـى المدينـةِ فـي ذلـك العـامِ، وذلـك لمكانتِـهِ بيـن قبائـلِ العـربِ، وسُـمعتِهِ فـي مجـالِ الأدبِ والخطابـةِ والشِّـعرِ.

وكان قدومُهم إلى النَّبيِّ ﷺ بسبب سَرِيَّةِ عُيينةَ بن حِصنٍ رضي الله عنه إليهم، فقد أُسِرَ منهم أحدَ عشرَ رجلاً وإحدى عشرةَ امرأةً، فقدم رؤساؤهم وأشرافهم ليشفعوا في هؤلاء الأسرى.

ويحكي علماءُ السِّيرةِ تفاصيلَ دخولِهم على النَّبيِّ ﷺ وندائهم له على نحوٍ منافٍ للأدبِ نزلَ على إثرها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

كما جرى بينهم وبين المسلمين سِجالاتٌ شعريَّةٌ ومعارضاتٌ خطابيَّةٌ كانت في النِّهايةِ سبباً في إسلامِهم وإسلامِ قومِهم بعد ذلك.

ب. وفدُ عبدِ القيسِ:

تذكرُ المصادرُ التاريخيَّةُ أنَّ رجلاً من بني عبدِ القيسِ يُقال لهُ منقذُ بنُ حيانَ كان يردُ المدينةَ للتِّجارةِ، فرأى النَّبيَّ ﷺ وأنصتَ لكلامِهِ فأعجبَهُ، فأسلمَ وحَسُنَ إسلامُهُ، ثمَّ بعثَهُ النَّبيُّ ﷺ بكتابٍ إلى قومِهِ يدعوهم إلى الإسلام، فتوافدوا عليه في ذلك العامِ وسألوهُ عن الإيمانِ والأشربةِ، وكان كبيرُهم الأشجَّ الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ: إنَّ فيكَ خِصلتينِ يحبُّهما اللّه: الحِلمُ والأناةُ!

ت. وفدُ نجرانَ:

كان النَّبيُّ ﷺ قد أرسلَ إلى نصارى نجرانَ يدعوهم إلى الإسلام، فبعثوا إليهِ بوفدٍ من أشرافِهم ليقابلوهُ، ودار النِّقاشُ طويلاً بين أولئك النَّصارى وبين رسولِ اللّهِ ﷺ، ونزلت الكثيرُ من الآياتِ التي تجيبُ عن تساؤلاتِهم.

وبعد أن رأى رسولُ اللّهِ ﷺ تَعَنُّتَهُم وإصرارَهُم على تزويرِ الحقائقِ دعاهم إلى المباهلةِ كما أمرَهُ اللّهُ تعالى في قوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾

فامتنعوا عن المباهلةِ خشيةَ الهلاكِ ونزولِ العذابِ، ثمَّ تصالحوا مع النَّبيِّ ﷺ على دفعِ الخراجِ، واشترطوا أن يبعثَ معهم رجلاً أميناً لقبضِ المالِ، فبعثَ معهم أبا عبيدةَ بنَ الجراحِ ﵁، ثمَّ ما لبث الإسلامُ أن انتشر بينهم حتَّى أرسلَ النَّبيُّ ﷺ من يأخذُ منهم صدقاتِهم.

ث. وفدُ بني حنيفةَ:

جاء وفدُ بني حنيفةَ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ وكانوا سبعةَ عشرَ رجلاً فيهم مُسيلمةُ الكذّابُ، فأسلموا ونزلوا في دارِ بنتِ الحارثِ المخصَّصةِ للوفودِ، أمَّا مُسيلمةُ فكان يطمَعُ في المُلكِ والرِّياسةِ، وكان يقولُ: إن جعلَ لي محمَّد الأمرَ من بعدِه تبعتُهُ!

فلمَّا سمع النبيُّ ﷺ مقالَتهُ قال له: لو سألتَني هذه القطعةَ ما أعطيتُكها، ولن تعدو أمرَ اللّهِ فيكَ، ولئن أدبرتَ ليعقرنَّكَ اللّهُ، وهذا ثابتٌ يجيبُكَ عنِّي!

وكان النَّبيُّ ﷺ قد رأى في منامِهِ سِوارَينِ من ذهبٍ فَسَرَّهُ ذلك حتَّى نُفِخَ فيهما فصارا تراباً فَأَوَّلَهُما بخروجِ كذّابَينِ: العَنْسِيِّ ومُسيلمةَ.

ج. وفدُ الحِميرِيِّينَ من أهلِ اليمنِ:

كانت لهم وفادةٌ في السَّنةِ التَّاسعةِ من الهجرةِ وافقت قدومَ وفدِ بني تميمٍ، وكانوا أفضلَ منهم إذ قبلوا البُشرى، وقالوا للنَّبيِّ ﷺ: قبلنا!

وسألوه عن أحكام الدين وأمور الخلقِ، فأجابهم ﷺ كما ورد في البخاري.

ح. وفدُ طيءٍ:

قدم وفدٌ من أعيانِ طيءٍ ومعهم سيدُهم زيدُ الخيلِ رضي الله عنه، فسماه النبيُّ ﷺ زيدَ الخيرِ، وأسلموا جميعاً وحَسُنَ إسلامُهم.

خ. وفدُ بني عامرٍ:

استقبلهم النبيُّ ﷺ فأُعجبوا بأخلاقه فأسلموا، وقال لهم: قولوا بقولِكم أو بعضِ قولِكم ولا يستجرينَّكم الشيطان!

وكان في الوفد عامرُ بنُ الطفيلِ الذي أراد الغدرَ بالنبيِّ ﷺ، فكفاه اللّٰه شرَّهُ، فمات بعد أيامٍ بالأورامِ الخبيثةِ.

د. وفدُ بني سعدِ بنِ بكرٍ:

جاء ضِمامُ بنُ ثعلبةَ رضي الله عنه فسأل النبيَّ ﷺ أسئلةً عظيمةً عن التوحيدِ والشرائعِ، فلمَّا رجعَ إلى قومِهِ دعاهم إلى الإسلامِ فأسلموا جميعاً في يومٍ واحدٍ!

وقال ابنُ عباسٍ: ما سمعنا بوافدِ قومٍ كان أفضلَ من ضِمامٍ! ثمَّ جاءَ قومه يُسلمون!

ذ. وفدُ المُراديِّينَ:

جاء فروةُ بنُ مسيكٍ المراديُّ ﵁ بقومه، وطلب الإذنَ بقتالِ من أدبرَ من قومِه، فأمرهُ النبيُّ ﷺ أن يدعوهم أولاً فإن أسلموا قبل منهم، ثمَّ استعملهُ على مرادٍ ومذحجٍ وزبيدٍ.

ر. وفدُ كِندةَ:

قدم الأشعثُ بنُ قيسٍ ﵁ بقومه، وأسلموا ولزموا المدينةَ يتعلمون الدين، وسألوا عن نسبِ قريشٍ فأخبرهم النبيُّ ﷺ: نحنُ بنو النضرِ بنِ كنانةَ لا ننتفي من أبينا!

ز. وفدُ جريرٍ بنِ عبداللّٰه البجليِّ:

قدم من اليمنِ، وقد أثنى عليه النبيُّ ﷺ قبل قدومِه وقال: يدخلُ عليكم من هذا الفجِّ خيرُ ذي يمنٍ!

فحمد جريرٌ اللّٰه على تلك البشارةِ.

س. وفدُ ثقيفٍ:

أنزلهم النبيُّ ﷺ المسجدَ لرقّةِ قلوبِهم، فطلبوا استثناءاتٍ في الزنا والخمرِ والربا والصَّلاة!

فأبى النَّبيُّ ﷺ!

فأسلموا واشترطوا أن يهدمَ ﷺ اللاتَ، واستعمل عليهم عثمَانَ بنَ أبي العاصِ لحرصهِ على التفقه.

ش. وفدُ تميم الداريِّ:

كان نصرانياً فأسلمَ وسُرَّ به النبيُّ ﷺ إذ شهدَ بصدقِ ما أخبرَ به ﷺ عن الدجالِ. فجاءَ ومعه وفدٌ من قومه، فأسلمُوا، وأكرمهم النَّبيُّ ﷺ!

ولأنَّ السِّيرة واقعٌ يُعاشُ، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروس المُستفادة من مجيء الوُفود إلى النَّبيَّ ﷺ:

1 ـ قوَّةُ الدَّعوةِ تَظهَرُ حينَ تَملِكُ القُلوبَ لا حينَ تَقهَرُ الأبدانَ، إنَّ النَّاس لَم يَأتوا إلى المدينةِ لأنَّ السَّيفَ فوقَ رُؤوسِهِم، بل لأنَّ نورَ الهدايةِ اقتَحَمَ صُدورَهُم، فتبدَّلت عُقولُهُم وقناعاتُهُم، وقد أثبَتَ الإسلامُ أنَّ أعظمَ انتصارٍ هو ذاك الذي تُحرَزُهُ الدَّواخِلُ حينَ تَنقادُ القلوبُ قبلَ الأجسادِ.

2 ـ النَّصرُ الحقيقيُّ أنْ تُقبِلَ الأُمَمُ على الحَقِّ طَوعاً، لقد كان صُلحُ الحُديبيةِ وفَتحُ مكَّة محطَّةً فاصلةً جعلَتِ القَبائلَ تُدرِكُ أنَّ الإسلامَ هو المُستَقبَلُ فأتَت طائعةً مُكرَّمةً، وترفَعُ بَيعةً لا يُصاحِبُها خَوفٌ ولا قَهرٌ، بل رغبةٌ في الدخولِ تَحتَ ظلالِ الرَّحمةِ الإلهيَّةِ.

3 ـ الحِكمةُ في القِيادةِ تَكمُنُ في تَحويلِ الخُصومِ إلى إخوةٍ، استقبَلَ النَّبيُّ ﷺ مَن كانَ بالأمسِ عَدُوّاً لهُ ببِشرٍ وصَفاءٍ، فصاروا أحبَّ النَّاس إليهِ، وبذلك أسقَطَ الإسلامُ تَراكماتِ الثَّأرِ والحِقدِ ليَبدأَ مع الجميعِ حياةً جديدةً عنوانُها العَفوُ والسَّماحةُ.

4 ـ الإسلامُ رسالةُ بِنَاءٍ لا هَدم، لم يَكنِ الهدفُ إسقاطَ الأصنام وحدَها، بل البِناءُ فوقَ أنقاضِها: بِنَاءُ العُقولِ وصناعةُ الحضارةِ ووضعُ أُسُسٍ جديدةٍ للعَلاقاتِ بين النَّاس.

5 ـ العِلمُ هو أوَّلُ ما تُبنى بهِ الأُمَمُ، ما إنْ يَصِلَ الوفدُ حتَّى يَشرَعَ ﷺ في تعليمِهم أُصولَ الإيمانِ والصَّلاة والزَّكاةِ؛ فالتَّغييرُ يبدأُ مِن داخلِ النفوسِ إلى ظاهرِ الحياةِ.

6 ـ كرامةُ الإنسانِ أساسٌ في التَّعامُلِ النَّبويِّ، لم يُهِن وافِداً، ولم يُذكِّرهُ بخطيئِهِ القديم، بل رآهُ مُكرَّماً مُؤهَّلاً لحملِ النُّورِ بعدَ أنْ لَفَظَ الظَّلامَ.

7 ـ الدَّولةُ التي تُحسِنُ أخلاقَها تُحسِنُ سياستَها، كانت مجالِسُ النبيِّ ﷺ مع الوفودِ مدرسةَ أخلاقٍ قبلَ أنْ تكونَ منابِرَ سياسةٍ، يَزرَعُ فيها العَدلَ والوُدَّ، فيعودُ الوفدُ وهو سفيرٌ للإسلام في أهلِهِ.

8 ـ القُدوةُ أعظَمُ سِلاحٍ في تَغييرِ الشُّعوبِ، ما رأى أحدٌ رسولَ اللّهِ ﷺ إلّا أحبَّه، ولا سَمِعَهُ إلّا وثِقَ بهِ، فكانَ خُلُقُهُ وحدَهُ دعوةً تقومُ مقامَ آلافِ الخطبِ.

9 ـ وَحدةُ الرِّسالةِ أقوى مِن تَفرُّقِ العَصَبيّاتِ، تَلاشى صَوتُ التَّعصُّبِ للقبيلةِ حينَ ارتفَعَت كلمةُ التَّوحيدِ، وصار النَّسبُ والإيمانُ سواءً لا يُفرِّقُ بين عبدٍ وسَيِّدٍ.

10 ـ الدَّعوةُ حينَ تُحسِنُ بدايتَها تُحسِنُ نهايتَها، بدأ الإسلامُ دعوةَ مُستَضعَفينَ في مكَّة، ثمَّ جاءَ الوفودُ بعدَ الفتحِ خاضِعينَ للحقيقةِ التي ظَهَرَت لهم، وما هذا إلّا تمامُ الوَعدِ الإلهيِّ بأنَّ الدِّينَ للّهِ وأنَّ الرسالةَ باقيةٌ تَهدي الضَّالّينَ إلى الصِّراطِ المستقيمِ.

حَجَّةُ الوَدَاع!
اليَومَ أكملتُ لكُم دينَكُم!

كانـتِ الجزيـرةُ العربيّـةُ يومئـذٍ قـد لبسـتْ أثـوابَ الهدايـةِ كلَّهـا، وانقشـعتْ عـن أرواحِ أهلهـا سُـحُبُ الجاهليـةِ إلـى غيـرِ رجعـةٍ، وهـا هـو نـورُ الرسـالةِ قد أضـاءَ القلـوبَ وأتـمَّ اللّه نعمتهُ علـى المؤمنيـن. وفـي ذلـك العـامِ الأخيـرِ مـن عمـرِ النبـوّةِ، دعـا رسـولُ اللّهِ ﷺ النَّـاس إلـى حـجٍّ يجتمعـون فيـه تحـت رايـةِ التوحيـدِ، ويشـهدون آخـرَ مواقـفِ النـورِ مـع معلّـمِ الدُّنيـا طريـقَ الفـلاح.

خـرجَ ﷺ بالصَّحابـةِ فـي موكـبٍ لـم تشـهدِ الأرضُ لـه مثيـلاً؛ قلـوبٌ مؤمنـةٌ تطيـرُ شـوقاً، وأعيـنٌ تتعلّـقُ بالقـدوةِ الأولـى، وكأنّ القـدَمَ الـذي تسـيرُ بـهِ نبـيٌّ مرسـلٌ يخـطّ علـى التـرابِ حـدَّ الطريـقِ إلـى الجنَّـة. كان المشـهدُ مهيبـاً؛ أصـواتُ التلبيـةِ تعلو، وجبـالُ مكَّـة تـردّدُ الصـدى: لبَّيـك اللهـمَّ لبَّيـك! وكأنّ الكـونَ كلَّـهُ يشـاركُ تلـكَ الرعشـةَ مـن الخشـوعِ واليقيـن.

فـي عرفـاتَ وقـفَ ﷺ يخاطـبُ العالـمَ كلَّـهُ بلسـانِ الرحمـةِ والعـدلِ، يرسُـمُ للأمّـةِ دسـتورَها الخالـد: كرامـةُ الإنسـانِ، حرمـةُ الدمـاءِ والأمـوالِ والأعـراضِ، وضـرورةُ التمسّـكِ بكتـابِ اللّهِ وسـنّةِ نبيّـهِ، فكانـت خطبتُـهُ كتابـاً يُتلـى، وشمسـاً لا تغـربُ، وشـهادةَ إتمـامِ النعمـةِ وإكمـالِ الدّيـن.

وهنـاك، فـي ذلـك اليـومِ الأغـرِّ، تـردَّدت الكلَّمـاتُ التـي نزلـت مـن السَّماء معلنـةً اكتمـالَ الرسـالةِ: ﴿الْيَـوْمَ أَكْمَلْـتُ لَكُـمْ دِينَكُمْ﴾

فبكـى لهـا عمـرُ ﷺ، وعرفـتِ القلـوبُ أنَّ الـوَداعَ قـد اقتـربَ، وأنَّ الريحَ تحمـلُ آخـرَ أنفـاسِ النبـوّةِ إلـى الأفـقِ البعيـد!

وفـي يـومِ السـبتِ لأربـعٍ بَقِيـنَ مـن ذي القعـدةِ تهيَّـأ النَّبـيُّ ﷺ للرَّحيـلِ، فترجَّـلَ وادَّهـنَ ولبـسَ إزارَهُ ورداءَهُ، وقلـدَ بدنَـهُ، وانطلـقَ بعـدَ الظهـرِ حتَّـى بلـغَ ذا الحليفـةِ قبـلَ أن يصلـيَ العصـرَ، فصلاهـا ركعتيـنِ، وبـاتَ هنـاكَ حتَّـى أصبـحَ، فلمَّـا أصبـحَ قـالَ لأصحابِـه: أتانـي اللَّيلـة آتٍ مـن ربـي، فقـال: صـلِّ فـي هـذا الـوادي المبـارك، وقـل: عمـرةٌ فـي حجَّـةٍ.

وقبـلَ أن يصلـيَ الظهـرَ اغتسـلَ لإحرامِـه، ثـمَّ طيبتـهُ عائشـةُ بيدهـا بذريـرةٍ وطيـبٍ فيـهِ مسـكٌ، فـي بدنِـه ورأسِـه، حتَّـى كان وبيـصُ الطيـبِ يُـرى فـي مفارِقِـه ولحيتِـه، ثـمَّ اسـتدامَهُ ولـم يغسـلْه، ثـمَّ لبـسَ إزارَهُ ورداءَهُ، ثـمَّ صلـى الظهـرَ ركعتيـنِ، ثـمَّ أهـلَّ بالحـجِّ والعمـرةِ فـي مُصـلّاهُ، وقـرنَ بينهمـا، ثـمَّ خـرجَ، فركـبَ القصـواءَ، فأهـلَّ أيضًـا، ثـمَّ أهـلَّ لمـا اسـتقلتْ بـهِ علـى البيـداءِ.

ثـمَّ واصـلَ سـيرَهُ حتَّـى قـرُبَ مـن مكَّـة، فبـاتَ بِـذي طُـوى، ثـمَّ دخـلَ مكَّـة بعـدَ أن صلّـى الفجـرَ واغتسـلَ مـن صبـاحِ يـومِ الأحـدِ لأربـعِ ليـالٍ خَلَـوْنَ مـن ذي الحِجّـةِ، وقـد قضـى فـي الطريـقِ ثمَـانِ ليـالٍ، فلمَّـا

دخلَ المسجدَ الحرامَ طافَ بالبيتِ، وسعى بين الصفا والمروةِ، ولم يَحِلَّ، لأنّه كان قارِناً قد ساقَ معهُ الهديَ، فنزلَ بأعلى مكّة عند الحَجُونِ، وأقامَ هناكَ، ولم يَعُدْ إلى الطوافِ غيرِ طوافِ الحجِّ.

وأمَرَ مَنْ لم يكنْ معهُ هَدْيٌ من أصحابِهِ أنْ يجعلوا إحرامَهُمْ عُمْرَةً، فيطوفوا بالبيتِ وبينَ الصفا والمروةِ، ثمَّ يَحِلّوا حِلالاً تامّاً، فتردّدوا، فقالَ: لوِ استقبلتُ مِن أمري ما استدبرتُ ما أهديتُ، ولولا أنّ معيَ الهديَ لأحللتُ.

فحلَّ مَنْ لم يكنْ معهُ هديٌ، وسمعوا وأطاعوا.

وفي اليومِ الثامنِ من ذي الحِجّةِ، وهو يومُ الترويةِ، توجَّهَ إلى مِنًى، فصلّى بها الظهرَ والعصرَ والمغربَ والعشاءَ والفجرَ - خمسَ صلواتٍ - ثمَّ مَكَثَ قليلاً حتَّى طَلَعَتِ الشَّمس، فأجازَ حتَّى أتى عَرَفَةَ، فوَجَدَ القُبّةَ قد ضُرِبَتْ لهُ بِنَمِرَةَ، فنزلَ بها، حتَّى إذا زالَتِ الشَّمس أمرَ بالقَصواءِ، فرُحِلَتْ لهُ، فأتى بطنَ الوادي، وقد اجتمعَ حولَهُ مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ أو أربعةٌ وأربعونَ ألفاً من النَّاس، فقامَ فيهم خطيباً، وألقى هذه الخُطبةَ الجامعةَ:

أيُّها النَّاس، اسمعوا قولي، فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعدَ عامي هذا بهذا الموقفِ أبدًا!

إنَّ دماءَكم وأموالَكم حرامٌ عليكم كحُرمةِ يومِكم هذا، في شهرِكم هذا، في بلدِكم هذا. ألا كلُّ شيءٍ مِن أمرِ الجاهليّةِ تحتَ

قدمـيَّ موضـوعٌ، ودِمـاءُ الجاهليّـةِ موضوعـةٌ، وإنَّ أوَّلَ دم أضـعُ مِـن دمائِنـا دمُ ابـنِ ربيعـةَ بـنِ الحـارثِ، وكان مُسـترضَعاً فـي بنـي سـعدٍ فقتلَتْهُ هُذيلٌ، وربا الجاهليّـةِ موضـوعٌ، وأوّلُ ربـا أضـعُ مِن ربانـا ربـا عبّـاسِ بـنِ عبـدِ المطّلـبِ، فإنّـهُ موضـوعٌ كلُّـه!

فاتّقـوا اللّهَ فـي النسـاءِ، فإنّكم أخذتموهـنَّ بأمانةِ اللّهِ، واسـتحلَلْتُمْ فُروجَهُـنَّ بكلمـةِ اللّهِ، ولكم عليهـنَّ ألّا يُوطِئْنَ فُرُشَـكم أحـداً تكرهونَهُ، فـإنْ فعلـنَ ذلـكَ فاضربوهُـنَّ ضربـاً غيـرَ مُبَـرِّحٍ، ولهـنَّ عليكـم رِزقُهُـنَّ وكِسـوتُهُنَّ بالمعروفِ.

وقد تركتُ فيكم ما لن تضلّوا بعده إنِ اعتصمتُم بهِ، كتابَ اللّهِ!

أيّهـا النَّـاس، إنّـهُ لا نبـيَّ بعـدي، ولا أمّـةَ بعدَكم، ألا فاعبـدوا ربَّكم، وصلّـوا خمسَـكم، وصومـوا شـهرَكم، وأدّوا زكاةَ أموالِكُـم طيبـةً بهـا أنفسُـكم، وحُجُّـوا بيـتَ ربّكـم، وأطيعـوا أُولِـي أمرِكـم، تدخلـوا جنّـةَ ربّكـم!

وأنتم تُسـألونَ عنّي، فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهدُ أنّكَ قد بلّغتَ وأدّيتَ ونصحتَ.

فقـالَ بإصبعـهِ السّـبّابةِ يرفعُهـا إلـى السَّـماء، ويَنْكُتُهـا إلـى النَّـاس: اللهـمَّ اشـهدْ! ثـلاثَ مـرّاتٍ.

وكانَ الذي يصرخُ في النَّاس بقولِ رسولِ اللّهِ ﷺ، وهو بعَرَفةَ، ربيعةُ بنُ أميّةَ بنِ خلف.

وبعدَ أن فرغَ النبيُّ ﷺ من إلقاءِ الخُطبةِ نزلَ عليه قولُهُ تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

فلمَّا سمعها عمرُ بكى، فقيلَ لهُ: ما يُبكيكَ؟ قالَ: إنّهُ ليسَ بعدَ الكمالِ إلّا النُّقصانُ.

وبعدَ الخُطبةِ أذّنَ بلالٌ ثمَّ أقامَ، فصلّى رسولُ اللّهِ ﷺ بالنَّاس الظهرَ، ثمَّ أقامَ فصلّى العصرَ، ولم يُصَلِّ بينهما شيئًا، ثمَّ ركبَ حتَّى أتى الموقفَ، فجعلَ بطنَ ناقتهِ القَصواءَ إلى الصَّخَراتِ، وجعلَ جبلَ المشاةِ بين يديه، واستقبلَ القبلةَ، فلم يزل واقفًا حتَّى غربتِ الشَّمس، وذهبتِ الصُّفرةُ قليلًا حتَّى غابَ القُرصُ، وأردفَ أُسامةَ، ودفعَ حتَّى أتى المُزدَلِفةَ، فصلّى بها المغربَ والعشاءَ بأذانٍ واحدٍ وإقامتينِ، ولم يُسَبِّحْ بينهما شيئًا، ثمَّ اضطجعَ حتَّى طلعَ الفجرُ، فصلّى الفجرَ حتَّى تبيّنَ لهُ الصبحُ بأذانٍ وإقامةٍ، ثمَّ ركبَ القَصواءَ حتَّى أتى المُشعَرَ الحرامَ، فاستقبلَ القبلةَ، فدعاهُ، وكبَّرَهُ، وهلَّلَهُ، ووحَّدَهُ، فلم يزل واقفًا حتَّى أسفرَ جدًّا.

فدفعَ من المُزدَلِفةِ إلى مِنًى، قبلَ أن تطلعَ الشَّمس، وأردفَ الفضلَ بنَ عبّاسٍ حتَّى أتى بطنَ مُحَسِّرٍ، فحرَّك قليلاً، ثمَّ سلكَ الطريقَ الوُسطى التي تخرجُ على الجَمرَةِ الكُبرى، حتَّى أتى الجَمرَةَ

التي عندَ الشجرةِ ـ وهي الجمرةُ الكُبرى نفسُها، كانت عندَها شجرةٌ في ذلكَ الزمانِ، وتُسمّى بجَمرةِ العَقَبةِ وبالجَمرةِ الأولى ـ فرماها بسبعِ حصياتٍ، يُكبِّرُ مع كلِّ حصاةٍ منها، مثلَ حصى الخذفِ، رمى من بطنِ الوادي، ثمَّ انصرفَ إلى المَنْحَرِ، فنحرَ ثلاثاً وستينَ بَدَنةً بيدِه، ثمَّ أعطى عليًّا فنحرَ ما غَبَرَ، وهي سبعٌ وثلاثونَ بدنةً، تمامُ المائةِ، وأشركَهُ في هَدْيِه، ثمَّ أمرَ من كلِّ بدنةٍ بِبِضعةٍ، فجُعِلَتْ في قِدرٍ، فطُبِخَت، فأكلا من لحمِها، وشربا من مَرَقِها.

ثمَّ ركبَ رسولُ اللّهِ ﷺ، فأفاضَ إلى البيتِ، فصلّى بمكَّةَ الظهرَ، فأتى على بني عبدِ المطَّلبِ يسقُونَ على زمزمَ، فقال: انزعوا بني عبدَ المطَّلبِ، فلولا أن يغلبَكم النَّاس على سقايتِكم لنزعتُ معكم. فناوَلُوهُ دلواً فشرِبَ منهُ.

وخطبَ النبيُّ ﷺ يومَ النَّحرِ، عاشرَ ذي الحجّةِ، أيضاً حين ارتفعَ الضُّحى، وهو على بَغلةٍ شَهباء، وعليٌّ يعبِّرُ عنهُ، والنَّاس بين قائمٍ وقاعدٍ. وأعادَ في خُطبتِه هذه بعضَ ما كان ألقاهُ أمسِ، فقد روى الشيخانِ عن أبي بكرةَ قال: خطبَنا النبيُّ ﷺ يومَ النحرِ، قال:

إنَّ الزَّمانَ قدِ استدارَ كهيئتِه يومَ خلقَ اللّهُ السَّماواتِ والأرضَ، السَّنةُ اثنا عشرَ شهراً، منها أربعةٌ حُرُم، ثلاثٌ مُتوالياتٌ: ذو القعدةِ، وذو الحِجّةِ، والمُحرَّمُ، ورجبُ مُضَرَ الذي بين جمادى وشعبانَ!

وقال: أيُّ شهرٍ هذا؟

قلنا: اللّه ورسولُهُ أعلمُ.

فسكتَ حتّى ظننّا أنّهُ سيُسمِّيهِ بغيرِ اسمِه، قال: أليس ذا الحجّةِ؟

قلنا: بلى.

قال: أيُّ بلدٍ هذا؟

قلنا: اللّه ورسولُهُ أعلمُ. فسكتَ حتّى ظننّا أنّهُ سيُسمِّيهِ بغيرِ اسمِه، قال: أليستِ البلدةُ؟

قلنا: بلى.

قال: فأيُّ يومٍ هذا؟

قلنا: اللّه ورسولُهُ أعلمُ. فسكتَ حتّى ظننّا أنه سيُسمِّيهِ بغيرِ اسمِه، قال: أليسَ يومَ النحرِ؟

قلنا: بلى.

قال: فإنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ كحُرمةِ يومِكم هذا، في بلدِكم هذا، في شهرِكم هذا!

وستلقَونَ ربَّكم، فيسألُكم عن أعمالِكم، ألا فلا تَرجِعوا بعدي ضُلّالاً، يضربُ بعضُكم رِقابَ بعضٍ!

ألا هل بلّغتُ؟

قالوا: نعم.

قال: اللهمَّ اشهدْ.

فليبلّغِ الشاهدُ الغائبَ، فربّ مُبلَّغٍ أوعى من سامعٍ!

وأقـامَ أيّـامَ التَّشـريقِ بِمِنـىً يُـؤدّي المناسِـكَ، ويُعلّـمُ الشَّـرائعَ، ويذكُـرُ اللّه، ويُقيـمُ سُـنَنَ الهـدي مِـن مِلّـةِ إبراهيـمَ، ويمحـو آثـارَ الشِّـركِ ومعالمَهـا.

وفـي يومِ النَّفْرِ الثانـي، الثالـثِ عشـرَ من ذي الحِجّةِ، نفرَ النبيُّ ﷺ مـن مِنًـى، فنـزلَ بخَيْـفِ بنـي كِنانـةَ مِـن الأبطـحِ، وأقـامَ هنـاكَ بقيّـةَ يومِـهِ ذلـكَ وليلتـهِ، وصلّـى هنـاكَ الظهـرَ والعصـرَ والمغـربَ والعشـاءَ، ثـمَّ رقـدَ رقـدةً، ثـمَّ ركِـبَ إلـى البيـتِ، فطـافَ بـهِ طـوافَ الـوداعِ.

ولأنَّ السِّـيرة واقـعٌ يُعـاشُ، لا تاريـخٌ يُقـرأ، هـذه هـي أهـمُّ الـدُّروس المُسـتفادة مـن حجَّـة الـوداع:

1 ـ اجتمـاعُ الأمـةِ تحـتَ رايـةٍ واحـدة، فـي حجّـةِ الـوداعِ توحّـدَت الأصـواتُ بالتلبيـةِ وتسـاوتِ الصفـوفُ فـي صعيـدٍ واحـدٍ، لا فاصـلَ بيـن سيـدٍ وعبـدٍ، ولا حاجـزَ بيـن قـويٍّ وضعيـفٍ؛ فالأمّـةُ التـي تتوجّـهُ بقلـبٍ واحـدٍ نحـوَ قِبلـةٍ واحـدةٍ لا تُغلـبُ، وإن اختلفـت لغاتُهـا وأوطانُهـا، لأنّ اجتمـاعَ القلـوبِ يسـبقُ اجتمـاعَ الأبـدانِ.

2 ـ خروجُـه ﷺ ماشـياً فـي المناسـكِ درسُ تربيـةٍ وقيـادة، مشـى ﷺ بيـن النَّـاس لا يعزلُـه عنهـم حاجـبٌ ولا فـارقُ مكانـةٍ، فيـرى الكبيـرَ والصغيـرَ، ويسـألُ عـن حاجاتِهـم، ويجيـبُ مـن اسـتفتاه، ليؤكّـدَ أنَّ القيـادةَ ليسـت ارتفاعـاً فـوقَ الرقـابِ، بـل انحنـاءً علـى حاجـاتِ الرعيّـةِ رحمـةً وخدمـةً ورفقـاً.

3 ـ إعـلانُ الحقـوقِ يـومَ عرفـة، اختـار ﷺ أعظـمَ المجامـعِ ليُوجِّـهَ أعظـمَ خطـابٍ للعدالـةِ، يذكّـرُ فيـه بـأنَّ الإيمـانَ لا يرفـعُ الظلـمَ طالمـا

بقـي فـي اليـدِ حـقٌّ مسـلوبٌ أو دمٌ مهـدورٌ أو عـرضٌ منتهـكٌ، وأنّ اللّهَ لا يقبلُ طوافاً يجـاورُهُ ظلـمٌ، ولا ركعـةً تعلـو علـى صرخـةِ مظلـوم.

4 ـ إبطـالُ ثـاراتِ الجاهليـة، قطـع ﷺ سـلاسـلَ الـدمِ التـي كانـت تتوارثُهـا العـربُ جيـلاً بعـد جيـلٍ، وكأنَّـهُ يدفـنُ التاريـخَ الأسـودَ بيـدِ العدالـةِ البيضـاءِ، ليُعلِـمَ أنَّ الدولـةَ إذا لـم تُنـقِ قلـوبَ النَّـاس مـن أحقادِهـم فلـن تُقيـمَ حقّـاً ولـن تَمحـو باطـلاً.

5 ـ تصفيـةُ المظالـمِ قبـل لقـاءِ اللّه، حجّـةُ الـوداعِ محطـةُ مراجعـةٍ عظمـى، يُحاسـبُ فيهـا المؤمـنُ نفسَـهُ قبـل أن يُحاسَـبَ، ليفتـحَ فيهـا أبـوابَ الصلـحِ مـع العبـادِ، كـي يجـدَ بـابَ المغفـرةِ مفتوحـاً عنـد ربِّ العبـادِ.

6 ـ ردُّ الأمانـاتِ إلـى أهلِهـا قبـل الرحيـل، لـم يتـرك ﷺ الدُّنيـا إلّا وقـد تـركَ وصيّـةً أخيـرةً: «الأمانـةُ ديـنٌ»؛ فمـن خانَهـا سـقطَ مـن عيـنِ اللّهِ، ولـو مـلأَ الأرضَ عبـاداتٍ، فصـونُ الحقـوقِ يكشـفُ صـدقَ الإيمـانِ.

7 ـ إعـلانُ إكمـالِ الديـن، فـي يـوم تجلّـت فيـه السَّـماء علـى الأرضِ، نزلـت آيـةُ الكمـالِ إيذانـاً بانتهـاءِ التشـريعِ وتمـامِ النعمـةِ، فليـس لأحـدٍ أن يزيـدَ فـي ديـنِ اللّهِ ولا أن ينقُـصَ منـه شـيئاً، فقـد اكتملـتِ الرسـالةُ واسـتقامَ الطريقُ.

8 ـ الشـهادةُ الأخيـرةُ للأمـة، حيـن رفـع ﷺ صوتـه بالسـؤال: «هـل بلّغـت؟» ارتفعـت أصابعُهـم شـاهدةً أن النبـيَّ قـد أدّى الأمانـةَ، فكأنَّـه يُشـهدُ الأرضَ والسَّـماء ليحمِلـوا هـذا الديـنَ للآتيـن مـن بعدِهـم.

9 ـ التبليغُ تكليفُ كلِّ مسلم، ما كان الدينُ ليبلغَ الآفاقَ لو بقي حبيسَ مكَّة والمدينة، بل انتشرَ على أكتافِ رجالٍ ونساءٍ تشرّفوا بأن يكونوا امتداداً لصوتِ الحقّ الذي سمعوه في عرفات.

10 ـ المساواةُ واقعٌ لا شعار، الإحرامُ يخلعُ عن الإنسانِ رتبه وملابسَ التفاخرِ ليعيدَهُ إلى أصلِه: عبدٌ للّه، بلا تمييزٍ ولا استعلاءٍ، فالتقوى وحدَها معيارُ الرفعةِ عندَ ربّ العالمين.

11 ـ عبادةُ التلبيةِ إعلانُ الولاءِ للّه، لبّوا نداءً واحداً: «لبيكَ اللهم لبيك» ليموتَ في حجورِ التوحيدِ كلُّ نداءٍ لغيرِ اللّه، فلا سلطانَ في القلبِ لسواه.

12 ـ التيسيرُ في المناسكِ سنّة، حين قال ﷺ مراراً «افعل ولا حرج»، كان يضعُ قاعدةً عظيمةً: الدينُ يُسرٌ، وأنَّ اللّه لم يُرِد لعبادهِ العسرَ، وأنّ الطاعاتِ طريقُها القلوبُ لا الجراحُ.

13 ـ رفعُ الحرجِ عن النَّاس، إنّ اللّه لا يطلبُ المشقّةَ لذاتها، بل يطلبُ الطاعةَ مع الروحِ الساكنةِ؛ فمن وجدَ السعةَ فلا يُضيّق على نفسِه ولا على الآخرين.

14 ـ الخطابُ النبويُّ إعلانُ مسؤوليةٍ لا انتظارَ قيادةٍ، لم يرفعِ النبيُّ ﷺ في حجّةِ الوداعِ شخصاً بعينِه لينوبَ عنه، بل جعلَ الوصيّةَ للأمّةِ جميعاً، أن يتحمّلوا مسؤوليةَ الدينِ بعده، فالقائدُ هنا ليس فرداً واحداً، بل جماعةُ المؤمنين الذين ينهضون معاً بحملِ الرسالةِ، فلا ترتبطُ الهدايةُ بوجودِ شخصٍ وإن كان سيّدَ البشريةِ ﷺ، بل تبقى ما بقيَ القرآنُ والسنّةُ في القلوبِ والبيوتِ.

15 ـ تكريـمُ المـرأةِ فـي ختـامِ الرسـالة، وضـع ﷺ عنـد النسـاءِ آخـرَ وصايـاه؛ وكأنّـهُ يقـولُ: إن أردتـم أمـةً طيّبـةً مباركـةً، فابـدؤوا بالعـدلِ مـع أمّهاتِكـم وزوجاتِكـم وبناتِكـم.

16 ـ الحُرُمـاتُ تُسـتَعلنُ فـي أقـدسِ الأمكنـة، فـي الحـرمِ لا ظلـمَ ولا اعتـداءَ، ليبقـى هـذا الموطـنُ نموذجـاً مصغّـراً للعالـمِ الـذي يريـدهُ اللّهُ لعبـادهِ جميعـاً.

17 ـ تنظيـمُ الحشـودِ عبـادةٌ، الطاعـةُ واجتمـاعُ الصفـوفِ فـي المناسـكِ درسٌ فـي أنّ الأمـمَ لا تقـوى إلّا حيـن تنتظـمُ قواهـا وتتوحّـدُ وجهتُهـا.

18 ـ الحـجُّ مؤتمـرٌ عالمـيٌّ للأمـة، تلاقـتِ القبائـلُ بـلا حواجـزِ العنصريـةِ والسياسـةِ لتتعلّـمَ أنّ الهويـةَ الإسـلاميةَ أسـبقُ مـن كلّ هويـةٍ أرضيـة.

19 ـ المحبّـةُ فـي الاتّبـاعِ والعمـل، اتبـاعُ خطواتـهِ ﷺ عبـادةٌ، فالسـنّةُ ليسـت أقـوالاً تحفظُهـا القلـوبُ فقـط، بـل أفعـالاً تُمـارسُ لتوقـظَ القلـبَ وتُحيـي الـروحَ.

20 ـ الإيمـانُ حيـاةٌ كبـرى، الانتقـالُ بيـن المشـاعرِ شـعيرةٌ تذكـرُ المؤمـنَ بـأنَّ الحيـاةَ مقامـاتٌ مـن الطاعـةِ، يرتقـي فيهـا العبـدُ رتبـةً بعـد رتبـةٍ.

21 ـ اجتمـاعُ القلـوبِ عنـد عرفـات، هنـاكَ تتجـرّدُ النفـوسُ مـن الدُّنيـا، وتطلـبُ الغفـرانَ بصـدقٍ، فمـن لـم يولـدْ فـي عرفـاتَ مـن جديـدٍ، فـلا جديـدَ فـي حياتـه.

22 ـ القُدوةُ عملٌ لا قول، كان ﷺ يمارسُ ما يأمرُ به أمامَ الأمةِ، فغرسَ في القلوبِ أنَّ الخطابَ العمليَّ أصدقُ من آلافِ الخطبِ.

23 ـ لا وصيّةَ أعظم من كتابِ اللّه، القرآنُ ليس كتاباً يُتلى فحسب، بل قانونُ حياةٍ وهدايةُ أجيالٍ، ومن أراد النجاةَ في الدُّنيا والآخرةِ فليتّخذهُ إماماً وهادياً.

24 ـ الإيمانُ أمانٌ اجتماعيٌّ، كلُّ أمرٍ قاله ﷺ في وداعِه هدفُهُ حمايةُ المجتمعِ من الفسادِ ومن الظلمِ، لتعيشَ القلوبُ في طمأنينةٍ.

25 ـ الحقوقُ تُحفظُ قبل العبادات، العبادةُ بلا خلقٍ كجسدٍ بلا روحٍ، ومن وقفَ في عرفةَ وهو ظالمٌ لنفسهِ أو لغيرهِ فلم يقفْ بعدُ في موضعِ العفوِ حقّاً.

26 ـ التوحيدُ هو الرسالةُ الخالدة، اختفتِ الأصنامُ من الحرمِ كما اختفتِ الفوارقُ من القلوبِ، وبقي الإلهُ الواحدُ وحدَهُ سيداً للحياةِ والكونِ.

27 ـ الإخلاصُ روحُ العبادة، من لم يقدّمْ اللّه بقلبهِ لن ينتفعَ بحركاتِ جسدِه، فالإخلاصُ نورٌ تراهُ السَّماء ولو أخفاهُ النَّاس.

28 ـ الحجُّ انتقالٌ من الدُّنيا إلى الآخرة، الإحرامُ كفنٌ رمزيٌّ، والمشاعرُ منازلُ، والوقوفُ بين يدي اللّهِ استحضارٌ ليومٍ يقفُ فيه الخلقُ أجمعونَ للحساب.

29 ـ كلُّ مسلمٍ حاملُ نور، ما قاله ﷺ لكلِّ من حضر: بلّغوا... هو تسليمُ الرايةِ لكلِّ فردٍ: أن يُصبحَ داعيةً لخيرٍ يشعُّ في بيوتِ النَّاس ودروبِهم.

30 ـ الوداعُ رسالةُ بقاء، وقف ﷺ بينهم مودّعاً، لا مُستسلماً للفراقِ، بل واثقاً أنّ سنّتَه ستبقى النورَ الذي يُهتدى به، وأنّ الموتَ لا يُطفئُ ضياءَ الرسالةِ

بَلِ الرَّفيقِ الأعلى!
كيفَ طابَتْ لكُمْ أنفُسُكم أن تَحثُوا التُّراب على رسُولِ اللَّه ﷺ؟!

كانتِ المدينةُ آنذاكَ تَغفو على نورٍ واحدٍ، نورِ رجلٍ إذا ابتسمَ أزهرتِ الجدرانُ، وإذا غابَ خَبَا في القلوبِ ضوءُ الأمانِ. كانتِ الحياةُ تَدورُ حولَهُ ﷺ كما يَدورُ الكوكبُ حولَ شمسِه؛ السَّلامُ إذا مَشى، والرَّحمةُ إذا تكلَّم، واليقينُ إذا رفعَ طَرْفَهُ إلى السَّماء.

عاشَ النَّبيُّ ﷺ بعدَ حجَّةِ الوداعِ أيّامًا تُشبهُ خُيوطَ الشَّمس الأخيرةَ قبلَ المَغيبِ؛ دقائِقُ من نورٍ صافٍ تَختزنُ ما سيَبقى من هدايةٍ للأرضِ. وكانتِ المدينةُ تَتَنَفَّسُ حضورَهُ، ولا تَدري أنَّ هذا الحضورَ يَنسحبُ رُويدًا كأنَّهُ يُمَهِّدُ للسَّماءِ أن تَستردَّهُ.

وفي تلكَ الأيّامِ الأخيرة، بدا كأنَّ الزَّمانَ يَستجمعُ أنفاسَهُ في انتظارِ لحظةٍ لا يريدُ أن تأتيَ. كأنَّ الرِّيحَ تَمشي على أطرافِ أجنحتِها، والمدينةُ تُخفِي قَلقَها خلفَ صمتٍ طويلٍ في المنازلِ والمساجدِ.

كانَ ﷺ يَمشي بينَ أصحابِه فلا يَدرونَ أنَّهُ يُوَدِّعُهُم. يَبتسمُ لهم، ولا يَعلمونَ أنَّها ابتسامةُ الرَّاحلينَ، وأنَّ خَلْفَ سُكونِها جبالًا من وصايا النبوّةِ ورَحمتِها.

وحيـنَ اشـتدَّ عليـهِ الوجـعُ، تَحمَّـلَ الألـمَ بصمـتِ القائـدِ الـذي يَخشـى علـى أُمَّتِـهِ مـن الدمـوعِ أكثـرَ مـن خوفـه عليهـا مـن السُّـيوف. فمـا زالَ ﷺ يَحمِـلُ عنهـم هَـمَّ الدُّنيـا والآخـرةِ، حتَّـى حيـنَ ضـاقَ الجسـدُ بأوجاعِـهِ، اتّسـعَ القلـبُ ليَحمِـلَ أُمّـةً كاملـةً.

يـا لِهـذا المَشـهدِ العظيـم، مدينـةٌ تَرتجـفُ دونَ أن تَفهَـمَ أنَّ الشَّـمس تتهيّـأُ للغيـابِ، وأمّـةٌ تَقتـربُ مـن أكبـرِ امتحاناتِهـا: كيـفَ تَعيـشُ والنبـيُّ ﷺ ليـسَ بينهـا؟

ومـن ذا الـذي يَملـكُ أن يَحبـسَ دَمعَتَـهُ إذا تذكَّـرَ أنَّ آخـرَ مـا فَعلـهُ ﷺ أنْ كَشَـفَ السِّـتارَ عـن وَجهِـهِ الطّاهـرِ، فـرأى أصحابَـهُ مُصطفّيـنَ خلـفَ إمـامٍ غيـرِه، ثـمَّ ابتسـمَ.

ابتسامةُ الرِّضا، ابتسامةُ اكتمالِ الرِّسالةِ، ابتسامةُ الوَداعِ.

يـا اللّه، مـا أثقلَ الـوَداعَ إن كانَ مـن خاتمِ النبيِّيـنَ، الـذي خُتِـمَ بـهِ نـورُ السَّـماء علـى الأرضِ.

يا اللّه، كيفَ احتملتِ المدينةُ موتَ مَن كانتْ بهِ تَحيا؟

وكيـفَ لـم تَتَشَـقَّقِ الأرضُ مـن حُزنِهـا علـى مَـن لـم تطَأْهـا قَـدمٌ أطهـرُ منـهُ؟

سـلامٌ عليـكَ يـا رسـولَ اللّه مـا بَقِيَـتِ القلـوبُ تَهتِـفُ بالصَّـلاة عليـكَ كلَّ صبـاحٍ ومسـاءٍ!

كانَ فَتْـحُ مكَّـة هـو أوَّلَ عَلامـاتِ اقْتِـرابِ أجَـلِ رَسـولِ اللّهِ ﷺ، فقد نَزَلَت سـورةُ الفتـحِ إشـارةً إلـى تمـامِ الرِّسـالةِ واقتِـرابِ الأجَـلِ!

وروى البخـاريُّ مـن حديـثِ عبدِ اللّهِ بـنِ عبّـاسٍ رضـيَ اللّهُ عنهمـا، قـال: كانَ عُمَـرُ يُدْخِلُنـي مـع أشـياخِ بَـدْرٍ، فَـكَأنَّ بَعضَهُـم وَجَـدَ فـي نَفسِـهِ، فقـالَ: لِـمَ تُدْخِـلُ هـذا معَنـا ولَنـا أبنـاءٌ مِثْلُـهُ؟!

فقالَ عُمَرُ: إنَّهُ مَن قدْ عَلِمتُم.

فَدَعانـي ذاتَ يومٍ فأدْخَلَنـي معهم، فَمـا رُئيـتُ أنَّـه دَعانـي يومئـذٍ إلّا لِيُريَهُـم.

قـالَ: مـا تقولـونَ فـي قـولِ اللّهِ تعالـى: ﴿إِذَا جَـاءَ نَـصْرُ اللهِ وَالْفَتْـحُ﴾

فقـالَ بَعضُهُـم: أُمِرْنـا أن نَحمَـدَ اللّهَ ونَسـتَغفِرَهُ إذا نُصِرْنـا وفُتِـحَ علَينـا. وسَـكَتَ بعضُهُـم فلـم يَقُـل شـيئًا.

فقالَ لي: أكذلِكَ تقولُ يا ابنَ عبّاسٍ؟

فقلتُ: لا.

قالَ: فماذا تقولُ؟

قلتُ: هـو أجَلُ رسـولِ اللّهِ ﷺ أعْلَمَـهُ لـه، قـالَ: ﴿إِذَا جَـاءَ نَـصْرُ اللهِ وَالْفَتْـحُ﴾

وذلـكَ علامـةُ أجَلِـكَ: ﴿فَسَـبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّـكَ وَاسْـتَغْفِرْهُ إِنَّـهُ كَانَ تَوَّابًـا﴾

فقالَ عُمَرُ رضي الله عنه: ما أعْلَمُ منها إلّا ما تقولُ!

وبعدَ أن نَزَلَت سورةُ الفتحِ كانَ النبيُّ ﷺ يَعلَمُ يقينًا أنَّ أجلَهُ قدِ اقتَرَب.

وروى البخاريُّ ومُسلمٌ من حديثِ فاطمةَ رضيَ اللّهُ عنها، قالت: أَسَرَّ لي النبيُّ ﷺ: إنَّ جبريلَ كانَ يُعارِضُني بالقرآنِ كلَّ سنةٍ، وإنَّهُ عارَضَني العامَ مرَّتين، ولا أراهُ إلّا حَضَرَ أجلي!

وروى أحمدُ في مُسنَدِهِ عن مُعاذِ بنِ جَبَلٍ ﷺ قال: لَمّا بَعَثَهُ رسولُ اللّهِ ﷺ إلى اليَمَنِ خَرَجَ معهُ رسولُ اللّهِ ﷺ يُوصِيهِ، ومُعاذٌ راكِبٌ، ورسولُ اللّهِ ﷺ يَمشي تَحتَ راحِلَتِهِ.

فلمَّا فَرَغَ قالَ: يا مُعاذُ، إنَّكَ عَسى أن لا تَلقاني بَعدَ عامي هذا، وَلَعَلَّكَ أن تَمُرَّ بمَسجِدي هذا وقَبري!

فبَكى مُعاذٌ جَزَعًا لِفراقِ رسولِ اللّهِ ﷺ.

ثمَّ التَفَتَ ﷺ فَأقبَلَ بوجهِهِ نحوَ المدينةِ وقال: إنَّ أَوْلى النَّاس بي المُتَّقونَ، مَنْ كانوا وحَيثُ كانوا!

وأخرجَ الدارِميُّ من حديثِ أبي مُوَيْهِبَةَ مولى رسولِ اللّهِ ﷺ قال: قالَ لي رسولُ اللّهِ ﷺ: إني قد أُمِرتُ أن أستغفِرَ لأهلِ البقيعِ، فانطَلِقْ معي.

فانطلقتُ معهُ في جوفِ اللَّيل، فلمَّا وقفَ عليهم قال: السلامُ عليكم يا أهلَ المقابرِ، ليَهْنِكُم ما أصبحتُم فيهِ مما أصبحَ فيهِ النَّاس، لو تَعلَمونَ ما نجاكُمُ اللّهُ منه. أقبلَتِ الفِتنُ كقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ، يتبعُ آخرُها أوّلَها، الآخرةُ أشرُّ من الأولى!

ثـمَّ أقبـلَ علـيَّ فقـالَ: يـا أبـا مُوَيْهِبَـة، إنـي قـد أُوتيـتُ بمفاتيـحِ خزائـنِ الدُّنيـا والخُلـدِ فيهـا ثـمَّ الجنَّـة، فُخُيِّـرتُ بيـن ذلـك وبيـن لقـاءِ ربّـي!

قلـتُ: بأبـي أنـتَ وأمـي، خُـذْ مفاتيـحَ خزائـنِ الدُّنيـا والخُلـدِ فيهـا ثـمَّ الجنَّـة.

قالَ: لا واللهِ يا أبا مُوَيْهِبَة، لقد اخترتُ لقاءَ ربّي!

ثمَّ استغفرَ لأهلِ البقيعِ، ثمَّ انصرفَ.

وأوَّلُ مـا بُـدِئَ بـهِ رسـولُ اللهِ ﷺ مـن مرضِـهِ الـذي مـاتَ فيـه هـو الصُّداع.

أخـرجَ الدَّارمـيُّ مـن حديـثِ عائشـةُ رضـيَ اللهُ عنهـا، قالـتْ: رجـعَ إلـيَّ النبـيُّ ﷺ ذاتَ يـومٍ مـن جنـازةٍ فـي البقيـع، فوجدنـي وأنـا أجـدُ صداعًـا، وأنـا أقـول: وا رأسـاه.

فقال: بل أنا يا عائشةُ، وا رأساه.

ثـمَّ قـال: ومـا ضـركِ لـو مِـتِّ قبلـي، فغسَّـلتكِ، وكفَّنتـكِ، وصلَّيـتُ عليـكِ، ودفنتـكِ؟

فقلـتُ: لكأنّـي بـكَ واللهِ لـو فعلـتَ ذلـك لرجعـتَ إلـى بيتـي فأعرسـتَ فيـه ببعـضِ نسـائِكَ.

فتبسَّم رسولُ اللهِ ﷺ!

ثمَّ بُدِئَ في وجعِهِ الذي ماتَ فيه!

وبَدأَ الوجَعُ يشتدُّ على رسولِ اللهِ ﷺ شيئًا فشيئًا.

وأخـرجَ ابـنُ ماجـه مـن حديـثِ أبـي سـعيدٍ الخـدريِّ ﵁ قـال: دَخَلـتُ علـى النبـيِّ ﷺ وهـو يُوعَـكُ، فوَضَعـتُ يـدي عليـهِ فوجـدتُ حَـرَّةً بيـن يـديَّ فـوقَ اللِّحـاف، فقلـتُ: يـا رسـولَ اللّهِ مـا أشـدَّها عليـك!

قالَ: إنَّا كذلكَ يُضعَّفُ لنا البلاءُ، ويُضعَّفُ لنا الأجر!

وكانَ رسـولُ اللّهِ ﷺ يخـرُجُ إلـى النَّـاس بالرغـمِ مـن كلِّ الوجَـعِ الـذي فيـه.

وأخـرجَ البخـاريُّ والدّارِمـيُّ، واللفـظُ للدّارِمـي، مـن حديـثِ عائشـةَ رضـيَ اللّه عنهـا قالـت: قـالَ النبـيُّ ﷺ: صُبُّـوا علـيَّ سـبعَ قِـرَبٍ مـن سـبعِ آبـارٍ شـتّى، حتَّـى أخـرجَ إلـى النَّـاس فأعهَـدَ إليهـم!

فأقعدنـاهُ فـي مِخضَـبٍ لحفصـةَ، والمِخضَـبُ إنـاءٌ تُغسَـلُ فيـه الثيـاب. فصبَبنـا عليـه المـاءَ صبًّـا، فوجَـدَ راحـةً، فخـرجَ فصعِـدَ المنبـر، فحمـدَ اللّه وأثنـى عليـه، واسـتغفرَ للشـهداءِ مـن أصحـابِ أُحُـدٍ ودعـا لهـم.

وروى البخـاريُّ ومُسـلمٌ مـن حديـثِ عُقبـةَ بـنِ عامـرٍ ﵁ قـال: صعِـدَ النبـيُّ ﷺ المنبـرَ فقـال: إنـي بيـنَ أيديكم فَـرَطٌ، وأنـا عليكم شـهيدٌ، وإنَّ موعدَكـمُ الحـوضُ، وإنـي لأنظُـرُ إليـه مـن مقامـي هـذا، وإنـي لسـتُ أخشـى عليكم أن تُشـرِكوا، ولكنـي أخشـى عليكم الدُّنيـا أن تُنافِسـوها!

قالَ عُقبةُ: فكانت آخِرَ نظرةٍ نظرتُها إلى رسولِ اللّهِ ﷺ.

وأخـرجَ البخـاريُّ فـي لفـظٍ آخـر: قـالَ: صعِـدَ النبـيُّ ﷺ المنبـرَ، وكانَ آخـرَ مجلـسٍ جلَسَـهُ، مُتعطِّفًـا مِلحفـةً علـى منكِبَيْـهِ، قـد عَصَـبَ رأسَـهُ بعِصابـةٍ دَسـمةٍ، فحمـدَ اللّٰه وأثنـى عليـهِ ثـمَّ قـال: أيُّهـا النَّـاس، إلـيَّ!

فثابـوا إليـهِ، ثـمَّ قـالَ: أمّـا بعـد: فـإنَّ هـذا الحـيَّ مـن الأنصـارِ يقلّونَ ويكثـرُ النَّـاس؛ فمـن وُلِّـي شـيئًا مـن أمـةِ محمَّـد ﷺ فاسـتطاعَ أن يضـرَّ فيـه أحـدًا أو ينفـعَ فيـه أحـدًا، فليقبَـلْ مـن مُحسِـنِهم، ويتجـاوَزْ عـن مُسـيئِهم!

وكانَ ممّـا قالـهُ علـى المِنبـرِ يومئـذٍ: إنَّ اللّٰهَ خيَّـرَ عبـدًا بيـنَ الدُّنيـا وبيـنَ مـا عنـدَهُ، فاختـارَ ذلـكَ العبـدُ مـا عنـدَ اللّٰهِ!

فبكـى أبـو بكـرٍ ﷺ، فعجِـبَ الصَّحابـةُ لِبكائِـهِ أن يُخبِـرَ رسـولُ اللّٰهِ ﷺ عـن عبـدٍ خُيِّـرَ!

فكانَ رسولُ اللّٰهِ ﷺ هو المُخَيَّر، وكانَ أبو بكرٍ أعلمَهم!

وفـي لفـظٍ للترمـذيِّ قـال: قـالَ أبـو بكـرٍ: بـل نفديـكَ بآبائِنـا وأموالِنـا!

فقـالَ رسـولُ اللّٰهِ ﷺ: إنَّ مـن أمَـنِّ النَّـاس علـيَّ فـي صحبتـهِ ومالـهِ أبـو بكـرٍ، ولـو كنـتُ متخـذًا خليـلاً غيـرَ ربـي لاتخـذتُ أبـا بكـرٍ، ولكـن أخـوَّةُ الإسـلامِ ومودَّتُـه. لا يُبقَيَـنَّ فـي المسـجدِ بـابٌ إلّا سُـدَّ، إلّا بـابَ أبـي بكـرٍ!

وكانَ النبـيُّ ﷺ، برغـمِ مـا بـهِ مـن شـدَّةِ المـرضِ، حريصًـا علـى عقيـدةِ هـذه الأمّـة.

أخـرجَ مسـلمٌ مـن حديثِ جابـرٍ رضي الله عنه قـال: سـمِعتُ النبـيَّ ﷺ قبـلَ موتِـهِ بثلاثـةِ أيـامٍ يقـول: لا يموتَـنَّ أحدُكم إلّا وهـو يُحسِـنُ بـاللّٰهِ الظنَّ!

وروى البخـاريُّ ومسـلمٌ مـن حديـثِ عائشـةَ وابـن عبَّـاس، قـالا: لمـا نـزَلَ برسـولِ اللّٰهِ ﷺ، طَفِـقَ يَطـرَحُ خميصَـةً لـه علـى وجهـهِ، فـإذا اغتَمَّ بهـا كشـفَها عـن وجهـهِ، فقـالَ وهـو كذلـكَ: لعنـةُ اللّٰهِ علـى اليهـودِ والنصـارى؛ اتَّخـذوا قبـورَ أنبيائِهـم مسـاجدَ!

يحذِّرُ ما صَنَعوا.

وكانـت عائشـةُ رضـيَ اللّٰهُ عنهـا أحـبَّ أزواجِ النبـيِّ ﷺ إلـى قلبـهِ، والمـرءُ إذا نـزَلَ بـهِ الوجَـعُ فَـزِعَ إلـى حبيبـهِ، فـكانَ ﷺ يرغَـبُ أن يُمـرَّضَ فـي بيـتِ عائشـةَ. فجعَـلَ يقـولُ: أيـنَ أنـا غـدًا؟ أيـنَ أنـا غـدًا؟

يريدُ يومَ عائشةَ. فأذِنَ له أزواجُهُ أن يكونَ حيثُ شاءَ.

وروى أبـو داود أنَّ رسـولَ اللّٰهِ ﷺ بعـثَ إلـى النسـاءِ فاجتمعـنَ، فقـالَ: إنـي لا أسـتطيعُ أن أدورَ بينكـنَّ، فـإن رأيتُـنَّ أن تـأذَنَّ لـي فأكونَ عنـدَ عائشـةَ فعلتُـنَّ!

فأذِنَّ له.

وروى مسلمٌ والبخاريُّ من حديث عائشة، قالت: كانَ النبيُّ ﷺ يَنفُثُ على نفسِهِ في المرضِ الذي ماتَ فيه بالمعوِّذات، فلمَّا ثَقُلَ كنتُ أنفُثُ عليهِ بهِنَّ، وأَمسَحُ بيدِ نفسِهِ لِبركتِها.

وأخرجَ البخاريُّ من حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: قالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ: يا عائشةُ، ما أزالُ أجِدُ ألمَ الطعامِ الذي أكلتُ بخَيبرَ، فهذا أوانُ وجدتُ انقطاعَ أبهري من ذلك السمِّ!

روى البخاريُّ ومسلمٌ من حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: دعا النبيُّ ﷺ فاطمةَ ابنتَهُ في شكوَاهُ الذي قُبِضَ فيه، فَسارَّهَا بشيءٍ فبكَت، ثمَّ دعاها فَسارَّهَا فضَحِكَت.

فسألتُها عن ذلك، فقالت: سارَّني النبيُّ ﷺ أنَّه يُقبَضُ في وجَعِهِ الذي تُوُفِّيَ فيه فبكيتُ، ثمَّ سارَّني فأخبرني أني أوَّلُ أهلِ بيتِهِ أتبَعُهُ، فضحكتُ!

وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يؤُمُّ النَّاس رغمَ مرضِهِ، فلمَّا اشتدَّ عليهِ المرضُ ولم يَعُد يقدِرُ على الخروجِ إلى المسجد، أمرَ أبا بكرٍ رضي الله عنه أن يُصَلِّيَ مكانَهُ بالنَّاس.

روى البخاريُّ من حديثِ عُبيدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عُتبةَ قال: دخلتُ على عائشةَ رضيَ اللهُ عنها فقلتُ: ألا تحدثيني عن مرضِ رسولِ اللهِ ﷺ؟

قالت: بلى. ثَقُلَ النبيُّ ﷺ فقال: أصلّى النَّاس؟

قلنا: لا، هم ينتظرونكَ.

قال: ضعوا لي ماءً في المِخضب.

قالت: ففعلنا، فاغتسلَ، فذهبَ لِيَنُوءَ فأُغميَ عليهِ، ثمَّ أفاقَ، فقال ﷺ: أصلّى النَّاس؟

قلنا: لا، هم ينتظرونكَ يا رسولَ اللّه.

قال: ضعوا لي ماءً في المِخضب.

قالت: فقعدَ فاغتسلَ، ثمَّ ذهبَ لِيَنُوءَ فأُغميَ عليهِ، ثمَّ أفاقَ، فقال: أصلّى النَّاس؟

قلنا: لا، هم ينتظرونكَ يا رسولَ اللّه.

فقال: ضعوا لي ماءً في المِخضب.

فقعدَ فاغتسلَ، ثمَّ ذهبَ لِيَنُوءَ فأُغميَ عليهِ، ثمَّ أفاقَ فقال: أصلّى النَّاس؟

فقلنا: لا، هم ينتظرونكَ يا رسولَ اللّه، والنَّاس عُكوفٌ في المسجدِ ينتظرونَ النبيَّ ﷺ لصلاةِ العشاءِ الآخرة.

فأرسلَ النبيُّ ﷺ إلى أبي بكرٍ بأن يصلّيَ بالنَّاس، فأتاهُ الرسولُ فقال: إنّ رسولَ اللّهِ ﷺ يأمركَ أن تصلّيَ بالنَّاس.

فقال أبو بكرٍ، وكان رجلًا رقيقًا: يا عُمرُ صلِّ بالنَّاس.

فقال له عمرُ: أنت أحقُّ بذلك.

فصلّى أبو بكرٍ تلك الأيامَ.

ثمَّ إنّ النبيَّ ﷺ وجدَ من نفسِهِ خِفّةً، فخرجَ بينَ رجلينِ، أحدُهما العباسُ، لصلاةِ الظهرِ، وأبو بكرٍ يصلّي بالنَّاس.

فلمَّا رآهُ أبو بكرٍ ذهبَ ليتأخرَ، فأومأ إليهِ النبيُّ ﷺ ألّا يتأخر.

قال: أجلساني إلى جنبِهِ.

فأجلساهُ إلى جنبِ أبي بكرٍ.

فجعلَ أبو بكرٍ يصلّي وهو يأتَمُّ بصلاةِ النبيِّ ﷺ، والنَّاس بصلاةِ أبي بكرٍ، والنبيُّ ﷺ قاعدٌ.

قال عُبيدُ اللّهِ: فدخلتُ على عبدِ اللّهِ بنِ عباس رضيَ اللّه عنهما فقلتُ له: ألا أعرِضُ عليكَ ما حدّثتني عائشةُ عن مرضِ النبيِّ ﷺ؟

قال: هاتِ.

فعرضتُ عليهِ حديثَها، فما أنكرَ منه شيئًا غيرَ أنه قال: أسمّتْ لكَ الرجلَ الذي كان مع العباسِ؟

قلتُ: لا.

قال: هو عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ.

وروى البخاريُّ من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ قال: إنَّ المسلمينَ بيْنَما هم في الفجرِ يومَ الاثنينِ، وأبو بكرٍ ﷺ يصلّي بهم، إذ فاجأهمُ النبيُّ ﷺ قد كشفَ سِترَ حجرةِ عائشةَ رضيَ اللّه عنها، فنظرَ إليهم وهم صفوفٌ، فتبسَّمَ يضحكُ.

فنكصَ أبو بكرٍ ﷺ على عقبيهِ، وظنَّ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ يريدُ أن يخرجَ إلى الصَّلاة، وهمَّ المسلمونَ أن يفتتنوا في صلاتِهم فرحًا بالنبيِّ ﷺ حينَ رأَوهُ.

فأشارَ بيدِهِ: أن أتمّوا.

ثمَّ دخلَ الحجرةَ وأرخى السِّترَ.

وروى البخاريُّ في الأدبِ المفردِ من حديثِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللّٰه عنهما: أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ ﵁ عنه خرجَ من عندِ رسولِ اللّٰهِ ﷺ في وجعِهِ الذي تُوفِّيَ به، فقال النَّاس: يا أبا الحسنِ، كيفَ أصبحَ رسولُ اللّٰه ﷺ؟

قال: أصبحَ بحمدِ اللّٰهِ بارئًا.

قال: فأخذَ العبّاسُ بن عبدِ المطلبِ بيدِهِ فقال: أرأيتَكَ؟ فأنتَ واللّٰهِ بعَد ثلاثٍ عبدُ العصا، وإنّي واللّٰهِ لأرى رسولَ اللّٰهِ ﷺ سوفَ يُتَوَفَّى في مرضِهِ هذا؛ إنّي أعرفُ وجوهَ بني عبدِ المطلبِ عند الموتِ.

فاذهبْ بنا إلى رسولِ اللّٰهِ ﷺ فلنسألْه: فيمَن هذا الأمرُ؟ فإن كان فينا عَلِمْنا ذلك، وإن كان في غيرِنا كلَّمناهُ فأوصى بنا

فقال عليٌّ ﵁: إنّا واللّٰهِ، إن سألناهُ فمنعَناها، لا يُعطيها النَّاس بعدَه أبدًا. وإنّي واللّٰهِ لا أسألُها رسولَ اللّٰهِ ﷺ أبدًا!

ولما ثَقُلَ النبيُّ ﷺ جعلَ يتغشّاهُ الكَرَب، فقالت فاطمةُ رضيَ اللّٰه عنها: وا كَرْبَ أبتاه!

فقال ﷺ: ليسَ على أبيكِ كَرْبٌ بعدَ اليوم!

روى البُخاريُّ من حديثِ عائشةَ رضيَ اللّٰهُ عنها، قالتْ: دَخَلَ علَيَّ عبدُ الرَّحمنِ بن أبي بكر وبيدِهِ السِّواكُ، وأنا مُسْنِدَةٌ رسولَ اللّٰهِ ﷺ، فَرَأَيْتُه يَنظُرُ إليه، وعَرَفْتُ أنَّهُ يُحِبُّ السِّواكَ، فقلتُ: آخُذُهُ لَك؟

فأشارَ برأسِهِ: أنْ نَعَمْ.

فَتَناوَلْتُهُ، فاشتدَّ عليه،

وقُلتُ: أُلَيِّنُهُ لَك؟

فأشارَ برأسِهِ: أنْ نَعَمْ.

فَلَيَّنْتُهُ، فأمَرَهُ، وبينَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ، أو عُلْبَةٌ فيها ماءٌ، فجعلَ يُدخِلُ يَدَيْهِ في الماءِ، فيَمْسَحُ بهما وجهَهُ، ويقولُ: لا إلهَ إلَّا اللّٰه، إنَّ للموتِ سَكَراتٍ!

روى البُخاريُّ من حديثِ عائشةَ رضيَ اللّٰهُ عنها، قالتْ: كانَ رسولُ اللّٰهِ ﷺ يقولُ وهو صَحيحٌ: إنَّهُ لَمْ يُقبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حتَّى يَرَى مَقعَدَهُ مِنَ الجنَّة، ثمَّ يُخَيَّرُ.

فلمَّا نَزَلَ به، ورأسُهُ على فَخِذي، غُشِيَ عليهِ ساعةً، ثمَّ أفاقَ، فأشخَصَ بصرَهُ إلى السَّقفِ، ثمَّ قال:

اللهمَّ الرَّفِيقَ الأعْلى.

فقلتُ: إذًا لا يختارُنا، وعَرَفتُ أنَّهُ الحَديثُ الَّذي كانَ يُحَدِّثُنا به.

قالتْ: فكانتْ تلكَ آخرَ كلمةٍ تكلَّمَ بها النبيُّ ﷺ: اللهمَّ الرَّفِيقَ الأعْلى.

روى أحمدُ من حديثِ عائشة رضي اللّٰه عنها، قالتْ: فبينما رأسُهُ ﷺ ذاتَ يومٍ على مِنكبي، إذ مالَ رأسُهُ نحوَ رأسي، فظنَنْتُ أنَّهُ يريدُ من رأسي حاجةً، فخرجَتْ من فيه نُطفةٌ باردةٌ، فوقعتْ

علـى ثُغـرةِ نَحـري، فاقشـعرَّ لهـا جلـدي، فظننـتُ أنّـه غُشِـيَ عليـه، فسـجَّيتُهُ ثوبًـا!

وفي روايةٍ: فلمَّا خرجتْ نفسُه ﷺ لمْ أجِدْ ريحاً أطيبَ منها!

روى البخـاريُّ مـن حديثِ عائشـةَ رضـيَ اللّه عنهـا، قالـتْ: فقَبَضَـهُ اللّه بيـَن نَحـري وسَـحْري، أي بيـنَ عُنُقـي وصَـدري، وخَالَـطَ رِيقُـهُ رِيقِـي!

وفـي روايـةِ أحمـد، مـن حديـثِ عائشـة، أنَّهـا بعـد أن سـجَّت النَّبـيَّ ﷺ، قالـتْ:

فجـاء عمـرُ والمُغيـرةُ بـنُ شُـعبةَ فاسـتأذنا، فأذنـتُ لهمـا، وجذبْـتُ الحجـابَ، فنظـرَ عمـرُ إليـه، فقـال: واغَشْـيَاه! مـا أشـدَّ غَشْـيَ رسـولِ اللّهِ ﷺ!

ثمَّ قام.

فلمَّا دَنَوَا من البابِ قال المُغيرةُ لعمرَ: ماتَ رسولُ اللّهِ ﷺ!

قال: كذبتَ، بل أنتَ رجلٌ تَحُوسُكَ فِتنةٌ!

إنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ لا يموتُ حتَّى يُفنيَ اللّهُ المنافقينَ.

وروى البخـاريُّ: عـن عائشـةَ رضـيَ اللّهُ عنهـا، قالـتْ: إنَّ أبـا بكـرٍ ﷺ أقبـلَ علـى فَـرَسٍ مـن مَسـكنِه بالسُّـنْح، حتَّـى نـزلَ فدخـلَ المسـجدَ، فلـم يُكَلِّـمِ النَّـاس، حتَّـى دخـلَ علـيَّ.

فتيمَّمَ رسولَ اللّهِ ﷺ وهو مُغَشّى بثوبِ حِبَرَة، فكشفَ عن وجهِه، ثمَّ أكبَّ عليه فقبَّلَهُ وبكى، وقال: بأبي أنتَ وأمّي، واللّهِ! لا يَجمَعُ اللّه عليكَ موتَتَيْن، أمَّا الموتةُ التي كُتِبَت عليكَ فقدْ مِتَّها!

وفي فتحِ الباري لابنِ حجرَ: قالَ الزُّهريُّ: حدَّثني أبو سلمةَ، عن عبدِ اللّهِ بنِ عبّاسٍ رضيَ اللّه عنهما: أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه خرجَ، وعمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله عنه يُكلِّمُ النَّاس، فقال لهُ: اجلسْ يا عمرُ!

فأبَى عمرُ أنْ يجلسَ.

فأقبلَ النَّاس إلى أبي بكرٍ وتركوا عمرَ.

فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: أمّا بعدُ، فمَن كان منكم يعبُدُ محمَّدا ﷺ فإنَّ محمَّدا قدْ مات،

ومَن كان منكم يعبُدُ اللّهَ، فإنَّ اللّهَ حيٌّ لا يموتُ.

ثمَّ تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...﴾

قال ابنُ عبّاسٍ رضيَ اللّه عنهما: واللّهِ! لكأنَّ النَّاس لم يعلموا أنَّ اللّه أنزلَ هذه الآيةَ حتَّى تلاها أبو بكرٍ، فتَلَقّاها النَّاس كلُّهم منهُ، فما أسمعُ بشرًا من النَّاس إلّا يتلوها.

قال سعيدُ بنُ المسيَّب: فقال عمرُ رضي الله عنه: واللّهِ! ما هو إلّا أنْ سمعتُ أبا بكرٍ تلاها، فعقرتُ؛ حتَّى ما تُقِلُّني رِجلَايَ، وحتَّى أهويتُ إلى الأرضِ حين سمعتُه يقرأها، علمتُ أنَّ النبيَّ ﷺ قد مات.

وروى أبـو داود مـن حدّيـثِ عائشـةَ رضـيَ اللّهُ عنهـا، قالـتْ: لمّـا أرادوا غسـلَ النبـيِّ ﷺ، قالـوا: لا نـدري، أَنُجَـرِّدُ رسـولَ اللّهِ ﷺ مـن ثيابِـهِ كمـا نجـرِّدُ موتانـا؟ أم نغسِـلُهُ وعليـهِ ثيابُـه؟

فلمَّا اختلَفوا، ألْقى اللّهُ عليهمُ النومَ،

حتَّى ما منهم رجلٌ إلّا وذَقْنُهُ في صدرِه.

ثـمَّ كلَّمهـم مُكلِّـمٌ مـن ناحيـةِ البيـتِ، لا يـدرونَ مَـن هـو، فقـال: اغسِـلوا النبـيَّ ﷺ وعليـهِ ثيابُـهُ.

فقامـوا فغسَّـلوهُ وعليـهِ قميصُـه، يصبُّـون المـاءَ فـوقَ القميـصِ، ويَدْلِكونَـهُ بالقَميـص!

وروى أحمدُ في مسنده من حديثِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللّهُ عنهما، قـال: لمّـا أجمـعَ القـومُ لغُسـلِ رسـولِ اللّهِ ﷺ، وليـس فـي البيـتِ إلّا أهلُه:

عمّـهُ العبّـاسُ بـنُ عبـدِ المطلـب، وعلـيُّ بـنُ أبـي طالـب، والفضـلُ بـنُ العبّـاس، وقُثَـمُ بـن العبّـاس، وأسـامةُ بـنُ زيـدِ بـنِ حارثـة، وصالـحٌ مـولاهُ.

فلمَّـا أجمعـوا الغُسـلَ، نـادى مـن وراءِ البـاب: أوسُ بـنُ خَوْلـي الأنصـاري، وكان بَدريًّا، علـيَّ بـنَ أبـي طالـبٍ رضي الله عنه، فقـال لـه: يـا علـيُّ! نَشَـدْتُكَ اللّه وحَظَّنـا مـن رسـولِ اللّهِ ﷺ.

فقال لهُ عليٌّ: ادخُل.

فدخلَ، فحضَرَ غُسلَ رسولِ اللّهِ ﷺ، ولم يَلِ من غُسْلِه شيئًا.

قال ابنُ عبّاسٍ: فأسندَه عليٌّ إلى صدرِه، وعليه قميصُه، وكان العبّاسُ والفضلُ وقثمٌ يُقَلِّبونَهُ مع عليِّ بنِ أبي طالب، وكان أسامةُ بنُ زيدٍ وصالحٌ مولاهما يُصَبّانِ الماءَ.

وجعلَ عليٌّ ﵁ يَغسلهُ، ولم يُرَ من رسولِ اللّهِ ﷺ شيءٌ ممّا يُرى من الميّت،

وهو يقول: بأبي أنتَ وأمّي، ما أطيبَكَ حيًّا وميّتًا!

وروى الشَّيخان من حديثِ عائشة رضي اللَّه عنها، قالت: كُفِّنَ رسول اللَّه ﷺ في ثلاثةِ أَثْوَابٍ بيضٍ سَحُوليَّةٍ مِنْ كُرْسُفٍ، لَيْسَ فيهَا قَمِيصٌ وَلا عِمامَةٌ.

ودُفِنَ رسولُ اللّهِ ﷺ لَحْدًا.

ففي مسند أحمد يروى لمّا فرغوا من غُسلِ رسولِ اللّهِ ﷺ وتكفينه:

دعا العبّاسُ ﵁ رجلين، فقال:

ليذهبْ أحدُكما إلى أبي عبيدةَ بنِ الجرّاحِ، وكان أبو عبيدةَ يَضْرَحُ لأهلِ مكَّة، ولْيذهبِ الآخرُ إلى أبي طلحةَ بنِ سهلٍ الأنصاري، وكان أبو طلحةَ يَلْحَدُ لأهلِ المدينة.

قال: ثمَّ قال العبّاسُ لهما حين سَرَّحَهُما:

اللهمَّ خِرْ لرسولكَ.

قال ابنُ عبّاس: فذهبا، فلم يجدْ صاحبُ أبي عبيدةَ أبا عبيدة، ووجدَ صاحبُ أبي طلحةَ أبا طلحةَ، فجاء به، فَلَحَدَ لرسولِ اللّهِ ﷺ.

وصلَّى النَّاس على رسولِ اللّهِ ﷺ أفرادًا، ليس لهم إمامٌ!

وروى ابنُ سعدٍ، وابنُ ماجه، وأبو يعلى عن ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللّه عنهما قال: لمّا فُرِغَ من جهازِ رسولِ اللّهِ ﷺ يومَ الثلاثاء، وُضِعَ على سريرِه في بيتِه.

وقد كان المسلمونَ اختلَفوا في دفنه، فقال قائلٌ: ندفنه مع أصحابِه بالبقيع.

وقال قائلٌ: ادفنوه في مسجدِه.

فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقول: ما قُبِضَ نبيٌّ إلّا دُفِنَ حيثُ يُقبَضُ.

فرفعوا فراشَ رسولِ اللّهِ ﷺ الذي تُوفيَ عليه،

فحفروا لهُ تحتهُ.

وروى البخاريُّ من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، قال: فلمَّا دُفِنَ رسولُ اللّهِ ﷺ، مررتُ بمنزلِ فاطمةَ رضيَ اللّهُ عنها، فقالتْ: يا أَنَسُ، أَطَابَتْ أنفُسُكم أنْ تَحثُوا على رسولِ اللّهِ ﷺ التُّرابَ؟!

وروى الترمذي، وابنُ ماجه، وأحمدُ من حديثِ أنسٍ رضي الله عنه، قال: لما كان اليومُ الذي دخلَ فيه رسولُ اللّهِ ﷺ المدينةَ، أضاءَ منها كلُّ شيءٍ.

فلمَّا كان اليومُ الذي ماتَ فيه، أظلمَ منها كلُّ شيءٍ.

وما نفضنا عن النبيِّ ﷺ الأيديَ، حتَّى أنكرنا قلوبَنَا!

هكذا انطوى آخرُ فجرٍ أطلَّ على وجه النَّبيِّ الكريم ﷺ!

وهكذا أغلقتِ السَّماءُ آخرَ نافذةٍ كانت تُطلُّ على الأرضِ بنورٍ يمشي عليها. سكنَ الصوتُ الذي كانتِ الكائناتُ تُصغي له، وغابَ الوجهُ الذي كانتِ الأرواحُ تستدلُّ بهِ على الحياة.

مـا كان الفقـدُ فقـدَ جسـدٍ، ولكنَّـهُ فقـدُ روحِ الدُّنيـا، وانطفـاءُ السـراجِ الـذي مـا وُقِـدَ إلّا ليُضـيءَ للبشـرِ طريـقَ ربِّهـم.

ذرفت المدينـةُ دمعَها، وانحنى نخيلُها وجدرانُها، فساكنُها الّذي كانَ يملأُها أمانًا، صار يسكنُ في جوفِ الثرى، والسَّماء وحدَها تعلمُ قدرَ هذا البكاءِ!

أيُّ قلبٍ ذاكَ الّذي استطاعَ أنْ يهيلَ الترابَ على مَن بُعِثَ رحمةً للعالمين؟
وأيُّ فراقٍ هذا؟
فراقٌ لم تعرفِ الأرضُ مثلَه، ولن تعرفَ.

ولكنَّ الرسالةَ لم تُدفَنْ، والوحيَ لم يُوارَ تحتَ الحجارةِ، ومدينتَهُ وإنْ فقدتْ جسدَه، فقد ورثتْ نورَهُ، واحتفظتْ بآثارِ خطاه.

رحلَ النبيُّ ﷺ... لكنْ بقي الإسلامُ، وبقي القرآنُ، وبقيتِ المحبّةُ في الصدورِ لا يمحوها موتٌ ولا يغلبُها زمانٌ.
وإنْ غابَ الجسدُ تحتَ الثرى، فالأرواحُ الطاهرةُ لا تُغَيِّبُها القبورُ؛ بل تسكنُ في القلبِ ما دامَ نابضًا بالشهادةِ: محمَّد رسولُ اللّه.

خاتمة:

هكذا تَنْتَهي صَفَحاتُ هذا الكِتابِ، لكنَّ السِّيرَةَ لا تَنْتَهي؛ فهِيَ لَيْسَتْ قِصَّةً تُروى، ولا أَحْداثًا تَبْقى حَبيسَةَ الوَرَقِ والأَقْلام، بَلْ نُورٌ يَتَدَفَّقُ في العُروقِ، ودَرْبٌ يَسيرُ بالقلوبِ إلى اللّٰهِ عزَّ وجلَّ.

مَرَرْنا مَعًا على تاريخٍ لَيْسَ كتاريخِ النَّاس، وعلى حياةٍ لَيْسَتْ كالحَيَواتِ: مِنْ مَوْلِدِ النُّورِ في مكَّة، إلى اكْتِمالِ الرِّسالَةِ في المَدينَةِ؛ ثَلاثٌ وعِشْرونَ سَنَةً، ولكنَّها عُمْرُ الدُّنيا كُلِّها.

تَغَيَّرَ فيها وَجْهُ العالَمِ، وانْتَقَلَتِ البَشَرِيَّةُ مِنْ ظُلُماتِ الجَهْلِ إلى بَصائِرِ الهِدايَةِ، ومِنْ عِبادَةِ العِبادِ إلى عِبادَةِ رَبِّ العِبادِ.

عَلَّمَنا رسولُ اللّٰهِ ﷺ أَنَّ الإيمانَ لَيْسَ كلِّماتٍ تُقالُ، بَلْ عَمَلٌ وصَبْرٌ وَجِهادٌ، وَرِحْلَةٌ طَويلَةٌ لا تَعْرِفُ التَّوَقُّفَ. وَأَنَّ الدُّروسَ الَّتي خَلَّفَها ما صُنِعَتْ لِتُحفَظَ فِي الذَّاكِرَةِ فَحَسْبُ، بَلْ لِتَسري فِي واقِعِنا، وَتُشَكِّلَ حَياتَنا، وَتُعيدَ بِنْاءَ الإنسانِ فِينا.

فَإِنْ كانَ ﷺ قَدْ رَحَلَ عَنِ الأَرْضِ، فَمَنهَجُهُ ما زالَ قائِمًا، وَسُنَّتُهُ بَيْنَ أَيْدينا، وَرِسالَتُهُ أمانَةٌ نُحاسَبُ عَلَيْها.

إِنَّ السِّيرَةَ، كما شَهِدْنا، واقِعٌ يُعاشُ لا تاريخٌ يُقرَأُ، وَكُلُّ فَصْلٍ مِنْ حَياتِهِ ﷺ يُنادينا لِنُواصِلَ الطَّريقَ: طَريقَ الصِّدقِ، وَالعَدْلِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالنُّورِ الَّذي لا يَخْبو.

نَسْأَلُ اللّٰهَ العَظيمَ أَنْ يَجْعَلَ لَنا فِي سِيرَةِ نَبِيِّهِ ﷺ زادًا لا يَنْفَدُ، وَأَنْ يَجْمَعَنا بِهِ عِنْدَ الحَوْضِ، وَتَحْتَ لِوائِهِ، وَفِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى.

وَالْحَمْدُ للّٰهِ رَبِّ العالَمينَ، وَصَلَّى اللّٰهُ على سَيِّدِنا محمَّد، وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعينَ.

الفهرس